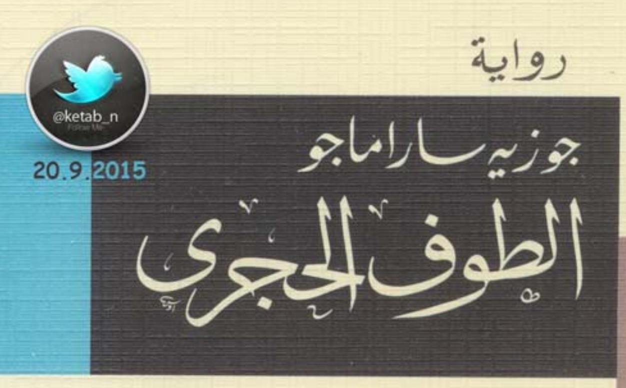
الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز




رواية




جوزيه ساراماجو

# الطوف الحجري

ترجمة وتقديم : دكتور طلعت شاهين

# الطوف الحجرى

## جوزيه ساراماجو

رواية

ترجمة وتقديم : دكتور طلعت شاهين



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

ساراماجو، جوزيه.

الطوف الحجرى/ لجوزيه ساراماجو ؛ ترجمة ونقديم: طلعت شاهين. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧ ..

٤٨٠ص ؛٢٢ سم . ـ (سلسلة جوائز).

تدمك ٩ ٠٥١ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص البرتغالية .

(أ) شاهين، طلعت (مترجم ومقدم) .

(ب) ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٤٦٧ / ٢٠٠٧

I.S.B.N- 978- 977 - 420- 051 - 9

ديوى ٨٦٩,٣

● الكتاب: الطوف الحجرى La balsa de piedra

● الكاتب: جوزيه ساراماجو José saramago

● ترجمة: دكتور طلعت شاهين

● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.



● الطبعة الأولى ٢٠٠٧.

● طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

# «سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على

جودته لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

**د. ناصر الأنصارى**

# تقديم

الكاتب البرتغالى "جوزيه ساراماجو" البالغ من العمر ٨٥ عاماً لا يعتبر كاتباً عادياً صنعته ثقافة مجتمعه من خلال مؤسساتها التعليمية، ولا من أولئك الكتاب الذين يعيشون فى أبراجهم العاجية فى انتظار أن تصل أعمالهم إلى قراء يجهلونهم، بل هو كاتب عصامى، نشأ فى أسرة من الرعاة الأميين، لم يساعده فقره المادى على الاستمرار فى التعليم التقليدى، وفقد الطريق إلى التعليم الجامعى، فقرر أن يثقف نفسه بنفسه.

بل إنه فى تثقيفه لنفسه بدأ ذلك فى وقت متأخر، فقد كان أول كتاب اشتراه فى حياته فى عمر التاسعة عشرة، وبدأ أولى كتاباته الإبداعية عندما تعدى الخامسة والعشرين ليصمت بعدها عن الكتابة لفترة ليست بالقليل؛، لأنه كان مقتنعاً فى ذلك الوقت بأنه لا شىء لديه يقوله للقراء، ولم يعد إلى ممارسة

الكتابة حتى بلغ الأربعين من العمر، لذلك يقول إنه لو مات فى الستين من عمره، من المؤكد أنه ما كان سيترك شيئاً ذا قيمة فى الأدب البرتغالى، وما كان للتاريخ أن يذكره، وما كان له أن يتمتع بالحصول على جائزة نوبل؛ والشهرة والراحة المادية التى تحققهما هذه الجائزة، والتى سعت إليه وهو فى الخامسة والسبعين، لكنه يؤكد أن كل ما كتبه منذ ذلك الوقت كان من منطلق الالتزام المطلق تجاه قناعاته الخاصة.

لذلك يعتبر جوزيه ساراماجو كاتباً ملتزماً، لم يقدم مطلقاً أى تنازل أخلاقى أو سياسى ليضمن رضاء السلطة السياسية أو الدينية عنه، ويرى أن حرية الفكر والتعاطى معها تؤدى إلى نوع من التوازن العقلى، ذلك التوازن الذى يسمح له بالتفكير الصحيح فى قضايا المجتمع والعالم الذى يعيش فيه، من هنا فإن هجره لوطنه عام ١٩٩٣ وإقامته الدائمة بجزيرة "لنثاروتى"، إحدى جزر الكنارى الإسبانية، كانت نتيجة غضبه من قرار وزارة الثقافة والتعليم فى بلاده، منع روايته "إنجيل المسيح" من التداول فى المدارس والجامعات البرتغالية، وأيضاً كانت السبب فى الانتقادات التى وجهها الفاتيكان للجنة جائزة نوبل لأنها منحت الجائزة لكاتب متمرد على الكنيسة الكاثوليكية.

رد جوزيه ساراماجو على انتقادات الفاتيكان بتهكمه المعهود فى أول لقاء صحفى مع وسائل الإعلام عقده فى مقر دار نشر "الفاجوارا" بمدريد، وقال: "لا

أعرف معنى الكلمة التى وصمنى الفاتيكان بها ليعلن عن معارضته لحصولى على جائزة نوبل، لذلك أقول للفاتيكان عليه أن يتفرغ لصلواته ويترك الآخرين يعيشون فى سلام".

وكثيراً ما أعلن الكاتب أنه لا يعتنق المسيحية بشكلها التقليدى الذى تحاول الكنيسة فرضه، مؤكداً احترامه لكل الذين يعتنقونها، ولكنه يؤكد دائماً أنه لا يكنّ هذا الاحترام للسلك الكنسى؛ لأن المسيحية تدعو إلى محبة الآخرين، وهو لا يستطيع، لا يرغب فى حب جميع الناس، بل يكنّ الاحترام لجميع الناس، ويقصر حبه على بعضهم فقط".

أيضاً إصراره على أنه لا يزال يحمل الفكر الاشتراكى رغم سقوط نموذجه السياسى فى الاتحاد السوفيتى السابق ودول أوروبا الشرقية، لأنه يرى أن قيام أو سقوط النظام السياسى النموذج لذلك الفكر لا يعنى انتهاء هذا الفكر، لأن الاشتراكية- فى رأيه- قبل أن تكون نظاماً سياسياً أو اجتماعياً فهى حالة روحية، ويرى أن الرأسمالية بوضعها الحالى وتطبيقاتها غير قادرة على تقديم حلول حقيقية لبؤس العالم، لذلك فإن الاشتراكية لم ينته دورها كما يعتقد البعض.

الكتابة عند ساراماجو تعتبر نوعاً من تحقيق الوجود، وأيضاً تمثل الكتابة بالنسبة له طريقاً لكسب حب الآخرين، وإن كان البعض يعتبره كاتباً متشائماً

رغم إعلانه دائماً بأنه سعيد ومتفائل، ويشرح هذا التناقض بقوله إنه بالفعل متشائم مما يراه من حوله من أحداث مأساوية، لكنه يحاول أن يؤكد للآخرين أنه سعيد حتى لا يجد نفسه مطالباً بأن يتحدث عن أشياء أخرى تنقصه لتحقيق السعادة الكاملة، أو على الأقل السعادة بالمعنى الذى يفهمه هو شخصياً.

لم يأت الأدب الذى يكتبه جوزيه ساراماجو من فراغ، بل هو أدب يعتمد على تراث طويل مكتوب فى اللغة البرتغالية، منذ تلك الكتابات التى يصنفها النقاد تحت اسم "الغنائية الجالايكو-برتغالية"، التى سادت فى القرون الوسطى من خلال الأعمال الأدبية للعديد من الكُتَّاب مثل: لويس دى كاموينز، وجيل فيسنتى، وأنتيرو دى كينتال، وكاستيلو بلانكو، وأيسا دى كيروز، لتصل إلى الأدب البرتغالى المعاصر الذى يعتبر من أبرز ممثليه: فرناندو بيسوا، ومجيل توجرا، وفيرجيليو فيريرا، أو أجوستينا بيسا لويس.

وعند الحديث عن الإنجازات الأدبية فى اللغة البرتغالية، لا يستطيع أحد أن ينسى كتابات مبدعى البرازيل الذين يكتبون بهذه اللغة، وحققوا من خلالها إنجازات مهمة، مثل: ماتشادو دى أسيس، وكارلوس دروموند، وهارولدو دى كامبوس، وجواو كابرال دى ميلو نيتو، أو الروائى الأكثر شهرة عالمياً بين هؤلاء جورج أمادو.

بدأ جوزيه ساراماجو الكتابة الأدبية- كما ذكرنا- فى وقت متأخر من حياته، وكانت روايته

"مانويل بالرسوم والكتابة" الصادرة عام ١٩٧٣ بدايته الحقيقية وطريقه نحو الشهرة؛ لأنها كانت النموذج الحقيقى لرؤيته وأسلوبه الشاعرى فى الكتابة، المعبر عن رؤيته الجمالية أيضاً، وتتضح فى تلك الرواية الخطوط العامة التى تبدأ من الجماعية والتعبير عنها لتنتهى إلى الفردية، وربما ينبع هذا من إحساسه الدائم بأنه كاتب ملتزم بالأدب والقضايا العامة التى يجب أن يتناولها.

ثم جاءت روايته "ثورة الأرض" عام ١٩٧٩ لتكون من أكثر أعماله الأدبية التزاماً بالمجتمع. وتتناول حياة أسرة ريفية منذ بدايات القرن حتى سنوات الستينيات الثورية، لتأتى بعدها رواية "ذكريات الدير" الصادرة عام ١٩٨٢، والتى حققت نجاحاً عالمياً بترجمتها إلى العديد من اللغات.

أما روايته "سنة موت ريكاردو ريس" الصادرة عام ١٩٨٤، فهى تتناول تاريخ العاصمة البرتغالية لشبونة، خلال فترة حكم الدكتاتور "سالازار"، وتأثيرات الحرب الأهلية الإسبانية على المجتمع البرتغالى، والتى اعتبرها النقاد نوعاً من التكريم لأعمال الكتاب البرتغالى الكبير فرناندو بيسوا.

ثم كانت روايته "الطوف الحجرى" الصادرة عام ١٩٨٦، التى نقدم ترجمتها الكاملة هنا، لتؤكد على توجهه إلى خارج الوطن "البرتغال" بحدوده الضيقة، والحديث عن شبه الجزيرة الأيبيرية

(البرتغال وإسبانيا)، ثم الانفتاح على القارة الأوروبية التى بدأت فى تكوين كتلتها السياسية والاجتماعية، والتى تدخل البرتغال فى إطارها بعد خروجها من عزلتها، ليأتى من بعدها كتاب "تاريخ حصار لشبونة" الصادر عام ١٩٩٠، كنوع من تحدى الشعر للرواية، أو عدم الرضاء عن الإنجاز الروائى فى مواجهة اللغة الشاعرية.

ثم تتوالى بعد ذلك سلسلة من الأعمال التى تعتبر تمرداً على الممارسات الشمولية التى تنتهجها بعض المؤسسات الدينية والسياسية، وبشكل خاص الكنيسة الكاثوليكية، فكانت أولها رواية "إنجيل للمسيح" الصادرة عام ١٩٩١، ليأتى من بعدها "بحوث عن العمى" التى يعالج فيها النزعة الفردية، ثم روايته "كل الأسماء" الصادرة عام ١٩٩٧، التى يتناول فيها عالم البيروقراطية والرأسمالية بعد سقوط الاشتراكية الواقعية فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية.

هذا إضافة إلى أعمال أخرى، حيث كتب ساراماجو حوالى عشرين رواية وكتابات شعرية ودراسات أدبية وتاريخية، ويؤكد نقاد أدب ساراماجو باللغة البرتغالية أنه من الصعب وضع حد فاصل بين إبداعه وأفكاره، خاصة تلك التى يعلن من خلالها رأيه فى عالم اليوم، الذى يؤكد أنه يعيش لحظة من أحط لحظات التاريخ البشرى، لذلك يصفه أحدهم بأنه "مقاوم لا يقبل التصنيف"، وأعماله الأدبية تحاول أن

تسبح ضد تيار التدمير عبر التجريد، وحزبه الذى ينتمى إليه فكرياً، "حزب الرافضين للرؤية أو الإحساس عبر الآخرين، حزب الفرد الذى يرى ويشعر عبر رؤيته الخاصة"، ومن هنا تنبع أهمية كتابيه "بحوث عن العمى" و"كل الأسماء".

وإذا كان هناك من يتساءل عن وضعية جوزيه ساراماجو: هل هو كاتب مبدع أم مناضل؟، فإنه يمكن العودة إلى ما قاله ألبير كامى: "ليس النضال هو الذى يدفعنا إلى أن نكون فنانين، بل إنه الفن الذى يفرض علينا أن نكون مناضلين"، وساراماجو كان فتى فقيراً عادياً، وعندما قرر أن يكون كاتباً حقيقياً وجد نفسه مدفوعاً إلى أن يكون مناضلاً، لأن الإبداع التزام.

من يعرف هذا الكاتب البرتغالى وقرأ أعماله وتابع نشاطه السياسى والاجتماعى يعرف أن الرجل كان دائماً صادقاً مع نفسه قبل أن يكون صادقاً فى مواجهة الآخرين، لذلك فهو وإن كان يتقبل النقد الأدبى بروح سمحة باعتبار أن للنقاد، بل وللقراء أيضاً، حق النقد، لكنه لا يقبل التشكيك فى رؤيته للعالم التى يعبر عنها من خلال آرائه، حتى لو تعرض للنقد الجارح، وربما من أبرز المواقف التى تعبر عنه ما حدث بعد زيارته للأراضى الفلسطينية المحتلة على أثر مذبحة جنين، التى وصفها بأنها "الجريمة البشعة"، وأنها لا تقل بشاعة عن "أوشفيتز" التى بنت عليها إسرائيل أسطورة وجودها، ورد على منتقديه

وقتها، بأنه يفضل أن يكون ضحية كالفلسطينيين عن أن ينتمى إلى معسكر القتلة بالفعل: إسرائيل، والقتلة بالصمت: الغرب وإعلامه.

كان موقفه هذا قد جاء بعد الزيارة التى قام بها مع عدد من أعضاء "برلمان الكُتاب الدولى" إلى الأراضى الفلسطينية المحتلة ليعلنوا رفضهم للممارسات العنصرية الصهيونية بعد أن راعهم صمت الساسة المريب على كل الأصعدة. لم يكن من بينهم من يعى الحقيقة المرة التى سيواجهونها على أرض الواقع سوى الكاتب الإسبانى "خوان جويتيسولو" الذى كانت زيارته تلك الرابعة، فقد سبقتها زيارات ثلاث مطولة قام بها هذا الكاتب الإسبانى، وأنجز خلالها العديد من البرامج التليفزيونية التى تدين الاحتلال الإسرائيلى، وتكشف حرب "الإبادة" التى يمارسها ضد الشعب الفلسطينى، وأيضاً كتب خلال تلك الزيارات عدداً من الأعمال الصحفية والأدبية، منها مجموعة مقالات فى زيارة له عقب اتفاقات أوسلو، كان لى شرف ترجمتها ونشرها باللغة العربية، صدر جزء منها قبل خمس سنوات فى كتاب بعنوان "دفاتر العنف المقدس".

كانت مفاجأة ما هو على أرض الواقع اليوم فى العاصمة الفلسطينية المحتلة "رام الله" وما حولها من المدن والقرى الفلسطينية المدمرة كبيرة على من كانت تلك زيارتهم الأولى، وجعلت بعضهم يقارن- فى

دهشة- بين ما يراه وما كان يسمعه عن مناطق أخرى فى العالم كانت تعيش أحداثاً مماثلة لما يحدث الآن فى وجودهم وأمام أعينهم، فقد أشار أحدهم من نافذة السيارة التى كانت تقلهم عبر بقايا المدن والقرى الفلسطينية التى دمرتها آلة الحرب الإسرائيلية من دبابات وجرافات على الأرض، وطائرات "أف ١٦" وحوامات "الأباتشى" الأمريكية من السماء، وبتوجيه من أقمار التجسس الصناعية الأمريكية التى توفر لتلك القوات كل المعلومات عن أى تحرك فلسطينى حتى لو كان فردياً، وأقامت على طرقاتها الحواجز العسكرية التى تمنع الاتصال ما بين قرية وأخرى إلا بتصريح خاص، لم يكن الهدف منه أمنياً بقدر ما هو "إذلال الفلسطينى والنيل من كرامته فى محاولة لوضع حد لمقاومته"، حسب تعبير أحد أعضاء الوفد برلمان الكتاب الدولى، فيما أكد آخر أن "هذا مزيج من التبت وبرلين قبل سقوط حائطها الشهير".

مجموعة الكتاب المكونة من ثمانية يمثلون جنسيات وانتماءات عرقية ودينية عديدة، كان بينهم اثنان من الحاصلين على جائزة نوبل للآداب: النيجيرى "وول سونيكا"، والبرتغالى "جوزيه ساراماجو" أول من حصل على جائزة نوبل للآداب من كتاب اللغة البرتغالية، وكان هذا الأخير صامتاً طوال الطريق يراقب ما يحدث حوله من جرائم، ويحاول أن يجد له شبيهاً فى ذاكرته التى شهدت أسوأ ما أبدعته النفس البشرية من تدمير، سواء خلال الحربين

الكبريين فى أوروبا، أو الحروب الأهلية الدائرة فى العديد من بلدان العالم التى زارها للتضامن مع ضحاياها، وكانت آخر هذه الزيارات لمناطق مشتعلة تلك التى قام بها للمكسيك لإعلان تضامنه مع سكان "تشياباس" الهنود الحمر الذين يتعرضون للإبادة هناك، وكانت تلك الزيارة قبل أيام قليلة من زيارته للعاصمة الفلسطينية رام الله، ولم يجد الكاتب البرتغالى شبيهاً فى التاريخ الإنسانى المعاصر لما يحدث فى الأراضى الفلسطينية سوى ما حدث على أيدى النازى خلال الحرب العالمية الثانية، ليس ضد اليهود فقط، بل ضد كل من كان النازى يرى أنه عقبة فى سبيل تحقيق "سمو الجنس الآرى"، حتى أن المصادر التاريخية تؤكد أن ضحايا النازى من "الغجر" يفوق كثيراً عدد ضحايا اليهود فى ما يسمونه "المحرقة".

ولأنه يدرك أن ما يحدث فى الأراضى الفلسطينية المحتلة على أيدى جيش مسلح بأحدث ما يملك البشر من أدوات للتدمير فى هذا العصر لا يمكن التعامل معه على أنه مجرد "مواجهة" بين قوتين؛ لأن المواجهة تكون عادة بين قوتين شبه متعادلتين فى العدد والعدة، بل هى حرب "إبادة" لا يمكن أن يكون لها اسم آخر، فقد قال كلمته التى كانت لا تعنى سوى الحقيقة: "هذه هى المحرقة النازية التى يمارسها الجيش الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى، ورام الله المحاصرة، تذكرنى بمعسكر أوشفيتز النازى".

بهذا التصريح المباغت للإعلام الصهيونى، ليس فى إسرائيل وحدها بل والإعلام التابع والمؤيد للصهيونية فى العالم أجمع، الذى لم يتوقع أن يكون بين أعضاء الوفد من يجرؤ على كسر المحرمات الصهيونية، كان رأى جوزيه ساراماجو خروجا عن نطاق الآراء واللغة الدبلوماسية التى اعتادوا سماعها من "المرتعبين" من مجرد نطق كلمة "المحرقة"، رغم أنها لم تعد تقول شيئاً بعد كل هذه السنوات التى أُستهلك استخدامها من قبل إسرائيل.

هذه الصدمة التى أحدثتها تصريحات ساراماجو فى إسرائيل وبين مؤيديها كشفت عن جهلهم لموقف الرجل، فهو لم يكن يوماً من هؤلاء الذين اعتادوا الابتعاد عن الصدق فى التعبير، لا فى وطنه ولا خارجه، حتى خلال تسلمه لجائزة نوبل كان خطابه من أجرأ الخطابات التى اعتاد جمهور "نوبل" أن يسمعها من الفائزين بها كل عام، والتى لم تكن تخرج عن التعبير عن السعادة بشرف الفوز بها، وتبجيل صاحبها، لذلك فى زيارته للعاصمة الفلسطينية المحاصرة "رام الله" لم يمنع نفسه من التعبير عن رأيه الحقيقى الذى يفكر فيه دون انتظار لمكافأة من أحد، بل كان يعرف أن كل ما سيقوله قد يجلب له المتاعب من قبل وسائل الإعلام التابعة والخاضعة للسيطرة الصهيونية، التى ترى فى كل رأى مخالف "عداء للسامية"، وكأن إسرائيل هى تلك السامية المزعومة، وكما قال كاشفاً حقيقة أخرى لم يجرؤ أوروبى قبله

على البوح بها علناً: "إسرائيل لا ترى موقفاً ثالثاً لأحد، إما الانضمام إلى جوقة المؤيدين إلى السامية طبقاً لتعريفها، أو احتلال مكان العدو للسامية، ذلك السلاح الكاذب الذى يوجهونه إلى مناهضيهم".

عندما قال ساراماجو فى مؤتمر صحفى فى رام الله أن ما يحدث من حوله ليس سوى "أوشفيتز" - معسكر النازى الذى يقول دعاة الصهيونية إن ملايين اليهود ماتوا فيه- حاولت صحفية إسرائيلية ابتزازه قائلة: "لا توجد هنا أفران غاز"، فرد عليها بهدوء: "ما أقوله يتعلق بالفعل وليس بالاسم، وما يحدث هنا يصدر عن روح مماثلة (للنازية) وهذا واضح جداً هنا"، وزاد فى رده بقوله: "إن ما يحدث هنا جريمة ضد الإنسانية، وإذا كانت كلمة "أوشفيتز" تغضب الإسرائيليين فعليهم أن يختاروا كلمة أخرى للتعبير عن ما أراه هنا، وعلى أى حال لن تكون أية كلمة أخرى لوصف ما يحدث هنا أقل بشاعة من وصف المحرقة النازية".

كان ساراماجو يعرف أيضاً أن تصريحاته الناطقة بالحق والحقيقة سوف تثير عليه حرباً تستخدم فيها الصهيونية كل ما تملك من أسلحة دعائية لتشويهه، ولكنه كان جاهزاً للرد، لأنه يعتقد أنه يقول الحق، ولذلك لم يحاول التملص من كلماته أو النكوص عنها، كما حدث من قبل مع الكثير من الساسة والمثقفين، بالتراجع تحت الضغوط من خلال محاولة تقديم

تفسيرات من ذلك النوع الذى يستخدمه السياسيون عندما يؤكدون أن تصريحاتهم "قد أسىء فهمها"، أو "اقتطعت الكلمات من سياقها".

لم تمض ساعات حتى أكد الكاتب البرتغالى فى حوار مع صحيفة "البابيس" الإسبانية بالهاتف أجرته معه الصحيفة وهو لا يزال فى فندقه فى تل أبيب، لعله ينفى أو يتراجع، أو يحاول التملص من كلماته، فما كان منه إلا أن أكد من جديد أن كل كلمة قالها فى اتهامه إسرائيل بممارسة "حرب إبادة" ضد الفلسطينيين كانت تعنى ما تتضمنه، وأنه فكر كثيراً فى هذه الكلمات، واعتنى باختيارها قبل الإدلاء برأيه؛ لأنه ببساطة وصف بدقة ما شاهده على أرض الواقع، وغير مستعد للخضوع لأية ضغوط للتراجع عن ما قاله حرفياً، وأكد أنه إذا كانت إسرائيل لا تريد أن تسمع اسم معسكر النازى "أوشفيتز"، فإنه تعمد "ذكر هذه الكلمة بالتحديد حتى يهتز المجتمع الإسرائيلى من داخله ويطرح نقاشاً حول ممارسات جيشه وحكومته ضد الفلسطينيين، وأن يتخذ ما من شأنه أن يوقف المعاناة التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى حتى لا يتكرر مع الفلسطينيين ما حدث لليهود على أيدى النازى".

أما رواية "الطوف الحجرى" التى نقدم للقارئ ترجمتها الكاملة هنا، فتعكس أيضاً هذه الرؤية الواضحة لهذا الكاتب؛ لأنها جاءت تحديداً بعد انضمام بلاده إلى الاتحاد الأوروبى فى ظل معارضة

من جانب العديد من المتطرفين الغربيين الذين يرون فى البرتغال وإسبانيا عالماً متخلفاً لا يجب أن ينتمى إلى أوروبا، وربما كانت المقولة الأوروبية الشهيرة لبُعض متطرفيها: "أوروبا تنتهى عند جبال البرانس، وما هو جنوبها ينتمى إلى إفريقيا".

يتخيل الكاتب عدداً من الأحداث المتوازية التى لا رابط بينها: انطلاق كلاب قرية فى النباح دون توقف، وموظف برتغالى يقذف حجراً فى مياه المحيط الأطلنطى، ومُعلم مدرسة برتغالية تتبعه الزرازير أينما توجه، وصيدلى إسبانى يشعر باهتزاز الأرض تحت قدميه، وسيدة برتغالية مطلقة ترسم خطاً على الأرض بفرع شجرة دردار، وأرملة جيليقية تفك خيوط جورب صوفى أزرق وتصنع منه تلاً من الخيوط لا ينتهى. إلا أن تلك الأحداث غير المنطقية تؤدى إلى حدث واحد مرعب وهو انفصال شبه الجزيرة الأيبيرية: إسبانيا والبرتغال، عن أوروبا، وتحديداً عند جبال البرانس التى يعتبرها المتطرفون الأوروبيون الحد الجنوبى لقارتهم، وإبحار هذه الكتلة الضخمة من الأرض فى مياه المحيط الأطلنطى دون توقف، وما يترتب على ذلك من آثار جغرافية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

فمَن قذف الحجر إلى مياه المحيط دفعه شعوره بالذنب إلى البحث عن صاحب الزرازير، وتوجها معاً إلى إسبانيا بحثاً عمن يشعر باهتزاز الأرض تحت قدميه، ثم يتوجه ثلاثتهم لمعرفة علاقة أفعالهم بما

حدث لبلادهم، ليلتقوا بالسيدة التى رسمت الخط على الأرض ولا تفهم ما حدث لبلادها، وهكذا تتوالى الأحداث التى تكشف عن الكثير من الفلسفات الحياتية المتقابلة والمتعارضة التى تحدث عادة فى ظل الكوارث الكبرى، وانفصال شبه الجزيرة الأيبيرية واحدة من تلك الكوارث.

تتغير حياة الناس جميعاً، كل تسير حياته فى الاتجاه الذى تدفعه إليه حركة هذا "الطوف الحجرى"، سواء بإبحاره بلا اتجاه معين، أم بدورانه حول نفسه وما قد ينجم عن ذلك من أخطار.

وكعادته يستخدم الكاتب تقنيته المعروفة عنه فى الكتاب، وهى السرد والحوار متداخلات معًا ومما تطلب منا أثناء الترجمة وضع الحوار بين علامتى تنصيص حتى لايختلط الأمر على القارئ. وفق إضافة من المترجم حتى يمكن تسهيل مهمة القراء

إنها عمل عبقرى تطلّب من مؤلفه أن يكون ملماً، ليس بجغرافية الأرض التى حركها من مكانها، بل بتاريخها القديم والحديث، وبالسياسة المعاصرة وجذورها القديمة فى شبه الجزيرة، وأيضاً بالنظريات والحقائق العلمية التى لم يتركها للصدفة أو الخيال لمجرد الخيال.

يأخذ جوزيه ساراماجو القارئ فى "الطوف الحجرى" إلى رحلة متسارعة النبض لا تجعله يتوقف حتى يصل إلى نهايتها، من خلال تقنية روائية أقرب

إلى حكايات "ألف ليلة وليلة"؛ أى الحكاية التى تتولد من الحكاية، وهنا تتنقل الشخصيات بحثاً عن بعضها، لنتعرف على حكاية كل شخصية وعالمها الخاص، الذى سرعان ما يذوب فى حكاية الشخصية التالية، لتذوب جميعاً فى حكاية واحدة من خلال ربط مصائر تلك الشخصيات ببعضها البعض.

**دكتور. طلعت شاهين**

# كل مستقبل هو جميل

«أليخو كاربنتيير»

- ١ -

عندما رسمت جوانا كاردا على الأرض خطاً بعصا من فرع شجرة  دردار، بدأت كلاب ثيربيرى فى النباح، فأشاعت بين سكانها الخوف والرعب، فهناك اعتقاد قديم جداً يقول، إنه عندما تنبح الكلاب التى تعتبر حيوانات خرساء يكون ذلك علامة على نهاية العالم. كيف تشكلت هذه العقيدة المتجذرة، أو هذا الاعتقاد الجازم؟ ذلك أنه فى كثير من الأحيان، تكون الخرافة التعبير الموازى البديل، لا أجد يتذكر ذلك الآن، رغم أننا حالياً نعرف، لحسن الحظ، تلك اللعبة التى تقول إنه نتيجة سماع الحكاية وتكرارها بشكل جديد، فقد كانت الجدات الفرنسيات تسلين أحفادهن بتلك الأساطير المنتشرة فى هذا المكان، بلدة ثيربيرى،

التابعة لمقاطعة "البرانس الشرقية" والتى تقول الخرافة إنه خلال الحقب الإغريقية والأسطورية نبح هناك كلب بثلاث رءوس وكان يدعى ثيربيرو، اعتبره الملاح "كارونتى" منافساً له. ثم حدثت أمور أخرى، لا يعرف أحد أسبابها، منها التحول العضوى الذى مر به هذا الحيوان الشهير ليصل إلى مرحلة الخرس التاريخى، وتحول أحفاده إلى كلاب ذوات رأس واحدة، كنوع من الانحطاط. عند تلك النقطة من الحكاية التى تجاهلها قليلون، وبشكل خاص من كانوا ينتمون إلى الجيل القديم "الكاتثربيرو"، والتى تُكتب فى لغتنا هكذا، ويُقال أيضاً إنه يحرس بوابة جهنم المرعبة؛ حتى لا تهرب منها الأرواح، وبالتالى ربما جرى هذا التحول رحمة بالآلهة المحتضرة، ومن هنا خرست الكلاب المستقبلية فيما تبقى من حياة أبدية، ربما يمكن إخماد ذاكرة هذه المنطقة الجحيمية بهذا الصمت. لكن ما يُرتجى لا يستمر دائماً، وهو ما تعلمناه فى الحقبة المعاصرة، فكان كافياً هذه الأيام أنه على بعد مئات الكيلومترات من ثيربيرى، فى مكان ما فى البرتغال، سنذكّركم باسمه فيما بعد، كان يكفى أن ترسم امرأة اسمها جوانا كاردا خطأ على الأرض بعصا من فرع شجرة دردار، حتى تنطلق كل الكلاب نابحة فى الشارع، تلك، أكرر، التى لم تنبح أبداً من قبل. ولو سأل أحدهم جوانا كاردا، من أين واتتها فكرة أن ترسم بالعصا خطأ على الأرض، وهو عمل أكثر ارتباطاً بالمراهقة المجنونة من أن يكون من صَنع

امرأة عاقلة؟ وعما لو كانت قد فكرت فى نتيجة عمل يبدو بلا معنى مثل هذا، وأولئك، تذكروا هذا، ما نتج عنه الخطر الأكبر، ربما تجيب، "لا أعرف، إن ما دفعنى لذلك، هو أن العصا كانت على الأرض، أخذتها ورسمت الخط"، ولم يخطر على بالها أنها يمكن أن تكون عصا سحرية، "اعتقدتُ أنها أكبر من أن تكون عصا سحرية، وكنت أعرف دائماً أنهم يقولون إن العصا السحرية تكون مصنوعة من الذهب والبلور، ويشع منها الضوء وعلى رأسها نجمة ذات حواف مدببة". "هل كنت تعرفين أنها فرع شجرة دردار؟"، "أعرف أنها عصا من أشجار مجهولة بالنسبة لى، وقيل لى فيما بعد إن العصا يمكن أن تكون من نوع آخر، حتى لو غيَّرنا أسماءها، ولا أى نوع منها له قدرات خارقة للطبيعة، على أية حال أنا متأكدة من أن أى عصا من الفسفور كان يمكنها أن تؤدى إلى النتيجة نفسها"، "لماذا تقولين ذلك؟"، "لأنه ما يجب أن يكون، يجب أن يكون، وله قوة كبرى، ولا يمكن أن يقاومها شىء، أنا سمعت هذا من كبار السن آلاف المرات"، "لكنهم يعتقدون فى سوء الحظ"، "وأنا أعتقد فيما يجب أن يحدث".

ضحكوا كثيراً فى باريس من توسلات العمدة، الذى كان يبدو كما لو كان يهاتفهم من حظيرة كلاب لحظة تقديم الطعام لها، وفقط أمام التضرعات المتكررة لبرلمانى ينتمى إلى الأغلبية، وُلِد ونشأ فى تلك البلدة، وبالتالى يعرف الأسطورة والحكايات المحلية،

قرروا إرسال طبيبين بيطريين من المكتب العاشر إلى الجنوب؛ ليقوما بمهمة خاصة جداً وهى دراسة تلك المشكلة الغريبة، وتقديم تقرير وعرض الحلول لمواجهتها. فى الوقت نفسه، فإن السكان المنهارين، أو على وشك الإصابة بالخرس، كانوا يهيمون على وجوههم فى شوارع وميادين ذلك المكان الهادئ، الذى تحوَّل الآن إلى مكان جحيمى، وقام الأهالى بإلقاء العشرات من كرات اللحم المسموم، وهى الطريقة القديمة التى ثبت نجاعتها عبر تجارب تعدت الزمان والمكان، فى النهاية، لم يمت سوى كلب واحد، ولكنه كان كافياً لتتعلم الكلاب الأخرى الحية الدرس، وفى لحظة واحدة، من النباح والعواء، اختفت الكلاب فى الحقول المحيطة بالمكان، دون سبب ظاهر يفسر هذا الاختفاء، وخيَّم الصمت بعدها بقليل. وأخيراً بعد أن وصل الطبيبان قدموا لهما جثة المسكين ميدور باردة، ومنتفخة، وتختلف كثيراً عن الحيوان المدلل الذى كان يرافق سيدته خلال تسوقها، ولأنه كان قد بلغ الشيخوخة فقد كان معتاداً على النوم فى الشمس بلا مبالاة. وبما أن العدالة لم تكن قد غادرت العالم بعد، قرر الله، شاعرياً، أن يموت ميدور بكرة اللحم المسمومة التى أعدتها سيدته المحبوبة، والتى، من المستحسن أن يُعرف، أنها كانت تفكر فى قتل كلبة معروفة بالجوار، لم تكن تخرج من حديقة البيت. قال أكبر الطبيبين أمام بقايا الجثة، لنقم بتشريحها، مع أنه لم يكن فى الواقع يحتاج إلى ذلك، لأنه يمكن لأى

من سكان ثيربيرِ إذا أراد، أن يؤكد سبب الموت، ولكن السر الخفى، كما يقولون فى الاستخبارات، أن يتم التشريح حتى يمكن فحص الأحبال الصوتية للحيوان، ليبيّن خرس الموت النهائى الآن والصمت الذى كان يبدو عليه طوال حياته، لقد عاش ساعات قليلة من الكلام مكنته من أن يكون مثله مثل الكلاب الأخرى الطبيعية. كان التشريح جهداً ضائعاً، فلم يكن لميدور أحبال صوتية، أصابت الطبيبين الدهشة، لكن العمدة أدلى برأيه، الإدارى والرزين، "هذا ليس بالغريب، بعد قرون عديدة كانت فيها كلاب ثيربيرى دون نباح، ففقدت أحبالها الصوتية". "ولكن كيف حدث هذا فجأة؟"، "هذا ما لا أعرفه، فأنا لست طبيباً بيطرياً، لكن انزاعجنا انتهى، فالكلاب اختفت، ولم يعد يسمعها أحد فى الأماكن التى هربت إليها"، أما ميدور الممزق والمخاط بشكل سيئ، فقد تم تسليمه لسيدته الباكية، كما لو كان تكفيراً حياً، إنه تكفير عن الخطايا حتى بعد الموت، فى طريقهما إلى المطار ليستقلا الطائرة باتجاه باريس، قرر الطبيبان عدم ذكر الأحبال الصوتية المفقودة فى تقريرهما. ويبدو أنه منذ تلك الليلة بدأ يظهر فى شوارع ثيربيرى كلب بثلاث رءوس، بارتفاع شجرة لكنه أخرس لا ينبح.

خلال تلك الأيام نفسها، وربما قبل ذلك، وربما بعد أن رسمت جوانا كاردا خطها على الأرض بعصا الدردار، كان هناك رجل يتنزه على الشاطئ، حدث هذا لحظة غروب الشمس، عندما كان صوت الأمواج

يكاد لا يُسمع، كانت الأمواج قصيرة وساكنة كهمسات بلا سبب، وهذا الرجل، الذى سيقول فيما بعد إن اسمه جواكيم زازا، كان يسير على الخط الفاصل بين الرمال الجافة وتلك المبتلة، ينحنى من وقت لآخر ليلتقط قوقعة، أو بقايا ذراع سرطان بحر، أو جزءاً من رخوية بحرية خضراء، ليس غريباً أن يقتل وقته بهذه الطريقة، وهذا ما كان يفعله هذا الرجل الوحيد، ولأنه لم يكن يحمل جيوباً ولا كيساً لحفظ مقتنياته، فقد كان يلقى إلى البحر بالبقايا الميتة عندما تكون يداه مليئتين، فللبحر ما للبحر، وللأرض ما يتبقى على الأرض. لكن كل القواعد لها شواذها، فقد شاهد حجراً بعيداً عن أمواج الماء، رفعه جواكيم زازا، كان الحجر ثقيلاً، وعريضاً كدائرة، لم يكن متساوى الحواف، لكنه كالأشياء الأخرى، من الممكن الإمساك به، وناعم الملمس، من تلك التى يمكن الإمساك بها بين إصبعى السبابة والإبهام، قذف به جواكيم زازا على سطح الماء ليراه يقفز وهو يشعر بالسعادة لحذقه، وليغرق فى النهاية فى عمق الماء، وبعد أن هدأ الرجل وبدا أن الحجر قد بلغ مصيره، المحتوم، جفت الشمس، المبتلة بماء المطر فقط، والغارقة الآن فى الأعماق المظلمة فى انتظار مليون عام حتى يتبخر هذا البحر، أو يتراجع فيعيد الحجر إلى الأرض، ليبقى مليون عام أخرى، وليمر الوقت حتى يهبط إلى الشاطئ جواكيم زازا آخر، يكرر دون أن يعرف تلك الحركة، ولا يقول كأى إنسان آخر، لن أفعلها، من المؤكد أنه لن يكون هناك أى حجر.

على شواطئ الجنوب، فى هذه الساعة الدافئة، كان هناك من يأخذ حمّامه الأخير، لا شىء، كان يقفز ككرة، يغطس بين الأمواج، أو ربما يترك نفسه يغرق على مرتبة هوائية، أو، يدخل فى جلد نسمات المساء الأولى، يريح الجسد ليتلقى آخر لمسات الشمس التى ستختفى فى البحر خلال ثانية واحدة، إنها الثانية الأكبر حجماً بين الثوانى؛ لأنها تنظر إلينا وتتركنا ننظر إليها. لكن هنا، على هذا الشاطئ الشمالى الذى يمسك فيه جواكيم زازا بيده حجراً، حجراً ثقيلاً جداً يصيب يده بالتعب، تهب الريح باردة بينما تغرق الشمس حتى المنتصف، فيما لا تطير النوارس على الماء. قذف جواكيم زازا الحجر، اعتقد أنه سيسقط هنا بالقرب منه، عند قدميه تقريباً، على الواحد منا أن يعرف كيف يقيس قوته الشخصية، لم يكن هناك شاهد يمكنه أن يضحك من القذفة الخائبة، لكنه كان مستعداً ليضحك من نفسه، إلا أنه لم يحدث ما كان مُنتظراً، فقد صعد الحجر الغامض الثقيل فى الهواء، وسقط فيما بعد واصطدم بسطح الماء بكل قوته، وعاد للصعود من جديد على أثر الاصطدام، ليغرق فيما بعد بعيداً، فإذا كان البياض الذى شاهدناه قبل قليل، بعيداً، لم يكن سوى جزء من الزبد الناتج عن تحطم الموجة، كيف يكون ممكناً، فكر جواكيم زازا مذهولاً، بهذه القوة الطبيعية الهزيلة، "أن أقذف بعيداً حجراً ثقيلاً جداً، كان البحر يدخل فى الظلام، وليس هناك شخص يمكنه أن يقول لى، حسن جداً، يا جواكيم زازا

أنا شاهد على موسوعة جينيس للأرقام القياسية، إن مغامرة مثل هذه لا يمكن أن يتم تجاهلها، سيقول الجميع إن ما حدث غريب". جاءت موجة عالية جداً من داخل البحر، كانت مزبدة ومدمرة، لقد سقط الحجر أخيراً إلى البحر، هذا هو رد الفعل المعروف منذ جريان أنهار الطفولة لمن كانت لطفولته أنهار، الدوائر المتتالية الناتجة عن الحجر دفعت جواكيم زازا إلى الصعود إلى الشاطئ، فيما تكسرت الأمواج على الرمال حاملة القواقع، وذراع السرطان، والطحلب الأخضر، ولكنها حملت أشياء أخرى، طحالب، عوالق، رقائق. وحجرًا صغيرًا يمكن الإمساك به، من تلك الأحجار التى يمكن الإمساك بها بين أصبعى السبابة والإبهام، كم مر عليه من السنوات دون أن يرى النور!

الكتابة عملية صعبة جداً، إنها من المسئوليات الكبرى، يكفى التفكير فى العمل الشاق الذى يحتاجه الترتيب الزمنى للأحداث، أولاً هذا، وبعده ذاك، أو، لو كان هذا متوافقاً مع الفعل المطلوب، فحدث اليوم موضوع قبل فصل الأمس، وألعاب أخرى ليست أقل خطورة، كتابة الماضى كما لو كان يحدث الآن، والحاضر كما لو كان مستمراً بلا نهاية، لكن، مهما بذل المؤلفون من جهد، هناك قدرة لا يمكنهم إعلانها، أن يضعوا فى وقت واحد شيئين وقعا فى ذات الوقت. هناك من يعتقد أنه من الممكن التغلب على هذه الصعوبة بتقسيم الورقة إلى عمودين، كل عمود من ناحية، لكن هذه الحيلة غبية؛ لأنه سيكتب جانباً أولاً

وبعده الآخر، دون أن ننسى أن القارئ عليه أن يقرأ هذا أولاً وبعدها ذاك، أو العكس، من احتالوا على هذا هم مغنو الأوبرا، كل واحد يمتلك جزءه الخاص به بين المجموع، ثلاثة أربعة خمسة ستة من بين الأصوات الحادة والمنخفضة، كلهم يغنون كلمات مختلفة، على سبيل المثال، الوغد يتداخل، والغبى يتضرع، والمعجب بنفسه يتأخر كثيراً فى الاستجابة، وما يهم المشاهد هو الموسيقى، لكن القارئ ليس كذلك، يريد كل شىء واضحاً، مقطعاً مقطعاً، وواحداً تلو الآخر، كما نبين هنا، لهذا السبب، إذا كنا قد تحدثنا أولاً عن جواكيم زازا، لنتحدث الآن عن بدرو أورثى، عندما قذف جواكيم زازا الحجر إلى البحر، وقفز بدرو من المقعد، إنهما عملان حدثا فى لحظة واحدة، رغم أن الساعات كانت تشير إلى أوقات مختلفة، نتيجة وجود هذا فى إسبانيا وذاك فى البرتغال.

إن لكل نتيجة سبباً، تلك حقيقة معروفة، لكن ليس من الممكن تجنب بعض أخطاء الأحكام، أو تحديدها ببساطة، فمن الممكن أن نعتبر أن هذه النتيجة جاءت عن ذلك السبب، فيما أن السبب كان آخر، بعيداً جداً عن المفهوم الذى لدينا والعلوم التى نعتقد أننا نمتلكها. على سبيل المثال، بدا أنه تم إثبات أن كلاب ثيربيرى نبحت لأن جوانا كاردا رسمت خطاً على الأرض بعصا من فرع شجرة دردار، رغم أن طفلاً عاقلاً جداً، هذا إذا ما تبقى بعض العقل من تلك

الأيام الذهبية، أو بريئاً، إذا ما كان اسم البراءة المقدس يمكن القسم به بلا طائل، طفل صغير قادر على الاعتقاد بأن إغلاق يده يعنى أنه سيمسك بضوء الشمس، فقط هذا الصغير يمكنه أن يعتقد أن الكلاب كانت قادرة على النباح، وهى التى لم تنبح أبداً من قبل لأسباب ذات طبيعة تاريخية وفسيولوجية. فى كل تلك الآلاف المؤلفة من الأماكن والقرى والأحياء والمدن سنجد أشخاصاً يقسمون إنهم السبب، تماماً كنباح الكلاب، وكل ما يأتى من بعده، لأن الكلاب اصطدمت فى باب أو أن ظفرها قد تحطم، أوَ قطعوا بها ثمرة من شجرة، أو سحبوا ستارة، فى الأوقات نفسها، أو وُلدوا، تلك فرضيات، فرضيات الموت والميلاد، التى تعتبر الأصعب قبولاً، خاصة إذا كان من يجب أن يفترضها هم نحن، فمن يولد لا ينطق منذ تكوينه فى بطن أمه، ومن يمت لا ينطق بعد دخوله باطن الأرض. ولا يفيد شيئاً أن نضيف أن الجميع لديهم أسبابهم ليحكموا على السبب والنتائج كلها. هذه الأشياء التى كنا نتحدث عنها، والأكثر من ذلك تلك الخاصة بسير العالم، ما أريد معرفته الآن هو كيف يكون ذلك العالم عندما يختفى البشر والنتائج التى يتسببون فيها؟ ربما لا يكون مفيداً التفكير على هذا النحو الضخم، يا له من دوار، والآن حسن، يكفى أن يتبقى على قيد الحياة بعض الحيوانات الصغيرة، وبعض الحشرات، وعندها سيكون هناك عوالم: عالم النملة، وعالم الجندب، ولا تُفتح الستائر، ولن يتم

النظر فى مرآة، وأكثر من ذلك، فى النهاية فإن الحقيقة الكبرى، لا يمكن للعالم أن يموت.

يقول بدرو أورثى مهما كانت الجرأة، بأن السبب فى أن الأرض اهتزت أنه خبط الأرض بقدميه عندما نهض عن الكرسى، كانت ردة الفعل قوية، ولما لم يقدم دليلاً، ربما نشك قليلاً، لو أن كل إنسان يترك علامة فى العالم، فإن تلك يمكن أن تكون علامة بدرو أورثى، لذلك فهو يقول، "وضعتُ قدمىَّ على الأرض وعندها بدأت الأرض فى الاهتزاز". لقد كانت هزة عنيفة لكن لم يشعر بها أحد، وحتى الآن، بعد مرور عشر دقائق، عندما انسحبت الموجة عن الشاطئ، ويقول جواكيم زازا لنفسه، "لو أننى حكيت هذا لأسمونى الكاذب". الأرض تتذبذب كما يتذبذب وتر الكمان بعد أن صمتت نغماته، يشعر بها بدرو أورثى فى باطن قدميه، ويظل يشعر بها عندما يخرج من الصيدلية إلى الشارع، ولا يبدو أن أحداً هناك شعر بشىء، تماماً كالنظر إلى نجمة والقول، يا له من ضوء جميل، يا لها من نجمة رائعة! ولا يمكن أن يعرف أنها انطفأت فى منتصف الجملة، وسيكرر الأبناء والأحفاد تلك الكلمات، يتحدث المساكين عن ما مات ويسمونه حياً، لا يحدث هذا الخداع فى العلوم الفلكية فقط. هنا يحدث العكس، يقسم الجميع أن الأرض ثابتة، وفقط بدرو أورثى يؤكد وحده أنها تهتز، من حسن الحظ أنه سكت ولم يخرج هارباً، من ناحية أخرى لم تهتز الجدران، والمصابيح المعلقة ظلت ساكنة كما لو خُتمت

بالرصاص، والطيور فى القفص، وهى من المفترض أول من يطلق صيحات الإنذار، تنام هادئة على القضيب المعلق، والرأس تحت الجناح، وإبرة مسجل الزلازل رسمت وتواصل رسم خط أفقى مستقيم على الورق الحساس.

فى الصباح التالى، كان هناك رجل يعبر سهلاً قاحلاً، ليس به لا شجيرات ولا حشائش طينية، فى طريقه لصيد الأسماك النهرية متبعاً طريقه باتجاه الأشجار العالية كما كان يسميها، أشجار الحور والدردار، وكثير من أشجار الأثل، بلونها الإفريقى، ما كان يمكن لهذا الرجل أن يختار مكاناً أكثر عزلة من هذا، والأقرب إلى السماء، وفوق رأسه يطير صخب غير مسموع مصحوب بسرب من الزرازير، من الكثرة بحيث كانت تكون سحابة مظلمة وضخمة، كعاصفة. عندما كان يتوقف كانت الزرازير تدور فى حلقات، أو تطير صاعدة هابطة فوق شجرة، وتختفى بين الأفرع فيزداد الصوت تردداً، فتطن قمة الشجرة بأصوات حادة، مرعبة، كما لو كانت تجرى فيها معركة عنيفة، عاد جوزيه أنايسو للسير من جديد، كان هذا اسمه، تصعد الزرازير بشكل فجائى، فيروووووووو، لو لم يكن معروفاً من يكون هذا الرجل، لبدأنا فى التفكير للتكهن بهويته، سنقول إنه ربما كان يعمل حارس طيور، أو كالحية لديه ملكة السحر، وقدرات مدهشة، فيما كانت الحقيقة هى أن جوزيه أنايسو كان مثلنا غير متأكد من سبب هذا المهرجان، "ماذا تريد منى تلك

المخلوقات؟"، لن تدهشنا تلك الكلمة المجهولة، منذ أيام والكلمات المعروفة لا تغرى باستخدامها.

كان السائر يأتى من اتجاه الشروق ويتجه غرباً، هكذا جاء الطريق والمسيرة، ولكن بما أنه كان عليه أن يتجنب البحيرة الكبيرة فقد اتجه جنوباً بشكل منحن بطول الشاطئ، كان الوقت صباحاً، وبدأت الشمس تلسع، رغم هبوب نسيم رطب لا يزال نقياً، خسارة عدم القدرة على الاحتفاظ به فى الجيوب لاستخدامه عندما تشتد حرارة الشمس بشكل حقيقى. سار جوزيه أنايسو مُطلقاً العنان لتلك الأفكار، مشوشة وعفوية كما لو كانت لا تخصه، عندما انتبه إلى أن الزرازير تخلفت عنه، تتخبط فيما بينها بعيداً عنه، حيث يدور الطريق ليوازى البحيرة، من المؤكد أن هذا كان من ملكاته العجيبة، لكن أخيراً، كما يقولون، من يذهب يذهب، ومن يبق يبق، أهلاً أيتها الطيور، كان جوزيه أنايسو قد دار حول البحيرة، نصف ساعة تقريباً من الطريق الوعر بين العوسج، ثم عاد إلى الطريق الأول فى الاتجاه نفسه الذى جاء منه، من الشرق إلى الغرب كالشمس، عندها حدث فجأة، فروووووو، ظهرت الزرازير من جديد، أين كانت خلال تلك الفترة؟ والآن حسناً، لا يوجد تفسير لهذه الظاهرة. إذا كانت جماعة من الزرازير قد رافقت رجلاً خلال نزهته الصباحية كما الكلب الأمين خلف صاحبه، وإذا كانت قد منحته الوقت ليدور حول البحيرة لتتبعه فيما بعد كما كانت تفعل، لا يُطلب منها

أن تتبعه كالسابق، ولا يمكن أن يُطلب منها أن تقول أو تفسر الأسباب، فالطيور ليس لديها أسباب، ولكنها تتبع الغريزة، والتى كثيراً ما تكون ضبابية وعفوية كما لو كانت لا تخصنا، لنتحدث عن الغريزة، ولكن لنتحدث أيضاً عن الأسباب والمسببات، لكنا لن نسأل جوزيه أنايسو من يكون أو ماذا يفعل فى هذه الحياة؟ ولا من أين أتى أو إلى أين يذهب؟ ما يجب أن يُعرف عنه، يجب أن يُعرف عنه، وهذا التحوط وهذا التريث عن معرفة الأخبار يجب أن نطبقه بالنسبة لجوانا كاردا وعصاها الدردارية، وجواكيم زازا والحجر الذى قذف به إلى البحر، وبدرو أورثى والكرسى الذى نهض من جلسته عليه، فالحياة لا تبدأ عندما يُولد الأشخاص، لو كانت هذه حقيقة لكان كل يوم إضافة إلى تلك الحياة، الحياة تبدأ بعد ذلك، وكثيراً ما تبدأ متأخرة جداً، دون حساب تلك التى ما تكاد تبدأ حتى تنتهى، لهذا السبب صرخ الآخر، "آه، من يكتب حكاية ما كان يجب أن يكون".

والآن تلك المرأة، ماريا جوافايرا هكذا يسمونها، اسم غريب، التى صعدت إلى غرفة الخزين فى بيتها وعثرت على جورب قديم، من تلك الجوارب القديمة الحقيقية التى كانت تُستخدم لحفظ النقود، وتحتفظ بها جيداً كما لو كانت خزانة فولاذية، ورمز الأمان، إنها اقتصادات مضحكة، وبما أنها عثرت عليه فارغاً، فقد بدأت فى فك خيوطه، كنوع من شغل الوقت، كمن لا يجد ما يفعله ويريد شغل يديه، مرت ساعة، وساعة

أخـرى، ولم يـتـوقف الخـيط الـصـوفى الأزرق عن الانـزلاق، ولكن الجورب لا يبدو عليه أنه يفقد شيئاً من حجمه، كما لو لم يكن كافياً الألغاز الأربعة التى روينا قصتها، هذا يشير لنا أنه على الأقل لمرة واحدة، أن المحتوى يمكن أن يكون أكبر من الإنـاء، فى هذا البيت الهادئ الذى لا تصل إليه أصوات أمواج البحر، وإذا مرت الطيور فإن ظلها لا يقلل شيئاً من ضوء الشباك، الكلاب موجودة لكنها لا تنبح، والأرض، لو كانت قد اهتزت، لا تهتز، والخيوط تحت أقدام المرأة أصبحت جبلاً لا يتوقف عن النمو، وماريا جوافايرا لا تُدعى اريادنا، وهذه الخيوط لا تساعدنا على الخروج من الشرك، وربما ما يمكننا أن نتوصل إليه من خلالها هو أن نزداد ضياعاً. والنهاية، أين هى.

■■■

## ـ ٢ ـ

ظهر الصدع الأرضى الأول فى سهل واسع من الحجرى الطبيعى، تماماً كسهل الرياح، فى مكان ما من جبال "البيريس" التى تقع فى أقصى شرق طرف من السلسلة الجبلية، التى تنحدر ببطء باتجاه البحر حيث تتجه الآن كلاب قرية ثيربيرى المسكينة، علامة مقبولة فى الزمان والمكان؛ لأن كل تلك الأشياء، وحتى يثبت العكس، متعلقة ببعضها البعض، فتلك الكلاب، كما يُقال أُبعدت عن تأدية مهامها، ومُجبرة بالتالى على البحث فى ذاكرة اللاوعى المتشعبة من أجدادها العاملة فى الصيد، لتتمكن من صيد أى أرنب تائه، أحد تلك الكلاب، يدعى أردنت بفضل سمعه المرهف الذى تتمتع به تلك الفصيلة، شعر بانفجار الحجر، وهمهم فقط لأنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، فاقترب من الصدع، وتشممه بأنفه ونفش شعره، تعبيراً عن حب الاستطلاع أكثر منه تعبيراً عن

الخوف، والدوائر الحادة يمكنها أن تُذكر المراقب البشرى بأن خطأ مرسوماً بسن قلم حاد، يختلف تماماً عن ذلك الآخر المرسوم بعصا، أو مرسوم على التراب بإهمال وخفة، أو فى الطين، لولا تلك الاختلافات لكنا نُضيّع وقتنا، مع ذلك، بينما كان الكلب يقترب، كان الصدع يتسع أكثر ويزداد عمقاً، ويتقدم، فاتكاً بالحجر، حتى وصل إلى آخر السهل، وبعدها من هنا إلى هناك، يمكن لقبضة يد كاملة أن تدخله، وحتى الذراع بطوله وضخامته، لو لم تكن هناك أدوات أخرى لُيقاس بها الحدث. دار الكلب أردنت حول الصدع قلقاً، لكنه لا يستطيع الهرب، لأنه كان واقعاً تحت تأثير سحر تلك الحية التى لا رأس لها ولا ذنب، والتى تختفى فجأة، دون أن يعرف أين عليه أن يبقى، إن كان فى فرنسا حيث مكانه، أم فى إسبانيا، البعيدة عنه بحوالى ثلاثة أرباع. لكن ذلك الكلب، بفضل الله، ليس من تلك التى ترضى بالواقع، وأثبت ذلك عملياً، فقد قفز باتجاه الهاوية، مع الاعتذار عن هذا التعبير المتطرف، فوجد نفسه فى هذا الجانب، لقد فضل جانب الهاوية، ولن نعرف أبداً ما هى الذاكرة التى تحرك روح الكلب، وأى أحلام، وأى تطلعات.

الصدع الثانى، ولكنه كان الأول المعروف عالمياً، بدأ على بعد كيلومترات عديدة، بالقرب من خليج فيثكايا، ليس بعيداً عن مكان له حكاية مؤلمة تتعلق بكارلوس الأكبر وأشباهه الاثنى عشر، ويُدعى المكان

رونزفيفلز الذى مات فيه رولدان وهو ينفخ فى بوقه، دون أن يستجيب له لا أنخيلكا ولا دوراندال. وهناك، هبوط بطول سفح جبال أبودى على الجانب الشمالى الشرقى، يجرى نهر، إيراتى، الذى يُولد فى فرنسا ويصب فى إيرو الإسبانى، الذى يتجه بدوره إلى مقاطعة أراجون، التى تضم بدورها نهر الإيرو، والذى يحمل فى النهاية الماء ويدفع بالجميع باتجاه البحر المتوسط. فى عمق الوادى، وعلى جانب نهر إيراتى توجد مدينة يسمونها أوربايثيتا، ويوجد فى الجبل بحيرة، أو خزان مياه كما يقولون.

ساعة شرح ما يُقال هنا أو ما سيُقال، هو حقيقة مؤكدة ويمكن مقارنتها بأية خريطة، بشرط أن تكون تلك الخريطة دقيقة جداً، تبين أية معلومات مهما كانت عدم أهميتها الظاهرة؛ لأن أهمية تلك الخرائط هى هذا، إظهار كل ما يمكن تصغيره من مساحة، متوقعة أن كل شىء يمكن أن يحدث فيها. ويحدث، فقد تحدثنا عن عصا القدر، وأثبتنا أن حجراً، وإن كان بعيداً عن خط المد، يمكنه أن ينتهى إلى السقوط فى البحر أو العودة منه، والآن جاء دور أوربايثيتا، حيث، بعد الرجة الصحية الناتجة عن بناء الخزان، منذ سنوات مضت، عاد إليها الهدوء، مدينة هامشية فى نافرا، تنام بين الجبال، يعود إليها القلق من جديد. فقد أصبَحت أوربايثيتا لعدة أيام مركزاً لاهتمام أوروبا، فقد اجتمع هناك أعضاء الحكومات والسياسيون والسلطات المدنية والعسكرية،

والجيولوجيون، والجغرافيون والصحفيون، والمتخصصون فى المعادن، والمصورون، ومعدو ومنفذو برامج التليفزيون والسينما، والمهندسون من جميع التخصصات، والمراقبون والفضوليون. لكن شهرة أوربايثينا لن تستمر طويلاً، فقط لأيام قليلة، أقل قليلاً لمَ يمكن أن تعيشه زهور العليق، وكيف يمكن أن تستمر تلك إذا كانت ناتجة عن العليق، لكننا نتحدث عن أوربايثينا وليس عن أى شىء آخر، وستظل شهرتها حتى يمكن الإعلان عن مكان آخر أكثر شهرة، وهذا يحدث دائماً مع الأشياء الشهيرة.

فى تاريخ الأنهار لم تقع أبداً حادثة كهذه، الماء الذى يجرى فى مجراه الأبدى يتوقف فجأة عن الجريان، تماماً كصنبور ماء تم إغلاقه بشكل مفاجئ، مثلاً، شخص يغسل يديه فى حوض، ويقوم بعد ذلك بفتح السدادة ويغلق الصنبور، فينخفض الماء تدريجياً، إلى أسفل، ويختفى، وما يتبقى من ماء فى فتحة الحوض الملساء سرعان ما يتبخر. نشرح الحدث بطريقة منطقية، اختفى ماء نهر إيراتى كموجة تنسحب من على شاطئ البحر وتبتعد، ويبقى قاع النهر ظاهراً للعيان، أحجار، وطين، ووحل، وأسماك تتقافز فاتحة أفواهها وتموت، ثم الصمت الفجائى.

لم يكن المهندسون فى المكان عندما وقع هذا الحدث العجيب، لكنهم تكهنوا بأن شيئاً غير طبيعى قد حدث، أشارت لوحات الإعلانات فى البنوك إلى أن النهر لم يعد يغذى الخزّان الكبير. استقل ثلاثة من

الفنيين عربة جيب لاستطلاع الحدث الغريب، وفى طريقهم، على حافة الخزان، تفحصوا فرضيات متعددة ومختلفة، ولم يضيعوا وقتاً فى هذا على طول خمسة كيلومترات، وإحدى تلك الفرضيات كانت الانهيارات الأرضية التى قد تحوّل مجرى النهر، وأخرى أن تكون نتيجة عمل الفرنسيين، خيانة فرنسية، رغم الاتفاقية الثنائية الخاصة بالمياه الجارية واستغلالها، وأخرى، وتلك الأكثر راديكالية عن كل الفرضيات الأخرى، جفاف ماء العين التى تغذى النهر، وما إن كان معروفاً بأبدية جريان ماء تلك العين ليس صحيحاً. عند هذه النقطة انقسمت حولها الآراء. أحد المهندسين، رجل رزين، من تلك النوعية المتأملة، ويحب الحياة فى أوربايثيتا جداً، ويخشى أن يرسلوه بعيداً عنها، فيما كان الآخرون سعداء ربما انتظاراً لأن يرسلوا أحدهم إلى خزان التاخو الأقرب إلى مدريد، وشارع جران فيا، وانطلاقاً من نظرة كل منهم الشخصية وصلوا إلى أقصى نقطة من الخزّان، حيث يوجد مصدر الماء، وهناك لم يجدوا النهر، فقط وجدوا خيطاً رفيعاً من الماء بلا قوة حقيقية قادرة على تحريك ساقية واحدة. "تُرى أين اختفى النهر بحق الشيطان؟"، قال هذا سائق الجيب، فكان تعبيراً دقيقاً ومحدداً. مندهشون وذاهلون، وحيرى، وقلقون أيضاً، عاد المهندسون الثلاثة إلى النقاش حول فرضيات محتملة تفسر هذا الحدث، وبعد أن تبين عدم الجدوى العملية للاستمرار فى النقاش، عادوا إلى

مكاتبهم فى الخزّان، ثم واصلوا طريقهم إلى أورباياثيتا حيث كان ينتظرهم الرؤساء، الذين وصلهم نبأ الاختفاء الغامض للنهر. وقعت حوارات عنيفة، عدم تصديق، ومكالمات هاتفية إلى بامبلونا ومدريد، وكانت نتيجة العمل المضنى أمراً بسيطاً للغاية، تتلخص فى ثلاث نقاط متتالية ومتكاملة، "اصعدوا إلى أعلى النهر، واكتشفوا ما الذى يحدث، ولا تخبروا الفرنسيين بشىء".

قبل طلوع الشمس فى اليوم التالى، انطلقت القافلة باتجاه الحدود، دائماً بجانب أو على مرمى البصر من مجرى النهر الجاف، وعندما وصل المفتشون المجهدون، فهموا أنه لن يكون هناك أبداً نهر اسمه إيراتى. فقد كان الماء يسقط فى صدع أرضى لا يزيد عرضه عن ثلاثة أمتار متجهاً إلى أعماق الأرض، هادراً كشلالات نياجرا بشكل مصغر. من الناحية الأخرى كانت هناك بلديات فرنسية، ومن الغباء التفكير فى أن الجيران، الخبثاء لم يعرفوا بالحدث، ربما على الأقل كان يجب أن يبينوا أنهم مندهشون وغير مصدقين مثل الإسبان على الجانب الآخر، فيصبحون جميعًا فى الجهل سواء. تحدث الجانبان، لكن الحديث لم يكن مطولاً ولا مُستغلاً بشكل جيد، لم يزد عن كونه تبادلاً للدهشة، ولم يساعد الجانب الإسبانى فى التوصل إلى فرضيات جديدة، فى النهاية، كان هناك غضب عام لا يجد إلى من يمكن توجيهه، ابتسم الفرنسيون بعدها بقليل، فى النهاية

أصبحوا هم سادة النهر حتى الحدود، ولا يتحتم عليهم تعديل الخرائط.

فى تلك الأمسية، طارت طائرات الهليوكوبتر من البلدين لمسح المكان، والتقطت له صوراً، أسقطوا مراقبين بالحبال، وحملوهم على الشلال، تفحصوا ولم يجدوا شيئاً، فقط تلك الفوهة السوداء الواسعة وجانب من الكهف وبريق الماء. لتقديم شىء له أهميته، فإن المسئولين فى أورباثيتا على الجانب الإسبانى، ومسئولى لاروا على الجانب الفرنسى، اجتمعوا إلى جوار النهر، تحت خيمة أُقيمت لهذه المناسبة وترفرف عليها ثلاثة أعلام: الثلاثى الألوان، والثنائى الألوان الوطنية، إضافة إلى علم نافرا المحلى؛ بهدف دراسة إمكانية الاستغلال السياحى لذلك الحدث الطبيعى، الذى يعتبر فريداً فى العالم، وكيفية استخدامه لصالح الطرفين. مع الأخذ فى الاعتبار قلة الإمكانات، والشكل المؤقت للاجتماع، لم يصدر عنه أية وثيقة تحدد واجبات وحقوق كل طرف، ولكن تم الاتفاق على تشكيل لجنة رسمية. وخلال ذلك، وفى الساعة الأخيرة، جاء تعكير الصفو ليقلل من الاتفاق النسبى الذى تم التوصل إليه، وجاء ذلك بشكل يكاد يكون متوازياً من مدريد وباريس، ممثلى الدولتين فى اللجنة الدائمة لترسيم الحدود. عرض هؤلاء السادة شكوكاً خطيرة، أولاً يجب التأكد من الجانب الذى يوجد فيه الصدع، إن كان يتجه نحو الجانب الفرنسى أم إلى الجانب الإسبانى، بدا هذا تفصيلاً لا قيمة له، لكن،

بعد شرح الأسباب، تبين مدى حساسية الوضع، وتبين بما لا يدعو للشك، أن نهر إيراتى أصبح من الآن وبالكامل تحت السيادة الفرنسية، وتابعاً لمقاطعة البرانس السفلى، ولكن لو كان الصدع ينفتح بالكامل فى الجانب الإسبانى، بمقاطعة نافرا، فإنه يجب دراسة الحالة بشكل أعمق؛ لأنه فى هذه الحالة يجب التأكد من أن كل بلد من البلدين يقدم حصته بالتساوى، وإذا كان العكس، وتبين أن الصدع فى الجانب الفرنسى، فإن الاستغلال السياحى يكون ملكاً لهم بالكامل، نظراً لامتلاكهم كل الموارد الأولية، النهر والمجرى الجاف. وأمام الوضع الجديد، فإن مسئولى الجانبين، بعيداً عن تباين العقليات، اتفقوا على البقاء على اتصال دائم حتى تتضح حقيقة الحدث. من ناحية أخرى، فإن إعلاناً مشتركاً تم تحريره بدقة، أعلن فيه وزيرا خارجية البلدين تأكيدهما على الاستمرار فى إجراء حوار عاجل، يشمل كافة المجالات التى أشارت إليها اللجنة الدائمة لترسيم الحدود، التى تستشير بالطبع فرقاً من الفنيين المتخصصين فى الجغرافيا الطبيعية.

حينها فقط، تطبيقاً للتباين الدولى والمهنى، ظهر الجيولوجيون. فما بين أورباياثيتا ولارو كان العديد منهم ومن جميع الاتجاهات، وإن لم يكونوا بالكثرة التى ذكروها، والآن بدأ يأتى الكثير من حكماء الأرض والأراضى، المتنبئين بحركات الأرض والحوادث، كل منهم يمسك شاكوشاً فى يده، يهرسون أى حجر أو ما

يشبه الحجر. صحفى فرنسى، اسمه ميشيل، وغد، يقول لزميل إسبانى، جاد يدعى ميجيل، الذى أعلن من قبل فى مدريد أن الصدع كان بال ـ ت ـ أ ـ ك ـ ى ـ د إسبانياً، أو، جغرافياً ووطنياً يتبع نافرا، "إذاً يمكنكم أيها السادة الاحتفاظ به"، هذا ما قاله الفرنسى بغطرسة، "إذا كنتم تريدونه وتحتاجون إليه، نحن الفرنسيين ـ لدينا فى سيرك جافيرن صدع ارتفاعه أربعمائة وعشرون متراً، ولسنا فى حاجة إلى حفرة يدوية مفتوحة بالعكس". لم ينتبه ميجيل إلى الرد عليه بأنه أيضاً فى الجانب الإسبانى من البرانس، هناك الكثير من مساقط المياه، جميلة ومرتفعة جداً، لكن القضية مسألة أخرى، إن حفرة فى الهواء الطلق ليست معجزة، فهى تبقى دائماً أمام أعين الناس، فيما أن صدع ايراتى يمكن رؤية بدايته ولكن نهايته غير معروفة، إنه كالحياة. مع ذلك، فإن صحفياً آخر، جيليقى عابر، كما هى حال الجيلقيين دائماً، هو من أطلق السؤال الذى كان لا يزال غير مطروح، "إلى أين تذهب المياه؟". كانوا حينها لا يزالون يناقشون، بشكل علمى وجاف، وجاء وقع السؤال على الجيولوجيين من الطرفين كوقع سؤال على طفل خجول، لم يسمعه سوى من كان يسجل الحدث الآن. وبما أن الصوت جيليقى، جاء هامساً ومترفاً فقد أسكتته الغطرسة القشتالية على الفور، لكن السؤال تكرر فيما بعد باعتباره منطلقاً من مَنْ اكتشفوه، فالشعوب الصغيرة لا يسمعها أحد، المسألة ليست

حالة من العنصرية، بل واقعاً تاريخياً، وأصبح حوار الخبراء غير مفهوم بالنسبة لمن يريدون فهم المسألة، لكن، والحال هكذا، فقد وضح أن هناك فرضيتين مركزيتين فى الحوار، فرضية المتفرنسين، وغير المتفرنسين، كلاهما لا يتفقان، بل وسرعان ما يتعاديان، كعقيدتين متعارضتين، إحداهما توحيدية، والأخرى مشركة. بعض التصريحات كانت تبدو مهمة، كالقول بالتغير الطبيعى، والذى يمكن أن ينتج عن التطور البنائى، أو التفكيك الناتج عن الاصطدام. كل هذا رغم أن دراسة تركيب السفح تؤكد أنه ليس قديماً جداً، جغرافياً بالطبع، ربما ارتبط كل هذا بالانحناءة التى تبدو فى الصدع. فى النهاية، فإن جبلاً يضم كل هذه الآلاعيب المثيرة ليس غريباً أن يجد نفسه مجبراً على الانقسام، والانهيار، أو كما فى هذه الحالة، التصدع والانشقاق. وهذه ليست حالة السفح الكبير الممتد عبر جبال البيريس، ولكن هذا ما لم يشاهده الجيولوجيون؛ فقد كان بعيداً، فى منطقة قاحلة، لم يقترب منها أحد. انطلق الكلب أردنت فى أثر الأرنب ولم يعد.

بعد مرور يومين، كان أعضاء لجنة ترسيم الحدود فى مهمة عمل على الطبيعة، يقيسون بأدوات القياس وفى أيديهم لوحات وحواسب يحسبون بها، ويطابقون حساباتهم بالصور الجوية، لم يكن الفرنسيون سعداء؛ لأن الشكوك حول وجود الصدع فى الجانب الإسبانى كانت قليلة، فقد كانت كما

حددها الصحفى ميجيل من قبل، إلى أن جاء خبر عن حدث جديد، ولم يعد يتحدث أحد عن أوربايثيتا، ولا عن النهر المقطوع إيراتى، وانتهت شهرة نافرا العالمية. فقد قرر رجال الإعلام، وبعضهم من النساء، الانتقال إلى البرانس الشرقية؛ لأنها كانت أفضل فى سهولة المواصلات، وبها وسائل راحة أفضل، إلى درجة أنه خلال ساعات قليلة اجتمع فيها رجال السلطة فى العالم كله، وبعض الناس جاءوا من تولوز ومن برشلونة. وازدحمت الطرق خلال فترة قصيرة، وعندما حاول رجال البوليس فى هذا الجانب أو ذاك تحويل السير كان الوقت قد فات، هناك كيلومترات وكيلومترات من السيارات المتوقفة، كان الازدحام ميكانيكياً، وتطلب الأمر اتخاذ إجراءات حاسمة، دفع كل هؤلاء الناس إلى العودة باتجاه الطريق الدائرى، ومخالفة الاتجاهات الممنوعة، واحتلال جوانب الطرق، لقد كان جحيماً، ومن هنا نتذكر أن الإغريق كانوا حكماء عندما حددوا وجود الجحيم فى هذه المنطقة بالذات. ونظراً لحالة الطوارئ تم اللجوء إلى طائرات الهيلوكبتر، تلك الماكينات الطائرة، والطيور الضخمة القادرة على الهبوط فى أى مكان، وعندها تحوّل الأمر إلى المستحيل، فقد كانت تهبط حتى تكاد تلامس سطح الأرض، ولم يكن الركاب فى حاجة إلى سلالم، قفزة صغيرة تكفى، ويدخلون بعدها إلى مركز العمليات، بين إبر التلقيح والضم وامتصاص الرحيق، وكم من المرات فاحت رائحة لحم محترق. يخرجون هاربين، خافضى الرءوس، ويذهبون لمعرفة ما يحدث،

بعضهم يصل مباشرة من النهر، بخبرة بنائية، لكنهم لا يعثرون عليه.

يقطع الصدع الطريق، فيتحول السهل إلى منطقة كبرى من التخزين، ويمتد مع ميل نحو الضيق على الجانبين، باتجاه الوادى، حيث ينتهى، ملتوياً باتجاه السفح الأعلى حتى يختفى بين الشجيرات. نحن الآن فى مكان الحدود بالضبط، الحدود الحقيقية، الخط الفاصل، فى الأرض الحرام الفاصلة بين نقطتى البوليس على الجانبين، الجمارك، والجمرك، بين العلم، والراية. على مسافة حذرة، نظراً لإمكانية انهيار الحواف الأرضية للجرح، تبادل السلطات والخبراء كلمات لا معنى لها، ولا أثر، لا يمكن تسميتها حواراً فى هذا الضجيج من الأصوات، ويستخدمون مكبرات صوت فى محاولة لإسماع أصواتهم، بين شخصيات أخرى أكثر إعداداً، داخل أماكن العمل، يتحدثون بالتليفون، يتناقشون فيما بينهم، أو مع مدريد وباريس. ما إن هبط الصحفيون حتى هرولوا للتأكد من كيفية حدوث هذا، فيما يسجل جميعهم القصة نفسها، مع بعض الجهد فى إجراء تغييرات طفيفة فيها، ناتجة عن تخيلات كل منهم، فتثريها أكثر، لكن، للحديث بكل بساطة، إن من أبلغ عن الحدث كان سائق سيارة، مرّ عندما كان الليل على وشك الهبوط، شعر بأن السيارة قفزت قفزة مفاجئة، كما لو كانت العجلات دخلت وخرجت من حفرة عرضية، فهبط لاستطلاع السبب، ربما هناك أعمال

حفر فى الطريق، دون اتخاذ احتياطيات، ونسوا وضع الإشارات. كان الصدع لحظتها لا يزيد عن الربع عرضاً، وأربعة أمتار طولاً، ربما وصل إلى ذلك، كان الرجل، برتغالى الجنسية، اسمه زوسا، كان مسافراً برفقة زوجته وحمويه، عاد إلى السيارة وقال، "يبدو كما لو كنا فى البرتغال، انظروا، حفرة عميقة، كان يمكنها أن تكسر دواليب السيارة، وتكسر عمود محركها" . لم تكن حفرة ولا كانت عميقة، لكن كلماته، وضعناها نحن هكذا، لأنها معبرة، وتساعد على الفهم، ونقولها بشكل مبالغ فقط للتخفيف من حدة الخوف والانفعال، لماذا؟ لأنها تمنح الحكاية درامية. المرأة، لم تلتفت كثيراً لما قاله الرجل، أجابت، "إذًا انظر"، اعتقد هو أنها ستقدم له نصيحة يتبعها، حتى لم تكن تقصد هى ذلك، كانت كلمات المرأة، صوتية أكثر منها توجيهاً قصيراً، كانت من تلك الأصوات التى تلعب أحياناً دور الإجابة، عاد هو إلى الخروج من جديد وفحص العجلات، لم تكن هناك خسائر ظاهرة، شكراً لله؛ لأنه هناك فى وطنه البرتغال سيكون بطلاً، سيجرون معه لقاءات فى التليفزيون، والإذاعة والصحافة. لقد كان أول من شاهد الصدع، "السيد زوسا، قصّ علينا رؤيته لتلك اللحظة الرهيبة" . سيكررها مرات عديدة، وعليه أن يقوم دائماً بإنهاء الحكاية التاريخية بسؤال مشوق وتعليق غبى، يثير المستمع ويثيره هو شخصياً، كنوع من الشعور باللذة، "لو كان الصدع أكبر من ذلك، هل تعرف ما كان يمكن أن يحدث؟ كنا سقطنا فيه، هل تعرف هذا؟ وليعلم الله مدى عمقه"؛ وهو الأمر

نفسه تقريباً الذى سأله الجيليقى، هل تذكرون، "إلى أين تذهب المياه؟".

إلى أين؟ هذه هى القضية. أول تحوط موضوعى هو الاطلاع على الجرح، معرفة العمق، وبعدها دراسته، تحديد ووضع الخطوات العملية والمناسبة لإغلاق الصدع، ليس هناك تعبير آخر أكثر مناسبة من ذلك، لهذا فإن الفرنسيين، هذا إذا ما فكر أحد أو طرأ على تفكيره، فكروا فى استغلاله لصالحهم بالكامل، والفحص الفورى الذى أجروه، سجل أنه يزيد قليلاً عن عشرين متراً، إنه عمق لا قيمة له أمام الأدوات الحديثة فى هندسة الطرق العمومية. من إسبانيا وفرنسا، من بعيد وقريب، جاءت ناقلات الخرسانة، والخلاطات، وتلك الماكينات الجميلة، التى تُذكِّر الأرض بحركاتها المتوازية، وتلقى بخرساناتها، وتتوالى، مفرغة تحقيقاً للهدف، كميات كبيرة من الحجارة الغليظة والأسمنت سريع التماسك. فى خضم العمل بالتعبئة جاء مراقب واقترح وضع عوارض حديدية كبيرة، تماماً كوضع الشاش على الجرح، فتحمى الجوانب، وتساعد، كما يقولون، على الإسراع فى إغلاق الصدع. وافقت اللجنة الثنائية العاجلة على تنفيذ الاقتراح، فبدأت مصانع الحديد الإسبانية والفرنسية على الفور فى عمل الدراسات المطلوبة، على المزيج المعدنى، والسُمك ونوعية المادة، والعلاقة بين حجم الظافر الذى سينغرس فى الأرض والقضيب المستعرض، تفاصيل فنية لا يعرفها إلا

الخبراء، نذكرها هنا بشكل سريع. التهم الصدع سيل الحجارة والخليط الأسمنتى كما لو كان نهر إيراتى يسقط فى عمق الأرض، كان صدى العمق يُسمع، وتم قبول فرضية وجود حفرة عملاقة فى الأعماق، كهف، نوع من المنزلقات التى لا ترتوى. لو كان الأمر كذلك، لأصبح لا قيمة للاستمرار، ويمكن إقامة جسر على الصدع، وأيضاً إمكانية أن يكون هذا هو الحل الأسهل والاقتصادى، لندعو الإيطاليين؛ لأن لديهم خبرة كبيرة فى عمل مجارى المياه. ولكن بعد عدد غير محدد من الأطنان والأمتار المكعبة، أشار المقياس إلى أن العمق وصل إلى سبعة عشر متراً، بعدها خمسة عشر، ثم إلى اثنى عشر، مستوى الخرسانة يرتفع، ويرتفع، المعركة فى طريقها إلى الكسب. تعانق الفنيون، والمهندسون، والعمال، ورجال البوليس، وارتفعت الأعلام، ومذيعو التليفزيون، عصبيون، كانوا يتلون البيان الأخير، ويدلون بآرائهم، مبرزين الصراع الرهيب، والتضامن الجماعى، والدولى، حتى البرتغال، ذلك البلد الصغير، خرجت منه قافلة من عشر ناقلات خرسانية، فى طريقها، لتسافر عبر طريق طويل، أكثر من ألف وخمسمائة كيلومتر مجهود كبير، فى النهاية لن تكون هناك حاجة إلى الخرسانة التى تحملها، لكن التاريخ سيسجل هذا العمل الرمزى.

عندما وصلت الخرسانة إلى مستوى الطريق، انفجرت الفرحة الجماعية العارمة، كما لو كانت احتفالاً بعام قديم، ألعاب نارية وحلبات مصارعة.

وانطلقت فى الهواء أبواق السيارات التى تمكنت من الوصول إلى المكان بعد أن تم إصلاح الطريق، وأطلقت الناقلات أصواتها المحشرجة وأبواقها، وتطايرت طائرات الهليوكوبتر صاعدة هابطة فوق الرءوس، كنوع من استعراض قوة لا تبدو سماوية. وانطلقت كاميرات التصوير بلا توقف، واقترب مصورو التليفزيون، فى هدوء، وهناك تماماً على حافة الصدع الذى لم يعد كما كان، صوروا لقطات عن قرب للمساحة الأسمنتية غير المستوية، كتأكيد لسيطرة الإنسان على تقلبات الطبيعة. والمتفرجون، بعيداً عن ذلك المكان، يشاهدون فى رفاهية وهدوء البيوت، التقطوا المشاهد على الهواء مباشرة، والمذاعة عبر التليفزيون الإسبانى، وتمكن المشاهدون من رؤيتها وهم يرقصون ويصفقون، وكيف كانت الاحتفالات بالحدث، كما لو كان فرحاً خاصاً بهم، تمكنوا من رؤية، أقول، دون قصد الآن بعيونهم، شهدوا كيف أن السطح الخرسانى الذى كان لا يزال رطباً وقد بدأ فى الانخفاض، كما لو كانت العجينة الضخمة تتقطع من أسفل، ببطء ولكن بلا توقف، إلى أن ظهرت من جديد أمام الأعين الحفرة المفتوحة على مصراعيها. الحفرة لم تتسع، وهذا يعنى أن جدرانها لا تمتد كالسابق إلى عمق عشرين متراً، بل أكثر بكثير، لا يعرف مداها إلا الله. عاد العمال، مرتعبون، لكن الواجب المهنى الذى تحوّل إلى إحساس مكتسب، حافظ على الكاميرات فى وضع الاستعداد، مرتفعة نعم، وتمكن العالم من مشاهدة الوجوه

مكفهرة، ويسيطر عليها الرعب، وكانت تُسمع الصيحات والصرخات، وأصبح الهروب عاماً، فى أقل من دقيقة ظهرت محطة التجمع خالية تماماً، بقيت ناقلات الخرسانة مهملة، بعضها تدور محركاتها هنا وهناك، والخلاطات لا تزال تدور، مليئة بأسمنت لم يكن مرغوباً فيه قبل دقائق، وتحوّل الآن إلى عديم الفائدة.

لأول مرة، هزة رعب عبرت شبه الجزيرة الأيبيرية بكاملها، وكل أوروبا القريبة. فى ثيربيرى، قريباً جداً من هناك، هرول الناس إلى الشارع كما فعلت الكلاب من قبل، يقول بعضهم لبعض، "مكتوب فى القدر، عندما تنبح الكلاب ينتهى العالم"، والأمر ليس كذلك، لا شىء كان مكتوباً، ولكن دائماً لحظة وقوع الأحداث الكبرى تكون هناك كلمات كبرى، وتلك، كانت مكتوبة، ولا نعرف أى نذير عليه أن يحتل المكانة الأولى فى هذه الكلمات الموجزة، نخاف أكثر من أى شخص آخر، ما كان على وشك الحدوث، بدأ سكان ثيربيرى فى مغادرة المدينة فى جماعات باتجاه أرض أكثر صلابة، ربما لا تصل نهاية العالم أبعد من ذلك، فى بانيولز جنوب البحر، وميناء فندريس وكلورز، فقط كنوع من ذكر أسماء القرى القريبة من خط السفح، لم يبق أى كائن حى يسير على قدمين، الموتى، لأنه كان هناك موتى، بقوا هناك فى أماكنهم، بما يتمتعون به من هدوء لا يقلقه ما يقلق بقية البشرية، وإنه ما قال أحد عكس ذلك، إن فرناندو زار ريكاردو،١٠ الأول ميت

والثانى على قيد الحياة، كانت هجرة حمقاء لا أكثر. لكن أحد هؤلاء الموتى، فى كولورز تململ بعض الشىء، كما لو كان يشك، هل يذهب أم لا يذهب، إلى داخل فرنسا هذا لن يحدث أبداً، هو فقط كان يعرف إلى أين، وربما ننتهى نحن هنا إلى معرفة ذلك.

بين ما يقرب من الألف خبر، ورأى، وتعليق، وأشهر من التصوير التى احتلت صحف اليوم التالى والتليفزيون والإذاعة، مر تعليق قصير لأحد علماء الزلازل المتحفظين، "أريد أن أعرف كيف يمكن أن يحدث هذا كله دون أن تهتز الأرض؟"، وأجابه عالم زلازل آخر ينتمى إلى المدرسة الحديثة، عملى ومتساهل، "سنشرح الأمر فى حينه". حسناً والآن، فى إحدى قرى جنوب إسبانيا، كان هناك رجل يسمع تلك الخلافات، خرج من بيته متجهاً إلى غرناطة، ليقول لرجال التليفزيون إنه يشعر باهتزاز الأرض منذ ثمانية أيام، وإن كان قد التزم الصمت حتى الآن، فذلك لأنه فكر أن أحداً لن يصدقه، وإن كان جاء، شخصياً، ليعرفوا كيف أن رجلاً بسيطاً يمكن أن يكون أكثر حساسية من كل علماء الزلازل معاً. حتّم قدره أن يسمعه أحد الصحفيين وربما تعاطفاً معه، أو تحت وقع الحدث الغريب، قام بتلخيص الخبر الجديد فى أربعة أسطر، والخبر، رغم أنه غير مرفق بصورة، تمت إذاعته فى نشرة الأخبار الليلية، مع ابتسامة خفيفة، وفى اليوم التالى، قام التليفزيون البرتغالى، نظراً لنقص الأخبار الخاصة به، باستغلال الخبر وتوسيع

الموضوع، واستمع فى الأستوديو إلى خبير متخصص فيما وراء الطبيعة، لم يضف شيئاً يوضح الحدث، وأهم ما جاء فى رأيه، إن الأمر يتعلق دائماً بمدى الحساسية.

سيتحدثون كثيراً عن الأسباب والنتائج، ودائماً باهتمام زائد، مع الالتزام بالمنطق، واحترام القيم، والتوقف عن إبداء الرأى، فتكون النتيجة أن الجميع لم يخرجوا من المأزق. وفى النهاية سيتم قبول الشك الطبيعى والمقبول. إن ذلك الخط على الأرض، الذى رسمته جوانا كاردا بعصاها الدردارية، يعتبر السبب المباشر لتصدع جبال البرانس، وهو ما كنا نحاول قوله منذ البداية. لكن فى الوقت نفسه لا نرفض الفعل الآخر كواقع، وهو أن يخرج جواكيم زازا بحثاً عن بدرو أورثى لأنه سمعهم يتحدثون عنه فى نشرة الأخبار الليلية، وذكر له ذلك.

■■■

## ـ ٣ ـ

أمٌّ عاشقة، أوروبا منكوبة بأراضيها المتطرفة، فى الغرب، ينتشر الجرانيت بامتداد السفوح البرانسية، وتنتشر المنزلقات، بعضها يقطع الطرق، وأخرى تقطع الأنهار، والمجارى، والمصبات تنحدر إلى ما لا نهاية. فى أعالى الجبال المغطاة بالثلوج، يمكن من الجو، رؤية خط أسود وسريع شبيه بخط البارود، حيث ينزلق الجليد ويختفى، بهمهمة بيضاء كعودٍ صغير. طائرات الهليوكوبتر تروح وتجىء بلا توقف، تراقب القمم والوديان، مليئة بالخبراء والمتخصصين فى مختلف المجالات الممكن الاستفادة منها، جيولوجيون، فرضتهم طبيعة المهمة، رغم منعهم من العمل على الطبيعة، وخبراء فى الزلازل، مندهشون، لأن الأرض تواصل تماسكها، دون حركة ولا حتى مجرد اهتزاز، وأيضاً متخصصون فى البراكين، لا يخفون أملهم فى حدوثها، رغم أن السماء خالية، ولا أثر لدخان أو نار، سماء

صافية ومستوية فيها زرقة أغسطس، فيما خط البارود لا يخفى على العين، إنه خطر لو انتبهنا إلى وجوده، بين هذا وذاك، إذا لم نكن قد احتطنا من قبل، فإن القوة البشرية لا تستطيع السيطرة على سفح ينشق كالرمانة، دون ألم ظاهر، ومن نحن لنعرف أنه لم يكن كذلك، فقط بعد أربع وعشرين ساعة، بعد أن ذهب بدرو أورثى إلى التليفزيون ليقول ما نعرفه، لم يعد ممكناً، عبور الحدود سيراً على الأقدام أو فى 'السيارات، من الأطلنطى إلى المتوسط، وفى أراضى السهول الجانبية أصبحت البحار كلٌّ فى جانب، وبدأت المياه تدخل فى مجارٍ جديدة، فوّهات غامضة، خفية، فى كل مرة أكثر ارتفاعاً، بتلك الجدران الهيولية، كالبندول الرأسى، القطع أملس، والجوف من الحجر الأسود، والجرانيت، وهناك الكثير مما لا نستطيع ذكره؛ لقلة حيلة الراوى وتوفيراً للوقت. والآن هيا بنا نتعرف على الإجابة التى قدمها الجيليقى الذى سأل، "إلى أين تذهب المياه؟"، سنقول له، تذهب إلى البحر، كمطر خفيف جداً، فى شكل ذرات، من مساقط، طبقاً للارتفاع الذى يسقط منها وكمية المياه، لا، نحن لا نتحدث عن نهر إيراتى، إنه بعيد، ولكن يمكن المراهنة على أن كل هذا مطابق لما نعرف، ألعاب مائية، قوس قزح أيضاً، عندما تتمكن الشمس من الدخول إلى تلك الأعماق المظلمة.

غادر الناس بيوتهم، فى مساحة تصل إلى حوالى مائة كيلومتر على جانبى الحدود، انسحبوا إلى الأمان

النسبى للأراضى الداخلية، الحالة المعقدة الواحدة كانت حالة أندورّا، ذلك البلد، الذى نكاد ننساه، وهو أمر تخضع له البلاد الصغيرة كلها، مع أنه كان يمكن أن تكون أكبر من ذلك، فى البداية، لم يكن هناك شك فى نتائج تلك الصدوع، وكانت على الجانبين، وعلى كلا جانبى الحدود، وأيضاً لأن سكانها بعضهم إسبان، والبعض الآخر فرنسيون، وآخرون ينتمون إلى اندورّا، كل واحد اتجه حسب عقيدته الطبيعية، آسف لا، تحت وطأة الأسباب والمصالح الآنية، مع وجود خطر انقسام العائلات والمجتمعات الأخرى، فى النهاية، استقر خط الانقسام على الحدود مع فرنسا، الفرنسيون القلائل تم تهجيرهم فى عملية إنقاذ رائعة أطلقوا عليها اسم "Mitre d,Eveque"، اسم لم يعجب به قس أُورجيل، الذى كان صاحب هذه التسمية بشكل عفوى، وإن كان سعيداً بالعملية نفسها، بالنظر إلى المستقبل، فسوف يكون الحاكم الأوحد لهذا البلد، الذى يوجد على الجانب الإسبانى فقط، ولا يزال بعيداً عن السقوط فى البحر، فى ذلك الخلاء الناشئ عن التهجير العام، لم يعد يمر هناك سوى العسكريين تحت رقابة طائرات الهليوكوبتر، وعلى استعداد لالتقاطهم عند حدوث أقل حركة جيولوجية، وبالطبع اللصوص الذين لا يمكن تجنب وجودهم فى تلك اللحظة، وجميعاً منعزلون، فالكوارث تُخرج دائماً من أحشائها بيض الثعابين، وفى هذه الحالة، يتم إعدامهم كالعسكريين تماماً، دون أدنى رحمة ولا تُقام لهم

جنازة، وهناك من كانوا يسيرون وذِكْر العقيدة على شفاههم، كلٌّ طبقاً لإيمانه، كل إنسان له الحق فى حب وحماية الله له، وإن كان فى حالة اللصوص فإن عقيدتهم أن من غادر بيته ليس له الحق فى الحياة واستغلالها، إنه حكم عادل جداً، والحقيقة قائمة، فكل واحد يقرر ما سيجده فى الأمثلة حسب مصالحه.

يكمن هنا التأسف الأول، إن الذى نرويه هنا لم يكن كتاباً أوبرالياً، لو كان الأمر كذلك لدفعنا باتجاه الكواليس تنغيماً لم يُسمع أبداً من قبل، عشرون مغنياً، ما بين غنائيين ودراميين من جميع الطبقات الصوتية، يغردون الأجزاء، جزءاً جزءًا أو معاً، متتالية أو متوازية، من يعرف، فإن اجتماع الحكومتين الإسبانية والبرتغالية، وقطع خطوط المواصلات والكهرباء، وإعلان المجموعة الاقتصادية الأوروبية، وموقف منظمة حلف شمال الأطلنطى، وهروب السواح هلعاً، واحتلال الطائرات، واختناق المرور على الطرقات، ولقاء جواكيم زازا مع بدرو أورثى، وقلق الثيران فى إسبانيا، وعصبية الأفراس فى البرتغال، وهلع شواطئ المتوسط، وتخبط المد والجزر، وهرب الأثرياء وأصحاب رءوس الأموال، وقريباً لن نعثر على مطربين. تدور من حولنا الأرواح الهائمة، حتى لا نقول المتشككة، تريد أن تعرف أسباب كل هذه الأشياء المتفرقة، ونتائجها الخطيرة، والتى لن تقتنع بتفسير أن خطأ على السفح كان السبب فى هذا كله، تسبب

فى تحويل الأنهار إلى شلالات ودفع بالبحر عدة كيلومترات إلى داخل اليابسة، بعد عدة ملايين من السنوات من انسحابها عنها. لأنه، وفى تلك النقطة النحس فإن اليد تتشكك، كيف يمكنها أن تكتب، بطريقة هادئة، الكلمات التالية، والتى ستُلزم الجميع لا محالة، خاصة فى الوقت الذى يكون فيه الأسهل التمييز، إن ما كان فى لحظة من الممكن فعله، حقيقة أم خيالاً. ولأنه، لا بد أن نُنهى ما بقى عالقاً، ببذل جهد كبير للتحويل بالكلمات ما يمكن تحويله فقط بالكلمات، لقد جاءت اللحظة للقول، إن شبه الجزيرة الأيبيرية انفصلت فجأة. بكاملها وقطعة متساوية، عشرة آمتار فجائية، من سيصدقنى، لقد سقطت جبال البرانس من أعلى إلى أسفل كما لو سقطت عليها بلطة غير مرئية، ولدت فى التصدعات العميقة، قاطعة الأرض حتى البحر، والآن نعم، والآن يمكننا أن نرى إيراتى ساقطاً، ألف متر، فى اللانهائى، سقوطاً حراً مخترقاً الريح والشمس، كمروحة زجاجية أو ذيل طائر من طيور الجنة، إنه أول قوس قزح معلق على حافة الجحيم، أول دوار لباشق يطير بأجنحة مبتلة، ومصبوغاً بالألوان السبعة. وسنرى أيضاً أداة الرؤية، الجبل المفقود، والمنقار الشطط، لألفى متر، ثلاثة آلاف متر من الانحدار الرهيب، ولا تصل الرؤية إلى أعماقه. مضبب بالمياه والمسافة، وبعدها تأتى السحب الجديدة عندما تتسع المسافة، هذا مؤكد تأكيد وجود القدر تماماً.

يمر الوقت، وتكاد الحقيقة لا تبين بين الحقائق، كانت واضحة من قبل ومحددة المعالم، وقتها، كانت هناك رغبة طموحة فى معرفة الوقائع، فلنسأل شهود تلك الفترة، ونطلع على وثائق عديدة، صحف، وأفلام، وتسجيلات بالفيديو، أخبار، ومذكرات خاصة، ومخطوطات، خاصة العتيقة منها، ولنستجوب الأحياء، بحسن نية من ناحية، ومن ناحية أخرى نحاول أن نجعل الشيخ يعتقد فيما شاهد أو سمع فى طفولته، ومن كل هذا نستطيع أن نستخرج الخلاصة، وأمام نقص الحقائق يمكن الادعاء بوجودها، ولكن الإيجابى الذى أمكن التوصل إليه هو أنه حتى لحظة انفجار خطوط التيار الكهربائى لم يكن هناك خوف حقيقى فى شبه الجزيرة، رغم أنهم قالوا العكس، بعض الانزعاج نعم، لكن لا خوف، وهو شعور من نوع آخر. بالطبع هناك كثير من الناس يحتفظون فى ذاكرتهم الحية بالمشاهد الدرامية، عندما اختفت الخرسانة عن أنظار الذين كانوا يصرخون، "الجيران، الجيران"، لكن الواقع أن الحدث كان مؤثراً على كل من كانوا هناك، الباقون شهدوه من بعيد، فى البيت، فى ذلك المسرح المنزلى الذى يدعونه التليفزيون، فى المستطيل الزجاجى، فناء المعجزات حيث تمسح الصورة سابقتها دون أن تترك لها أثراً، كله فى حجم مصغر، حتى العواطف. وأولئك المشاهدون ذوو الحساسية المفرطة، والحق يقال موجودون، هؤلاء لم يتقبلوا ابتلاع أو إخفاء ما وقف فى حلوقهم، أولئك فعلوا ما اعتادوا

عليه عندما لا يستطيعون التحمل أكثر من ذلك، أمام الجوع فى إفريقيا وكوارث أخرى، فغضوا أبصارهم. على هامش هذا، لا ننسى أنه فى جزء كبير من شبه الجزيرة، فى داخلها البعيد والعميق، حيث لا تصل الصحف ويكادون لا يفهمون التليفزيون، هناك ملايين، نعم، ملايين من الأشخاص الذين لم يفهموا ما كان يحدث، أو لديهم فكرة طفيفة عنه، مكونة من كلمات لا يُفهم معناها بالكامل، أو، ولا حتى ذلك، فارق ضعيف جداً بين ما يعتقد أحدهم إنه يعرفه وما يجهله الآخر.

لكن عندما انطفأت جميع أنوار شبه الجزيرة الأيبيرية فى وقت واحد، "الانطفاء" كما أطلقوا عليه فى إسبانيا، و"السواد" كما قالت قرية برتغالية لا تزال تنحت الكلمات، عندما اختفت عن وجه العالم مساحة خمسمائة وثمانون ألف كيلومتر، عندها لم يعد هناك شك، لقد حلت نهاية كل شىء. لحسن الحظ إن انقطاع التيار الكهربائى لم يستمر لأكثر من خمس عشرة دقيقة، حتى تمكنوا من تشغيل توصيلات الطوارئ، التى شغلت قوى الطاقة المحلية، وهى قليلة فى هذا الوقت من السنة، نحن فى عز الصيف، عز أغسطس، والجفاف، لا توجد بحيرة واحدة، وقلة المفاعلات النووية، تلك المفاعلات النووية الملعونة، لكنه كان ضجيجاً أيبيرياً كالشياطين الطليقة، الخوف البارد، الساحرات مجتمعات، أى زلزال كان يمكنه ترك آثار أخلاقية أسوأ من ذلك. كان الوقت ليلاً، أو

فى بدايته، عندما كان معظم الناس قد عادوا إلى بيوتهم، بعضهم كان جالساً أمام التليفزيون، والنساء فى المطابخ لإعداد العشاء، أوضح أب أكثر صبراً، بشك، أن المشكلة حسابية، لا يبدو أنه كان مقنعاً جداً، لكن سرعان ما سيبدو تحليله صائباً، هذا الرعب، تلك الظلمة القاتمة، تلك البقة السوداء التى سقطت على أيبيريا، "لا تمنع عنا النور يا الله، أعده وأعدك ألا أطلب منك شيئاً آخر حتى نهاية حياتى"، هذا ما قاله العصاة التائبون، وكثيراً ما يغالون فى الكلام. من يعيش فى الطابق الأرضى يمكنه أن يتخيل نفسه داخل بئر مغلقة ومن يعيش فى طابق علوى، يجد نفسه أعلى بكثير، على البعد لا يمكن رؤية ضوء واحد، بدا كما لو أن الأرض قد غيرّت مكانها وتدور الآن فى فضاء بلا شمس. بأيدٍ مرتعشة أضيئت الشموع، والقناديل الكيروسينية المعدة لحالات الطوارئ، لكن ليس لمثل هذه الحالة، وشمعدانات من الفضة الثمينة، لأن البرونزية لاتصلح سوى للزينة، شمعدانات الصفيح، وقناديل الزيت المنسية، أضواء ضعيفة زرعت الظلال على الظلال وعكست أضواءها على وجوه مرتعبة، لا شكل لها كما لو كانت منعكسة على الماء. صرخت كثير من النساء، واقشعر بدن كثير من الرجال، وعن الأطفال يمكننا أن نقول إنهم بكوا جميعاً. مضت خمس عشرة دقيقة، كما لو كانت خمسة عشر قرناً، رغم أنه لم يعش أحد قروناً ليقارن بها، عاد التيار الكهربائى، شيئاً فشيئاً، ضئيلاً، كل لمبة

كعين نائمة تلقى بنظرات مضببة على من حولها، وأخيراً عاد النور إلى طبيعته كما كان سابقاً.

بعد أن بدأ التليفزيون والإذاعة فى العودة إلى الإرسال بنصف ساعة، بدءوا فى تقديم أخبار الحدث، فافترضنا أن جميع خطوط الضغط العالى بين إسبانيا وفرنسا قد انقطعت، سقطت بعض الأبراج، بالطبع بعد أن نسى بعض المهندسين قطع التيار، فأصبح من المستحيل خفضها. ومن حسن الحظ أن الحرائق الناتجة عن انقطاع الكابلات لم تتسبب فى ضحايا، إنها طريقة أنانية فى الكلام، لأنه لو كان حقيقة لم يمت أى إنسان، فهناك ذئب واحد على الأقل لم يتمكن من الهرب من النار، وانتهى إلى قطعة من الفحم المشتعل. لكن انفجار الأسلاك كان نصف الحقيقة وراء انقطاع النور، والنصف الآخر، رغم التوضيحات المنمقة الكلمات، فقد ظل غامضاً، وأن السبب لم يكن فقط بسبب الصدع الأرضى، لو كان الأمر كذلك ما انقطعت الكابلات، إذًا ماذا يمكن أن يكون قد حدث، إنها هكذا، شىء أبيض وتضعه الدجاجة، ولكنه هذه المرة ليس البيضة، الكابلات انقطعت بسبب الشد، والشد ناتج عن انشقاق الأرض وابتعادها عن بعضها، أقول لك، أقول لك، سترى كيف أنهم فى النهاية سيضطرون إلى الاعتراف بالحقيقة. بالضبط، ولكنهم لم يفعلوها حتى اليوم التالى، بعد أن انتشرت شائعات كثيرة ولم يعد الأمر مجرد خبر لا أكثر، بل شائعات حقيقية، ولم يعد مقبولاً أن تزداد البلبلة، لكنهم لم يذكروا كل شىء، ولا بوضوح، تأكد

تلك كلمات محددة، التى تقول إن تغيراً فى التركيب الجيولوجى للسهل البرانسى تحول إلى خط متواصل، وهو ناتج عن عمل فيزيقى، فقطع مؤقتاً المواصلات الأرضية، بين فرنسا وشبه الجزيرة، والسلطات تراقب الوضع عن كثب، ولا تزال الاتصالات الجوية قائمة، وكل المطارات مفتوحة وتعمل بكامل طاقتها، وأنه من الغد ستتضاعف حركة الطائرات.

لقد كانوا محددين جداً، بعد أن تأكد أنه لم يعد ممكناً إخفاء حقيقة أن شبه الجزيرة قد انفصلت عن أوروبا بالكامل، فقد غادر المئات من السواح بطريقة عاجلة، ولم يدفعوا حسابات الإقامة فى الفنادق، والمطاعم والبنسيونات والشقق المفروشة، والمخيمات، والمحال التجارية، والبارات، وشكلوا اختناقاً مرورياً كبيراً، وازدادت المشكلة حدة بعد أن بدأ بعضهم يترك السيارات فى أى مكان، مر وقت قبل أن يحدث هذا، لكنه كان كالبارود، فالناس بطبعهم بشكل عام متأنون فى الفهم وقبول خطورة الوضع، مثلاً، فكرة أن السيارة لا تفيد فى شىء؛ لأن الطرق مع فرنسا مقطوعة. حول المطارات، كالسيول، كانت هناك كمية من السيارات من جميع الأحجام والأشكال والماركات والألوان تسد الطرقات والمسارات المؤدية إليها، أما الإسبان والبرتغاليون بعد أن أفاقوا من انقطاع التيار، سيطر عليهم الرعب دون سبب، مع أنه لم يمت أحد حتى تلك اللحظة، هؤلاء الأجانب، ما إن تخرجهم من روتينهم، حتى يصيبهم الجنون، إن هذا هو نتيجة

تقدمهم التكنولوجى والعلمى الكبير، بعد إصدارهم هذا الحكم قرروا الاختيار، بين ترك السيارات لحالها، والأكثر راحة لهم. فى المطارات، هجم الناس على مكاتب الشركات الجوية، صرخات وهستيريا، فى محاولة للحصول على تذاكر، ومارسوا الرشوة التى لم يشاهدها أحد من قبل للحصول على تذكرة، كل شىء يُباع، وكل شىء يُشترى، حلى، ماكينات، ملابس، حجوزات مخدرات، يتم نقاشها فى العلن، "السيارة هناك فى الخارج، وهذا هو المفتاح والوثائق"، "إذا لم أجد مكاناً للسفر إلى بروكسيل سأسافر ولو إلى إستنبول، إلى الجحيم"، هذا السائح كان من التائهين، كان فى القرية ولم يشاهد البيوت، المحملة بذكريات مكتظة، والحواسب توقفت عن العمل نتيجة الضغوط التى تتعرض لها، فتضاعفت الأخطاء حتى توقفت تماماً. لقد توقف بيع التذاكر، هجم الناس على الطائرات، إنه مشهد مخيف، الرجال أولاً لأنهم الأقوى، بعدهم النساء الضعيفات والأطفال الأبرياء، وهم ليسوا قلة، سُحقوا بين الباب والممر وسلم الدخول. سقط أول الضحايا، وبعدها التالية والثالثة عندما حاول أحدهم أن يفتح لنفسه طريقة حاملاً مسدساً وقتله رجال البوليس. بدأ تبادل لإطلاق النار، كانت هناك أسلحة أخرى بين الجموع وانطلقت، ليس مهماً أن نقول فى أى مطار حدثت هذه المأساة، هذا الحادث المؤسف وقع فى مكانين أو ثلاثة غير هذا، وإن كانت نتائجها أقل خطورة، مات هناك ثمانية عشر شخصاً.

فجأة، تذكر أحدهم أنه يمكن الهرب عن طريق البحر، فبدأ سباق آخر للهرب. وازداد عدد الهاربين، فعادوا من جديد بحثاً عن سياراتهم المهجورة، بعضهم عثر على سيارته، آخرون لا، لكن ماذا يهم كل هذا، إذا لم تكن معهم مفاتيحها، أو أن المفاتيح لا تصلح لشيء، بعضهم قام بعمل توصيلات بين الكابلات، ومن لا يعرف تعلم، تحولت إسبانيا والبرتغال إلى جنة للصوص السيارات. عندما يصلون إلى الموانئ، يبحثون عن قارب بخارى أو حتى بمجاديف يحملهم، أو حتى قارب خشبى، جرار، مركب شراعى، وهكذا يتركون كل ما يملكون فى تلك الأرض الملعونة، يهربون بملابسهم التى يرتدونها وربما بأكثر من ذلك بقليل، منديل قذر، ولاعة بلا غاز ولا تصلح لشيء، ربطة عنق لم تعجب أحداً، لم يكن شيئاً طيباً أن ننتهز الفرصة للسخرية من سوء حظ الغير، ذهبنا كقراصنة الشواطئ لسرقة الغرقى. الفقراء يركبون ما استطاعوا، أو حيث يسمحون لهم، بعضهم تركوهم فى إبيثا، مايوركا أو مينوركا، فى فوينتبنتورا، أو فى جزر كابريرا أو كونيخيرا، كل لمصيره، وبقى سيئو الحظ منهم، ما بين جواتيمالا وجواتبيور، حقيقة إن الجزر لم تتحرك من مكانها حتى الآن، لكن من يستطيع أن يتوقع ما قد يحدث غداً، فقد كان مؤكداً أن جبال البرانس ثابتة إلى الأبد، والآن انظر ما يحدث. آلاف وآلاف هربوا إلى المغرب، هربوا من إقليم الغربى البرتغالى كما هربوا من الشواطئ الإسبانية، أولئك الذين كانوا

بالقرب من الجنوب الغربى، من كانوا فى الشمال فضلوا الوصول إلى أوروبا لو أمكن هذا، لو سألنا كم منهم يريدون الذهاب إلى أوروبا، يرفع القبطان الفرنسى حاجبيه دهشة، ويبدى احتقاره، وينظر إلى الهارب ويقدر إمكاناته هل تعرف حضرتك، أن أوروبا فى المكان الذى فقد فيه المسيح عباءته، أى فى نهاية العالم؟"، لا فائدة من الرد عليه، يا له من تطرف، "إنها تبعد عشرة أمتار فقط"، فى إحدى المرات تجرأ هولندى واستخدم سفسطته، وتدخل سويدى معه، فأجابوهما بعنف، "آه، إذا كانت عشرة أمتار فاذهبا سباحة"، وتعين عليهما الاعتذار وضاعفا لهما الأجر. ازدهرت التجارة، واتفق الجميع، قامت الدول بعمل جسور جوية لنقل مواطنيها بشكل جماعى، وحتى بعد هذا العمل الإنسانى، هناك من كوَّن ثروة من بين البحارة والصيادين، يكفى أن نذكر أنه ليس كل المسافرين كانوا شرعيين، هؤلاء كانوا على استعداد لدفع ما يُطلب منهم، لم يكن أمامهم طريق آخر، الدوريات البحرية للبرتغال وإسبانيا كانت تحرس الشواطئ بشكل مكثف، وفى حالة طوارئ، وتحت سيطرة القوات البحرية لكلا البلدين.

كان هناك أيضاً سياح قرروا عدم السفر، تقبلوا الانقطاع الجغرافى كقدر لا مفر منه، واعتبروه حكماً قدرياً، وكتبوا لعائلاتهم، أو على الأقل كانت لديهم النية لذلك، وجعلوهم لا يفكرون فيهم أكثر من ذلك، فقد انحسر العالم عنهم، والحياة، أو كان الذنب

ذنبهم، كانوا بشكل عام ممن لا يملكون قدرات مادية، من أولئك الذى يؤجلون اتخاذ القرارات، يقولون دائماً، غداً، غداً، لكن هذا لا يعنى أنه لم يكن لديهم أحلام، أو رغبات، السيئ هو الموت قبل اتخاذ القرار. آخرون فضَّلوا السكوت، وفقدوا الأمل، اختفوا ببساطة، ونسوا أو قرروا النسيان، الحقيقة أن كل واحد من هؤلاء يمكن أن تكون قصته رواية فى حد ذاتها، حكاية ما تمكنوا فعله، حتى لو لم يصبحوا شيئاً، ستكون حكاية أخرى، فليست الحكايات كلها سواء.

هناك من كان يحمل على كتفيه واجبات ثقيلة، ولا يستطيع الهرب منها، إلى درجة أنه عندما تسير تجارة الوطن بشكل سيئ نتساءل على الفور، وهؤلاء ماذا يفعلون، ماذا ينتظرون، نفاد الصبر هذا فيه الكثير من الظلم، فى النهاية هم مساكين، هم أيضاً لا يستطيعون الهرب من القدر، كل ما يستطيعونه أن يقولوا للرئيس ألا يعتمد عليهم، لكن وضعاً كهذا، سيكون عاراً عليهم، سيحاكم التاريخ المسئولين الذين يتركون أماكنهم فى تلك الأيام، التى تُغرق فيه المياه الجميع. كل واحد من جانبه، فى البرتغال وإسبانيا، قرأت كل حكومة بيانات للطمأنينة، وأكدا أن الوضع ليس حرجاً، لغة غريبة، وأن كل الوسائل متاحة لإنقاذ الأفراد والممتلكات، وفى النهاية، توجه رئيسا الحكومتين إلى التليفزيون، لتهدئة الأحوال، وظهر هناك الملك أيضاً فى إسبانيا، والرئيس هنا فى البرتغال، وتكلما، أجاب البرتغاليون والإسبان على

النداء مجتمعين، نعم، نعم، إنها كلمات، فقط كلمات.
وأمام عدم رضاء الجماهير، اجتمعا فى مكان سرى بأعضاء من حكومتى البلدين، بشكل منفرد ثم مجتمعين، قضوا يومين من المباحثات المضنية، وتقرر فى النهاية تشكيل لجنة "أزمات"، هدفها الرئيسى تنسيق عمليات الدفاع المدنى بين البلدين، على أساس تقوية الإمكانات الأساسية للبلدين، والأدوات الفنية والبشرية لمواجهة التحدى الجيولوجى الذى فصل شبه الجزيرة عن أوروبا عشرة أمتار، هذا إذا لم يتسع إلى أكثر من ذلك، قالوا ذلك فيما بينهم بشكل سرى، عندها سيكون الوضع خطيراً جداً، يمكن القول إنه بالنسبة للإغريق مجرد صدع، أو قناة أكبر قليلاً من كورينتو، الشهيرة، مع كل هذا، لا يمكننا أن ننسى أن مشاكل اتصالاتنا مع أوروبا، المعقدة تاريخياً، ستتأثر كثيراً، حسناً، فلنبن عدة جسور، قال أحد البرتغاليين، "بالنسبة لى، إن ما يزعجنى أن القناة قد تتسع كثيراً ويمكن للسفن أن تعبرها، خاصة ناقلات البترول، ستكون ضربة قاسية للموانئ الأيبيرية، وآثارها المهمة، ستكون عالمية، بالطبع هناك، كتلك التى نتجت عن افتتاح قناة السويس، أى يمكن القول إن شمال أوروبا وجنوب أوروبا سيكون لديهما اتصال مباشر، وسيفقد المرور بطريق الرأس قيمته، وسنبقى نحن لنرى مرور السفن"، الآخرون اعتقدوا أنهم فهموا أن السفن التى مرت هى التى تمر فى القناة الجديدة، مع ذلك، فقط نحن ـ البرتغاليين ـ فهمنا أنها سفن أخرى، محملة

بالظلال، والحنين، والهزائم، والأكاذيب والإحباطات، وعندما امتلأت حتى الحافة، صرخ أحدهم إلى الماء، لم يستجب له أحد.

خلال الاجتماع وطبقاً لما تم الاتفاق عليه مسبقاً، أصدرت المجموعة الاقتصادية الأوروبية بياناً رسمياً، من خلال كلمات يمكن أن يُفهم منها أن انفصال البلدين عن الغرب لا يؤثر على الاتفاقيات القائمة حالياً، خاصة أن المسافة الفاصلة لا تزيد عن بضعة أمتار، لو قارناها بالمسافة التى تفصل إنجلترا عن القارة، هذا إذا لم نتحدث عن أيسلاند وجيرولاند اللتين تبدو علاقتهما بأوروبا بعيدة بعض الشىء، هذا، كان واضحاً من الناحية الموضوعية، وجاءت نتيجة للنقاش الحاد داخل اللجنة، التى أبدت فيها بعض البلاد تحفظاتها، وهى إحدى الكلمات الصادقة من بين ما قيل، ووصلوا إلى حد التلميح بأن شبه الجزيرة الأيبيرية تريد الانفصال، تريد أن تبتعد، وأن السماح لها بالدخول كان خطأ من البداية. بالطبع كل هذا كان لعبة، فى تلك الاجتماعات الدولية الصعبة التى يحاولون فيها قضاء الوقت بأية طريقة، لأنه ليس كل شىء هو العمل، العمل، لكن كل من ممثلى البرتغال وإسبانيا فى اللجنة رفضا تلك التحركات غير المقبولة، والمثيرة والتى تعتبر مضادة للشعور الجماعى، ذاكرين، كل بلغته، معنى كلمة "أيبيرية"، فالأصدقاء يأتون عندما نحتاجهم. طُلب أيضاً من منظمة شمال الأطلنطى أن تصدر إعلاناً بالتضامن، لكن الإجابة،

وإن لم تكن سلبية، تم تلخيصها فى جملة مائعة، ننتظر ونرى Wait and see، وهو من ناحية أخرى ما لا يعبر عن الحقيقة كاملة، مع الاعتبار، ربما، كان يمكن إعلان حالة الطوارئ فى القواعد العسكرية فى باجا وروتا وجبل طارق والفرول وتوريخون دى أردوث وكارتاخينا وسان خورخى دى بالفنثويلا، دون أن نذكر قواعد أخرى أقل أهمية.

تحركت حينها شبه الجزيرة الأيبيرية أكثر قليلاً، مترين، كما لو كانت تختبر قوتها. تشهد على ذلك الحبال، المربوطة من اتجاه إلى آخر، انقطعت كما لو كانت مجرد خيوط، بعضها كان أكثر قوة وانتزع الأشجار والأعمدة التى كانت مربوطة بها من أساسها. ثم توقفت بعدها لفترة من الوقت، وشعور بمرور هبة هواء، كما لو كان أول شهيق عميق لشخص استيقظ، والكتلة المكونة من الحجر والطين، ومغطاة بالمدن والقرى والأنهار والغابات والمصانع والحشائش البرية، والحقول المزروعة، بناسها وحيواناتها، بدأت فى الحركة، كقارب يبتعد عن الميناء ويتجه مجدداً نحو البحر المجهول.

■■■

## ـ ٤ ـ

أشـجـار الـزيـتون تـلك "قـرطـبلـيـة"، أو "قـرطـفـيـة"، أو "قـرطـبـيـة"، مـاذا يهم، تـلك الأسـمـاء الـثـلاثـة تُسـتـخـدم، دون خـلاف، هـنـا فـى الأراضـى الـبـرتـغـالـيـة، والـزيـتـون الذى تنتجه، من نـاحيـة الحـجم والجمـال، نُطلق عليه هنا الـزيتونة الملكة، لكن لا نسميها قـرطبية، رغم أننا أقرب إلى قرطبة من أى حدود أخرى. تبدو تلك أشياء تـبـعـث عـلـى الاعـتـذار، وهـى تـافـهـة، مـجـرد تـغـيـيـرات صوتية، مصطنعة شكلياً لغناء مسطح ينطلق بأجنحة موسيقية، عندما يكون من الأهمية الحديث عن تلك الأسـمـاء الـثـلاثـة خلال الجـلوس تحت شـجـرة زيـتـون، أحـدهـم بدرو أورثى، والآخـر جواكيم زازا، والـثـالـث هـو جوزيه أنـايسو، ترى هل جمعتهم هنا أحداث خطيرة أم مجرد أنها الصدفة وحدها التى جعلتهم يجتمعون فى هذا المكان. لكن، القول إن شـجـرة الـزيـتـون قـرطـبـلـيـة يمكن أن يـكـون مـفـيـداً، عـلـى الأقل، للملاحـظـة إلـى أى

مدى اقتنعوا بشكل كامل، مثلاً، عندما قال الإنجيليون إن المسيح لعن شجرة التين، يبدو أنه كانت تكفى المعلومة فقط، ولكنها فى الحقيقة لا تكفى، لا يا سيدى، لأنه، بعد مرور عشرين قرناً، لا نزال نجهل إن كانت تلك الشجرة الملعونة تنتج تيناً أبيض أم أسود، مبكراً أم متأخراً، من النوع الجاف أم من ذلك المُسمى نقطة العسل، ليس هذا لأنه بسبب هذا النقص سنقلل من قيمة العلوم المسيحية، لكن من المؤكد أن الحقيقة التاريخية ستتأثر. هذه الزيتونة قرطبلية، إذًا، وجلوس ثلاثة رجال تحتها، بعيداً عن الغابات، وبشكل خفى، هناك قرية عاش فيها بدرو أورثى، تلك المصادفة الأولى منها، إن لم تكن بالضبط؛ لأن لكليهما نفس اللقب، الشخص والقرية يحملان الاسم نفسه، مما لا يزيد ولا ينقص من احتمالات الحكاية، عن رجل يمكن أن يكون اسمه "رأس الثور" أو "المناخ السيئ" ولا يكون جزاراً أو رجل أرصاد جوية. لقد سبق أن قلنا إنها مصادفات، وتحايلات، لكنها بحسن نية.

كانوا يجلسون على الأرض، بينهم يتناغم صوت مشوق ينبع من راديو تكاد بطاريته تنفد، وما كان يقوله المذيع هو ذاك، «طبقًا» للقياسات الأخيرة، فإن سرعة انفصال شبه الجزيرة استقر على سبعمائة وخمسين متراً فى الساعة، أى حوالى ثمانية عشر كيلومتراً فى اليوم، لا تبدو مسافة كبيرة، لكننا لو حسبنا بالحسابات التفصيلية، هذا يعنى أنه فى كل دقيقة نبتعد عن أوروبا ثمانية أمتار ونصف المتر، وإن

كنا نريد الابتعاد عن السقوط فى الجحيم، فإن الوضع يبدو مزعجاً"، "ومزعج أكثر لو قلنا إننا نبتعد بسرعة أكثر من سنتيمتر فى كل ثانية"، قال جوزيه أنايسو، رغم أنه سريع فى الحسابات العقلية فإنه لن يصل إلى الأرقام العشرية والسنتيمترية، طلب منه جواكيم زازا أن يصمت، يريد سماع المذيع، وكان ذلك مفيداً، طبقاً للمعلومات الواردة إلى إدارة تحرير الأخبار، ظهر صدع كبير بين شبه الجزيرة وجبل طارق، وهذا يعنى، مع الأخذ فى الاعتبار النتائج الخطيرة، أن الجبل سيبقى منعزلاً فى منتصف البحر، ولو حدث هذا لن نتهم البريطانيين، والذنب، نعم، سيكون ذنبنا نحن، ذنب إسبانيا؛ لأنها لم تستطع استعادة تلك القطعة المقدسة فى الوقت المناسب، وفات الوقت الآن، فقرر الجبل أن يتركنا بنفسه، قال بدرو أورثى، "إن هذا الرجل فنان فى الكلام"، لكن المذيع كان قد بدأ فى تغيير نغمة صوته، المشوبة بالعاطفة، "وزع مكتب رئيس وزراء بريطانيا بياناً يقول فيه إن حكومة صاحبة الجلالة البريطانية تؤكد على ما تسميه حقوقها فى جبل طارق، والتى تأكدت بالفعل الذى لا يقبل الشك، فقد انفصلت الصخرة عن إسبانيا، وهو ما يترتب عليه اتخاذ قرار أحادى الجانب بالوقف النهائى لكل المباحثات حول الموضوع، وإشكالية، نقل السيادة"، قال جوزيه أنايسو، "هذا لا يعنى أن الإمبراطورية انتهت"، فى البيان أمام البرلمان طالبت المعارضة صاحبة الجلالة تسليح الجانب الشمالى للصخرة حتى تصبح

محصنة بكاملها، وتسبح متعجرفة فى المحيط الأطلنطى المتسع، كرمز خالد، "إنهم مجانين"، همهم بدرو أورثى وهو ينظر باتجاه الجبال الراسخة أمامه، "من ناحية أخرى، فإن الحكومة تحاول التخفيف من حدة تأثير ما حدث، أجابت، بأن جبل طارق، فى الواقع الجيولوجى الجديد سيظل أحد جواهر تاج صاحبة الجلالة البريطانية، وهو شكل طبقاً للدستور يُرضى الجميع". هذه الجملة النهائية تقع على عاتق المذيع، الذى أنهى حديثه بالقول، "سنعود لإذاعة الأخبار فى موعدها، خلال ساعة من الآن، إلا إذا حدث ما يستدعى عكس ذلك". مرَّ سرب من الزرازير على السفح الحارق كما لو كان عاصفة، فرررووو، "إنها زرازيرك"، قال جواكيم زازا، وأجاب جوزيه أنايسو، حتى دون أن ينظر، "نعم هى لى"، من واجبه أن يعرف، منذ ذلك اليوم الأول، فى الحقول الخضراء، ومن وقتها تكاد لا تفارقه، فقط إلا لتأكل أو تنام، الإنسان لا يُطعَم من الديدان والحبوب الساقطة، الطائر ينام على الأشجار، بلا شراشف. دار السرب دورة واسعة، مصدراً صوتاً مزعجاً بأجنحته، فيما تمتص مناقيرها الهواء والشمس، والأزرق، والسحب القليلة، البيضاء الساكنة، تسبح فى الفضاء كسفن، والرجال، هؤلاء، جميع الآخرين، ينظرون إلى تلك الأشياء المختلفة، كالعادة، ولا يتوصلون إلى فهمها.

لم يكن لمجرد السماع، جهاز راديو ببطاريات يمكنك أن تنتقل به إلى أماكن مختلفة، ويجتمع هنا

بدرو أورثى وجواكيم زازا وجوزيه أنايسو. عرفنا منذ ثلاث دقائق أن بدرو أورثى يعيش فى القرية المتخفية وراء تلك الحوادث، وعرفنا من البداية أن جواكيم زازا جاء من شاطئ فى شمال البرتغال، وجوزيه أنايسو، نعرف الآن بشكل مؤكد، أنه كان يتنزه فى حقول ريباتيجو عندما اصطدم بالزرازير، وربما كنا عرفنا على الفور لو أننا انتبهنا بشكل جيد إلى المشاهد الأولى. ينقصنا الآن أن نعرف كيف التقى الثلاثة، ولماذا يتنقلون هنا بشكل خفى، تحت شجرة الزيتون، المكان الوحيد، بين الأشجار القصيرة التى تُثبِّت جذورها فى هذه الأرض البيضاء، وتنعكس الشمس على السهل كله، ويهتز الهواء، إنه الحر الأندلسى، رغم أننا بين الجبال، إلا أننا انتبهنا فجأة إلى تلك المواد المحيطة، وعدنا إلى العالم الواقعى، أو أن الواقع اقتحم علينا المكان.

بالتفكير الجيد، لا بداية للأشياء والأشخاص، ما بدأ فى يوم ما فقد بدأ من قبل، حكاية هذه الورقة، هى النموذج الأقرب إلى اليد، وحتى تكون حكاية حقيقية وكاملة علينا العودة إلى بدايات العالم، وأن نراهن على الجمعى بدلاً من الفردى، ورغم هذا نشك فى أن هذه البدايات لم تكن مجرد نقاط عابرة، منحنيات للانزلاق، مسكينة رءوسنا، المربوطة إلى تلك التجاذبات، إنها رءوس تثير الإعجاب رغم كل شىء، رغم كل الأسباب لديها قابلية أقل للجنون عن غيرها.

إذًا ليست هناك بداية، لكن كانت هناك لحظة خرج فيها جواكيم زازا من حيث كان، فى شاطئ بشمال البرتغال، ربما كان أفيف، شاطئ الحجارة الملغزة، وربما شاطئ أ. فير. أو. مار، ربما هذا أفضل، لأنه يحمل أكثر أسماء الشواطئ جمالاً بالنسبة لخيال الشعراء وكُتاب الرواية غير القادرين على إبداع مثله. من هناك جاء جواكيم زازا بمجرد سماع أن شخصاً يُدعى بدرو أورثى من إسبانيا يشعر باهتزاز الأرض تحت قدميه، عندما لا تهتز الأرض، وطبيعى جداً أن ينتبه من قذف الحجر الثقيل إلى البحر بقوته الضعيفة، خاصة إذا كان مثل هذا الحجر تسبب فى انتزاع شبه الجزيرة من أوروبا، بلا انفعال ولا ألم، كشعرة تسقط فى صمت، فقط بإرادة الله، كما يقولون. بدأ طريقه، بسيارته القديمة ذات الحصانين، دون أن يودع عائلته بشكل مؤلم، لأنه لم تكن له عائلة، ولا أبلغ رئيس المكتب حيث يعمل. لأن الوقت وقت إجازات، يمكنه السفر والعودة دون إذن مسبق، خاصة أنه ليس فى حاجة إلى جواز سفر عند عبور الحدود، مطلوب منه فقط إبراز الهوية الشخصية، وشبه الجزيرة كلها لنا. على الكرسى المجاور، يضع راديو ببطارية، يسليه بسماع الموسيقى، وثرثرة المذيعين، كان جهاز الراديو خفيض الصوت ومستتيماً كأغنية لسرير موسيقى، ومزعجاً بشكل مفاجئ، لأن هذا ليس وقتاً طبيعياً، فالأثير تقطعه الآن كلمات منفعلة، والأنباء التى تصل من البرانس، والرحيل، ومرور البحر

الأحمر، وانسحاب نابليون. هنا، فى الطرق الداخلية، المرور قليل، لا يمكن مقارنته بالمرور فى منطقة الغربى، ذلك التشوش والارتجاف، فى لشبونة، على طرقات الجنوب والشمال، ومطار بورتيلا الذى يبدو كميدان محاصر، هجوم من النمل، آكلة الحديد منجذبة إلى المغناطيس. سار جواكيم زازا بهدوء، عبر طريق بيرا المظلل، باتجاه قرية تدعى أورثى، بمحافظة غرناطة، فى إسبانيا، حيث يعيش الرجل الذى يتحدثون عنه فى التليفزيون، "سأذهب لأعرف إن كان حقيقة هناك علاقة لما حدث لى وهذا الشعور باهتزاز الأرض تحت قدميه، الواحد منا عندما يبدأ فى التفكير، ويربط الأشياء ببعضها، يكاد يخطئ دائماً، ويصيب أحياناً. حجرٌ مقذوفٌ إلى البحر، تهتز الأرض، وسهل ينشق"، كان جواكيم زازا يسير أيضاً بين الجبال، وإن كان لا يمكنه مقارنتها بتلك، لكنه يقلق فجأة، ولو حدث الأمر نفسه هنا، ما الذى سيشق جبال أستريلا، وأن تغرق المونديجو فى الأعماق، وأشجار الحور الخريفية بلا مرآة يمكنها أن تنظر فيها، انقلب تفكيره شاعرياً، لقد مر الخطر.

فى تلك اللحظة توقفت الموسيقى، ويقرأ المذيع الأخبار، لا تختلف كثيراً، الجديد الوحيد، وبشكل نسبى، يأتى من لندن، "ذهب رئيس الوزراء إلى مجلس العموم ليؤكد، بشكل قاطع، أن السيادة البريطانية على جبل طارق غير قابلة للنقاش، مهما كانت المسافة الفاصلة بين شبه الجزيرة الأيبيرية وأوروبا"، وزاد

زعيم المعارضة تأكيداً رسمياً، هذا هو، "نعرض تعاوننا وتعاون أعضاء حزبنا لدعمكم فى تلك اللحظة التاريخية"، لكنه أضاف إلى خطابه جملة ساخرة أضحكت أعضاء المجلس، قائلاً، "السيد رئيس الوزراء ارتكب خطأ خطيراً بإطلاق صفة شبه الجزيرة على الذى لا يشك أحد اليوم فى أنه، جزيرة، وإن لم تكن بالقوة التى عليها جزيرتنا، "بالطبع .of course" صفق أعضاء الأغلبية وتبادلوا الابتسامات المتواطئة مع المعارضة. لتوحيد السياسيين على شىء ليس هناك أفضل من البحث عن قضية وطنية، تلك حقيقة لا تقبل النقاش. ابتسم جواكيم زازا أيضاً، يا له من مسرح، وفجأة انقطعت أنفاسه، لقد ذكر المذيع اسمه، "نرجو من السيد جواكيم زازا الذى يسافر فى مكان ما بالبلاد، نكرر، نرجو من السيد جواكيم زازا، من فضلك، نطلب منه التكرم، أن يقدم نفسه على عجل إلى الحاكم المدنى الأقرب إلى مكان وجوده، ليعاون السلطات فى إيضاح أسباب الانقسام الجيولوجى الذى وقع فى البرانس، لأن السلطات المسئولة لديها الثقة فى أن السيد زازا لديه معلومات مفيدة للوطن، نكرر النداء، رجاء من السيد جواكيم زازا"، لكن السيد زازا لم يعد يسمع شيئاً، أوقف السيارة ليلتقط أنفاسه، والدم البارد، ويداه ترتعشان إلى درجة أنه لم يعد قادراً على القيادة، أذناه تطنان كقوقعة. "يا الله، وكيف وصل إليهم موضوع الحجر، لم يكن هناك أحد على الشاطئ، على الأقل لم أشاهد أحداً، ولم أُحدث

أحداً عن الموضوع، حتى لا يكذبوننى مؤكد أنه كان هناك من يراقبنى، لكن من سينتبه إلى شخص يلقى حجراً إلى الماء، شوفوا، لقد شاهدونى، يا لسوء الحظ، عندما وصلت تلك الحكاية إلى أسماع السلطات كان على الحجر أن يكون بحجمى، على الأقل، والآن ماذا أفعل؟ لن أستجيب للنداء، ولن أتقدم إلى أى حاكم مدنى ولا عسكرى، تخيلوا أى حوار عبثى فى مكتب مغلق، والحاكم يسجل، سيد زازا، قذفت حضرتك حجراً إلى البحر"، "نعم، قذفته"، "كم تعتقد أنه يزن؟"، "لا أعرف، ربما اثنان أو ثلاثة كيلوجرامات، أو أكثر، نعم، يمكن أن يكون كذلك"، "ها أمامك بعض الأحجار، جربها وقل لى أيها أقرب إلى وزن الحجر الذى قذفته"، "هذا"، "هيا نزنه، هكذا، حسناً، من فضلك تأكد بنفسك"، "لم أفكر أن الأمر سيصل إلى هذا الحد، خمسة كيلوجرامات وستمائة جرام"، "قل لى الآن، هل طرأ على ذهنك فى إحدى المرات أن تفعل هذا"، "أبداً"، "أنت متأكد"، "تماماً"، "ألا تعانى من اضطرابات عقلية أو عصبية، أو داء الصرع، أو مصاب بمرض السير أثناء النوم، أو أية تحولات من أنواع أخرى؟"، "لا يا سيدى"، "وفى عائلتك، هل يوجد أو وجدت حالات مماثلة؟"، "لا يا سيدى"، "سنقوم بعمل تجارب مغناطيسية، حاول الآن أن تجرب قوتك على هذا الجهاز"، "هنا، ما هذا؟"، "ميزان، اجذب بكل ما تستطيع من قوة"، "لا أستطيع أكثر من هذا، لم أكن أبداً بالقوة التى تتخيلها"، "يا سيد زازا، لا يمكن أن

تكون قد قذفت ذلك الحجر"، "أنا أيضاً أقول الأمر نفسه، لكنى قذفته"، "نعرف أنك قذفته، وهناك شهود، أناس يتمتعون بثقتنا، لذلك عليك أن تقول لنا كيف تمكنت من ذلك"، "لقد شرحت لك الأمر، كنت أسير على الشاطئ، شاهدتُ الحجر، رفعته وقذفته"، "هذا لا يمكن، الشهود أكدوا ذلك، هذا حقيقة، لكن الشهود لا يمكنهم معرفة من أين جاءتك القوة، وحضرتك نعم تعرف هذا"، "لقد قلت لك كل ما أعرفه"، "الوضع، يا سيد زازا خطير جداً، وأخطر من هذا، انشطار البرانس الذى لا يمكن تفسيره بالأسباب الطبيعية، لو كان الأمر كذلك لكنا فى حالة كارثة أرضية، ومن هذا المنطلق بدأنا فى دراسة الحالات الغريبة التى وقعت فى الأيام الأخيرة، وحالتك واحدة منها"، "أشك فى أن قذف حجر إلى البحر يمكن أن يكون سبباً من أسباب انشطار القارة"، "لا أريد الدخول فى جدل فلسفى عقيم، لكن أجبنى لو كنتَ ترى أية علاقة بين الفعل الذى ينتج عن ترك قرد مكانه على الشجرة قبل عشرين مليون سنة وتصنيع قنبلة ذرية"، "العلاقة هى، بالضبط، تلك العشرين مليون سنة"، "إجابة جيدة، لكن لنتصور الآن أنه من الممكن تكثيف الساعات الزمنية ما بين سبب، فى هذه الحالة قذف حجر، ونتيجته، وهى انشطار أوروبا، بكلمات أخرى، لنتخيل، إنه فى الأوضاع العادية، ذلك الحجر المقذوف إلى البحر لم ينتج عنه شىء حتى مرور عشرين مليون سنة"، "لكن، فى أوضاع أخرى، بشكل خاص فى الحالة غير العادية

التى ندرسها الآن، بالطبع ستظهر النتيجة بعد ساعات قليلة، أو أيام"، "إنه مجرد تكهن، فالنتيجة يمكن أن تكون شيئاً آخر، أو مجموعة متوالية منها"، "إذاً عليكم دراسة حالة أخرى غير عادية"، "هذا ما نفعله الآن، والإسبان أيضاً، مثل حالة ذلك الرجل الذى يشعر باهتزاز الأرض، فى هذا الاتجاه، بعد دراسة حالات غير عادية، يمكننا التحول إلى حالات اعتيادية"، "حالات اعتيادية، ماذا تقصد بتلك الكلمة"، "اعتيادى هو عكس غير عادى، إنه التضاد، لنتحول من غير عادى إلى الاعتيادى لو كان مطلوباً هذا، علينا أن نكتشف الحالة"، "عليكم أن تدرسوا كثيراً"، "لقد بدأنا بالفعل، قل لى من أين أتيت بتلك القوة"؟ لم يجب جواكيم زازا، لقد أخرس التخيل، لأن الحوار كان سيتحول إلى دوار، والآن عليه أن يكرر، لا أعرف، ويتكرر التالى فيما بعد، مع بعض التغيير، لكنه تغيير طفيف، رسمياً بشكل خاص، ولكن هنا عليه أن يكون حذراً، لأنه، كما تعرف، بهذا الشكل يمكن الوصول فى النهاية، من الإناء إلى المحتوى، من رنين الكلمة إلى معناها.

حرك السيارة ذات الحصانين، "هيا"، ترى هل يمكن قول هذا لسيارة، فكر، لم يعد مجرد مسافر عادى يتجه نحو الحدود، لم يعد رجلاً بلا هوية ولا أهمية، الآن لم يعد كذلك، ربما يقومون فى هذه اللحظة بطباعة إعلانات بصورته، وبياناته الشخصية، وعليها كلمة "مطلوب القبض عليه "Wanted بحروف

حمراء، بحثاً عن هذا الإنسان، نظر فى المرآة فوجد سيارة بوليس على الطريق، كانت تسير بسرعة حتى بدت وكأنها تريد الدخول من النافذة الخلفية لسيارته. قال، "لقد رأونى"، أسرع قليلاً ثم عاد على الفور إلى سرعته الطبيعية، دون أن يفرمل، لم يعد فى حاجة إلى ذلك، مرت سيارة البوليس مسرعة، ربما كانت فى طريقها لتنفيذ مهمة محددة، لم ينظروا نحوه، لم يتكهن رجال البوليس بهوية من يسير أمامهم، سيارة بحصانين، هناك الكثير منها، يبدو تناقضاً حسابياً، لكنه ليس كذلك، عاد جواكيم زازا إلى النظر فى المرآة، والآن ليرى نفسه، والتعرف على الراحة فى عينيه، لم تعكس المرآة أكثر من ذلك، مجرد وجه، من الصعب التعرف على صاحبه، إن كان هو جواكيم زازا، هذا ما نعرفه نحن، لكن من هو جواكيم زازا، رجل لا يزال شاباً، تعدى الثلاثين بقليل، أقرب إلى الثلاثينيات منه إلى الأربعينيات، وسيأتى يوم لا يستطيع تجنبها، حاجبان سوداوان، عينان كستنائيتان بمسحة برتغالية، وخط أنف واضح، وتقاطيع تبدو عامة، سنعرف عنه أكثر عندما يستدير نحونا، وحتى تلك اللحظة، فكر، إنه مجرد نداء من الإذاعة، الأسوأ سيكون على الحدود، والأسوأ، هو لقبى، زازا، كان الأفضل لى اليوم أن أحمل لقب "زوسا" المعتاد، بحث فى يوم من الأيام فى القاموس إن كانت هناك كلمة زازا، لا زوسا، وما معناها، فعرف أنها شجرة ضخمة تنمو فى النوبة، اسم جميل، لامرأة، "نوبة"، بالقرب من

السودان، شرق إفريقيا، الصفحة رقم ثلاث وتسعين، "والليلة، أين سأنام، فى فندق سيكون حلماً بعيد المنال، لديهم الراديو طوال اليوم، جميع الفنادق البرتغالية تفتح عينيها على كل من يطلب غرفة لقضاء ليلة واحدة، إنه مكان غير آمن، من السهل تخيل المشهد". "حسناً، نعم يا سيدى، لدينا غرفة جميلة خالية، فى الطابق الثانى، رقم مائتين وواحد، هيا يا بمينتا، رافق السيد زازا"، وعندما أكون قد تمددت لأستريح، وما أزال بملابسى، يتصل المدير تليفونياً، بعصبية، "لدينا ذلك الرجُل، تعالوا على الفور".

أوقف ذات الحصانين على جانب الطريق، خرج لإراحة ساقيه وإنعاش تفكيره، الذى لم يكن جيداً عندما دفع به لارتكاب مخالفة، "عليك أن تبقى فى مدينة أكثر ازدحاماً، وليس بها وسائل الراحة تلك، تبحث عن بيت دعارة، تمضى الليلة مع إحداهن، هناك لن يطلبوا منك الهوية، ما دمت ستدفع، وإذا لم تكن لديك رغبة فى ملامسة اللحم، بسبب همومك، على الأقل ستنام، ، وربما سيكون أرخص لك من أى فندق"، أجاب جواكيم زازا على عرضه، "محال"، "الحل هو النوم فى السيارة، هناك فى أى طريق جانبى"، "وإذا خرج عليك بعض الصعاليك وسرقوك، أو أوغاد، أو غجر، لو هاجموك وسرقوك، أو يقتلونك"، "هذا المكان هادئ"، "وماذا لو جاء مشعل حرائق محترف وأشعل النار فى الأشجار؟ نحن الآن فى زمن الحرائق، وستحاصرك النيران وتموت متفحماً، إنها من أشنع

طرق الموت، طبقاً لما سمعتهم يقولون، هل تذكر موتى محاكم التفتيش"، عاد يقول جواكيم زازا، "محال، لقد قررت، أن أنام فى السيارة"، وأسكت تفكيره، يسكت دائماً عندما تكون الإرادة قوية. الوقت لا يزال مبكراً، يمكن السير لأربعين أو خمسين كيلومتراً على تلك الطرق المتعرجة، "لأتوقف بالقرب من تومار، أو سانتاريم، على إحدى تلك الطرق الترابية التى تؤدى إلى الحقول، التى تظهر عليها آثار عميقة لعجلات العربات التى تجرها الثيران والتى تحولت الآن إلى الجرارات، لا أحد يمر هناك ليلاً، يمكن إخفاء ذات الحصانين فى أى مكان، ويمكننى النوم حتى فى الهواء الطلق، فالجو حار"، هذه الفكرة ليست نابعة من التفكير، لكنه لا يوافق عليها.

لم يتوقف فى تومار، ولم يصل إلى سانتاريم، تناول عشاءه متخفياً فى قرية بالقرب من نهر التاخو، سكان القرى فضوليون بطبيعتهم، لكن ليس إلى درجة سؤال المسافر الغريب بشكل مباشر، "اسمع، ما اسمك؟"، لو بقى هنا، حينها سيفعلونها، سيعرفون حياته الماضية ويحددون مستقبله فى وقت قصير. كان التليفزيون يعمل عندما كان جواكيم زازا يتناول طعامه، شاهد نهاية فيلم عن الأحياء المائية، وحراشف سمكة ضخمة، وأسماك أبى موسى تتهادى، وحيات تتعرج، وهلب سفينة قديم جداً، وبعدها بدأت الإعلانات، بعضها سريع وبعضها الآخر بطئ بإحكام، بأصوات أطفال يصرخون كثيراً، ومراهقين بنغمات

مذبذبة، أو نساء بأصوات أجشة، وكل الرجال بحيوية مبالغ فيها، وبنطلونات محددة المعالم، وفى النهاية قدموا نشرة الأخبار فارتعش جواكيم زازا، سيضيع لو بثوا صورة له، قرءوا النداء، ولكن لم تظهر الصورة، على أية حال هم لا يبحثون عن مجرم، فقط يطلبون منه، بإلحاح شديد وبطريقة محترمة، أن يبلغهم عن مكانه، ليقدم خدمة للمصالح الوطنية العليا للبلاد، ولا يوجد مواطن صالح يمكنه أن يرفض مثل هذا الشرف بالقيام بعمل بسيط، تقديم نفسه إلى المسئولين ليستجوبوه، كان فى المطعم ثلاثة أشخاص غيره، زوجان من كبار السن، وعلى مائدة أخرى، رجل من أولئك الذين يقولون عنهم: تجار متجولون.

انقطع النقاش عندما قدموا أولى أخبار البرانس، واصل خنزير شخيرة لكن لم يكن يسمعه أحد، كل هذا فى وقت واحد، وقف صاحب المطعم على كرسى ليرفع صوت الجهاز، وتوقفت عاملة المطعم عن العمل فاتحة عينيها عن آخرهما، ترك الزبائن أدوات الأكل إلى جوار الأطباق بحرص تام، ليسود الهدوء، على الشاشة طائرة هليوكوبتر مُصورة من طائرة أخرى، تدخلان معاً فى فوهة القناة المرعبة ليبينا الجدران المرتفعة، مرتفعة إلى درجة أن السماء تكاد لا تظهر فى الأعلى، مجرد خط أزرق، قالت الفتاة، "يا للهول، إنها تصيب بالدوار"، وقال صاحب المطعم، "اصمتى"، يبينون الآن على ضوء كشافات، الصدع العظيم، ربما يكون مدخل جهنم الإغريقية هكذا، الأسطورة لم تعد

كما كانت من قبل، يقول المذيع، "تلك المشاهد الدرامية، تم تصويرها رغم ما تمثله على حياة المصورين من خطر حقيقى"، عاد الصوت إلى حياديته، تحولت الطائرتان إلى أربعة، خيالات لخيالات، صاح صاحب المطعم "اللعنة على الإيريال".

عندما انضبط الصوت والصورة من جديد، كانت طائرات الهليوكوبتر قد اختفت وقرأ المذيع النداء الشهير، وتم توسيعه بشكل عام، "ترجو أيضاً من كل من لديهم معلومات عن حالات غريبة، ووقائع غير مفهومة، أو إشارات مشكوك فيها، أن يتصلوا فوراً بأقرب السلطات إليهم". حينها، بعد مشاهدة ذلك، ذكرت الفتاة ما يُقال هناك أنهم يتحدثون أن جدياً وُلد بخمس أرجل، أربعة سوداء وواحدة بيضاء، لكن صاحب المطعم أجاب، "حدث هذا منذ أشهر مضت، كثير من الجديان تُولد بخمس أرجل ودجاجات برأسين هذه أمور عادية، الجديد هو زرازير مُعلم المدرسة"، سأل جواكيم زازا، أى مُعلم وأى زرازير؟"، "إنه مُعلم القرية، اسمه جوزيه أناسيو منذ أيام وسرب من الزرازير تحوّم حول رأسه فى كل مكان يذهب إليه، مئات وربما أكثر، شاهدتها هذا الصباح عندما كنت فى طريقى إلى هنا، تحوّم على المدرسة، وتصدر أصواتاً مزعجة بأجنحتها وصراخها". فى تلك اللحظة تحدث الرجل الشيخ، "أعتقد أننا يجب أن نخبر العمدة عن حالة هذه الزرازير، هذا ما أراه"، قال صاحب المطعم، "إنه يعرف ذلك، لكنه رجل غبى لا

يعرف ربط الأشياء ببعضها، المؤخرة واللباس، لو سمحتم لى التعبير بهذه الطريقة"، "وماذا سنفعل؟"، "لنذهب غداً ونتحدث معه"، "فى الصباح، من المهم أن يتحدثوا عنا فى التليفزيون، إنه أمر طيب للتجارة والصناعة، لكن ليبق هذا الأمر سراً بيننا، لا نقوله لأحد". سأل جواكيم زازا، "وأين يسكن هذا المُعلم؟"، وكان السؤال يبدو عابراً، لذلك فإن صاحب المطعم، المنشغل، لم يتمكن من منع الفتاة عن الكلام، قالت، "يعيش فى بيت قريب من المدرسة، إنه بيت المُعلمين، سترى بالليل نوراً فى الشباك حتى وقت متأخر"، كان فى صوتها شىء من الخوف، عّنف صاحب المطعم الفتاة، "اسكتى، يا غبية، اذهبى لتطعمى الخنزير الجائع"، كان الأمر غريباً، من بين الأشياء الغريبة الأخرى، أن الخنزير لا يأكل فى مثل هذه الساعة، الخنازير بشكل عام تنام، وهذا العنف ربما يخفى وراءه قلقاً آخر، فى هذه المنطقة تكثر أيضاً إسطبلات الخيول والأفراس عادة ما تكون عصبية، فتضرب الأرض بحوافرها، وتدفع بالقش بعيداً، ربما يكون القمر السبب فى كل هذا، كان الحكم صادراً عن خبير فى الحيوانات.

دفع جواكيم زازا حساب العشاء، وألقى تحية المساء، وترك بقشيشاً جيداً تعويضاً عن المعلومات التى قدمتها له الفتاة، لكن مؤكد أن صاحب المطعم سيستولى عليه، منتهزاً الفرصة، وإن لم تكن تلك عادته، كرم الأشياء ليس أفضل شمائلهم الشخصية،

هذا مرتبط أيضاً بحالاتهم النفسية وتناقضاتهم، غريب أن تتكرر، وهذه حالة الفتاة، التى عنّفها، لأنها لم تقدم الطعام لخنزير ليس جائعاً، فيقوم بمداعبتها فيما بين عينيها، الكلمة قشتالية، ولكنها كلمة مُستخدمة هنا لنقص فى اللغة البرتغالية. ليلة جميلة، ذات الحصانين ترتاح بين أشجار الموز، وتُبرِّد إطاراتها بالمياه الجارية، المتسربة من النافورة، تركها جواكيم زازا فى وضعها هذا، وذهب سيراً للبحث عن المدرسة والنافذة المضاءة، لا يستطيع الناس إخفاء أسرارهم رغم الكلمات التى يحاولون بها، فجأة تكشف عنهم كلمة، وانقطاع صوت من الكلمة فجأة يكشفها، أى مُشاهد لديه خبرة بالصوت والحياة يكتشف على الفور أن فتاة الحانة عاشقة. هذه المدينة ليست سوى قرية كبيرة، يمكن قطعها من أقصاها إلى أقصاها فى أقل من ساعة، البيوت متقاربة، لكن جواكيم زازا ليس عليه أن يسير إلى جوارها، سأل صبياً عن مكان المدرسة، وما كان يمكنه أن يجد مرشداً أفضل منه، قال، "اذهب حضرتك فى هذا الشارع، وعندما تصل إلى الساحة التى فيها الكنيسة، اتجه يساراً، بعدها، دائماً إلى الأمام، لن تكون لديك مشكلة، على الفور سترى المدرسة. والمُعلم يعيش هناك"، "يسكن هناك؟"، "نعم يا سيدى، سترى النور فى النافذة"، لكن لم يكن فى كلمات الصبى ما يدل على الود، مؤكد أن هذا الصبى ليس تلميذاً جيداً، والمدرسة بالنسبة له أول مَطهر للمذنب، لكن رنت فى صوته فجأة رنة سعادة.

الصبى لا يعرف الكراهية، وهو ما ينقذهم. وهناك كانت الزرازير، لا يمكن أن تسكت أبداً، إذا لم يترك الدراسة مبكراً، يمكنه أن يتعلم تركيب الجمل دون تكرار الجمل الفعلية المتتالية.

كان فى نصف السماء بعض الضوء، والنصف الآخر لم يكن قد أظلم تماماً، كان الهواء أزرق كما لو كنا لحظة طلوع الشمس. لكن الأنوار كانت مضاءة فى البيوت، وتُسمع أصوات هادئة، لأناس متعبين، ويُسمع بكاء خفيف لطفل، حقيقة أن الناس غير منتبهة، تُلقى بهم إلى البحر فى طوف ويواصلون حياتهم كما لو كانوا على أرض ثابتة إلى الأبد، يتكلمون تماماً مثل موسى يبحر فى النيل بقفصه القشى، ويلعب مع الفراشات، لحسن حظه أن التماسيح لم تشاهده. فى عمق شارع ضيق، بين الأسوار، كانت المدرسة، لو لم يكن جواكيم زازا يعلم مسبقاً بوجودها لاعتقد أنها بيت كالبيوت الأخرى، فى الليل كلها جدران، بعضها يبدو كذلك فى النهار، كان الليل يهبط، لكن مصابيح الشارع ستنتظر بعض الوقت حتى تضىء.

حتى لا نُكذِّب الفتاة العاشقة والطفل من المشاعر الخبيئة، كانت النافذة مضاءة، طرق عليها جواكيم زازا بأصابعه، لم تعد الزرازير تصدر أصواتاً مزعجة، تبحث عن مكانها الليلى، بالعراك الاعتيادى، معارك الجيرة، لكن سرعان ما تسكن تحت أوراق شجرة التين الكبيرة التى هبطت عليها، فى خفاء، سود فى منتصف الظلام، لن يمر وقت طويل حتى يطلع القمر،

حينها يصحو بعضها بفعل أشعة الوضوح، ثم يعودون إلى النوم مرة أخرى، لم يكونوا يعرفون أنهم سيسافرون بعيداً. سأل صوت رجل من الداخل، "مَنْ؟"، أجاب جواكيم زازا، "من فضلك؟"، كلمات سحرية تُغنى عن كل معانى كلمات الكشف عن الهوية الرسمية، اللغة مليئة بتلك وغيرها من الكلمات ذات المعانى الصعبة، فتح النافذة، ليس سهلاً رؤية من يعيش بالداخل؛ لأنه فى الاتجاه المعاكس للضوء، ولكن بالمقابل كان وجه جواكيم زازا بارزاً بالكامل، تحدثنا من قبل عن بعض ملامحه، نكشف عن الباقى، شعر كستنائى قاتم، أملس، وجه نحيل، أنف عادى جداً، الشفاه تبدو غليظة فقط عندما يتكلم، "آسف إن كنت أزعجتك فى مثل هذه الساعة"، قال المُعلم، "الوقت ليس متأخراً"، لكن كان عليه أن يرفع صوته؛ لأن الزرازير، تقافزت، رفعت أصوات الاحتجاج أو التحذير، "بالضبط هم من جئت أتحدث إليك بشأنهم"، "شأنهم، عن من تتحدث، عن الزرازير؟"، "آه، وعن حجر قذفته أنا إلى البحر، أكثر ثقلاً من قدرتى على القذف"، "ما اسمك؟"، "جواكيم زازا"، "هذا الذى يتحدثون عنه فى الإذاعة والتليفزيون"، "هو نفسه"، "تفضل بالدخول".

■■■

## ـ ٥ ـ

تحدثا عن الأحجار والزرازير، والآن يتحدثان عن القرارات التى اتخذاها. يقفان فى الفناء الخلفى للبيت، يجلس جوزيه أنايسو على عتبة الباب، وجواكيم زازا على كرسى؛ لأنه الضيف، جلس جوزيه أنايسو وظهره للمطبخ، الذى يأتى منه النور، ومازلنا لا نعرف قسمات وجهه، يبدو هذا الرجل كما لو كان يتخفى من شىء ما، وهو أمر غير صحيح، كم من المرات يحدث أن نظهر كما نحن وهو أمر لسنا فى حاجة إليه؛ لأنه لا يوجد هناك أحد ليرانا، وضع جوزيه أنايسو مزيداً من النبيذ الأبيض فى الكئوس، يشربان دون تبريد، كما يجب أن يكون حسب رأى خبراء الشراب، دون استخدام لأدوات التبريد الحديثة، ولكن فى هذه الحالة لأن بيت المُعلم ليس فيه ثلاجة، "هل يكفى هذا؟"، قال جواكيم زازا، "يكفى لأنى شربت كثيراً أثناء العشاء"، أجابه جوزيه أنايسو، "هذا نخب الرحلة"،

وابتسم، تظهر أسنانه البيضاء، وهو أمر يجب أن نسجله، "إذا كان يجب علىّ أن أذهب أنا لأبحث عن بدرو أورثى فهو أمر مفهوم، لأننى فى إجازة، وليس لدى شيء خاص أعمله"، "وأنا أيضاً، إجازتى الطويلة لا تنتهى حتى أوائل أكتوبر، عندما تبدأ الدراسة، وأنا أعيشُ وحيداً"، "وأنا أيضاً أعيش وحيداً"، "لم تكن نيتى أن آتى إلى هنا لأحمسك حتى ترافقنى، وحتى أنا لا أعرفك"، "أنا من يطلب منك أن تدعنى أرافقك، لو تركت لى مكاناً فى السيارة"، "على الرحب والسعة، ولا أستطيع العودة فى كلامى، تخيل ما يمكن أن يحدث لو عرفوا بغيابك، قد يبلغون البوليس من الفجر، سيعتقدون أنك قد مت ودُفنت، أو مشنوق على فرع شجرة، أو ألقوا بك إلى النهر، أو ألقيت بك أنا، بالطبع، سيشتبهون فىّ أنا، ذلك الغريب صاحب القوة الغريبة الذى جاء إلى هنا متخفياً، َطَرَح عدة أسئلة واختفى، كل شيء مكتوب فى الكتب"، "سأترك ورقة على باب البلدية أقول فيها إنه تعين علىَّ أن أذهب إلى لشبونة لأمر عاجل، أرجو ألا يسأل أحد عنى فى المحطة إن كنت قد اشتريت تذكرة أم لا".

بقيا صامتين لبضع دقائق، نهض بعدها جوزيه أنايسو، سار بضع خطوات باتجاه شجرة التين بينما كان يشرب ما تبقى من النبيذ، الزرازير لا تتوقف عن الزقزقة والحركة، بعضها استيقظ على أثر الحوار بين الرجلين، بعضها الآخر ربما يحلم بصوت مرتفع بذلك الكابوس المزعج، الذى يصيب نوعها بالاعتقاد فى

الطيران، طيور تائهة فى السرب، فى مناخ يقاوم ويوقف ضربات الأجنحة كما لو كانت ماء، تماماً كالإنسان عندما يحاول الجرى فى الحلم ولا يستطيع، قال جوزيه أنايسو، "نسافر قبل ساعة من ظهور خيوط الفجر الأولى، والآن يجب أن ننام"، وقف جواكيم زازا من على الكرسى، "سأبقى فى السيارة، سأمر لآخذك فجراً"، "لماذا لا تنام هنا، يوجد سرير واحد لكنه عريض، يكفينا معاً". كانت السماء عالية، ومليئة بالنجوم التى تبدو قريبة كما لو كانت معلقة بخيوط غير مرئية، غبار زجاجى، غشاء من اللبن المتجمد، والنجمات الكبيرة كانت تعكس ضوءها بشكل درامى، الزهراء، والدب القطبى، وعلى وجهى الرجلين تسقط نقاط أمطار خفيفة باردة من النور الزجاجى الذى يلتصق بالجلد، تظل معلقة بالشعيرات، ليست هذه المرة الأولى التى يحدث فيها هذا، وفجأة صمت صوت الليل، وظهر ضوء القمر على رءوس الأشجار، وعلى النجوم الآن أن تنطفئ. حينها قال جواكيم زازا، "فى ليلة كهذه يمكننى أن أنام تحت شجرة التين، لو تترك لى بطانية"، "سأرافقك"، جمعا بعض القش وكوماه وفرشاه، تماماً كما يفعلون مع المواشى، طرحا البطاطين، وناما على جانب منها وتغطيا بالجانب الآخر، كانت الزرازير تزقزق مراقبة الأجساد الملقاة تحتها، "ترى ما هذا؟"، تحت الشجرة وعلى الأفرع الجميع مستيقظون، تحت قمر كهذا على النوم أن يقاوم كثيراً، يصعد القمر، يصعد بسرعة، قمة شجرة

التين تحولت إلى خليط من الأبيض والأسود، يقول جوزيه أنايسو، "تلك الظلال ليست كما كانت، لقد تحركت شبه الجزيرة قليلاً، بضعة أمتار"، "الانعكاس لا يبدو كبيراً"، هذا ما لاحظه جواكيم زازا، سعيد بفهمه للتعليق، تحركت وهذا كان كافياً لتصبح الظلال مختلفة، هناك أفرع يلمسها ضوء القمر لأول مرة، بعد مضى بضع دقائق، بدأت الزرازير تهدأ، وهمهم جوزيه أنايسو بصوت متقطع من تأثير النوم، كل كلمة تنتظر أو تبحث عن الأخرى، "فى يوم ما، السيد خوان سيجموندو، ذو اللقب الكامل، وفى رأيى الخاص كامل الجمال، منحه أحد الفرسان جزيرة متخيلة، قل لى هل يوجد بلد آخر حدثت فيه مثل هذه الحكاية، النبيل، الذى تحوَّل إلى فارس، وخرج إلى البحر بحثاً عن الجزيرة، أريد أن أعرف كيف يمكن البحث عن جزيرة متخيلة، هذا ولا فى العلوم، لكن تلك جزيرة أخرى، الأيبيرية، التى كانت شبه جزيرة وتركت شكلها، أنا أراها هكذا، بسخرية مشابهة، ربما اندفعت باتجاه أعماق البحر بحثاً عن البشر المتخيلين، يا لها من جملة جميلة، شاعرية، أنا لم أكتب بيتاً شعرياً واحداً فى حياتى، حسن، لو كان كل البشر شعراء لتوقفوا عن كتابة الشعر، وأيضاً لتلك الجملة أسرارها"، "لقد شربنا كثيراً"، "أعتقد هذا"، صمتٌ، سكونٌ، وخفة لا نهائية، وهمهم جواكيم زازا، كما لو كان يحلم، "ماذا ستفعل الزرازير غداً، ستبقى أم ستأتى معنا؟"، قال جوزيه أنايسو، "عندما نبدأ الرحلة سنعرف، دائماً

الأمر هكذا"، والقمر ضائع بين أفرع شجرة التين، سيقضى الليلة كلها بحثاً عن الجزيرة.

قبل أن يشع ضوء النهار، استيقظ جواكيم زازا من سريره المصنوع من قش القمح وذهبا معاً بحثاً عن ذات الحصانين، التى بقيت تستريح فى حقل الموز القريب من الميدان، فى المواجهة تماماً، وحتى لا يراهما معاً أى مبكر صباحى، من أولئك الذين تعج بهم المناطق الزراعية، فقد قررا اللقاء عند مخرج القرية، بعيداً عن آخر البيوت، يذهب جوزيه أنايسو عبر طريق بعيدة، وطرق غير ممهدة، متخفياً بالظلال، أما جواكيم زازا، متخفياً أيضاً، عبر الطريق الرئيسى، فهو مسافر غريب لا يخاف، خرجا مبكراً ليستمتعا برطوبة الصباح وانتهاز اليوم بكامله، كما يفعل السائحون المبكرون عادة، فهم فى أعماقهم إشكاليون وقلقون، يعانون من قصر الحياة، ينامون متأخراً ويستيقظون مبكراً، هذا ليس صحياً لكنه يطيل الحياة. موتور ذات الحصانين هادئ، ينطلق بنعومة الحرير، سمعه فقط قلة من السكان القلقين، واعتقد هؤلاء أنهم نائمون ويحلمون، وصوت الموتور يكاد لا يُسمع الآن، فى سكون الفجر، سوى كهمهمة طلمبة مياه، خرج جواكيم زازا من القرية، دار عند أول منحنى، والثانى، بعدها أوقف ذات الحصانين وانتظر.

فى الأعماق الفضية لأشجار الزيتون تبدأ الجذوع فى فرض وجودها، فى الهواء بخار رطب وهلامى، كما لو كان الصبح خارجاً من بئر مياه

ضبابية، طائر يغنى الآن، أو ربما سراب سمعى، ولا حتى القبّرات تغنى هكذا مبكراً. مرّ الوقت وبدأ جواكيم زازا فى التفكير، "ربما ندم ولن يأتى، لكن لا أعتقد أنه من أولئك الرجال"، "ربما كان عليه أن يدور دورة أكبر من التى قررها، ربما كان هذا"، "وأيضاً يجب حساب الحقيبة، فالحقيبة ثقيلة، كيف لم أنتبه إلى ذلك، ربما كان يمكننى أخذها فى السيارة"، حينئذ، برز جوزيه أنايسو من بين أشجار الزيتون محاطاً بالزرازير، عاصفة من الأجنحة كالطبل، صرخات حادة، من قال إنها مائتان فقط لا يفهم فى الحساب، إنها تذكرنى بسرب نحل أسود، نحل كبير، لكنها طرأت على ذهن جواكيم زازا هكذا نعم، إنها طيور هيتشكوك، الفيلم الكلاسيكى، وإن كانت تلك طيور ملعونة قاتلة، اقترب جوزيه أنايسو من السيارة بتاجه المصنوع من أجنحة تلك الطيور، جاء ضاحكاً، ربما لهذا يبدو أكثر شباباً من جواكيم زازا، معروف أن الجاذبية الأرضية تؤثر على الوجه، أسنانه بيضاء جداً، كما عرفنا من الليلة السابقة، فى مجموع وجهه لا تبرز أى تقاطيع مميزة، لكن هناك تناغماً فى وجنتيه الغائرتين، لا أحد مطلوب منه أن يكون جميلاً، وضع الحقيبة فى السيارة، وجلس إلى جوار جواكيم زازا، وقبل أن يغلق الباب، نظر إلى الخارج، ليرى الزرازير، "هيا، أريد أن أعرف ماذا هى فاعلة، وها أنت ترى، لو كانت لدينا بندقية، بخرطوشى رش يمكننا عمل مذبحة"، "هل أنت صياد؟"، "لا، أنا أقول

ما سمعتهم يقولونه"، "الحقيقة أنه ليس لدينا بندقية، ربما كان هناك حل آخر، سأنطلقُ بذات الحصانين بأقصى سرعة واتركُها خلفى، فالزرزور طائر قليل الطيران ولمسافات قصيرة"، "فلنجرب". غيّرتْ ذات الحصانين سرعتها، وأسرعت فى طريق مستو لمسافة طويلة، مستغلة السهل المسطح، وسرعان ما تركت الزرازير فى الخلف بعيداً. بدأ الفجر يصبغ السماء بلون وردى باهت ووردى فاقع، كانت الألوان تسقط من السماء، وانقلب الهواء أزرق، الهواء، نقول جيداً، لا نقول السماء، كما استطعنا أن نتابع هبوط المساء، هذه الساعة متشابهة معها جداً. ساعة فى البداية، وأخرى فى النهاية، أطفأ جواكيم زازا أضواء السيارة، خفف من السرعة، إنه يعرف أن ذات الحصانين لم تُصنع لتواجه مطبات كثيرة، طبقاً لمواصفاتها، إضافة إلى أننا لسنا فى حاجة إلى ذلك، واستهلاك الموتور فلسفة مرفوضة، لا شىء أكثر من هذا، "حسناً، لقد انتهت الزرازير"، هذا ما قاله جوزيه أنايسو، وفى صوته رنة أسى.

بعد ساعتين، توقفا فى ألينتيخو لتناول بعض الطعام، تناولا قهوة بالحليب، وبسكويتاً جافاً بالقرفة، عادا بعدها إلى السيارة يناقشان همومهما، "السيئ ليس أنهم لن يتركونى أدخل إسبانيا، الأسوأ منه سيكون إلقاء القبض علىّ"، "أنت غير متهم بارتكاب أية جريمة"، "سيخترعون أى شىء، ويلقون القبض علىَّ ليجروا تحرياتهم"، "لا تنزعج، من هنا وحتى

الحدود سنعثر على طريقة ما تمر بها"، كان هذا هو الحوار، وهو لا يفيد كثيراً لذكاء الحكاية، ربما وضعناه هنا لنوضح أن جواكيم زازا وجوزيه أنايسو يتحادثان بلا ألقاب، ربما اتفقا على ذلك خلال الطريق، "لنتبادل الحديث بلا ألقاب"، قال أحدهما، وكان الآخر موافقاً، "كنت أفكر في هذا قبل قليل"، كان جواكيم زازا يفتح باب السيارة عندما ظهرت الزرازير، تلك السحابة الضخمة، بدت كسرب نحل يناور حول نفسه، ويصدر أزيزاً مرعباً، يبدو عليه الغضب، والناس هنا تحت، رفعوا رءوسهم إلى أعلى، يشيرون إلى السماء، أكد أحدهم، "لم أشاهد في حياتي طيوراً بهذا العدد"، من عمره ما كان يبدو أنه تنقصه هذه الخبرة وخبرات أخرى، وأضاف، "إنها أكثر من ألف"، وكان محقاً، كانوا على الأقل ألف ومائتين وخمسين التي اجتمعت هذه المرة، قال جواكيم زازا، "لقد لحقوا بنا"، لكننا سنضربهم مسافة أخرى ونقضي عليهم مرة واحدة"، نظر جوزيه أنايسو إلى الزرازير التي تطير في دائرة واسعة، منتصرة، نظر إليها نظرة فاحصة، مركزة، "هيا ببطء، من الآن فصاعداً علينا السير ببطء"، "لماذا؟"، "لا أعرف، لا أعرف، إنه إحساس، هذه الطيور لا تتركنا لسبب معين"، "لا تتركك أنت"، "موافق، ولهذا أطلب منك أن تسير ببطء، من يعرف ما الذي يمكن أن يحدث؟!".

بعبور ألينتيخو تحت هذا المناخ الحارق، تحت سماء أكثر بياضاً منها زرقاء، بين بقايا الحصاد

البراقة، والأرض العارية، وأكوام القش المنثورة، والأزيز المتوالى، تصبح الحكاية كاملة، وربما أكثر إحكاماً من الأخرى، التى جرى حكايتها فى وقت وقوعها. حقيقة إنه خلال كيلومترات وكيلومترات لم نشاهد جسداً بشرياً. فقد تم جمع الحصاد، وكل هذا يحتاج إلى رجال ونساء، والآن لا نعرف شيئاً لا عنهم ولا عنهن، إنه قول حديث ينطبق عليهم. من روى حكاية، إذا لم يروِ أخرى فهذا علامة سيئة، الحر ثقيل، خانق، لكن ذات الحصانين هادئة، والرغبة فى التوقف تحت الظل كبيرة، حينها خرج جواكيم زازا وجوزيه أنايسو لإلقاء نظرة على الأفق، قضيا الوقت المطلوب، وأخيراً عادا، فى السماء سحابة وحيدة، تلك التوقفات ما كانت تحدث لو أن الزرازير عرفت كيف تطير فى خط مستقيم، لكن، بسبب كثرتهم، ومناوراتهم الكثيرة، ما كان يمكن تفادى التفرق والابتعاد، بعضها يريد الراحة، وأخرى لشرب الماء أو قضم الفاكهة، ما إن يسيطر رأى معين حتى يختلط الأمر على المجموع ويخطئ الطريق. فى الطريق، إضافة إلى الحدآت والصيادين، وطيور أخرى أقل خطراً، كانت هناك طيور من أنواع أخرى، لكنها لم تنضم إلى الجمع، ربما لأنها لم تكن سوداء اللون، ولأنها متعددة الألوان، أو أن حياتها لها مصائر أخرى، دخل جواكيم زازا وجوزيه أنايسو السيارة، وانطلقت ذات الحصانين على الطريق إلى الأمام، وهكذا، ما بين السير والتوقف، التوقف والسير، وصلا إلى الحدود. حينها قال جواكيم زازا،

"وإذا لم يتركونى أمر". "أنت عليك بالتقدم، ولنر ربما تساعدنا الزرازير".

فى مثل كل حكايات الحوريات، والسحرة والفرسان الجوّالين، أو فى الحكايات الأخرى التى لا تقل أهمية فى مغامراتها الساخرة، تلبية لرغبة الراوى أو الآلهة والقوى الأخرى المساعدة، وبطريقة غير طبيعية، فإن الحالة هنا أن جواكيم زازا وجوزيه أنايسو توقفا أمام رجل البوليس، المعبر الحدودى فى اللغة الفنية، ويعلم الله وحده مدى هلعهما وهما يقدمان هوياتهما، عندما، مرت فجأة، زوبعة أو زخة، لقد كانت الزرازير فى الأعالى سوداء، وأجسادها كالبرق، تصفّر وتصرخ، وهبطت حتى ارتفاع سقف المعبر فى كل الاتجاهات، تماماً كزوبعة مجنونة، احتمى رجال البوليس بأذرعهم، وهربوا للاحتماء فى الداخل، وهبط جواكيم زازا من السيارة والتقط الوثائق والهويات التى سقطت من رجال السلطات، ولم ينتبه أحد إلى ما يجرى فى منطقة الجمارك، وهكذا، كم من الطرق التى يعبر الناس بها الحدود بشكل غير شرعى، ولكن لم يحدث مثل هذا من قبل، يصفق هيتشكوك، إنه مُعلم فى هذه المادة، لقد تم اختبارها على التو، وأصبح معلوماً أن رجال البوليس الإسبان، تماماً كالبرتغاليين، لا يعرفون شيئاً عن عالم الطيور بشكل عام والزرازير السوداء بشكل خاص، مرَّ المسافران دون أدنى صعوبة، ولكن بقى فى الطريق عشرات الطيور، لأنه فى الجمارك كان هناك بعض

من لديهم بندقية محشوة، وكان يمكن لأعمى أن يصيب بها، وربما حصل على جائزة كبرى، لكن هذا كان بلا فائدة لأنه فى إسبانيا، كما نعرف، لا يبحث أحد عن جواكيم زازا، لكن يمكن لسوء الحظ أن يقع بين يدى الحرس المدنى الأندلسى، لأن الزرازير برتغالية المولد، مولودة وكبرت فى ريباتيخو، وماتت هناك بعيداً، على الأقل يكون عند هؤلاء الحراس حس الكرم لدعوة زملائهم البرتغاليين لمشاركتهم فى أكلها، كنوع من التعايش السلمى بين رفاق السلاح.

الآن هم فى الأرض الأخرى من الرحلة، بمظلتهم من الطيور المرافقة، فى طريقهم إلى غرناطة وما حولها، وعليهم أن ينتبهوا إلى مفارق الطرق، لأن الخريطة التى يحملانها لا تشير إلى قرية أورثى، خطأ كبير فى حساسية مصممى الخرائط، مؤكد أنهم يتذكرون قراهم، هل تذكروا فى المستقبل ما معنى أن يبحث المسافر فى خريطة ليرى المكان الذى جاء فيه إلى العالم فيجد مساحة بيضاء، خالية، وتبدأ بذلك مشاكل خطيرة شخصية ووطنية. تمر على الطريق سيارات السيات والبيجاسو، يتعرفان عليها على الفور من خلال الكلام ولوحات الأرقام، والقرية التى تقطعها ذات الحصانين يخيم عليها ذلك الهواء النائم الذى يقولون إنه خاص بأراضى الجنوب، والكسول كما يسمونهم فى الشمال، إنه احتقار شكلى وعرقى يطلقه من لم يعمل أبداً فى الظهيرة تحت مثل هذه الشمس الحارقة. حقيقة إن هناك فارقاً بين عالم

وآخر، جميعهم يعرفون أن الرجال فى المريخ خضر البشرة، بينما على الأرض توجد جميع الألوان عدا ذلك الأخضر.

من ساكن من سكان الشمال لا نسمع ما سنسمعه، بل نتوقف لنتساءل عن ذلك الرجل الموجود هناك، الذى يركب الحمار، ماذا يعتقد عن الحدث العظيم من انفصال شبه الجزيرة الأيبيرية عن أوروبا، سوف يشد الرسن، سووووو، ويجيب بكل صراحة، "كل هذا تهريج"، لأن روكى لوثانو يحكم على الظاهر، ومن خلاله يتوصل إلى سبب خاص به وصالح للفهم، "تأمل الجدية الرعوية لتلك الحقول، هدوء السماء، توازن حجارة جبال سييرا مورينا واراثينا هى نفسها منذ الميلاد، أو، ربما أبعد من ذلك، منذ أن ولدنا نحن". "لكن التليفزيون بيّنَ أن جبال البرانس انشطرت كالبطيخة"، نستخدم تصويراً قريباً من الفهم العادى، "أنا لا أثق فى التليفزيون ما لا أراه بعينى لا أصدقه"، ودون أن يهبط من ظهر حماره "روكى لوثانو، ماذا ستفعل؟"، "لقد تركت عائلتى تنشغل بحياتها وأنا ذاهب لأرى الحقيقة بعينى". يريد أن يرى بعينيه التى لم تأكلها الأرض بعد، ويرجو أن يصل بالحمار إلى هناك. "وعندما لا يستطيع حملى نذهب معاً سيراً على الأقدام"، "ما اسم الحمار؟"، "الحمار ليس له اسم، هل يطلقون عليها أسماء؟"، كان من قبل اسمه بلاتيرو، وأنت فى طريقك للسفر"، "بلاتيرو وأنا"، هل يمكنك أن تقول لى أين توجد قرية أورثى؟"، "لا يا

سيدى، لا أعرف، أعتقد أنها بعد غرناطة، آه، إذًا أمامكما طريق طويل، والآن فى رعاية الله، أيها السادة البرتغاليون، أمامى طريق طويل أيضاً، وأنا ذاهب على حمار"، "من المحتمل أنه عند وصولك لن تستطيع أن ترى أوروبا"، "لو لم أرها إذًا لم تكن هناك أبداً"، فى النهاية، روكى لوثانو محق، لوجود الأشياء تكون فى حاجة لشيئين: أن يراها الإنسان، وأن يطلق عليها اسماً.

نام جواكيم زازا وجوزيه أنايسو فى الهواء الطلق، تماماً كما فعل الفونسو الثالث، مليكنا، عندما هاجم المسلمين، لكنه لم يستمر طويلاً، شمس ضعيفة، لقد كان ليل الأزمنة، استيقظت الزرازير على بعض الأشجار، لأنه، لكثرتهم، لم يستطيعوا البقاء معاً، فى سرب واحد، كما تعودوا، تحدث جواكيم زازا وجوزيه أنايسو عن الصور الخطرة والكلمات التى شاهداها وسمعاها فى التليفزيون، وأن تكون فينيسيا فى خطر، وأظهر الأمر بشكل سيئ، "ساحة سان ماركوس، غارقة فى وقت لا ترتفع فيه المياه، شرشف سائل وأملس تنعكس عليه، حتى أبراج الكاتدرائية وأجراسها، كلما ابتعدت شبه الجزيرة الأيبيرية"، يقول المذيع بصوت متقطع وأجش، "يتركز الناتج المدمر للمد، من المنتظر حدوث تأثيرات كبيرة فى كل حوض المتوسط، مهد الحضارات، ولذلك من المحتم إنقاذ فينيسيا"، يطالب الإنسانية أن تنتج قنبلة هيدروجينية أقل، أو تصنع غواصة نووية أقل، قبل فوات الأوان، كان جواكيم زازا

مثل روكى لوثانو لم يشاهد أبداً جوهرة الأدرياتيك، لكن جوزيه أنايسو يمكنه أن يؤكد وجودها، حقيقة أنهم لم يضعوا لها اسماً ولا ألقاباً، ولكنه شاهدها بعينيه تلك، ولمسها بيديه، وقال، "يا لها من كارثة، لو ضاعت فينيسيا"، وأثرت تلك الكلمات المؤلمة فى جواكيم زازا بعنف، أكثر من تأثير حركة مياه القنوات، والتيارات المتلاطمة، وتقدم المد تحت القصور، والأرصفة الغارقة، المظهر المرعب لمدينة تغرق، تشبه أتلانتا، والكاتدرائية الغارقة، والعيون المائية العمياء، تضرب المطارق البرونزية الأجراس فيما لا توقف الطحالب التروس، فتصدر ترددات سائلة، ويدخل مسيح الكاتدرائية فى مناقشة دينية مع الآلهة التى حلت محل جوفى ونبتون الرومانيين، والبيسيدون الإغريقى. وعودة إلى المياه التى وُلِدوا فيها، ستبقى فينيسيا وإنفتريت فقط، "الآلهة المسيحية لا ترى بينها امرأة واحدة، من يعرف ربما الذنب ذنبنا"، همهم جواكيم زازا، "لا تقيم نفسك بتحميل نفسك الذنوب عن كل شىء؟"، "أنا أتحدث عن فينيسيا"، "لو ضاعت فينيسيا فالذنب ذنب الجميع، بسبب الإهمال والمكاسب التى ضيعوها"، "أنا لا أتحدث عن تلك الأشياء، ولا يعنينى أن يضيع العالم كله من أجلها، أنا أتحدث عن ما فعلت أنا، قذفتُ حجراً إلى البحر"، "لا يوجد من يعتقد أن هذا كان سبباً فى انفصال شبه الجزيرة عن أوروبا"، "لو رُزقت فى يوم من الأيام بابن، فإنه سيموت لأنك لم تولد بعد، لن يعفيك أحد من

تلك الجريمة، فالأيدى التى تعمل وتنسج هى الأيدى نفسها التى لا تعمل ولا تنسج، من المؤكد عندما يحدث الخطأ، فالخطأ ينتج عن المؤكد"، "طريقة سيئة فى مواساة الحزين"، ليست مواساة، يا صديقى الحزين، فالإنسان حيوان لا يُواسى".

ربما كان جوزيه أنايسو محقاً، ربما كان الإنسان هو الحيوان الذى لا يستطيع، أو لا يعرف، أو لا يريد أن يكون مُواسياً، لكن بعض أفعاله، ليس لها أى معنى سوى أنها بلا معنى، ليس هناك أمل أن يأتى اليوم الذى يبكى فيه على كتفى إنسان، ربما عندها يكون الوقت قد فات، عندما لا يكون هناك وقت لشىء آخر. تحدث التليفزيون عن أحد هذه الأفعال فى نشرة الأخبار نفسها، وغداً ستتحدث نشرات الأخبار بالتفصيل مع تعليقات الخبراء، والنقاد والشعراء، كانت القضية التى أدت إلى السحر، فى فرنسا، على شاطئ بالقرب من كولوير، قامت فرقة مدنية وأدبية إسبانية فى سكون الليل، وبلا خوف من نداء البومة وبلا غطاء خارجى، باقتحام المقبرة التى دُفن فيها أنطونيو ماتشادو قبل سنوات. أيقظوا رجال البوليس، الذى نبههم أحد الساهرين، فتتبعوا لصوص المقابر، لكنهم لم يتمكنوا من الإمساك بهم. حملوا الكفن بالبقايا فى زورق بخارى كان ينتظرهم على الشاطئ ومحركه يعمل فى صمت، وخلال خمس دقائق كانت السفينة القرصانية فى عرض البحر، رجال البوليس، من على الرمال، أطلقوا النار فى الهواء، فقط

لتخفيف حدة السأم عن أنفسهم. لا لأنهم اعتقدوا أنهم يحتاجون إلى تلك العظام الغنائية. تحدثوا إلى وكالة فرانس برس، حاول عمدة كواورى التقليل من أهمية الشاعر، ولمّح إلى أنه لا يمكن لأحد أن يؤكد أن تلك البقايا لأنطونيو ماتشادو، بعد تلك السنوات، ولا أهمية من البحث عن عدد السنوات التى مرت، فقط ربما بسبب نسيان الإدارة التى كانت لا تزال هناك، مع الأخذ فى الاعتبار المعاملة الخاصة التى لقيتها عظام الشاعر.

الصحفى، رجلٌ خبر الحياة، وغبى متردد حتى إنه بدا غير فرنسى، أدلى برأيه، ولحسابه الخاص، "إن عبادة الأثر تحتاج إلى هدف ملائم، وحقيقتها ليست مهمة، فقط يكفى التشابه، انظر إلى كاتدرائية فالنسيا، التى كانت فى زمن مد العقيدة، قيل إنها تحتفظ بالكأس التى شرب فيها السيد المسيح فى العشاء الأخير، والقميص الذى ارتداه طفلاً، وبضع نقاط من لبن سيدتنا العذراء، وبضع شعيرات من رأسها، والمشط الذى كانت تتمشط به، وأيضاً فلقة من فيراكروث، قطعة لا شكل لها لأحد القديسين الأبرياء، اثنان من تلك الدنانير الفضية الثلاثين التى باع بها يهوذا نفسه، ولإنهاء القائمة، إحدى أسنان القديس كريستوبا"، بعرض أربعة أصابع وطول ثلاثة، حجم من المؤكد مُغالٍ فيه، يمكنها أن تُدهش من لا يعرف طبيعة هذا القديس". "ترى أين سيدفن الإسبان الآن الشاعر ماتشادو؟"، سأل جواكيم زازا، الذى لم يقرأ له شيئاً،

أجاب جوزيه أنايسو، "نعم، رغم هذيان العالم وسوء الحظ، فكل شيء له مكانه، وكل مكان يطالب بالشيء الذي ينتمي إليه، والشيء الذي هو اليوم أنطونيو ماتشادو، سيُدفن في أي مكان من حقول مقاطعة سوريا، تحت شجرة من تلك التي يسمونها بالقشتالية شجرة البلوط، ونسميها نحن ـ البرتغاليين ـ الشجرة البلوطية، دون صليب ولا لوحة حجرية، فقط بعض التراب الذي لا يشبه حتى شكل الجسد الممدد"، و"نحن، البرتغاليين ـ أي شاعر لنا لنذهب للبحث عنه في فرنسا؟"، "هذا إذا كان قد بقيّ لنا أحدهم"، "ما أعرفه، إنه فقط ماريو دي سا-كارنييرو، لكن مع هذا لا يستحق مجرد المحاولة، أولاً لأنه لا يريد أن يأتي، وثانياً لأن مقابر باريس من الأماكن المحروسة جيداً، وثالثاً أنه بعد سنوات عديدة مرت على موته، فإن إدارة العاصمة لن تسمح بتحمل أخطاء مجموعة ريفية موصومة بأنها متوسطية. بخلاف هذا، ما الذي سيفيد إخراجه من مقبرة لوضعه في أخرى، إذا كان غير مسموح في البرتغال بدفن الموتى بعيداً عن أماكنهم، في الهواء الطلق، وعظامهم لن تبقى هادئة لو تركناها في ظل شجرة زيتون في حديقة إدواردو السابع"، "وإن كانت لا تزال هناك أشجار زيتون في حديقة إدواردو السابع؟"، "إنه سؤال مهم، لكني لا أعرف أن أجيبك عنه، والآن هيا ننام، غداً علينا أن نذهب بحثاً عن بدرو أورثي، رجل الأرض المهتزة".
أطفئا النور، وبقيا بعيون مفتوحة في انتظار النوم،

لكن، قبل أن يأتى النوم، سأل جواكيم زازا، "وفينيسيا، ما الذى سيحدث لها؟"، بص يا صديقى، أسهل الأشياء بين كل الأشياء الصعبة فى العالم سيكون إنقاذ فينيسيا، يكفى إغلاق البحيرة، وربط الجزر فيما بينها حتى لا يدخل البحر فيها براحته، وإذا كان الإيطاليون غير قادرين على القيام بهذا العمل وحدهم، عليهم أن يستعينوا بالهولنديين، فهم أناس قادرون على تجفيف فينيسيا فى غمضة عين"، "علينا أن نساعدهم، نحن مسئولون"، "نحن لم نعد أوروبيين الآن، "والآن حسناً، هذه ليست كل الحقيقة، حتى الآن نوجد فى المياه الإقليمية"، قال الصوت المجهول.

فى الصباح، بينما كانا يدفعان الحساب، كان المدير يخفف عن همومه، الفندق خال فى عز الموسم، شىء مؤسف، لم يلحظ جواكيم زازا وجوزيه أنايسو خلو الفندق من الزبائن لانشغالهما بأشيائهما، و"المغارات، لم يعد أحد يأتى لزيارات المغارات"، كرر الفندقى متحسراً، "عدم حضور الناس لرؤية المغارات هو أسوأ كارثة". كان الفرح فى الشارع كبيراً، لم يشاهد شباب "راثينا" فى حياتهم هذا العدد من الزرازير معاً، حتى خلال زياراتهم التعليمية فى الحقول، وما إن تحركت ذات الحصانين البرتغالية، باتجاه أشبيلية، حتى ارتفعت الزرازير طائرة كطائر واحد، دارت دورتين كوداع أو استطلاع للأفق واختفت خلف قلعة الرهبان. كان الصباح مضيئاً، يمكن لمسه بالأصابع، ويظهر اليوم أقل حرارة عن الأمس، "لكن

الرحلة طويلة، من هنا إلى غرناطة أكثر من ثلاثمائة كيلومتر، وبعدها علينا أن نبحث عن أورثى، نرجو ألا يذهب بحثنا سدى ونعثر على الرجل"، هذا ما قاله جوزيه أنايسو، عدم العثور على الرجل احتمال طرأ على باله الآن، "وعندما نعثر عليه، ماذا سنقول له؟"، بدأ الشك الآن عند جواكيم زازا. فجأة، بضوء النهار الجديد أو نتيجة أن الليل سيئ التفكير، كل تلك التفاصيل بدت عبثية، لا يمكن أن يكون انشطار قارة حقيقة لأن أحدهم قذف حجراً إلى البحر، حتى لو كان الحجر أكبر مِن قوة مَن قذفه، لكن الحقيقة التى لا تقبل الشك أن الحجر جرى قذفه وبدأت القارة فى الانشطار، ويقول أحد الإسبان إنه يلحظ اهتزاز الأرض، وسرب طيور مجنون لا يترك مُعلماً برتغالياً فى حاله، ويعلم الله أى أشياء أخرى وقعت أو ستقع فيما بعد فى شبه الجزيرة هذه، "نحدثه عن حجرك وعن زرازيرى وهو يحدثنا عن الأرض التى اهتزت أو لا تزال تهتز"، "وبعدها؟"، "بعد ذلك، إذا لم يكن هناك ما يمكن مشاهدته، أو الشعور به، أو معرفته، نعود إلى بيوتنا، أنت إلى عملك، وأنا إلى المدرسة، كما لو كان كل هذا ليس سوى حلم، "بالمناسبة لم تقل لى حتى الآن ماذا تعمل؟"، "أنا موظف"، "وأنا أيضاً موظف، أنا مُعلم". وبدأ الاثنان معاً فى الضحك، وذات الحصانين، أعلنت، عبر مؤشراتها إنه ينقصها البنزين. سيمونون فى أول محطة وقود يلتقون بها، لكنهما انتظرا أكثر من نصف ساعة؛ لأن طابور السيارات كان يمتد بطول

الـطـريق، والجـمـيع يـريـدون ملء الخـزان. عـادا إلى الطريق، جواكيم زازا قلق الآن، "الناس تخزن البنزين، ستغلق محطات الوقود أبوابها سريعاً، وبعدها، يجب الانتباه إلى ذلك، إن البنـزين منتج حسـاس، متبخر، عـنـدمـا تـكـون هـنـاك أزمـة فـهـو أول مـا يـشـيـر إلى الانزعاج العام، قبل سنوات كانت هناك حالة حصار على التموين، لا أعـرف إن كنت لا تـزال تـتـذكـر أو سمعتهم يتحدثون عن ذلك، وكانت الفوضى، أرى أننا قد لا نصل ولا حتى إلى أورثى"، "لا تكن متشائماً"، " لقد وُلدتُ هكذا".

عبرا أشبيلية دون أن يتوقفا، وإن كانت الزرازير تأخرت قليلاً احتفاء بالخيرالدا، التى لم تشاهدها من قبل. لو كانت نصف دستة فقط لأمكنها أن تشكل تاجاً من الملائكة السوداء لتمثال الإيمان، لكنها عدة آلاف، بسقوطها عليها كوابل، حولته إلى صورة لا شكل لها يمـكن أن يـكـون مـا كـان أو شـىء عـكـسه، إنه رمـز الزندقة. لم يستمر التحول طويلاً، لقد مرَّ جوزيه أنايسو بهذه الشوارع المتقاطعة، لنواصل، هذه الأمة المجنحة، فى الطريق، كانت ذات الحصانين تشرب عندما تستطيع، بعض محطات الوقود تضع لافتة انتهاء الوقود، لكن العمال يقولون، غداً، هؤلاء من ذلك النوع المتفائل، أو ربما، ببساطة، قد تعلموا قاعدة الحياة المرفهة. الزرازير لم يكن ينقصها الماء، بفضل الله، الذى هو سيدنا الرحيم بالطيور أكثر من الإنسان، وها هو مصدر نهر الوادى الكبير،

والبحيرات، والخزّانات، مياه أكثر من قدرة تلك المناقير الصغيرة لكل الطيور بطول تاريخ العالم. انتصف المساء عندما وصلا إلى غرناطة، تلهث ذات الحِصانين، ترتج من المجهود، فيما جواكيم زازا وجوزيه أنايسو يتحققان من الطريق، كما لو كانا يحملان خارطة حقيقية للإبحار مفتوحة أمامهما، "سنعرف الآن أين ينتظرنا المصير؟".

فى المكتب السياحى، سألتهما الموظفة إن كانا أثريين أو أنثروبولوجيين برتغاليين، أن يكونا برتغاليين هذا واضح من لهجتهما، لكن أن يكونا أثريين أو أنثروبولوجيين، هنا، "لأن أورثى بشكل عام، يزورها أناس لهم هذه الصفات، لأننا منذ سنوات اكتشفنا بالقرب من هناك، فى لافنتا ميثينا، أقدم أوروبى معروف"، سأل جواكيم زازا، "أوروبى بكامل هيئته"، "لا فقط جمجمة، لكنها قديمة، عمرها ما بين المليون والمليون وثلاثمائة ألف سنة"، "هل مؤكد أنه رجل؟"، أراد جواكيم زازا أن يعرف بدقة شديدة، وهو ما أجابت عنه ماريا دولوريس بابتسامة متواطئة، "عندما يتعلق الأمر بأثر بشرى، هم دائماً رجال، رجل كارتاخينا، ورجل نينديرتال، ورجل ستينهم، ورجل سوانزكومب، ورجل جاوا"، "ألم يكن فى تلك الأزمنة نساء، ألم تكن حواء قد وُلدت بعد، وبقيت بعدها كخادمة إلى الأبد؟"، "حضرتك ساخر"، "أنا لست أنثروبولوجياً بالدراسة وميَّالا للنسوية بالغضب، أقول لكِ نحن فى الحقيقة صحفيان ونريد أن نُجرى مقابلة مع شخص يدعى بدرو أورثى، الذى شعر أن الأرض

تهتز"، "وكيف وصل خبرٌ مثل هذا إلى البرتغال؟"، "إلى البرتغال يصل كل شيء، نحن نصل إلى كل مكان"، هذا الجزء من الحوار مع جوزيه أنايسو، فهو رجل سريع البديهة، ربما جاءه ذلك من كثرة تعامله مع التلاميذ، كان جواكيم زازا قد ابتعد قليلاً ليطالع لوحات الإعلانات وعليها صور فناء الأسود بالحمراء، وحدائق العريف، وتماثيل الملوك الكاثوليك، وكان يسأل نفسه إن كان من المفضل رؤية الأشياء الحقيقية نفسها بعد رؤية صورها، بهذا التفلسف حول الإحساس بما هو واقعى خسر جواكيم زازا بقية الحوار، ترى ماذا قال جوزيه أنايسو لماريا دولوريس حتى يضحكا هكذا، بهذا الشكل المرح، إذا كانت ماريا دولوريس لم تحوّل اسمها إلى لولا فلأن كل ضحكة منها تصبح فضيحة، لم يعد على وجه لولا أى ظل من الغضب النسوى، ربما لأن هذا الرجل من ريباتيخو كان أكثر من مجرد فك يتحرك، ضرس العقل وقمة المخ، وهذا تأكيد على أنه لا يزال هناك نساء فى زماننا هذا، ماريا دولوريس، موظفة سياحة؛ لأنه لم يكن لديها عمل كأنثروبولوجية، ترسم لجوزيه أنايسو الطريق الناقص على الخريطة، وتشير بنقطة سوداء إلى قرية أورثى، ولافنتا ميثينا بالقرب منها، والآن يمكن للمسافرين أن يواصلا طريقهما، تماماً كصحراء قمرية، ولكن يبدو فى عينيها الحسرة لعدم قدرتها على الرحيل هى أيضاً معهما، وممارسة عملها برفقة الصحفيين البرتغاليين، خاصة مع ذلك الأكثر تحفظاً والذى ابتعد قليلاً ليطالع اللوحات الإعلانية، كم مرة علمتنا

تجارب الحياة أنه لا يجب علينا أن نحكم على المظاهر، كما يحكم الآن جواكيم زازا، إنه خطؤه، وانزعاجه، لو أننا بقينا هنا لبعض الوقت، سنجذب الأنثربولوجية، لنغفر له سوقية تعبيره، الرجال، عندما يكونون معاً، لهم تلك التعبيرات الفظة، وجوزيه أنايسو مدعٍ ولكنه مخطئ أيضاً، فأجاب، من يعرف؟!

هذا العالم، ولن نتعب من تكراره، عبارة عن كوميديا من الأكاذيب، دليل آخر على هذه الحقيقة أنهم أطلقوا اسم رجل أورثى على عظمة عثروا عليها، ليس فى أورثى بالضبط، ولكن فى لافنتا ميثينا التى يمكنها أن تمنح اسماً لعلم الفراسة، لو لم يتعلق الأمر بالكلمة الأخرى "فنتا" (بيع) رمز وعلامة على عالم التجارة الغبى والفقير. غريب مصير الكلمات. لو كان ميثينا اسما لامرأة، لأنها لم تستطع أن تكون رجلاً قبل ذلك، مثل تلك الجيلقية الشهيرة التى أطلقت فى البرتغال اسمها على فيلا دى جيليقا، ربما كان قد وصل إلى ذلك المكان بعض إغريق مقدونيا، هرباً من جنون آتيلا، كان عليهم إعادة كتابة مبحث أسماء البلاد، وحط هنا أكثر بعداً عن ثيربيرى، فى قلب الجحيم، وما كان يحدث أبداً بعيداً كما هو الآن، حيث نبحر، وإن كان صعبٌ تصديق ما أرويه عليكم.

■■■

## ـ ٦ ـ

كان الشيطان أول من سكن فى تلك الأماكن، وكانت قدماه التى أحرقتا الأرض وكلستا الرماد، ما بين الجبال، التى كانت حينئذ مرتعبة فتركها الخوف على هذه الحال حتى اليوم، آخر الصحراء التى كان يمكن للمسيح نفسه أن يسقط فيها تحت إغواء الشيطان، لو لم يكن قد تعلم من النص التوراتى فى تلك الأماكن، ينظر جواكيم زازا وجوزيه أنايسو، "يا له من مشهد طبيعى"، لكن تلك الكلمة الجميلة تنتمى إلى عوالم أخرى، للغات أخرى، لا يمكن أن يُطلق اسم مشهد طبيعى على ما تراه العين هنا، لقد قلنا من قبل إنه سكن الجحيم ونشك فى هذا؛ لأن ما بين تلك الصخور الملعونة من المؤكد يمكن العثور أيضاً على رجال ونساء، مع مواشيهم التى ترافقهم إلى أن تحين لحظة ذبحها وأكلها، بين البقايا والأوبئة، فى هذه الصحراء التى كتب فيها الشاعر الذى لم يذهب إلى

غرناطة أبداً. ها هى أرض أورثى، التى شربت الكثير من دماء الموريسكيين والمسيحيين، حدث هذا أيضاً فى الزمن السحيق، ماذا يفيد الحديث عن الذين ماتوا من سنوات بعيدة، إذا كانت الأرض هى الميتة، والمدفونة بنفسها.

فى أورثى، عثر المسافران على بدرو أورثى، يمتهن الصيدلة، متقدم فى السن قليلاً عن ما تخيلاه، هذا لو كانا قد فكرا فى ذلك، لكنه لم يكن أكبر سناً من جده المليونير، هذا لو افترضنا صحة استخدام تعبيرات المال لقياس الزمن، مع الأخذ فى الاعتبار أن أحدهما لا يشترى الآخر، أو هذا يغيّر من قيمة ذاك. لم يظهر بدرو أورثى فى التليفزيون، لم نكن نعرف أن الرجل قد فاق الستين، ضامر الوجه والجسد، وشعره أبيض كله تقريباً، لولا أنه حزم أمره على عدم التجميل الاصطناعى، كان يمكنه أن يستعيد شبابه، فى حال معرفة ما يمكن لسلطة التجميل الكيميائى، الصبغة السمراء والشقراء، حسب الرغبة، فى سرية المعامل. عندما دخل جواكيم زازا وجوزيه أنايسو من الباب، كان يملأ كبسولات بخلاصة الكينا المطحونة، أدوية عتيقة ترفض تركيز الأدوية الحديثة، لكن ماذا، بحس حكيم، لا يزال يحافظ على التأثير النفسى للابتلاع الصعب، إلا أنه ناجع بشكل سحرى. فى أورثى، مكان لا يمكن تحاشى المرور به فى الطريق إلى لابنتا ميثينا، المرور بآثار الحفريات والاكتشافات، المسافرون ندرة، لا نعرف أين توجد جمجمة الجد

الأقدم فى التاريخ، ربما فى متحف ما هناك فى انتظار المسمى وقاعة العرض، عادة ما يشترى الزبون العابر أسبريناً، ومضادات الإسهال أو حبات تسهيل الهضم، أما سكان القرية فربما يموتون مع أول مرض دون المرور بمعاناة البحث عن دواء، وهكذا فإن الصيدلى هنا لا يمكنه أن يصبح ثرياً. ما إن أغلق بدرو أورثى الأمبولات، التى تبدو عملاً قيّماً، بتبليل الأجزاء التى تصلح كغطاء بضغط الجانبين المعدنيين، المثقوبين، وهكذا تصبح الروشتة جاهزة، "هل تريدان كبسولة كينا؟"، هذا ما دفعه إلى أن يسألهما، "ماذا تريدان يا سادة؟"، "نحن برتغاليان"، تأكيد زائد عن الحاجة، يكفى سماعهما لاكتشاف هويتهما، لكن، فى النهاية، إنها مسألة إنسانية، الحاجة إلى توضيح من يكونان قبل أن نقول ما جئنا من أجله، فى الغالب فإنه فى الحالات المهمة، والسفر مئات الكيلومترات فقط للسؤال، حتى لو كان السؤال بمثل تلك الكلمات المأساوية، "يا بدرو أورثى تقسم بشرفك وبشرف الجمجمة التى عثروا عليها أنك شعرت باهتزاز الأرض فى الوقت الذى سجلت فيه مؤشرات الزلازل فى أشبيلية وغرناطة خطأً مستقيماً لم يُشاهد من قبل؟"، رفع بدرو أورثى يده وقال، بكل بساطة الصادقين والمحقين، "أقسم". "نود أن نتحدث معك على انفراد"، أضاف جواكيم زازا بعد أن بين جنسيتيهما، وبعدها، بما أنه لم يكن هناك غيرهما فى الصيدلية، قصّا عليه الأحداث الشخصية والعامة،

الحجر، والزرازير، وعبور الحدود، فى قضية الحجر لم يستطيعا تقديم إثبات، لكن بالنسبة للطيور فالإثبات كان يتطلب فقط الإطلال من الباب والنظر، إنها هناك، فى تلك الساحة، أو فى تلك القريبة من مبنى البلدية، كل سكان القرية يرفعون رءوسهم إلى أعلى، مبهورين أمام المشهد الغريب، اختفى الدوران الآن، وهبطت الزرازير على القلعة ذات الأبراج السبعة، القلعة العربية، قال بدرو أورثى، "من الأفضل ألا نتحدث هنا، ادخلا العربة واخرجا من القرية"، "إلى أية ناحية"، "استمرا إلى الأمام، باتجاه ماريا، وسيرا ثلاثة كيلومترات بعد آخر البيوت، ستجدان هناك جسراً صغيراً، بالقرب من أشجار الزيتون، وانتظرانى تحت أشجار الزيتون، سأصل حالاً"، بدا لجواكيم زازا أنه يستعيد حياته الخاصة، عندما انتظر جوزيه أنايسو بعد آخر البيوت، قبل يومين، لكن الوقت وقتها كان فجراً.

كانوا يجلسون على الأرض، تحت شجرة زيتون قرطوبلية، التى تنتج الزيت الأصفر طبقاً لما تقوله الأغنية الشعبية، كما لو كان هناك زيت آخر غير أصفر، بعضه يكاد يكون ضارباً إلى الاخضرار، ما كان يمكن إسكات أول كلمات جوزيه أنايسو، "هذه الأماكن تثير الخوف"، وأجابه بدرو أورثى، "أسوأ من هذا كثيراً فى لابنتا ميثينا، لقد وُلدت أنا هناك"، كان حديثاً متكلفاً يشبه معناه المحدد لحكايته، حسب القارئ أكثر منه حسب القراءة، وإن كان كل شىء يعتمد على ذلك،

ولكن هذا يجعل من الصعوبة لنا أن نعرف من قرأ وما الذى تمت قراءته، وكيف انتهى ما قرئ لمن قرأه، لم يفكر بدرو أورثى أن شرور الأرض لها علاقة بأنه وُلد هناك. بعد ذلك، عادوا إلى موضوعهم، تحدثوا مطولاً عن تجاربهم، رامى القرص وصاحب الزرازير، وخبير الزلازل، وفى النهاية، قرروا أن كل تلك الحالات لها علاقة ببعضها البعض، ولا تزال لها علاقة ببعضها البعض، خاصة أن بدرو أورثى يؤكد أن الأرض لا تزال تهتز، "أشعر بها الآن"، ومد يده بإشارة التأكيد، تحت تأثير الغرابة لمس جواكيم زازا وجوزيه أنايسو اليد الممدودة، وشعرا، دون أدنى شك بالاهتزاز، والتذبذب، والطنين، ليس مهما أن يقول فضولى إنه الاهتزاز الطبيعى الناتج عن تقدم السن، فلا بدرو أورثى شائخ جداً، ولا يمكن الخلط بين اهتزاز واهتزاز، حتى لو أثبتت القواميس ذلك.

أى مراقب نظر من بعيد قد يتخيل أن الرجال الثلاثة يقسمون على الالتزام بشىء ما، حقيقى أنه فى لحظة ما تعانقت أيديهم، لا أكثر، كانت الأحجار من حولهم تزيد من حدة الحرارة، والأرض البيضاء تغشى البصر، والسماء فوهة فرن تلقى بالحمم، وحتى تحت الزيتونة القرطبولية، فى الظل، الزيتونات لا تكاد تبرز، لا تزال حتى الآن بعيدة عن خطر الزرازير، حتى يحين ديسمبر، وعندها سترى كم غارة تهب عليها، لكن بما أن الزيتونة وحيدة فلا يُعتقد أن الزرازير تأتى إلى مثل هذه المناطق، فتح جواكيم زازا الراديو، لأن

الصمت كان قد حل فجأة على الثلاثة، ليس غريباً، لقد تعارفوا قبل قليل، يُسمع صوت المذيع، أخن النبرات لأسباب مهنية ولنفاد البطاريات. "طبقاً للقياسات الأخيرة فإن سرعة انتقال شبه الجزيرة وصلت إلى سبعمائة وخمسين متراً فى الساعة"، أنصت الرجال الثلاثة، "وطبقا للأنباء التى وصلت حديثاً إلى غرفة أخبارنا، ظهر صدع عميق بين منطقة لالينيا وجبل طارق"، واصل الكلام والكلام، الكلام، "سنعود إلى مزيد من الأخبار بعد ساعة من الآن، إلا إذا حدث طارئ"، فى تلك اللحظة بالذات مرت مجموعة من الزرازير، فوووووو، وسأل جواكيم زازا، "إنها زرازيرك"، لم يكن جوزيه أنايسو فى حاجة للنظر ليجيب، "نعم إنها لى"، لأنه من السهل عليه التعرف عليها، كان يمكن لشيرلوك هولمز أن يقول، "إنها مسألة مبدئية يا عزيزى واطسون"، "لا توجد أسراب يمكن مقارنتها بها فى هذه المنطقة"، وهو محق، الطيور قليلة فى الجحيم، لا توجد سوى الليلية منها، ولأسباب تراثية.

تطلع بدرو أورثى إلى طيران السرب، أولاً لأسباب لا تزيد عن كونها فضولية، وبعدها لمعت عيناه ذات الزرقة السماوية والسحاب الأبيض، ولم يستطع وقف الكلمات الفجائية، وقال، "ماذا لو ذهبنا إلى الشاطئ لنشاهد مرور صخرة جبل طارق". يبدو هذا عبثياً، ولا معنى له، لكنه ليس كذلك، عندما نسافر فى القطار نشاهد الأشجار تمر بينما هى ثابتة فى

الأرض بجذورها، والآن لن نسافر فى قطار، نسافر ببطء على طواف حجرى يسبح فى البحر، دون أن يمسك بها شىء، الفارق فقط هو ما بين ما هو صلب وما هو سائل، كم مرة نحدد فيها حياة كاملة لنغير الحياة، نفكر فيها كثيراً، نحصل على دفعة ونتمهل، وبعدها نتحرك على قضبان الزمن فى حركة دائرية، كالدوامات التى تشق الحقول مثيرة الغبار، والأوراق الجافة، دون معنى، إلى أقصى ما تصل إليه قوتها، من الأفضل لنا أن نعيش على أرض من الأعاصير. فى مرات أخرى تكفى كلمة واحدة، "هيا نذهب لنرى مرور الصخرة"، نهضوا على الفور، على استعداد لبدء المغامرة، ولم يعودوا يشعرون بحرارة الهواء، كصبية فى فسحة يهبطون منحدراً على الطريق، يضحكون. كانت ذات الحصانين كجمرة، غرق الرجال الثلاثة فى العرق فى دقيقة واحدة، لكنهم يكادون لا يشعرون بالمشقة، فقد حدث أيضاً أنه من أرض الجنوب هذه خرج رجال لاكتشاف العالم الآخر، وهم أيضاً، قساة، متوحشون، غارقون فى العرق كالخيول، كانوا يتقدمون فى دروعهم الحديدية، وخوذات الحديد على الرءوس، وسيوف من الحديد فى الأيدى، فى مواجهة عرى الهنود، لا يغطيهم سوى ريش الطيور والألوان، إنها صورة شاعرية.

لم يعبروا القرية مرة أخرى، لأن مرور بدرو أورثى فى سيارة مع غريبين أمر مثير للريبة، إما أنه مخطوف أو أن الثلاثة يتآمرون على عمل شىء،

والأفضل إبلاغ البوليس، لكن قد يقول شيخ من شيوخ أورثى، "لا نريد الحرس المدنى هنا". سلكوا طرقاً أخرى، عبر طرق غير معروفة على الخارطة الرسمية، تفتقر إلى وجود السيدة أبى الهول العاملة مكتب السياحة، لرسم هذه الطرق المكتشفة حديثاً، ترى أكانت أبا الهول أم عرّافة، هذه الطرق لم يشاهدها أحد أبداً على علامات مفترق الطرقات، رغم أن هذه مثل تلك تنتمى إلى شبه الجزيرة. قال بدرو أورثى، "سأريكم لابنتا ميثينا أولاً، مسقط رأسى!"، قال الجملة كمن يسخر من نفسه أو يتخلص من حمل يؤلمه. مروا بقرية مهجورة اسمها فوينتى نويبا (البئر الجديدة)، البئر كانت هنا منذ زمن وشاخت وجفت، وفى منحنى من الطريق قال، "إنها هناك".

تنظر العيون، تحاول أن ترى، تشك فى عدم وجودها، لكنها لا ترى شيئاً، سأل جوزيه أنايسو، "هناك؟"، وكان محقاً فى شكه، فالبيوت غريبة ومتفرقة، وتتشابه مع لون الأرض، برج كنيسة مهدم، ومقابر لا تخطئها العين بالقرب من الطريق، وصليب وجدران بيضاء. تنحنى الأرض تحت الشمس البركانية كبحر متحجر مغطى بالتراب، إذا كان هذا موجوداً منذ مليون وأربعمائة ألف سنة فليس الإنسان بحاجة أن يكون عالم حفريات ليقسم إن رجل أورثى مات عطشاً، لكن تلك الأزمنة كانت شباب العالم، ذلك المجرى الذى يجرى هناك كان من قبل عريضاً وسخياً كنهر، وكانت هناك أشجار كبيرة، وحشائش أعلى من

قامة إنسان، حدث كل هذا قبل أن يضعوا الجحيم هنا. فى الموسم القادم، عندما تبدأ فى الإمطار، ستنتشر بعض الخضرة فى تلك الحقول الرمادية، أما الآن فإن الجوانب السفلية تعد الشىء الوحيد المزروع، ورغم هذا فإنه من الصعوبة بمكان، أن تجف الزراعة وتموت، ثم تُولد من جديد وتعيش، الإنسان هو الوحيد الذى لم يستطع تعلم دورة الحياة، بالنسبة له الحياة مرة واحدة ولا تتكرر. أصدر بدرو أورثى إشارة تحمل كل معانى بؤس القرية، "البيت الذى وُلدت فيه اختفى"، مشيراً بعدها إلى اليسار، باتجاه مرتفعات منحدرة. إنها كهف لوس روساليس، "هناك عثروا على عظام رجل أورثى"، نظر جواكيم زازا وجوزيه أنايسو باتجاه المشهد المسوّد، "قبل مليون وأربعمائة ألف سنة عاش هنا رجال ونساء أنجبوا رجالاً ونساءً، إنه القدر، والفاجعة، إلى اليوم، وبعد مليون وأربعمائة ألف سنة سيأتى من يقوم بحفريات فى هذه المقبرة المسكينة، وبما أنه يوجد رجل أورثى، ربما يقدمون جمجمتك ويطلقون على الجمجمة اسم رجل لابنتنا ميثينا". لا يوجد أحد، ولا يُسمع صوت نباح كلب، والزرازير اختفت، تمر قشعريرة طويلة بظهر جواكيم زازا، الذى لا يتمكن من السيطرة على قلقه، ويسأل جوزيه أنايسو، "ما اسم تلك الجبال التى فى العمق؟"، "إنها سلسلة جبال ساجرا"، "وتلك، التى إلى اليمين؟"، "إنها جبال ماريا"، عندما مات رجل أورثى ربما كانت تلك آخر المشاهد التى احتفظت بها عيناه، سأل جواكيم

زازا، "ترى ماذا كان يُسمى تلك الجبال عندما كان يتحدث مع رجال أورثى الآخرين، الذين لم يتركوا جماجم؟"، "فى تلك الأزمنة لم يكن هناك شىء له اسم"، قال جوزيه أنايسو، كيف يمكن النظر إلى شىء دون أن يضع له اسماً، هل يجب الانتظار حتى يولد الاسم. وقف الثلاثة ينظرون، فى صمت، وأخيراً قال بدرو أورثى" "هيا"، لقد حان الوقت لترك الماضى فى هدوئه القلق.

لتمضية وقت الرحلة، كرر بدرو أورثى حكاية المغامرات التى عاشها، مضيفاً أدق تفاصيلها، وصل العلماء إلى حد توصيله، فى حضور المسئولين، إلى جهاز لقياس الزلازل، كانت فكرة يائسة إلا أنها كانت مفيدة، لأنه حينها أمكنهم إثبات حقيقة ما كان يقوله، سجلت إبرة الجهاز وعلى الفور اهتزازات الأرض، ثم سرعان ما عادت إلى خطها المستقيم بمجرد فصل المريض عن الماكينة. عمدة غرناطة، الذى حضر التجربة، قال، "ما كان غير قابل للإثبات تم إثباته"، لكن عالماً صحح، "ما لم يتم إثباته عليه الانتظار لبعض الوقت"، ثم تحدث بلا أسس علمية لكنهم استمعوا إليه جميعاً وأمنوا على رأيه. أرسلوا بدرو أورثى إلى بيته قائلين له أن يكون تحت طلب العلم والمسئولين، وألا يتحدث عن مواهبه العجيبة، وهو توجيه لا يختلف كثيراً عن تلك التى اتخذها البيطريان الفرنسيان حول الأسباب الخفية لاختفاء الأحبال الصوتية لكلاب ثيربيرى.

وأخيراً استدارت ذات الحصانين نحو الجنوب، وبدأت تسير على طرق مطروقة، ولا يبدو أنه فى تلك الطرق يمكن أن تفتقد الوقود، بنزين، سولار، لكنها سرعان ما وجدت نفسها مجبرة على تخفيف سرعتها، كان يتقدمها طابور لا ينتهى من السيارات الأخرى يسير ببطء، وعربات نقل، وخطوط أتوبيسات عامة، وموتوسيكلات، ودراجات هوائية، وفسبات، وعربات تجرها البغال، وحمير محملة بالبشر، لكن روكى لوثانو لم يكن على أى واحد منها، وأناس يسيرون على أقدامهم، كثيرون، بعضهم يستخدم الأوتوستوب، وآخرون يحتقرون وسائل النقل كما لو كانوا يكفرون عن ذنوبهم أو يفون نذراً، والتفسير الأكثر قبولاً إنهم يفون نذراً، الأمر لا يستحق سؤالهم عن وجهتهم، ليس مهماً أن يكون اسمهم بدرو أورثى ليكون لديهم التفكير نفسه ولا الرغبة نفسها ليروا مرور جبل طارق عن بُعدٍ بعد انفصاله، يكفى أنهم إسبان، ومن هؤلاء يوجد هنا الكثير. قادمون من قرطبة، من ليناريس، ومن خايين، ومن جواديكس، مدن رئيسية، وأيضاً من إيجيرا دى أرخونا، من التوكون، ومن بولار باخو، ومن خيسوس ديل مونتى، والماثيجاس، ويبدو أن جميع الأنحاء أرسلت ممثلين لها، أبدى هؤلاء صبراً كبيراً، إذا كان جبل طارق لن يكون لنا، فليذهب إلى البحر، حتى لا يكون للإنجليز. كان البحر البشرى واسعاً مما دفع بوليس المرور إلى فتح ممر ثالث يهبط فى المكان الذى يستطيعه، قليلون

من يتوجهون شمالاً، فقط لأسباب قاهرة، موت أو مرض، وحتى فى حالتهم هذه ينظرون إليهم بتشكك، واشتباه، فى أن لهم ميولاً إنجليزية، أو ربما يريدون إخفاء آلامهم لهذا الانشقاق الجغرافى والإستراتيجى.

لكن ذلك اليوم، كان بالنسبة للعامة، عيداً كبيراً، أسبوعاً مقدساً كالأسبوع المقدس الآخر، وكانت هناك حافلات تحمل تمثال المسيح، وعذراء تريانا، ومكارينا، وفرق موسيقية، تلمع آلاتها النحاسية تحت الشمس، وعلى ظهور الحمير فتيان يرتدون ملابس الرقص والألعاب النارية، لو اقترب منهم أحد بعود كبريت لانفجروا مثل كالفينيو، وطاروا إلى الطبقة الثانية أو الثالثة للهواء والنار، حيث تشيط لحية سانشو، نعم، نتيجة ثقته العالية بنفسه، وقبوله السخرية منه مرة أخرى. الفتيات يرتدين أفضل ما لديهن من فساتين وناضرات الوجوه، وبمناديل وشيلان، والشيوخ، عندما لا يستطيعون السير، يحملهم الشباب، ابنٌ أنت اليوم، وغداً تصبح أباً، وما تفعله الآن سيفعلونه معك، تستمر المسيرة بأية طريقة، ويخف الجسد المتعب، الجميع فى الطريق إلى الساحل، والشواطئ، والأفضل باتجاه أعلى المناطق المطلة على البحر، حتى يمكن رؤية الصخرة الملعونة كاملة، مؤسف ألا يمكن سماع صراخ القرود لبعد المسافة، مشوشة لفقدانها رؤية الأرض. كلما اقترب البحر، يصبح المرور أكثر صعوبة، فهناك من يغادر السيارة ويواصل الطريق على الأقدام، أو يطلب مكاناً من الذين يذهبون فى عربة تجرها البغال

و على ظهر حمار، لأن هؤلاء لا يستطيعون ترك الحيوانات على طبيعتها، لأنها تحتاج إلى الرعاية، إرواء عطشها، تقريب القش والخروب من مخاطمها، وحتى رجال البوليس أنفسهم يتفهمون الوضع، فهم من أصول ريفية، وأوامرهم أن تبقى الشاحنات والسيارات على جانبى الطريق، ويمكن للحيوانات أن تواصل السير، ومسموح للدراجات النارية أيضاً، والدراجات الهوائية، والفسبات، والناقلات الخفيفة، وهى أدوات انتقال صغيرة الحجم تم اختراعها تحت إلحاح الحاجة. وفرق الموسيقى تسير على أقدامها، تُجرى بروفاتها على أولى مقطوعات الموسيقى الشعبية، موسيقى راقصة أكثر سرعة، أو موسيقى لوطنى متعاظم يضرب على الطبل، لكن زملاءه أوقفوه عند حده، لأنهم لم يكونوا على استعداد لحرق عملهم دون مبرر. توقفت ذات الحصانين أيضاً، لقد كانت السيارة البرتغالية الوحيدة فى هذا الحفل، أى، اللوحة المعدنية البرتغالية ، إن رؤية جبل طارق تائهاً فى البحر شىء لا يهمهم؛ لأن المهم التاريخى اسمه أوليفنسا، وهذا الطريق لا يؤدى إليها، هناك أناس تائهون، ونساء تبحثن عن أزواجهن، وأطفال يبحثون عن آبائهم، لكنهم جميعاً، لحسن الحظ، يلتقون فى النهاية، إذا لم يكن هذا اليوم مثيراً للسخرية، فإنه لا بد أن يكون مثيراً للدموع، سواء أراد الله أم أراد ابنه الطفل. وتسير أيضاً هناك كلاب تتشمم، وقليل منها التى تنبح، هذا إذا لم يتعارك بعضها مع البعض

الآخر، ومن ثيربيرى، ولا كلب. وهناك حماران يبدو أنهما طليقان، بلا صاحب بالقرب منهما، وانتهز بدرو أورثى وجواكيم زازا وجوزيه أنايسو الفرصة، وتبادلوا عليهما، أحدهم يسير على قدميه والآخران يركبان، لكن تلك الراحة لم تستمر معهم طويلاً؛ لأن الحمارين كانا لجماعة من الغجر ذاهبين باتجاه الشمال، وجبل طارق لا يهمهم فى شىء، ولولا أن بدرو أورثى كان إسبانياً، كان من الممكن أن يسيل الدم البرتغالى.

المخيّم بطول الشاطئ لا نهاية له، إنه مهرجان شعبى، آلاف وآلاف من البشر عيونهم مغروسة فى البحر، وهناك من يصعد على الأسطح وفوق الأشجار العالية، هذا لأننا لم نتحدث عن الآلاف الأخرى للذين لم يرغبوا فى الاقتراب كثيراً، وبقوا، ينظرون عبر المناظير والتليسكوبات، فى أعالى جبال كنتريبيفسا أو على سفوح جبال سييرا نيفادا، نحن يهمنا فقط الأشخاص الأكثر بساطة، الذين يلمسون الأشياء للتعرف عليها، وهؤلاء ما كان يمكنهم الاقتراب أكثر من ذلك، لكنهم فعلوا ما استطاعوا. جاء معهم جوزيه أنايسو وجواكيم زازا وبدرو أورثى، بحب بدرو أورثى الجارف والود الواضح للآخرين، يجلسون الآن على الأحجار المطلة على البحر، يخيم المساء، وجواكيم زازا هو من يقول، بشؤم كما اعترف، "ولو مر جبل طارق فى الليل، ستصبح رحلتنا بلا فائدة؟"، رد بدرو أورثى، "على الأقل سنرى الأضواء، وأعتقد أنه سيكون أجمل، رؤية الصخرة تبتعد كسفينة مضاءة، حينها، نعم، يمكن

إطلاق الألعاب النارية لاستكمال المهرجان، بأمطار، ودوائر، أو كما يسمونها هناك، فيما تختفى الصخرة فى البعيد، تغرق فى الليل المظلم، وداعاً، وداعاً لن أعود لرؤيتك مرة أخرى". لكن جوزيه أنايسو فتح الخارطة على ركبتيه، وضع بضع نقاط بالقلم الرصاص والورق، وكررها واحدة بعد الأخرى كنوع من التأكيد، وعاد للتأكد من مقياس رسم الخارطة، قارن العلاقة بين الرسم والواقع، وأخيراً قال، "جبل طارق، يا أصدقائى، لن يمر من هنا قبل عشرة أيام"، كانت مفاجأة غير قابلة للتصديق من جانب الرفاق، حينئذ قدم لهم العملية الحسابية، ولم يكن حتى فى حاجة لتذكيرهم بقدرته كمُعلم رسمى، إن علوماً كهذه، لحسن الحظ، فى متناول كل من يفهم فى الأرقام، "لو كانت شبه الجزيرة، أو الجزيرة، تسير بسرعة سبعمائة وخمسين متراً فى الساعة، فإنها تقطع ثمانية عشر كيلومتراً يومياً، والآن، من رصيف الجزيرة الخضراء إلى هنا حيث نوجد، فى خط مستقيم، المسافة مائتا كيلومتر تقريباً، أجروا عملية حسابية، وهو أمر سهل"، أمام تلك الحقيقة التى لا تقبل الشك، هز بدرو أورثى رأسه معلناً هزيمته، "ونحن جئنا إلى هنا، وجاء كل هؤلاء الناس؛ لأنهم اعتقدوا أن يوم المجد قد جاء، سنسخر اليوم من الصخرة الشريرة، والآن علينا أن نظل فى الانتظار عشرة أيام،، لا يوجد أى حريق يمكنه أن يبقى طوال هذه المدة". عرض عندها جواكيم زازا، "ماذا لو ذهبنا

للقاء الصخرة عبر الطريق الساحلى؟"، أجابه بدرو أورثى "لا، لا إنه أمر لا يستحق، تلك الأشياء تتطلب أن تجرى فى لحظتها المناسبة، حتى لا تقلل من الحماس، إنها الساعة الآن التى كان يجب أن يكون ماراً أمام أعيننا، الآن لحظة الحماس المتفجر، لقد كنا، لا، نحن مازلنا فى تلك اللحظة"، سأل جوزيه أنايسو، "إذًا ماذا سنفعل الآن؟"، "هيا بنا، لن نبقى، لأنه بعد الحلم لا يمكن أن نعيش الحلم"، "إذًا متفقون"، "نعود غداً"، "هكذا بسرعة"، "يجب أن أعود إلى المدرسة"، "وأنا إلى المكتب"، "وأنا إلى الصيدلية"، دائماً.

ذهبوا للبحث عن ذات الحصانين، لكن فيما كانوا يبحثون ويمر الوقت من المهم القول إن آلاف الأشخاص الذين لا يؤثرون فى هذه الحكاية، ولا حتى يمكنهم أن يكونوا ولو مجرد كومبارس فى خلفيتها، آلاف الأشخاص لن يتحركوا من هناك طوال تلك الأيام العشرة والليالى العشرة، سيأكلون مما فى حقائبهم، وبعدها عندما ينتهى اليوم الثانى سينتهى الغذاء، سيبحثون عن طعامهم مما تجود به تلك الأرض، سيطبخونه فى الهواء الطلق، على نيران كبيرة، كانت كالمنارات فى حقب سابقة، وأولئك الذين تنتهى نقودهم لن يشعروا بالجوع، حيث يأكل واحد يمكن أن يأكل الجميع، نحن فى زمن الأخوة المطلوبة، إذا كانت ممكنة إنسانياً، يمكنها أن تصبح كذلك. فإن تلك الأخوة الرائعة لن يعيشها بدرو أورثى، ولا جوزيه

أنايسو، ولا جواكيم زازا، أداروا ظهورهم للبحر، لقد حان وقت النظر إليهم بريبة من أولئك، الكثيرين، الذين يواصلون الهبوط باتجاه البحر.

فيما هبط الليل، وبدأت تشتعل أول الأضواء، قال جوزيه أنايسو، "هيا"، جلس بدرو أورثى فى المقعد الخلفى صامتاً، حزيناً، وبعينين مغلقتين، "إما الآن أو أبداً"، من الأفضل ألا نتذكر المثل البرتغالى، "إلى أين؟"، "ذاهب إلى الحفل"، حتى دون مساعدة علامات التعجب يمكن رؤية الفارق بين سعادة انتظار الإجابة الأولى وتعاسة تعب الإجابة الثانية، فقط تظهران على قدر المساواة فى الصفحة التى تكتبان فيها، "يمكنكما تناول العشاء معى؟"، خرجت تلك الكلمات من فم بدرو أورثى، إنه واجبه كمضيف، لم يعتقد جواكيم زازا وجوزيه أنايسو أنهما فى حاجة إلى الإجابة، هناك من يقول إن هذا سوء أدب، لكن من يقول هذا لا يعرف الكثير عن ذلك الذى يسمونه الطبيعة الإنسانية، آخرُ أكثر اطلاعاً سيقسم إن هؤلاء الرجال الثلاثة صاروا أصدقاء. عندما دخلوا أورثى كان الليل معتماً. الشوارع فى تلك الساعة خالية تماماً، أوقفوا ذات الحصانين أمام باب الصيدلية، حسناً لقد تركوها تستريح، ستعود غداً إلى الطريق محمّلة بالرجال الثلاثة، طبقاً لما يقررونه داخل البيت، حول المائدة، أمام طعام بسيط فى الأطباق، ولأن بدرو أورثى يعيش وحيداً، لم يكن هناك وقت لطعام أفضل. فتحوا التليفزيون، إنهم يقدمون الآن نشرة الأخبار كل ساعة،

شاهدوا جبل طارق، ليس فقط منفصلاً عن إسبانيا، بل بعيداً عنها بعدة كيلومترات، كجزيرة تحت رحمة الماء، لقد تحوّل، مسكين، يبدو كرأس خبز السكر، أو أشبه برصيف، بمدافعه الألف التى لا هدف لها ولا نفع. يمكنهم محاولة فتح ممرات من الجانب الشمالى، ربما يتم بذلك رأب صدع المجد الإمبراطورى، لكنه سيصبح بلا طائل، سواء كان خاصاً أم متشابهاً. كانت الصور مدهشة، ولا شك، لكنها لا تساوى شيئاً إزاء الانفعال الذى تركته مجموعة الصور التى التقطها القمر الصناعى، والتى تبين تطور الصدع بين شبه الجزيرة وفرنسا، يقشعر لها البدن ويقف لها شعر الرأس، إنها أكبر من قدرة الإنسان على التحمل، فذلك الصدع لم يعد قناة بل مياهاً مفتوحة، تبحر فيها السفن على هواها، فى بحار، هذا نعم، لم تكن تبحر هناك من قبل، بالطبع فإن حركة الإبحار لا يمكن ملاحظتها، لقد أصبحت السرعة فى هذا الوقت سبعمائة وخمسين متراً فى الساعة، وإن كانت غير ملحوظة بالعين المجردة، لكن، بالنسبة للمراقب، كما لو كانت قطعة حجر كبيرة تبحر فى رأسه، كان هناك أناس على وشك الإغماء. آخرون يشكون من الدوار. وكانت هناك صور ملتقطة من على طائرة الهليوكوبتر التى لا تهدأ، تظهر الهوة البرانسية، منشطرة كالرصاص، والتدافع الكبير للناس الذين يتجهون جنوباً، كهجرة فجائية، فقط لرؤية جبل طارق متجهاً إلى مياه الجنوب، خداع بصرى، نحن نعم نسير

تحت تأثير التيار، وأيضاً، هناك لقطة مقربة، يحدد فيها التحقيق التليفزيونى، سرباً من الزرازير، بالآلاف، كسحابة دخلت مجال الرؤية، فاسودت السماء، "حتى الطيور تدخل فى قلق الإنسان"، هذا ما قاله المذيع، فيما يتم تعلمه فى التاريخ الطبيعى أن للطيور أسبابها الخاصة لتذهب إلى حيث تريد أو حيث تحتاج. إنها لا تتبع أحداً، لا أنا ولا أنت، جوزيه الجاحد، يقول، "لقد نسيتهم".

بثوا أيضاً صوراً من البرتغال، من الشاطئ الأطلنطى، والأمواج ترتطم بالصخور وتثير الرمال، وكان هناك أناس كثيرون ينظرون إلى الأفق، بتلك الهيئة المأساوية التى تبدو على من استعدوا منذ قرون لمواجهة المجهول ويخشون فى النهاية ألا يأتى، أو أن ما يأتى قد يكون عادياً ولا قيمة له مثل ما يأتى فى كل ساعة، إنهم هكذا، كما قال أونامونو، "الوجه الذى لوحته الشمس بين الكفين، والعينان مغروستان فقط على المكان الذى تنام فيه الشمس فى البحر الواسع، كل الشعوب التى يقع البحر غربها تفعل الشىء نفسه، هذا الشعب أسمر، ولا فارق آخر، سوى أنه أبحر". وبشكل خطابى هتف المذيع الإسبانى، "انظروا إلى البرتغاليين، بطول شواطئهم الذهبية، من كانوا بحارة أوروبا تخلوا عن كينونتهم؛ لأننا نبتعد عن الرصيف الأوروبى، لكنا ننغرس من جديد فى أمواج الأطلنطى، أى قائد بحرى يقودنا، وأى ميناء ينتظرنا؟"، وآخر صورة تبين صبياً صغير السن يقذف حجراً إلى

البحر، بذلك الفن الذى يلمس فيه الحجر سطح الماء ويقفز ثانية، والذى ليس فى حاجة إلى التعلم، وقال جواكيم زازا، "له قوة توازى عمره، لا يمكن لحجر أن يذهب أبعد من ذلك"، "لكن شبه الجزيرة، أو سمها ما شئت، بدت كأنها تتقدم بقوة أكثر إلى البحر العميق، أمر غير معتاد فى مثل هذا الفصل". آخر خبر ذكره المذيع بشكل عابر، دون أن يعيره أى اهتمام، "يبدو أن شعوراً بالقلق يسرى بين الناس، خرج كثيرون من بيوتهم، ليس فى الأندلس فقط، فهناك السبب معروف، إذا أخذنا فى الاعتبار أن معظمهم يتجه نحو البحر، ويُعتقد أنها حركة مفهومة بدافع الفضول، على أية حال نحن نؤكد لمشاهدى التليفزيون أنه لا يوجد على الشاطئ ما يستحق المشاهدة، كما شاهدتم بأنفسكم قبل قليل ما يفعل البرتغاليون، ينظرون جميعاً ولا يرون شيئاً، فلا نفعل مثلهم". حينها قال بدرو أورثى، "لو لى مكان بينكم، سأذهب معكم". بقى جواكيم زازا وجوزيه أنايسو صامتين، لم يفهما سبب أن يريد شخص إسبانى الذهاب إلى أراضى وشواطئ البرتغال بعد النصيحة التى سمعها. السؤال جيد وملائم، وبما أن جواكيم زازا هو صاحب ذات الحصانين كان عليه أن يطرح هذا السؤال، وأجاب بدرو أورثى، "لا أريد أن أبقى هنا، على هذه الأرض التى تهتز دائماً تحت قدمى فيما يقول الناس إنها خيالات لا توجد إلا فى رأسى"، "من المؤكد أنك ستشعر بالشىء نفسه فى البرتغال، وسيقول الناس

نفس الشئ"، قال جوزيه أنايسو، "ونحن لدينا مشاغلنا"، "لن أكون عبئاً عليكما، يكفى أن تأخذانى وتتركانى فى لشبونة، التى لم أذهب إليها مطلقاً، وسأعود فى أى يوم آخر"، "وعائلتك، والصيدلية؟"، "العائلة لقد شاهدتما إننى لا عائلة لدى، أنا الأخير فيها، أما مسألة الصيدلية، فلدى مساعد يمكنه أن يهتم بأمرها". لم يكن هناك ما يمكن مناقشته أكثر من ذلك، ولم يعد هناك سبب للرفض. "نحن يسعدنا أن ترافقنا"، قال هذا جواكيم زازا، "السيئ هو أنهم سيكتشفون وجودك على الحدود"، ذكّره جوزيه أنايسو، "سأقول لهم إننى كنت فى جولة فى إسبانيا، ولا أعرف أنهم كانوا يبحثون عنى، وإننى سأسلم نفسى للحاكم المدنى، ولكن من المؤكد أننى لن أكون فى حاجة إلى شرح أى شئ، ربما كانوا منتبهين لمن يخرج أكثر من انتباههم لمن يدخل"، قال جوزيه أنايسو، "يجب أن نمر من معبر حدودى آخر، بسبب الزرازير"، وما إن قال هذا حتى فتح الخارطة على المائدة، كل شبه الجزيرة الأيبيرية مرسومة وملونة منذ الزمن الذى كانت فيه الأرض ثابتة، وجبال البرانس تمنعها من القيام بأية حركة صعلكة، بقى الثلاثة ينظرون فى صمت إلى هذا المسطح من العالم كما لو كانوا لا يعرفونه، "كان إسترابون قد قال إن شبه الجزيرة لها شكل جلد ثور"، همهم بدرو أورثى بتلك الكلمات، ورغم هذه الليلة الحارة، شعر جواكيم زازا وجوزيه أنايسو برعشة، كما لو كانا يشاهدان أمامهما الحيوان

الخرافى الذى سيُذبح ويُسلخ ليُضاف إلى القارة الأوروبية، وقد أصبح مجرد نفاية يجب أن تنزف طوال جميع الأزمنة.

الخارطة المفرودة تبين الوطنين: البرتغال وإسبانيا. البرتغال مرصع، ومعلق، وإسبانيا مائلة باتجاه الجنوب، والأقاليم والمحافظات، والمناطق، وكذلك الحصى الكبير للمدن الكبرى، والتراب للوديان والقرى، لكن ليس جميعها، فى كثير من الأحيان لا يبدو التراب أمام العين المجردة، وكانت لافنتا ميثينا مثالاً واحداً على ذلك. تفرد الأيدى الورق وتمر عليه، تمر على ألينتيخو، وتواصل باتجاه الشمال، كما لو كانت تداعب وجهاً، من اليسار إلى اليمين، باتجاه دوران عقرب الساعة، ومسير الزمن. لاس بيرياس، وريباتيخو قبلها جميعاً، جاليثيا، أستورياس، بلاد الباسك، ونافرا، كاستيا وليون، أراجون، كتالونيا، فالنسيا، واكستريمادورا، من جانبنا ومن جانبهم، الأندلس، التى لا نزال نوجد فيها، والغربى، حينئذ وضع جوزيه أنايسو أصبعه على مصب نهر الجواديانا وقال، "ندخل من هنا".

■■■

## - ٧ -

بعد محنة إطلاق الرصاص على الزرازير فى معبر الروسال الحدودى، وبفضل الذاكرة الدموية، كانت هذه المرة أكثر حذراً، فقد طارت فى دورة كبيرة باتجاه الشمال، وعبرت الحدود فى المناطق الخالية، والتى كان المرور من خلالها مفتوحاً، على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات من الجسر، الذى بنوه فى هذه الأيام التى نتحدث عنها، وأخيراً حانت الساعة، ولم يلفت نظر البوليس على الجانب البرتغالى أن أحد المسافرين اسمه جواكيم زازا، وبدا واضحاً أن لديهم مشاغل أهم تستحوذ على روحهم السلطوية، تُرى ما هى تلك المشاغل؟ سنعرف هذا من الحوار، سأل رجل البوليس، "إلى أين تتجهون؟"، أجابه جوزيه أنايسو، الذى كان أمام عجلة القيادة، "إلى لشبونة، لماذا؟"، "ستجدون فى طريقكم حواجز، نفذوا التعليمات التى

تتلقونها حرفياً، لا تتعجلوا السير أو تستديروا إلى الخلف، لأنه من الممكن أن يكلفكم ذلك غالياً"، "هل حدث شىء سيئ؟ نرجو ألا يكون إقليم الغربى قد تركنا وذهب"، "قد يحدث هذا فى أى وقت"، "لقد فكروا دائماً أنهم مملكة مستقلة"، "لا، الحكاية شىء آخر، وأكثر خطورة، الناس تريد احتلال الفنادق، يقولون بما أنه لا يوجد سياح، فهم يريدون السكن فى أى مكان"، "لم نكن نعرف هذا، ومتى بدأ الاحتلال؟"، "أمس ليلاً". "هو ذا"، صرخ جوزيه أنايسو، لو كان فرنسياً لقال، "هذا هو"، فكل إنسان لديه طريقته فى التعبير عن الدهشة التى يشعر بها الآخر أيضاً، لنسمع ما قاله بدرو أورثى بصوت زاعق، "عجباً"، بينما بدت هذه الكلمة لجواكيم زازا مجرد صدى للتعبير الأول، "هو ذا".

أمرهم رجل البوليس بمواصلة المسير، وقال مجدداً، "احذروا الحواجز!"، وتمكنت ذات الحصانين من عبور فيلا دى السانتو أنطونيو فيما كانت الطيور تُعلق على الحدث المدهش، ها أنتم ترون، من كان يصدق هذا، البرتغاليون نوعان مختلفان، بعضهم يذهبون إلى الشواطئ والجروف ليراقبوا الأفق الكئيب، وآخرون يتقدمون بجسارة لاحتلال القلاع الفندقية المحصنة بالبوليس، والحرس الجمهورى، وأيضاً، طبقاً لما هو مؤكد، محمية بالجيش نفسه، "لقد كان هناك جرحى"، عرفوا هذا فى مقهى قرروا التوقف فيه للاطلاع على المعلومات. عرفوا أن الوضع

خطير فى ثلاثة فنادق، أحدها فى البوفيرا، والآخر فى برايا دى روتشا، والثالث فى لاجوس، إلى درجة أن قوات حفظ النظام حاصرت المبانى الثلاثة، التى تحصن فيها الدخلاء، وتمترسوا وراء الأبواب والشبابيك، وقطعوا المداخل، تماماً كالمسلمين المحاصرين، كالكفرة يلعنون الخنزير بلا ذنب، ولا يعيرون اهتماماً للنداءات ولا للتهديدات، يعرفون أن الغاز المسيّل للدموع يتخفى وراء الراية البيضاء، لهذا لا يتحاورون، ولا يعرفون كلمة الاستسلام. كان بدرو أورثى مندهشاً، يكرر بصوت خفيض، "عجباً"، ويبدو على وجهه نوع من الكبرياء الوطنية، والحزن لأن الإسبان لم يكونوا هم من تولوا المبادأة.

حاولوا فى أول حاجز أن يحولوهم باتجاه كاسترو ماريم، لكن جوزيه أنايسو احتج قائلاً إن لديه صفقة تجارية مهمة فى سيلفيس ولا يمكن تأجيلها، ذكر سيلفيس حتى لا يثير الشبهات، "إضافة إلى أنه من الأفضل لى المرور عبر الطريق الداخلى"، أشار عليه رجل البوليس المسئول، "عليك بالطرق الأكثر إيغالاً لتفادى أى تعقيدات"، اطمأن إليهم بسبب الهيئة المسالمة للمسافرين الثلاثة واحتراماً لتعب ذات الحصانين، "لكن، أيها الضابط، هذا غير مقبول فى حالة مثل هذه، والبوليس فى حالة فوضى"، كانت تلك الكلمة الأخيرة فى غير محلها، "ونحن هنا مشغولون باحتلال بعض الفنادق، إن هذه ليست ثورة تستحق الطوارئ العامة، أحياناً ما تكون الجماهير قليلة

الصبر، لا أكثر"، كان هذا التعليق من جانب جواكيم زازا، قليل الدبلوماسية، من حسن الحظ أن الملازم كان من ذلك النوع الذى لا يحيد عن كلمة قالها، طبقاً للتقاليد القديمة، لولا هذا لأجبره على الذهاب عبر كاسترو ماريم. مع ذلك، لم يسلم من الزجر العسكرى، "الجيش هنا تأدية لواجبه، هل تعتقد أنه شىء طيب أن نحتل الشيراتون أو الريتز بسبب سوء الأحوال المعيشية فى المعسكرات". ربما كان تخبط هذا الضابط كبيراً حتى يضطر إلى تقديم إيضاحات لمواطن عادى. "حضرتك محق، سيدى الملازم، صديقى هكذا، يتكلم دون تفكير، رغم تحذيرى له"، "إذاً عليه أن يفكر، فهو كامل الأهلية"، أنهى العسكرى كلامه بشكل حازم. وبإشارة جافة سمح لهم بالمرور، لحسن الحظ لم يسمع ما قاله جواكيم زازا، وإلا انتهى الوضع بهم إلى السجن.

أوقفوهم أمام حاجز آخر، رجال الحرس الجمهورى كانوا أقل أريحية، فكان عليهم أن يسلكوا طرقاً ترابية حتى يعودوا من جديد إلى الطريق العام. كان جواكيم زازا غاضباً، ولديه أسبابه، فقد زُجر مرتين، "أنا أتقبل أن يقوم الملازم بادعاء الحزم، فهذا عمله، لكن أنت ليس لك أن تقول إننى لا أفكر فيما أقول"، "معذرة، كنت أحاول تجنب استمرار الجدل، كنت تسخر من الملازم وهذا خطأ، لا يجب أبداً أن تسخر من السلطات، إذا لم يفهموا السخرية، فمن الأفضل ألا تفعل، وإذا فهموها، فهو أسوأ"، طلب بدرو

أورثى شرحاً، متأنياً، لما حدث، وبتغيير نغمة الصوت وتكرار ما حدث تبين أن القضية كلها لم يكن لها أية أهمية، عندما فهم بدرو أورثى كل شىء، فقد تم فهم كل شىء.

بعد مفترق طرق بوليكيمى، فى جزء من طريق خال، انتهز جوزيه أنايسو جانباً منبسطاً، وأطلق العنان لذات الحصانين، قاطعاً الطريق، صرخ جواكيم زازا، "إلى أين أنت ذاهب؟"، "لو تابعنا الطريق كالأطفال المطيعين لن نقترب أبداً من أى فندق، ونحن نريد أن نرى ما الذى يحدث هناك، وإلا"، أجاب جوزيه أنايسو فى قفزات، وهو يحاول السيطرة على عجلة القيادة، فيما كانت السيارة تقفز على الأرض المحروثة كالمجنونة، وكان بدرو أورثى فى المقعد الخلفى يقفز من جانب إلى آخر بلا رحمة، وجواكيم زازا الذى يضحك مقهقهاً، يكرر بصوت متقطع، "جميل، جميل"، من حسن الحظ أنه على بعد ثلاثمائة متر عثروا على طريق مختبئ بين أشجار التين، خلف جدار متهدم، متفرقة أحجاره أو تآكلت بفعل الزمن، كانوا، بمعنى أو بآخر، فى مسرح العمليات. اقتربوا من البوفيرا بكل حذر، كلما أمكنهم ذلك مستغلين الطرق المنخفضة، أسوأ ما فى الأمر كانت السحب الترابية التى تثيرها ذات الحصانين، فقد كانت تبدو عديمة الخبرة للعب دور الطليعة الاستكشافى، لكن البوليس كان بعيداً، يغطى التقاطعات، ومفترق الطرق الرئيسية المتعددة، إضافة إلى أن قوات حفظ النظام

لم تكن بالعدد الكافى لتغطية جميع النقاط الإستراتيجية فى مقاطعة ثرية بالفنادق كثرائها بأشجار الخروب، لو كان هناك مجال للمقارنة. الحقيقة أنه لو أخذنا فى الاعتبار أن المدينة المقبلة هى لشبونة، فلم يكونوا فى حاجة إلى المغامرة فى تلك الطرق التى، تسيطر عليها الفوضى، لكن التأكد من المعلومات كان يستحق كل هذا، كم من المرات التى تم فيها اكتشاف أن القصة المحكية كانت قصة مبالغاً فيها، ربما كان الأمر متعلقاً فقط بحدث منعزل، أو بحدثين، والحواجز، فى النهاية، قد تكون تطبيقاً لنظرية أن الحذر يفترض أن الوقاية أفضل من العلاج. لكن تسربت الأنباء. فى وسط الغابة العارية، كان هناك رجال ونساء يتقدمون على الأرض الحمراء محملين بالأكياس والحقائب والصرر، والأطفال على الأذرع، تحت ضغط فكرة تحديد أماكن تواجدهم فى الفندق، بهذه الممتلكات المتواضعة وضمانة الأقارب من العائلة، الزوجة، والأبناء، بعد ذلك لو سار كل شىء بالشكل الصحيح، يرسلون فى طلب بقية الأقارب، ونظراً لنقص الممتلكات الثرية، لم يفكر أحد أن الفنادق تكثر فيها الأسرة والطاولات، ولو أن الصناديق ليست بالعدد الكافى، فهناك الدواليب التى تحل محلها بشكل كاف.

كان الإعداد للمعركة يجرى على أبواب البوفيرا. ترك المسافرون ذات الحصانين فى المؤخرة، فى حماية الظلال، لأنه فى مثل هذه الحالات لا يمكن طلب

مساعدتها، هذه ميكانيكية، لا انفعالات لها، تذهب حيث يوجهونها وتبقى حيث يتركونها، لا يهمها أن تبحر شبه الجزيرة أم لا. لن تصبح المسافات أقل لأنها تتحرك، سبق المعركة مقدمة كلامية، تماماً كما كان يحدث فى الماضى، فى الحروب القديمة، بالتحديات، وإثارة حماس الجنود، والصلاة للعذراء أو للقديس يعقوب، الكلمات جميلة دائماً عند البدء، ومشئومة نتائجها، فى البوفيرا لم يفلح الخطاب الذى ألقاه رئيس الجماعات الشعبية الغازية، رغم حرارته، "أيها الحراس والجنود، أيها الأصدقاء، افتحوا آذانكم، وانتبهوا إلىَّ، أنتم، لا يجب أن تنسوا، أنكم أبناء الشعب مثلنا، هذا الشعب الذى ضحى كثيراً عند إقامة هذه الأشياء لكنه لا يملكها، يبنى فنادق ولا يكسب ما يكفيه ليسكنها، جئنا إلى هنا مع أبنائنا وزوجاتنا، ولكنا لم نأت طلباً للجنة، فقط نريد سقفاً كريماً، سقفاً أكثر أمناً، غرفاً ننام فيها بالاحترام والاحتشام الذى يجب أن يُعامل به الإنسان، نحن لسنا حيوانات، ولا ماكينات، لدينا أحاسيس، والآن حسناً، هذه الفنادق فارغة الآن، مئات من الغرف، آلاف، أقاموا فنادق للسياح والسياح ذهبوا، ولن يعودوا، فيما كانوا هنا نحن تقبلنا وضعنا السيئ، والآن من فضلكم، دعونا ندخل، سندفع إيجاراً مساوياً لما كنا ندفعه فى البيت الذى كنا نسكنه، لن يكون عدلاً أن تطلبوا منا أكثر من ذلك، ونقسم، بما هو مقدس وما هو ليس كذلك، إنه سيظل دائماً نظيفاً ومنسقاً، من أجل هذا

لن نعدم إطلاقاً نساء كزوجاتنا ولا حتى يصلوا إلى مستوى نعال أحذيتهن، أعرف هذا جيداً، الحق فى جانبكم، يوجد أطفال، والأطفال يدمرون كل شىء، لكن هؤلاء سيكونون كماء الذهب، ماذا؟ كيف نعرف؟ فى كل غرفة حمّام، ودش ومغطس، وماء ساخن وبارد حسب الحاجة، وهكذا فإن النظافة لن تكلف كثيراً، وإن كان من الممكن أن يكون هناك بعض أبنائنا قد اعتادوا على القذارة، وأنهم لن يعتادوا على النظافة، أبناؤهم أعدكم بأنهم سيكونون أنظف المخلوقات فى العالم، القضية هى أن نمنحهم الوقت، هذا هو كل ما يحتاجونه، الوقت، ولديهم الوقت بما فيه الكفاية، والباقى لن يحتاج إلى أكثر من الحلم"، هذا ما لم ينتظره أحد، أن يكون رئيسنا فيلسوفاً.

يمكن التكهن من ملامح الوجوه، ويمكن التأكد من ذلك من خلال بطاقات الهوية، أن الجنود حقيقة من أبناء الشعب، لكن قائدهم المتغطرس، إما أن يكون كذلك، وترك أصوله المتواضعة على مقاعد الدراسة فى الأكاديمية العسكرية، أو ينتمى بالولادة إلى الطبقات العليا، والذين أقيمت فنادق الغربى من أجلهم، من خلال إجابته قد لا نعرف أكثر من ذلك، "اخرجوا جميعاً وإلا أخرجتكم بضربكم على مؤخراتكم" هذا الفظ يؤكد أن الكلام الردىء ليس حكراً على الطبقات الدنيا، الجنود يرون فيه، فى البلدية، الأب العزيز والأم العزيزة، لكن الواجب، عندما ينادينا، فهو الأقوى، تقول الأم للابن الذى

يوشك على ضربها، "أنت نور عينى". لكن القائد المواطن صرخ بغضب، مغيِّراً لهجة القنوط، "عصابة من لاحسى المؤخرات، خدم، من لا يعرفون ثدى الأم الذى أرضعهم"، الحرية الشاعرية، اتهامات لا معنى لها، لها هدف محبط، فليس هناك ابن أو ابنه لديه هذه الذكرى، رغم وجود الكثير من السلطات، التى تؤكد أنه فى أعماق وعينا، نحتفظ بتلك الذكرى فى سرية أو ذاكرة أخرى مرتعبة، وأن حياتنا، كلها، مبنية على هذا وعلى أشياء أخرى مرعبة.

لم يعجب قائد الجنود أن ينعتوه بلاعق المؤخرات، فصرخ، "إلى الأمام"، بينما كان يصدر أوامره، بجنون، فإن زعيم الغزاة صرخ أيضاً، "هيا إليهم، أيها المواطنون"، وتواجهوا جميعاً فى وقت واحد، جسداً لجسد، وبدأت معركة رهيبة، فى تلك اللحظة وصل جواكيم زازا وجوزيه أنايسو وبدرو أورثى، بفضول وبراءة، ووجدوا أنفسهم فى المعمعة، الجنود فى حمى المعركة لم يفرقوا بين الممثلين والمتفرجين، يمكن القول إن الأصدقاء الثلاثة، ودون أن يعرفوا غرفهم، قرروا النضال فى سبيلها، رغم تقدم عمر بدرو أورثى، كافح كما لو كانت هذه بلاده، والآخران فعلا ما استطاعا على أكمل وجه، وربما أقل مما يجب؛ نظراً لانتمائهما إلى جنس مسالم. كان هناك جرحى يزحفون أو يحملونهم إلى جانبى الطريق، نساء باكيات، تلعن، وأطفال يحتمون بالعربات، معارك مثل هذه كانت تجرى فى القرون الوسطى لذا يجب وصفها بأوصاف

ذلك الزمن. حجر مقذوف من بعيد ألقاه صبى اسمه "داوود" طرح الضابط "جوليات" أرضاً، الذى بدأ ينزف دماً من طرف ذقنه، لم يتمكن من حمايته بخوذته الحديدية، كان هذا نتيجة تخليه عن استخدام الخوذة والدرع، الأسوأ كان، خلال فوضى السقطة، هجم الغزاة على الجنود، مروراً من جانب إلى آخر ثم انطلقوا جرياً، فى حركة تكتيكية عفوية لكنها عبقرية، وتفرقوا بين الحوارى والممرات، فمنعوا العسكريين الذين يحاصرون الفندق المحتل، من تقديم العون للكتيبة المهزومة، لا يذكر أحد هزيمة منكرة مثل تلك منذ قديم الزمان، مدير الفندق، لا شك اختل عقله، أو تحول بشكل فجائى إلى جانب المصالح الشعبية، فتح الأبواب على مصراعيها قائلاً، "ادخلوا، ادخلوا، أنتم أفضل من بقائه خالياً".

أمام تلك التسهيلات فى الاستسلام، وجد بدرو أورثى وجوزيه أنايسو وجواكيم زازا أنفسهم يحتلون غرفة فى الحقيقة لم يناضلوا من أجلها، وتركوها بعد يومين لعائلة من العائلات الأكثر احتياجاً، مكونة من جدة عاجزة، ولديها جرحى ترعاهم. فى تلك الفوضى التى لم تحدث من قبل فقد أزواج زوجاتهم، وأبناء فقدوا آباءهم، لكن نتيجة تلك الانقسامات المأساوية، وهو عمل لا يمكن لأحد أن يدعيه، وهو بحد ذاته إثبات مؤكد لجدية الحكاية، أن عائلة واحدة، مقسمة، لكنها مدفوعة بدينامكية كل جزء من أجزائها احتلت أجنحة فى فنادق مختلفة، واحتاجت إلى عمل شاق

لجمع أفرادها تحت سقف واحد، قالوا إنهم كانوا فى حاجة إليه، بشكل عام انتهى بهم الحال إلى البقاء فى فندق بنجوم أكثر على لافتته. طلب ضباط البوليس، وقادة الجيش والحرس الجمهورى مزيداً من الدعم، طلبوا من لشبونة عربات مدرعة وتعليمات، والحكومة، دون أن تعرف لمن تتوجه، أصدرت أوامر وأوامر مضادة، هددت واستجدت، وتبين أيضاً أن ثلاثة وزراء استقالوا. فيما كان يحدث هذا، كان يمكن من شوارع البوفيرا وشواطئها رؤية العائلات المنتصرة فى نوافذ الفنادق، والشرفات المفتوحة والمضاءة يجلسون إلى موائد الإفطار وعلى حشيات لينة، ورب العائلة يدق أول المسامير ويمد حبالاً سينشر عليها ملابس الأسبوع التى بدأت الأم، مترنمة، فى غسيلها فى المغطس. وحمّامات السباحة مزدحمة بالمستحمين والمستلقين تحت الشمس، ولم يشرح أحد للصبية إنه عليهم الدخول تحت الدش قبل إلقاء أنفسهم فى المياه الزرقاء، ليس سهلاً أن ينسى هؤلاء الناس عادات أحيائهم العشوائية.

النماذج السيئة تنمو وتنتشر بشكل أسرع من التعاليم الطيبة، ولا يعرف أحد بأية طريقة سريعة تنتقل، فبعد ساعات قليلة تخطت الحركة الشعبية الحدود، وانتشرت فى إسبانيا، لكم أن تتخيلوا ما حدث فى ماربيا وتوريمولينوس، حيث الفنادق هناك كالمدن، وثلاثة منها يمكن أن تشكل مدينة كبيرة. عندما وصلت تلك الأنباء المزعجة إلى أوروبا، بدأت

تُسمع الصرخات، "إنها الفوضى، اضطراب اجتماعى، اعتداء على الممتلكات الخاصة"، ونشرت إحدى الصحف الفرنسية الواسعة الانتشار التى تساهم فى تشكيل الرأى العام، على عرض صفحتها الأولى مانشيتاً غامضاً، "لا يمكن الهروب من الطبع"، هذا الحكم، هو فى الحقيقة ليس جديداً، أصاب الهدف، وكان سكان أوروبا عندما يجرى بينهم حديث عما وقع فى شبه الجزيرة الأيبيرية، يهزون أكتافهم ويقول بعضهم للبعض الآخر، "ماذا نفعل لهم، هؤلاء الناس هكذا، لا يمكن الهروب من الطبع"، الاستثناء الوحيد فى الحكم العام جاء فى صحيفة صغيرة ميكافيلية من نابولى حيث أعلنت، "حل أزمة السكن فى البرتغال وإسبانيا".

خلال الأيام التى قضاها الأصدقاء الثلاثة فى البوفيرا، حاولت شرطة مكافحة الشغب، مدعومة بمجموعة العمليات الخاصة، إخلاء أحد الفنادق بالقوة، لكن ردة الفعل المشترك والمنسق للسكان الجدد وملاك الفنادق، بعد أن قرر هؤلاء المقاومة حتى آخر غرفة، وتخوف أولئك من التدمير المعتاد الذى يخلفه المنقذون من ورائهم، أديا إلى إلغاء العمليات، وتأجيلها إلى فرصة أخرى، بعد أن يتولى الزمن والوعود تخدير الحراسة. عندما واصل بدرو أورثى وجواكيم زازا وجوزيه أنايسو رحلتهم باتجاه لشبونة، كانت المبانى المحتلة قد أنشأت لجاناً من السكان، تم اختيارهم ديمقراطياً، فكونوا خلايا متخصصة، للنظافة

والصيانة، والتنشيط الثقافى، والتعليم والتدريب المدنى، والرياضة، وفى النهاية، استخدام كل المتاح للتنسيق والعمل الجيد الذى تحتاجه أية جماعة. على الساريات الخاصة والمنصوبة عشوائياً كانت ترفرف أعلام ورايات من جميع الألوان، وأى شىء يخدم القضية، أعلام الدول الأجنبية، والنوادى الرياضية، والجمعيات المختلفة، فى ظل الرمز الوطنى، الذى كان يرفرف فى أعلى مكان، وكانت هناك أيضاً حشيات فى النوافذ، كنوع من الزخرفة.

لكن، أية عملية تنظيم غير متناغمة دائماً ما تولِّد معارضة، وقيوداً أو اختلافاً، وبتطبيقها على هذه الحالة، يمكن القول إنه حتى أفضل الأشياء بالنسبة لجماعة ما ستجد من يرى سلبياتها. فالطريقة البدائية التى تم بها احتلال الفنادق كانت القطرة التى فاضت بالكأس، وكشفت عن القلق الذى يعيشه الأثرياء وأصحاب السلطة، كثير منهم هربوا مع السياح، خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى غرق شبه الجزيرة بالحياة والممتلكات التى عليها، هذا لا يعنى بالطبع، أنهم كانوا غرباء فى بلادهم، وإن كانت هناك درجات من الانتماء لدى كل واحد تجاه وطنه الطبيعى والإدارى، كما بيّن التاريخ مرات عديدة.

والآن، فى ظل الإدانة العامة للأوضاع الاجتماعية، وأكثر من عامة وعالمية لو استثنينا الطريقة التى تعاملت بها تلك الصحيفة الصغيرة التى تصدر من نابولى، فقد بدأت هجرة ثانية، كثيفة، إلى

درجة أصبح مشكوكاً فى أنه تم الإعداد لها بشكل مسبق، وظهر للعيان، أن الجراح التى كانت تبدو حتى ذلك الوقت من الممكن شفاؤها فى أوروبا، فإن أحداً لم يتخيل أن يكون تركيب شبه الجزيرة قد حطم أكثرها قوة، فالحسابات المصرفية الكبرى تحولت فجأة إلى الحد الأدنى، حافظت على بقايا رمزية، حوالى خمسمائة اسكودو فى البرتغال، وفى إسبانيا حوالى خمسمائة بيزيتة، أو أكثر قليلاً من هذا، تصفية الحسابات المصرفية، خلق صعوبات أمام الحسابات المغلقة على مواعيد محددة، وكل شىء آخر، كالذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، والحلى، والأعمال الفنية، والأسهم، كل ذلك ذهب مع الريح التى هبت على سطح البحار، فى الاتجاهات الاثنين والثلاثين لوردة الرياح، أما الأثاث المنقول للهاربين، فقد بقى على أمل الحصول على ما تبقى منه فى يوم من الأيام، هذا إذا كان هناك وقت، وصبر. بالطبع لأن عمليات النقل الكبرى لا يمكن القيام بها فى أربع وعشرين ساعة، لكن أسبوعاً واحداً كان كافياً لقلب كل شىء رأساً على عقب، ومن جانب إلى آخر، وبشكل جذرى، لقد تغير التركيب الاجتماعى للبلدين الأيبيريين. أى مراقب فى حاجة إلى وقائع وأسباب، ويترك نفسه لينخدع بالظواهر السطحية، سيتوصل إلى نتيجة مفادها أن البرتغاليين والإسبان أصابهم الفقر فجأة، ما بين ساعة وأخرى، وطبقاً للغة الحسابات الخاصة والدقيقة، فإن ما حدث هو أن

الأثرياء ذهبوا، وعندما يغيب هؤلاء يظهر هذا على الفور فى الإحصائيات.

هؤلاء المراقبون الذين يمكنهم رؤية قمة الآلهة والإلهات حيث لا يوجد سوى سحب تمر، أو أولئك الذين يجدون أمام أعينهم جوبتر، ويسمونه بخاراً فضائياً، لن نتعب أبداً من تذكيرهم أنه لا يكفى الحديث عن الظروف، وانقسامهم الثنائى القطبية ما بين المقدمات والنتائج، إذا لم يبذلوا مجهوداً عقلياً، فهم فى حاجة، نعم، إلى اعتبار أن العصمة من الخطأ توجد ما بين هؤلاء وأولئك، لنقلها حسب الحجم والترتيب؛ فالزمن، والطريقة، لو لم يتم قياس كل منهما وتفحصهما، فإننا سنقع فى خطأ الحكم المسبق. الإنسان كائن ذكى، لا شك فى هذا، ولكن ليس إلى الدرجة المطلوبة، وهذا إثبات واعتراف بالتواضع الذى يجب أن نواجه به أنفسنا أولاً، قبل أن يواجهونا به، تماماً كما هو البِرّ بمفهومه الحقيقى.

■■■

## - ٨ -

وصلوا إلى لشبونة مع هبوط المساء، فى تلك الساعة، التى تصب فيها السماء فى الأرواح رقة حزينة، وسنرى الآن كم كان محقاً ذلك العارف بالأحاسيس والتعبيرات الذى قال إن المشهد الطبيعى حالة من حالات الروح، ما لم يعرف أن يقوله لنا هو كيف كانت تبدو المشاهد فى تلك الأزمنة، التى لم يكن فى العالم ساعتها غير البشر، بأرواح لم تتعلم بعد الإحساس، وإضافة إلى أنها كانت مختلة. بعد مرور الملايين، وبفضل الاكتمال، يمكن لبدرو أورثى التعرف فى كآبة المدينة الظاهرة على الصورة الحقيقية لحزنه الخاص. باعتياده على هذين البرتغاليين اللذين ذهبا للبحث عنه فى تلك المناطق المهجورة حيث وُلد وعاش، والآن عليه أن ينفصل عنهما، كلٌ فى طريقه، حتى العائلات لا يمكنها مقاومة الحاجة إلى الانفصال، فكيف لا يفعلها من تربطهم سوى صلة التعارف،

أصدقاء منذ فترة قصيرة جداً، وعلاقة رقيقة الجذور.

كانت ذات الحصانين تقطع الجسر ببطء، طبقاً للحد الأدنى المسموح به للسرعة؛ لتمنح الإسبانى وقتاً لتأمل جمال مناظر الأرض والسماء، وأيضاً لتأمل العمل الهندسى الرائع الذى يجمع شاطئى النهر، ذلك البناء، نقول تلك الجملة. إنها تعوضنا عندما نستخدمها حتى لا نكرر كلمة جسر، ما كان سيجعلنا نرتكب خطأ نحوياً أو إسهاباً. فى الفنون المختلفة، وبشكل خاص فن الكتابة، فإن أفضل الطرق بين نقطتين، وإن كانتا قريبتين، لم يكن أبداً، ولن يكون مطلقاً، الخط الذى يسمونه مستقيماً، أبداً ومطلقاً، طريقة حازمة للإجابة عن الشكوك، بإسكاتها. كان المسافرون مستغرقين تماماً فى تأمل جمال المدينة ومأخوذين بذلك العمل المُعجز، فلم ينتبهوا إلى القلق الذى انتاب الزرازير فجأة. تملكتها نشوة الارتفاع، فحفت القوائم المرتفعة التى كانت ترتفع من الماء لتكون دعامات للسماء، فى هذا الجانب من المدينة ذات الأحجار النارية، هناك يوجد البحر، والشمس، وتحت يوجد نهر كبير يمرُّ، كتيارٍ من الحمم الحارقة تحت الرماد، غيَّرت الطيور وجهتها بشكل مفاجئ، بضربات أجنحة سريعة، ومتكررة، كما لو كانت الأرض تدور حول الجسر، فتحوَّل الشمال شرقاً وبعدها جنوباً، والجنوب غرباً ثم شمالاً، فى أى مكان من العالم نكون لو درنا تلك الدورات المعقدة؛ ترى عن أى شيء نبحث لو رحلنا. لقد قيل إن البشر، حتى

الوصول إلى تلك الأشياء ينظرون إليها ولا يفهمونها، ولا حتى هذه المرة سيفهمون معناها.

كانوا يسيرون فى منتصف الجسر، همهم بدرو أورثى قائلاً، "يا لها من مدينة جميلة"، كلمات مثل تلك، رقيقة، ليست فى حاجة إلى إجابة، ما لم تكن بتواضع، "ليست سيئة"، لا يزال لديهم الوقت الكافى ليتركا بدرو أورثى فى فندق، ويواصلا الرحلة، على الأقل حتى قرية ريباتيخو حيث يسكن جوزيه أنايسو، ويمكن لجواكيم زازا أن يمضى الليل، تحت شجرة التين لو أراد، لكن ليس من الأفعال المقبولة ترك الزائر، فاتفقوا معاً على أن يمضى البرتغاليان يوماً أو اثنين، ليتعرف الإسبانى على المدينة بطريقة يستطيع أن يقول إنها مدينته، عندما يعود إلى أورثى، سيردد كلماتنا البريئة وزهونا القديم، "من لم ير لشبونة لم يرَ شيئاً جميلاً"، شكراً لله أن أعطانا فى اللغة البرتغالية الروى، ولم يأخذ منا حمايته.

لم يكن مع جواكيم زازا وجوزيه أنايسو القليل من المال، كانا قد جمعا ما معهما استعداداً للمغامرة عبر الحدود، وأمكنهما الاقتصاد، كما نعرف، النوم مرات تحت نجوم السماء، وأخرى فى بيت الصيدلى الأندلسى، وفى الغربى، استفادوا من الوضع الفوضوى، فلم يطلب منهم أحد حساب الإقامة. فى لشبونة، حيث دخلنا قبل قليل، لم يكن قد حدث هجوم واحتلال الفنادق سوى فى بعض المناطق المتاخمة للمدينة، أما الباقى منها والتى تقع فى وسط المدينة،

فقد كانت محمية بعاملين: أولاً لأنها فى العاصمة، وكما هو معتاد فى كل البلاد، فهو المكان الذى يحتوى عادة على أكبر عدد من قوى السلطة أو القمع، وثانياً بفضل حالة الخجل التى تطبع المواطن، التى يعانى منها فى كثير من الأحيان، وينكمش تحت خشيته من حكم جاره عليه، والعكس، إن نقطة الماء تشوش العدسة والعين التى تراقبها من خلفها. ونظراً لنقص النزلاء، فقد أغلقت معظم الفنادق أبوابها بحجة إجراء إصلاحات، كان هذا هو التعليل، إلا أن بعضها كان لا يزال يواصل عمله، بأسعار المواسم المنخفضة والمخفضة، إلى درجة أن بعض أرباب العائلات كثيرة العدد فكروا فى ترك بيوتهم التى يعيشون فيها، والتى كانوا يدفعون فيها إيجارات مرتفعة، والذهاب للسكن فى الميريديان أو الفنادق المشابهة. لكن المسافرين الثلاثة لم يطرأ على تفكيرهم فعل هذا الشىء، لهذا سكنوا فى فندق متواضع، فى آخر شارع روا دو الكريم، على اليسار من الشارع، هبوطاً، اسمه لا يهم ذكره فى هذه الحكاية، لقد ذكرنا واحداً من قبل وهذه المرة لن تكون هناك حاجة لذلك.

الزرازير هى مجرد زرازير، والبشر خفيفو العقل وبهم طيش يقولون عنهم إنهم كذلك، ما يعنى أن هؤلاء وأولئك لا يميلون إلى التفكير فى أفعالهم التى يقومون بها، وغير قادرين على توقع أو تخيل أبعد من اللحظة الراهنة، وهذا شىء لا يتعارض مطلقاً مع شهامة بعض تصرفاتهم، ويصل بهم الأمر إلى حد التضحية

بالحياة، وأمكن الاطلاع على هذا خلال فصل الحدود، عندما سقطت العديد من الأجساد الرقيقة، وسُفِحت دماؤها الذكية من أجل قضية لا تهمها، علينا أن نتذكر أننا نتحدث عن الطيور لا البشر، لكن الطيش أو خفة العقل هو أقل شىء يمكن الحديث عنه عند الحديث عن آلاف الطيور التى تذهب، بلا حذر، لتقف على أسطح أحد الفنادق، لافتة نظر الجمهور والبوليس، وعلماء الطيور، والذين يعشقون الطيور المقلية، ويكشفون بذلك عن وجود الرجال الثلاثة، الذين رغم عدم إحساسهم بارتكاب أية جريمة، تحولوا هدفاً مزعجاً للسلطات. لأن شيئاً غير معروف للمسافرين قد حدث، فإن الصحافة البرتغالية، فى الصفحة الثابتة التى تخصصها للوقائع الغريبة، رددت صدى الهجوم الذى لا يُقاوم الذى شنته الزرازير على حرس الحدود الغافل، مذكِّرة، كما كان مُنتظراً، ما ذكرناه نحن من قبل، بفيلم هيتشكوك عن حياة الطيور.

أذاعت الصحافة والإذاعة والتليفزيون على الفور الحدث المدهش الذى حدث على رصيف سودرى، وأرسلوا مراسليهم ومصوريهم وحاملى كاميرات الفيديو إلى المكان، أمرٌ ربما ما كان له نتائج كبيرة، بعيداً عن إثراء غرابة مدينة لشبونة، ولكن نعم أثرت فى الروح المنهجية، ولمَ لا نعترف، فالروح العلمية لأحد الصحفيين دفعته إلى أن يتساءل عن إمكانية وجود علاقة بين الزرازير التى كانت فى الخارج، على السطح، ونزلاء الفندق، سواء كانوا مقيمين بشكل دائم

أم بشكل مؤقت، ويوجدون بالداخل أيضاً. غافلين عن الخطر الذى كان يحلق على رءوسهم، كان جواكيم زازا وجوزيه أنايسو وبدرو أورثى، كل واحد فى غرفته، ينظمون القليل من الحقائب التى كانوا يسافرون بها، وسيكونون فى الشارع بعد دقائق قليلة، سيذهبون أولاً للتنزه عبر المدينة فى انتظار أن تحين ساعة العشاء. والآن حسناً، فى تلك اللحظة بالذات، فإن الصحفى الماكر كان يراجع دفتر المقيمين، ويقرأ الأسماء المسجلة، وهنا حرك اثنان من تلك الأسماء تروس ذاكرته بشكل خاص، جواكيم زازا وبدرو أورثى، ما كان يمكنه أن يكون صحفياً جيداً لو مرا عليه دون أن يثيرا انتباهه، وهو شىء ربما كان يحدث مع اسم آخر، ريكاردو رييس مثلاً، لكن الدفتر الذى كان فيه هذا الاسم مسجلاً، قبل سنوات عديدة، موجود فى أرشيف الطابق السفلى، مغطى بالتراب، فى صفحة ربما لن تعود لرؤية النور أبداً، ولو رأته، لن يكون ممكناً قراءة الاسم؛ لأن السطر سيكون ممحواً، أو الصفحة بكاملها، بفعل تأثير الزمن، المحو. لقد كان هذا حتى هذا اليوم لأن ذروة فن الصيد كانت قتل أرنبين بطلقة واحدة، ولكنه سيرتفع الآن ليصبح ثلاثة، ومن هنا لا بد من تعديل الأمثلة الشعبية، بحيث ما يُقرأ اثنين، سيُقرأ ثلاثة، وربما لن نتوقف عند الرقم ثلاثة.

هبطوا استجابة لطلب مكتب الاستقبال، وبعد أن اتخذوا وضعهم فى البهو وجدوا أنفسهم أمام مرآة

الحقيقة الكبرى، فلم يكن أمام جواكيم زازا وبدرو أورثى مفراً من تلبية نداء الصحفيين ليؤكدا هويتهما، ولكل منهما حكايته، من قذف الحجر إلى البحر، وراصد الزلازل الحى. "لكن هل صاحب الزرازير موجود، إن تجمّع هذه الزرازير الكثيرة هنا فى وقت واحد ليس صدفة؟"، لاحظ الصحفى الذكى، وحينها قرر جوزيه أنايسو أن يتضامن مع صديقيه وإحقاقاً للحق، قال، "الزرازير تتبعنى أنا"، أكثر الأسئلة الموجهة لجواكيم زازا تطابقت فى مرجعيتها، مع الحوار الذى دار بينه وبين الحاكم المدنى الذى تخيله، وهو ما يعفينا من العودة إلى ذكره هنا، ولن نذكر كذلك إجاباته عليها، لكن بدرو أورثى الذى أمكنه أن يكون فى بلاده متنبئاً حقيقياً، فقد تحدث مطولاً عن ما حدث له فى حياته مؤخراً، وأنه نعم يا سيدى، لا يزال يشعر بأن الأرض تهتز، بشكل مكثف وعميق، كما لو كانت قشعريرة تصعد جسده خلال العظام، وأنهم أخضعوه فى غرناطة وأشبيلية ومدريد لكثير من التجارب، واقعية وأخرى ثقافية، من خلال أجهزة إلكترونية وميكانيكية، وأنه هنا على استعداد للخضوع لمثلها ولتجارب أخرى لمعرفة الحقيقة لو كان العلماء البرتغاليون يعتقدون أنها مناسبة. خلال ذلك كان الليل قد هبط، والزرازير التى كانت السبب فى هذا الاستجواب قد بدأت تتجمع وتتفرق بين أشجار الحدائق القريبة، بعد انتهاء الأسئلة الفضولية ذهب الصحفيون والكاميرات والأضواء، لكن الهدوء لم يعد

إلى الفندق، فالعاملون والعمال كانوا يتذرعون بأى شىء للذهاب إلى الاستقبال لإلقاء نظرة على وجوه أصحاب هذه الأعاجيب.

مرهقون نتيجة الانفعالات المستمرة، قرر الأصدقاء الثلاثة عدم الخروج، وتناول العشاء فى المكان نفسه، كان بدرو أورثى منزعجاً من نتائج الثرثرة التى استسلم لها، "بعد أن حذرونى من عدم الكلام عن حالتى، ها أنتم ترون، لن يرتاحوا فى إسبانيا، عندما يعرفون هذا، ربما لو بقيت هنا لأيام أخرى، قد ينسونى"، كان جوزيه أنايسو يشك فى هذا، "سينشرون إجاباتنا فى الصحافة غداً، وربما كان التليفزيون يبث نبأ وجودنا فى هذه اللحظة، والإذاعة لن تسكت، إنهم لا يتعبون"، وقال جواكيم زازا، "رغم هذا، من بيننا ـ نحن الثلاثة ـ أنت أفضل حالاً، يمكنك أن تقول إنه لا ذنب لك فى أن تتبعك الزرازير، فأنت لا تصفّر لها ولا تقدم لها طعاماً، لكن نحن فى مأزق، ينظرون إلى بدرو أورثى كما لو كان كائناً غريباً، والعلماء البرتغاليون سينتهزون الفرصة، أما بالنسبة لى أنا، فلن يتركونى فى سلام بموضوع الحجر"، قال بدرو أورثى، "أنتما معكما السيارة، اذهبا غداً مبكراً، أو حتى اذهبا هذه الليلة نفسها، أنا سأبقى، وإذا سألونى أين ذهبتما، سأقول لهم لا أعرف"، قال جوزيه أنايسو، "لقد فات الوقت الآن، فما أن يظهر الخبر فى التليفزيون فلن نعدم أحداً من القرية يتصل بالسلطات ليقول لهم إنه يعرفنا، وإننى معلم المدرسة،

وأنه كان يشك فىَّ، فهو الآن فى قمة الفرح"، ثم أضاف، "من الأفضل أن نظل معاً، نتحدث قليلاً، وفى النهاية سيصيبهم التعب".

تماماً كما فكروا، فقد تضمنت نشرة الأخبار التليفزيونية الأخيرة، تحقيقاً صحفياً متكاملاً، ظهرت فيه الزرازير تمارس دوراتها، أمام واجهة الفندق، وكان المدير يدلى بتصريحات نعرف أنها كاذبة، كما سنكتشف ذلك على الفور، "إنه أول أضخم حدث فى تاريخ هذا المكان السياحى"، فيما كان الأعجايب الثلاثة، بدرو، وجوزيه، وجواكيم، يجيبون عن الأسئلة.

كما هى العادة فإنه لإقناع الجمهور، لا بد من البحث عن شخص له حيثية للقيام بهذا الدور، أحضروا خبيراً فى الأستوديو، فى هذه الحالة كان خبيراً فى فرع من فروع الطب الحديث، علم النفس الديناميكى، الذى قال من بين آراء أخرى عن خلفية المسألة، أنه لا يستبعد فرضية أن الأمر مجرد ثرثرة، فقال، "معروف، أنه فى لحظات الأزمات مثل هذه، سنجد دائماً ما يظهر دجالون، أشخاص يروون حكايات أو يحاولون انتهاز سذاجة الجماهير، يكون هدفهم فى أحيانٍ كثيرة إثارة البلبلة السياسية المباشرة، أو يعملون فى خدمة مشروعات تهدف إلى السيطرة على السلطة على المدى البعيد"، علق جواكيم زازا، "ماذا يعتقد هؤلاء، أننا عملاء؟"، وعلق المذيع، "والزرازير، ما رأيك بالنسبة للزرازير"، "هذه بالطبع ظاهرة فريدة وغامضة، إما أن الشخص الذى تتبعه

يحمل شيئاً مثيراً لا يُقاوم، أو يحتمل أننا أمام حالة تنويم مغناطيسى جماعى"، "ليس سهلاً تنويم الطيور؟"، "بالعكس، تنويم دجاجة يمكن أن يكون بقطعة جبس، ويمكن لطفل أن يفعل هذا"، "لكن ألفين، ثلاثة آلاف زرزور فى وقت واحد، كيف يمكنهم الطيران لو كانوا منومين؟"، "لاحظ أن السرب، الذى يشكل كل طير جزءاً منه، هو فى حد ذاته عنصر تنويم، عنصر ونتيجة فى الوقت نفسه"، "معذرة إن ذكّرت حضرتك بأنه من الصعب على بعض مشاهدينا فهم اللغة التقنية جداً التى تتحدث بها"، "إذًا، سأحاول أن أكون أكثر وضوحاً، أقول إن المجموعة كلها يمكن أن تكون وحدة منومة"، "لا أثق تماماً فى أنهم الآن أكثر فهماً، على أية حال نشكر حضورك فى أستوديوهاتنا، فلا شك أن هذه القضية ستظل تشغلنا، وستكون هناك فرصة لمناقشتها بشكل موسع"، قال الخبير "أنا تحت أمركم"، لم يُعجب جواكيم زازا بهذا الكلام، وقال، "هذا الشخص أبله"، أجابه جوزيه أنايسو، "فى الحقيقة يبدو كذلك، لكن هناك حالات مطلوبًا فيها سماع رأى البلهاء باهتمام"، أما بدرو أورثى، فلم يفهم شيئاً، كانت هذه المرة الأولى التى لم يتمكن فيها من فهم اللغة البرتغالية بالكامل، هذا إذا أخذنا فى الاعتبار المعنى الحرفى للكلمة، فكما يقولون، كان حواراً طيباً الذى جرى بين فيرياتى ونون ألفاريث بيريرا، بطلان تاريخيان من هذه البلاد نفسها. فيما كانوا يتناقشون فى البهو حول هذه الأوضاع الخطيرة،

كان مدير الفندق فى مكتبه، يستقبل وفداً من أصحاب المطاعم المجاورة الذين جاءوا يعرضون عليه صفقة، "كم تريد مقابل أن تسمح لنا بنصب شباك صيد على أسطح الفندق، فالزرازير حتماً ستعود إلى هنا، ولو وضعنا شباك الصيد على الأشجار، ستكون فى متناول الجميع، وفى هذه الحالة لن تكون مفيدة"، هؤلاء الرجال يعتقدون أن معنى الأشياء هو ألا يكون لها معنى خاص بها، تشكك المدير، وتخوّف من تحطيم الأسطح، وفى النهاية قررَ، عرضَ رقماً، قال الآخرون "كثير"، وظلوا يناقشون الثمن.

فى صباح اليوم التالى، جاء وفد آخر، مكون من أشخاص يتحدثون لغة رسمية، ويرتدون ملابس متأنقة، طلبوا من جواكيم زازا وبدرو أورثى أن يرافقاهم بأمر من الحكومة، كان من بين هذه المجموعة المهمة مستشار من السفارة الإسبانية، حيا بدرو أورثى، لكن بطريقة جافة، كما لو كان شرفه الوطنى قد تعرض للإهانة. يريدون القيام بتحقيق سريع معهما، مسألة بسيطة، أسئلة روتينية تُضاف إلى الملف الضخم الخاص بانفصال شبه الجزيرة، انفصال لا مناص عنه إذا أخذنا فى الاعتبار استمرار الابتعاد، المشئوم، كما يمكن أن يُقال بهذه الطريقة. لكنهم لم يلقوا بالاً إلى جوزيه أنايسو، مؤكد أنهم اعتقدوا أن لديه قدرات خاصة تقارن بقدرات عازف ناى هاميلين، إضافة إلى أن، الزرازير اختفت، ذهبت للتعرف على سماوات المدينة، معاً، لم يسقط فى

شباك الصيد المنصوبة على السطح سوى أربعة من طيور الحجل ليس لها علاقة بالأمر، لكن القدر وضع حداً مختلفاً لنهاية حياتها، "يا له من قدرا"، سأل صوت ساخر، وبفضل هذا التدخل غير المنتظر عرفنا أنه ليس هناك مصير واحد أمام كل ما تعلمناه من الأغنيات وأغانى الفادو الشعبية، "لا أحد يستطيع الهروب من مصيره، بل يمكن أن يسقط على رءوسنا مصير شخص آخر"، وهذا ما حدث مع طيور الحجل، التى لحق بها مصير الزرازير.

بقى جوزيه أنايسو هادئا فى الفندق، فى انتظار عودة رفيقيه، طلب الصحف، كانت المقابلات كلها منشورة على الصفحة الأولى، ومرفقة بصور خاصة وعناوين درامية، "ألغاز تتحدى العلم"، "القدرات المجهولة للعقل"، "ثلاثة رجال خطرين"، "سر فندق براجنسا"، لقد كانت وساوسنا كبيرة جداً وفى النهاية كما تقول الصحافة الطائشة، "هل سيتم تسليم الإسبانى لبلاده؟"، فكر جوزيه أنايسو، "فى أى وضع حرج وضعنا أنفسنا"، هذا ليس عنواناً صحفياً. مرت الساعات، وجاء موعد الغداء، ولا خبر عن جواكيم زازا وبدرو أورثى، إن كانا معتقلين، أم فى السجن، قلقٌ يُفقد أى شخص الرغبة فى الأكل، "أنا لا أعرف حتى إلى أين أخذوهما، يا لى من غبى، كان يجب أن أسألهم، كان يجب أن أذهب معهما، ولا أتركهما، أهدأ، ربما لو كنت أريد ما كانوا سيتركوننى أذهب، وربما ليس صحيحاً، ليس هكذا، لقد كنت سعيداً

لأنهم تركونى، إن الجبن أسوأ من الأخطبوط، فالأخطبوط، كلما انكمش مد أذرعه أكثر، الجبن تنكمش له الأذرع"، بهذا الجفاء كان واضحاً أن جوزيه أنايسو كان غاضباً من نفسه، من يعرف هل هو جاد مع نفسه أمام عواطفه وأفكاره، ربما، كما فى أحوال الحياة، كان يجب الانتظار لمعرفة ما يحدث. أول ما فعله أنه ذهب إلى المدير ليعرف منه إن كان قد سمع أية كلمة تكشف الحقيقة، أى عنوان، أى اسم، لكن الفندقى أجابه بلا، لا يا سيدى، ولا يعرف أياً من أولئك السادة، وإنه رآهم لأول مرة، سواء كانوا البرتغاليين أم الإسبانى، اتقدت فى تلك اللحظة فكرة فى ذهن جوزيه أنايسو، الذهاب إلى السفارة، من المؤكد أن السفارة تعرف، لكن جاءته فكرة أخرى، عادة ما لا تأتى وحدها، إنها الصحافة، بالطبع، يكفى أن يتوجه إلى إحدى تلك الصحف وسيكتشف الحقيقة فى ساعات قليلة، الحاجة أم الاختراع، فى هذه الحالة اسمها حرص الأب، ولكن الأمر ليس دائماً على هذه الطريقة.

صعد جوزيه أنايسو إلى غرفته بخفة، كان يريد تغيير حذائه، وتنظيف أسنانه، هذه الأفعال المعروفة ليست ضد الروح المتوثبة، انظر إلى عطيل، الذى كان مزكوماً ولم ينتبه لما كان يفعل، عطس بغباء قبل أن يقتل ديدمونة، التى كانت هى أيضاً، رغم شعورها المأساوى، لم تقفل الباب بالمفتاح، لأن الزوجة لا يمكن أن ترفض للزوج طلباً، حتى لو كانت تعرف أنه

سيقتلها، إضافة إلى هذا فإن ديدمونة كانت تعرف أن الغرفة لها ثلاثة جدران فقط، والآن فى هذه الدراما فإن جوزيه أنايسو وحده، يفرّش أسنانه بالفرشاة ويلقى بالماء من فمه عندما سمع طرقاً على الباب، سأل، "من؟"، رغم عدم تشابه الصوت، فإن نبرته تشى بالسعادة المنتظرة، سيرد عليه جواكيم زازا، "ها قد حضرنا"، لكن الكذبة استمرت لحظة قصيرة، إنها الموظفة، "هل تسمح لى؟"، "لحظة من فضلك"، أنهى عملية النظافة، وغسل يديه وفمه، تمضمض، وذهب ليفتح. كانت الموظفة مجرد عاملة بسيطة بالفندق، بعلامات مميزة وخاصة كانت تلك اللحظة الوحيدة فى حياته التى احتك بها بشكل سريع، وفقط خلال الزمن الذى تطلبه إبلاغه رسالة، إن وجود جوزيه أنايسو ووجود رفيقيه، الحاضر والمستقبل، يحدث أحياناً فى المسرح وفى الحياة، نحن فى حاجة إلى شخص يطرق الباب فقط ليقول لنا، "فى البهو توجد سيدة تسأل عنك"، فوجئ جوزيه أنايسو، شكله يشى بتعبير الدهشة، "عنى أنا؟"، وتضيف العاملة ما رأت أنه مطلوب منها قائلة، "سألت عنكم أنتم الثلاثة، لكن بما أن الآخرين غير موجودين"، قد تكون صحفية، فكر جوزيه أنايسو، وقال، "سأهبط حالاً"، ابتعدت العاملة كمن تنسحب من الحياة، لسنا فى حاجة إليها مرة أخرى، ولا حتى بمجرد الوجود، جاءت وطرقت الباب، أبلغت الرسالة، لا أحد يعرف لماذا لم يبلغوا الرسالة بالتليفون، ربما لأن الحياة تحب أن تمنح

للدراما معنى من وقت لآخر، ربما لو رّن التليفون نفكر، "من يكون؟"، ونمنح التفكير صوتاً ليسأل، "من يكون؟"، لو طرقوا الباب سنسأل، "ترى من يكون؟" نحن نعرف أنها كانت العاملة، لكن السؤال كان قد حصل على نصف إجابة، وربما قد لا يصل إلى هذا، لهذا فإن جوزيه أنايسو ظل يفكر خلال هبوطه السلم، "تُرى من تكون؟"، نسى إمكانية أن تكون صحفية، بعض أفكارنا تبدو هكذا، مهمتها أن تشغل ، مقدماً، حيز أفكار أخرى تدفع إلى التفكير أكثر.

سيطر الهدوء الكامل على الفندق، كما لو كان بيتاً خالياً خرجت منه الحياة القلقة، لكنه لم يصب بعد بشيخوخة الإهمال، لا تزال هناك أصداء خطوات وأصوات، وبكاء، وهمهمة وداع تتواصل فى آخر الممرات. كان موظف الاستقبال واقفاً، خلف المكتب وإلي جانبه خزانة المفاتيح وصناديق الرسائل والفواتير، كان يكتب فى دفتر أو ينقل منه أرقاماً إلى ورقة، رجل نشط، حتى لو لم يكن بين يديه عمل. عندما اقترب منه جوزيه أنايسو أشار برأسه نحو صالة الانتظار، وأجابه جوزيه أنايسو بإشارة مماثلة، علامة على التأكيد، "نعم أعرف"، هذا ما كان يريد قوله، الأول، كانت هناك امرأة تنتظره. توقف جوزيه أنايسو عند مدخل الصالة، شاهد امرأة شابة، فتاة، مؤكد أنها هى، لا يوجد أحد غيرها، رغم أنها كانت فى الجانب المظلم إلا أنها كانت تبدو لطيفة، جميلة، ترتدى بنطلوناً وجاكتة زرقاء، بلون أشبه بالأزرق

النيلى، يمكن أن تكون صحفية ويمكن ألا تكون كذلك، لكن إلى جانب الكرسى الذى تجلس عليه كانت هناك حقيبة سفر وعلى ركبتيها عصا لا هى بالكبيرة ولا بالصغيرة، ما بين المتر والمتر ونصف، المظهر يصيب بالتشوش، امرأة ترتدى مثل هذه الملابس لا يمكن أن تسير فى شوارع المدينة بعصا فى يدها، "ألا تكون صحفية؟ ، فكر جوزيه أنايسو، لكن لا توجد أمامها أى من أدوات عملها، كتيب، قلم، أو آلة تسجيل.

وقفت المرأة، وهذه الحركة لم تكن متوقعة، طبقا للإتيكيت وحسن الأخلاق على المرأة أن تنتظر فى مكانها وعلى الرجال أن يقتربوا منها ويحيوها، وحينها تمددن أيديهن أو تقدمن وجناتهن، طبقاً لحالة الثقة أو درجة العلاقة أو نوعيتها، ويُفهم من ابتسامة السيدة، إن كانت مهذبة، أم لماحة أم متواطئة، أم كاشفة، طبقاً للحالة. هذه الإشارة، وربما ليست الإشارة بل البقاء هناك، على بعد أربع خطوات، سيدة تقف منتظرة، أو بدلاً من ذلك، الوعى المفاجئ الذى جعله ينسى الوقت قبل أن يقدم على الخطوة الأولى، إنها حقيقة كانت المرآة شاهدة عليها، لكن من دقيقة سابقة، كان جوزيه أنايسو والسيدة غريبين، من هذا الجانب لا، هنا، لأنهما سيتعارفان الآن، أو تعارفا بالفعل. هذه الحركة، هذه الحركة التى لم تقل من قبل كل شىء، كانت سبباً فى تحرك ألواح الأرضية، كحركة سفينة تحت ضربات الأمواج، بطيئة وواسعة، هذا التعبير لا يُقارن بالاهتزاز الذى يتحدث عنه بدرو

أورثى، لأنه لا يهز عظام جوزيه أنايسو، لكن جسده بالكاد شعر به، وأن شبه الجزيرة، إن كانت لا تزال يسمونها هكذا بحكم العادة وسهولة التعبير، بالفعل وبالطبيعة فهى تبحر، ولا يعرف هذا غير المراقبة الخارجية، ويعرفها الآن بحسه الخاص. هذا بسبب هذه المرأة، أن لم يكن فقط منذ اللحظة التى جاءت فيها، وكلما حسبوا الساعات والأحداث التى تجرى فيها، جوزيه أنايسو الذى بالكاد يكون متطوعاً باجتذاب الطيور المجنونة، تقدم نحوها، وتلك الحركة، فى نفس الاتجاه، تندمج مع قوة الدفع، دون معارضة أو مقاومة، فإن صورة الطوف الذى هو فندق بارجانسا، فى تلك اللحظة الراهنة، تبدو كمقدمة السفينة، مع الاعتذار لعدم مناسبة الكلمات. فنحن نحاول التعبير بقدر ما يمكننا.

"أصدقائى ليسوا هنا"، قال جوزيه أنايسو، "لقد جاء بحثاً عنهما هذا الصباح بعض العلماء ليجروا لهما بعض التجارب، لقد بدأ الانزعاج يصيبنى بسبب تأخيرهما، كنت على وشك الخروج، بحثاً عنهما"، لم يكن يشعر جوزيه أنايسو بكل هذه الكلمات ليقول ما تحتاجه المناسبة، لكنه لم يكن قادراً على إيقافها، أجابت هى، صوتها رقيق، منخفض لكنه واضح، "ما جئت من أجله يمكن قوله لك كما يمكن قوله لأى شخص آخر أو لثلاثة، وربما بهذه الطريقة أستطيع أن أشرح لك ذلك بشكل أفضل"، "عيناها لهما لون سماء جديدة، ما معنى سماء جديدة، ما لونها، من أين

جاءته هذه الفكرة"، إنها أفكار جوزيه أنايسو، وبصوت مرتفع قال، "تفضلى بالجلوس، من فضلك، لا تبقى واقفة". جلست هى، وجلس هو، "حضرتك اسمك جوزيه أنايسو، أنا اسمى جوانا كاردا"، "تشرفينا"، لم يتصافحا، سيكون الأمر غريباً فهما الآن جالسان، لكى يفعلا هذا كان يجب عليهما الوقوف من على كرسيهما، وهو ما سيبدو أكثر إثارة للسخرية، أو ربما سيكون هو المثير للسخرية، إنها جميلة، شعرها أسود تقريباً، لا يبدو متسقاً مع لون عينيها، ذات لون يشبه لون السماء الجديدة نهاراً، ولون السماء الجديدة ليلاً، لكن إن كان هذا اللون أو ذاك فهو جميل، "هل يمكننى أن أفيدك فى شىء؟"، بهذه الطريقة المهذبة ترجم فكرته عملياً. "لا أعرف إن كان يمكننا أن نتحدث هنا؟"، هممهت جوانا كاردا، "نحن وحدنا، لن يسمعنا أحد"، "لكن الفضول هنا كثير، انظر"، بطريقة غير طبيعية كان موظف الاستقبال يتمشى أمام باب صالة الانتظار، يذهب ويجىء، متظاهراً بالانشغال، كمن لا يجد عملاً ويحاول أن يختلقه، إذا كان ذلك مفيداً له، نظر إليه جوزيه أنايسو بجفاء ولكن بلا فائدة، إن خفض الصوت سيزيد من الشبهات حول الحوار، "لا أستطيع دعوتك إلى غرفتى، من ناحية فهو غير مقبول؛ لأنه غير مسموح للنزلاء دعوة زوار فى الغرف"، "هذا لا يهمنى، لست فى حاجة إلى الدفاع عن نفسى، من المؤكد أنك لا تفكر فى مهاجمتى"، "هذا ليس تفكيرى، خاصة بمشاهدتك مسلحة"،

ضحكا معاً، لكن الضحكة كان فيها شيء من الافتعال، شيء من الكآبة، في الحقيقة فإن الحوار أصبح الآن أكثر حميمية خاصة أنهما لم يتعرفا إلا قبل ثلاث دقائق فقط، وبالكاد يعرف كل منهما اسم الآخر. قالت جوانا كاردا، "على أية حال هذه العصا تصلح في حالة الطوارئ، لكني لم أحضرها لهذا السبب، في الحقيقة فإن العصا هي التي جاءت بي إلى هنا"، هذا الاعتراف المفاجئ والغريب، محا الهواء، وازن الضغوط، المناخية والدموية، كانت جوانا كاردا تمسك بالعصا على ركبتيها، وتنتظر الإجابة، وأخيراً قال جوزيه أنايسو، "من الأفضل أن نخرج من هنا، لنتحدث في الشارع، أو في مقهى أو حديقة لو كان هذا أفضل لك". حملت هي الحقيبة، أخذها هو من يدها، "يمكننا أن نتركها في الغرفة مع العصا"، "العصا لن أتركها، ولا الحقيبة، ربما لا أعود إلى هنا مرة أخرى"، "كما تريدين، من المؤسف أن حقيبتك صغيرة جداً ولا يمكننا وضع العصا فيها"، أجابته جوانا كاردا، "ليست كل الأشياء تولد من أجل أشياء أخرى"، وهو ما بدا واضحاً أنها تنطوي على قليل من الفلسفة.

عند الخروج، قال جوزيه أنايسو لموظف الاستقبال، "إذا وصل أصدقائي، قل لهما إنني سأعود على الفور"، أجاب الموظف دون أن يرفع عينيه عن جوانا كاردا، "حاضر يا سيدي، اطمئن"، لكن لم يكن في نظرته أي جشع، كانت تطل منها غمامة شك، كتلك التي يمكن رؤيتها في نظرة كل العاملين في

استقبال الفنادق. هبطا السلم، الداخلى، وكان عند آخر حاجز السلم تمثال من الحديد المصهور، المقولب، على هيئة فارس أو كومبارس أوبرا، التمثال موضوع فى مكانه المعتاد يحمل بالونة تُضاء بالتيار الكهربائى، ويمكن رؤية مثلها فى أى طريق ساحلى برتغالى أو جيليقى، فى سان فيثينتى أو الأسبيتشل، أو لاروكا، وفينيستيرى وأماكن أخرى أقل أهمية، ليس لأنها مهمة لديها عمل أقل كحاجز لكسر الأمواج، مع ذلك فإن مصير هذا الفارس أو كومبارس الأوبرا أن يكونا مجهولين، ربما فى يوم ما فى الزمن قد تقع عليه عين شخص مهتم، لم يتمهل أمامه لا جوانا كاردا ولا جوزيه أنايسو، ربما لأنهما مشغولان بأشياء أخرى أكثر خطورة، رغم أننا لو سألناهما، ربما لا يعرفان أى تلك الأشياء أكثر أهمية. من كان فى تلك اللحظة فى رطوبة مدخل الفندق، لا يمكنه أن يتخيل أن درجة الحرارة فى الشارع مرتفعة جداً. نحن فى شهر أغسطس، لو كنا لا نزال نتذكر، المناخ لم يتغير رغم ارتحال شبه الجزيرة لمسافة ليست بالقليلة مثل مائة وخمسين كيلومتراً، متخطية السرعة التى حافظت عليها بثبات منذ أن أذاعت ذلك الإذاعة الوطنية الإسبانية، قال جوزيه أنايسو، "لم يمض سوى خمسة أيام ونشعر كأنها سنة، وكما كان مُنتظراً، السير بالحقيبة فى هذه الحرارة والعصا فى اليد، لم يكن مرغوباً، سنتعب فى خمس دقائق، الأفضل أن ندخل مقهى، نجلس ونتناول مرطباً"، "من الأفضل أن نذهب

إلى حديقة، على كرسى منعزل، فى ظل شجرة"، "هنا توجد حديقة، إنها ساحة دون لويس، ربما تعرفينها"، "أنا لا أعيش فى لشبونة، لكنى أعرفها"، "آه لا تعيشين فى لشبونة"، ردد جوزيه أنايسو بلا أهمية تذكر. كانا يهبطان عبر شارع روا دو الكريم، يحمل هو الحقيبة والعصا، قد يفكر المارة أشياء ليست طيبة له لو لم يحمل الحقيبة وسيقولون عنها أشياء غير محترمة لو حملت هى العصا، إنها حقيقة لأننا جميعاً مُراقبون لغيرنا بلا رحمة، ونظراتنا مليئة بالخبث لو كان هذا مطلوباً، وربما أكثر مما يجب. اكتفت جوانا كاردا بالرد على جوزيه أنايسو بأنها وصلت اليوم، فى القطار، وأنها ذهبت إلى الفندق مباشرة، ما عدا ذلك سنعرفه الآن.

كانا جالسين، لحسن الحظ، فى ظل بعض الأشجار، "ما الذى أتى بك إلى لشبونة؟ لماذا تبحثين عنا؟"، قالت هى، "يبدو أنه حقيقة أنك وصديقيك لكم علاقة بما يحدث الآن"، "يحدث لمن؟"، "أنت تعرف جيداً ما أقصده، لشبه الجزيرة، ولانفصالها عن البرانس، لهذه الرحلة التى لم تحدث أبداً من قبل"، "أنا أيضاً أحياناً أفكر فى هذه العلاقة، وأن لنا علاقة به بالفعل، وأنه يحدث بسببنا، لكن فى أحيان أخرى أفكر أننا جميعاً مجانين"، "إن كوكباً يدور حول نجم بهذه الطريقة، يدور، ويدور، الآن ليل، والآن نهار، الآن برد، والآن حر، وفضاء يكاد يكون خالياً حيث لا توجد أشياء ضخمة لا اسم لها إلا الأسماء التى نطلقها

عليها، وزمن لا يعرف أحد حقيقة ما هو، كل هذا يجب أن يكون من فعل مجانين". سأل جوزيه أنايسو، "هل أنت فلكية؟"، وتذكر ماريا دولوريس، الأنثروبولوجية فى غرناطة، "فلكية أنا؟، أبداً"، "آسف لهذا التسرع، كلنا نعانى من انفلات أعصابنا بعض الشىء، والكلمات لا تقول ما نريد أن نقول من خلالها، نتحدث بقليل أو كثير، معذرة"، "اعتذارك مقبول"، "قد يبدو لك أننى متشكك لأنه لم يحدث لى شخصياً أى شىء، عدا مسألة الزرازير، رغم"، "رغم ماذا؟"، "قبل قليل فى الفندق، عندما شاهدتك فى الصالون شعرت كما لو أننى كنت فى سفينة، وكانت هذه المرة الأولى التى أشعر بها بهذا الشعور"، "وأنا شاهدتك كما لو كنت تأتى من بعيد جداً"، "المسافة بيننا لم تتعد ثلاث أو أربع خطوات".

نحن جئنا من كافة الاتجاهات، هبطت الزرازير فجأة على أشجار الحديقة. ظهر من الشوارع القريبة أشخاص يجرون، وينظرون إلى أعلى، ويشيرون بأصابعهم، قال جوزيه أنايسو، بقلق، "إنها هنا من جديد، والأسوأ أننا لن نستطيع أن نواصل الحديث، وكل هؤلاء الناس من حولنا". فى تلك اللحظة انطلقت العصافير من جديد فى سرب واحد، غطى الحديقة ببقعة ظل كبيرة، الناس يصرخون، بعضهم يصرخ مهدداً، وآخرون متلذذون، وآخرون يصرخون من الخوف، نظر جوزيه أنايسو وجوانا كاردا دون أن يفهما ما يحدث، حينها بدأت الكتلة الكبيرة تتطاير،

تشكلت فى هيئة إسفين، على هيئة جناح، على هيئة سهم، وبعد أن دارت ثلاث دورات سريعة، خرجت الزرازير منطلقة باتجاه الجنوب، عبرت النهر، واختفت فى الأفق البعيد. الفضوليون والمهرجون الذين تجمعوا، أطلقوا صيحات الإعجاب والدهشة، وأيضاً صيحات خيبة الأمل، بعد دقائق قليلة بقيت الحديقة خالية، بدأ الشعور بالحرارة مجدداً، كانا وحيدين، رجل وامرأة، وبينهما عصا من فرع شجرة دردار وحقيبة سفر. قال جوزيه أنايسو، "أعتقد أنها لن تعود أبداً"، وقالت جوانا كاردا، "وأنا سأحكى لك الآن ما حدث لى".

■■■

## - ٩ -

بعد التعرف على خطورة الأشياء المحكية، فإن الحذر أوجب عدم سكن جوانا كاردا فى ذلك الفندق الشهير، الذى لا تزال على أسطحه شباك الصيد تنتظر، بلا فائدة، أن تأتى الزرازير. كان القرار ذكياً، لأنه يمكنه تأكيد نظرية التشوش مرة أخرى، ذلك الذى يتضمنه المثل حول طلقة الصيد والأرانب، لأنها فى هذه الحالة ستسقط مع الثلاثة المشتبه فيهم، هذا إذا لم يكن قد أُتهموا كمجرمين بالفعل، إن وجود امرأة تمارس الفنون الغيبية. لو أعدنا صياغة ما كُتب فى كلمات أقل زخرفة ومن خلال جمل مخففة، فإن هذا دفع جوانا كاردا إلى السكن فى فندق أبعد قليلاً، فى فندق بورخيس، فى قلب حى التشيادو، ومعها حقيبتها وعصاها الدردارية، من المؤسف أنها ليست مركبة من أجزاء فيمكن طيها، مما يجعلها محط أنظار من تمر بهم، وفى استقبال الفندق، كان عليها أن تتقبل سخرية

أحد العاملين وترد على تعليقاته حول الفوارق بين عصا وأخرى، فقد أجابت جوانا كاردا بالصمت، فى النهاية لا يوجد أى قانون يمنع نزيلاً من أن يصطحب إلى غرفته فرع شجرة بلوط، وبالطبع فإن فرعاً نحيفاً، لا يصل طوله إلى مترين، سهل حمله فى المصعد، وإذا تم وضعه فى ركن الغرفة يكاد لا يظهر.

تحدث جوزيه أنايسو وجوانا كاردا كثيراً، حتى بعد مغيب الشمس، تخيلوا، لقد قلبا الموضوع على جميع الأوجه التى يمكنهما عملها وانتهيا إلى نتيجة مؤداها، إذا لم يكن هناك شىء طبيعى، فإن الأحداث وقعت كأنما كانت هناك حالة طبيعية جديدة حلت محل الحالة الطبيعية القديمة، ولكن بلا اهتزاز ولا ارتجاج أو تغيير فى الألوان، التى من ناحية أخرى، لو حدثت فإنها لن توضح شيئاً. الخطأ خطؤنا نحن، وبسبب الميل نحو الدراما والتراجيدية، والحاجة إلى ارتداء الصنادل والإشارات المبالغ فيها، سقطنا فى السحر، مثلاً، أمام لحظة الولادة، فإن ضجة الشهيق والبكاء والصراخ، تدفع الجسد أن ينفتح مثل حبة تين ناضجة ويقذف جسداً آخر إلى الخارج، وهذا يسحر، نعم يا سيدى، ولكن ما رأيناه لم يكن أقل سحراً، لأن القذف الساخن داخل المرأة، والسابق القاتل، وبعدها التصنيع البطىء لكائن ينمو تلقائياً، حقيقة أن هناك مساعدات خارجية، ولكن هذا يكون بعيداً جداً، وهذا ما يُكتب، مع عدم القدرة على تجاهل ما حدث حينها، وأيضاً علينا أن نعترف، فإن كانت لا تعرف الكثير عن

ما يحدث الآن. لا تعرف جوانا كاردا، ولا تستطيع أن تقول أكثر من هذا، "لقد كانت هذه العصا على الأرض، ورسمتُ بها خطأً على التراب، فإذا كانت هذه الأشياء تحدث لأننى فعلت هذا، من أكون أنا لأؤكد هذا، وهذا ما يجعلنا فى حاجة إلى أن نذهب لنرى"، تناقشا وعادا إلى النقاش حتى حل الليل عندما انفصلا، هى إلى فندق بورخيس فى أعلى الشارع، وهو إلى برانجنسا فى أسفل الشارع، ذهب جوزيه أنايسو متحسراً لأنه لم يسأل عن صديقيه، إنه ناكر للجميل، كان يكفيه ظهور امرأة حكّاءة لحكايات خيالية ليقضى المساء بطولة مستمعاً إليها، لنحيد بالجملة قليلاً، ربما لإقناعه، بأنه ليس الحل كثيرًا من الأشياء، ولنقله على طريقتنا. عند مدخل الفندق رفع جوزيه أنايسو عينيه، لم يجد أثراً للزرازير، لقد مر ظل قاتم سريع كما لو كان لمسة فطنة، إنه وطواط يصطاد ذبابه أو غبش ليلى. الكومبارس يحمل البالونة مضاءة، يقف هناك ليحيى الداخل، لكن جوزيه أنايسو لم يلق عليه ولو نظرة سأم، سيقضى ليلة سيئة ما لم يكن بدرو أورثى وجواكيم زازا قد عادا.

تُرى هل عادا، ينتظران فى صالة الانتظار، جالسان فى نفس الكرسيين اللذين كان قد جلس عليهما جوانا كاردا وجوزيه أنايسو، وإن لم يكن هناك من يؤمن بمثل هذه التوافقات، رغم أن التوافقات هى أكثر ما يحدث الآن، فى هذا العالم، حتى لو لم تكن توافقات خاصة ومنطقية للعالم، توقف جوزيه أنايسو

فى مدخل الصالون، وبدا له كما لو أن كل شىء يتكرر، ولكن ليس الآن، وقف ثابتاً على الأرض الخشبية، مسافة الخطوات الأربع هى نفسها مسافة الأربع خطوات، لم يكن هناك فراغ ولا قفزة ما بين الحياة والموت، تحركت السيقان بشكل عفوى، وبعدها تحركت الأفواه لتقول ما هو منتظر منها، سأل جواكيم زازا، "هل ذهبت للبحث عنا؟"، لكن سؤالاً بسيطاً لا ينم عما يجب أن يجيب عليه جوزيه أنايسو ببساطة، "نعم أو لا"، كلتا الكلمتين حقيقة، وكلاهما تكذب، صعب جداً شرح المسألة، لهذا وضع لنفسه سؤاله الخاص، وهو سؤال شرعى وطبيعى كالسؤال الآخر، "بحق الشياطين أين كنتما كل هذه الساعات؟"، يبدو واضحاً أن بدرو أورثى متعب، وهذا ليس غريباً، إنها السن، مهما يقول المتصلبون، فالسن لها أحكامها، ولو كان شاباً ما كان له أن يخرج من بين أيدى الأطباء أكثر صحة منه، اختبار بعد آخر، تحليلات، أشعات، اختبارات صوتية فى الأذنين، الكشف على قاع العين، موجات كهرومغناطيسية، ليس غريباً أن تثقل جفونه كالرصاص، يقول، "إننى أموت من النعاس، كاد هؤلاء الخبراء البرتغاليون أن يقتلونى". تقرر هناك أن بدرو أورثى لن يخرج من غرفته حتى ساعة طعام العشاء، وحينها سيهبطون لتناول شربة دجاج وصدر دجاج، رغم أن شعورهم بالجوع ليس كبيراً، يشعرون كما لو كانت المعدة مليئة من سوائل الأشعات، أبدى جواكيم زازا ملاحظة، "لكنك أنت لم يجروا معك أشعة المعدة"،

"بالطبع لا، ولكنى أشعر كما لو فعلوها معى"، كانت ابتسامة بدرو أورثى خافتة كوردة ذابلة. قال جوزيه أنايسو، "يمكنك أن تبقى لتستريح، فجواكيم وأنا سنذهب لتناول العشاء فى أى مطعم، سنتحدث عما جرى، وعند عودتنا سنطرق على بابك، لنطمئن عليك"، "لا تطرقا الباب، من المؤكد أننى سأكون نائماً، ما أحتاجه الآن هو النوم اثنتى عشرة ساعة دفعة واحدة، إلى اللقاء فى الصباح"، وانسحب مجرجراً قدميه. "يا له من رجل مسكين، ترى فى أية مغامرات وضعناه"، قال هذا جوزيه أنايسو. "وأنا أيضاً طحنونى بالأسئلة والاختبارات، ولكن ليس هناك مقارنة بما فعلوه معه، يذكرنى هذا بقصة قرأتها قبل سنوات، عنوانها (برىء بين أيدى الأطباء)، من تأليف رودريجيث ميجيس"، "بالضبط".

وهما فى الشارع قررا القيام بنزهة بذات الحصانين، كان الوقت مبكراً لتناول العشاء، ويمكنهما تبادل أطراف الحديث بكل راحة. بدأ جواكيم زازا الحديث، "لقد كان التشوش شاملاً، أمسكوا بنا لأنه ليس لديهم شىء آخر، يعنى، من الآن فصاعداً سيكون لديهم الكثير، مؤكد أنه بإذاعة الخبر فى التليفزيون، بالأمس واليوم فى الصحف، هل قرأت مانشيتات هذا المساء؟ إنهم مجانين، ستنهمر على رءوسهم سيول من البشر يقسمون إنهم أيضاً يشعرون باهتزازات الأرض، وأنه بسحب جرة من النهر خرجت حورية، وأن الببغاوات المنزلية تصدر أصواتاً غريبة"، "هذا يحدث

دائماً، فالخبر ينتج أخباراً، لكن من المؤكد أن طيورنا لن نراها بعد الآن"، "لماذا، ماذا حدث؟"، "أعتقد أنها اختفت"، "هكذا ببساطة، وبدون أى سبب، بعد أن تبعتك فى الشمس والظل طوال أسبوع كامل"، "هذا ما يبدو"، "هل رأيتها؟"، "نعم رأيتها، كانت تعبر النهر باتجاه الجنوب ولم تعد"، "وكيف عرفت أنها ذاهبة نهائياً، هل كنت فى نافذة الغرفة"، "لا، ذهبت إلى حديقة بالقرب من هنا"، "إذًا بدلاً من هذا كان يمكنك أن تذهب بحثاً عنا لتعرف ما حدث لنا"، "كانت هذه فكرتى، وبعدها ذهبت إلى الحديقة وبقيت هناك"، "كنت تستمتع بنسيم المساء"، "كنت أتحدث مع امرأة"، "آه، هيا، يا لك من صديق طيب أنت، نحن نعانى وأنت خرجت للبحث عن الحب، بما أنك لم تستطع أن تدغدغ عالمة آثار غرناطة، جئت هنا لتعوض"، "لم تكن عالمة آثار، كانت أنثروبولوجية"، "لا فارق"، "هذه فلكية"، "اللعنة"، "الحقيقة أنا لا أعرف من تكون، مسألة أنها فلكية نتيجة شىء قلته لها"، "حسناً، الحكاية حكايتك، وليس لى أن أتدخل فى حياة الآخرين"، "بالطبع لك أن تتدخل، ما حكته لى له علاقة كبيرة بما يحدث معنا"، "آه، هل كانت واحدة من قاذفات الحجارة"، "لا"، "إذًا هى تشعر بالاهتزازات"، "لا تزال بعيداً عن الحقيقة"، "هل الكنارى غيَّر ألوانه"، "انظر يا صديقى، بسخريتك هذه لن تصل إلى الحقيقة"، "معذرة، لأنى متعب، فلا أستطيع أن أنزع من رأسى أنك لم تأت بحثاً عنا"، "لقد قلت لك إن

هذه كانت نيتى، لكن ظهرت المرأة فى الوقت الذى كنت أستعد فيه للخروج، كنت سأبدأ بسفارة إسبانيا، ظهرتْ وقالت إن لديها حكاية تريد أن تحكيها، جاءت ومعها عصا فى يدها، ومعها حقيبة صغيرة، ترتدى بنطلوناً وجاكتًا أزرق، شعرها أسود، وبشرتها بيضاء، لون العينين لا أعرف بالضبط، من الصعب وصفها"، "يا لها من تفاصيل مهمة لحكاية شبه الجزيرة، لم يعد ينقص سوى أن تقول إنها جميلة"، "إنها جميلة بالفعل"، "شابة"، "يمكننا أن نقول كذلك، إنها شابة، وإن لم تكن فى طور المراهقة"، "ما أفهمه، أنك وقعت فى حبها"، "هذا أكثر من الحقيقة، لكنى شعرت أن الأرض تميد بى"، "لم أسمع بهذا التعبير من قبل"، "اهدأ"، "إلا إذا كنت قد شربت كأساً أكثر من المطلوب ولا تتذكر شيئاً"، "اهدأ"، "إذًا نعم، لنهدأ ونرى، ماذا كانت تريد المرأة ذات العينين اللتين لا أعرف بالضبط، وأى عصا كانت تلك؟"، "العصا من شجر الدردار"، "لا أعرف الكثير عن هذا النبات، ماذا تعنى الدردار؟"، "قريبة من عائلة شجيرات البلوط، ولو تسمح لى بملحوظة بهذه المناسبة، لك طريقة ممتازة فى الاستجواب"، انطلق جواكيم زازا ضاحكاً، "يمكن أن أكون قد تعلمتها اليوم من هؤلاء الأساتذة الأفاضل الذى أسأمونى، معذرة، استمر فى حكاية المرأة تلك، هل لها اسم معين، إضافة إلى ذات العينين اللتين لا أعرف بالضبط"، "اسمها جوانا كاردا"، "لقد عرفنا، لنذهب إلى الموضوع مباشرة، تخيل أنك تعثر على

عصا ملقاة فى الطريق، وتضييعاً للوقت أو دون أى سبب محدد، ترسم بها خطاً على الأرض"، "أنا فعلت هذا مرات عديدة فى طفولتى"، "وماذا حدث؟"، "لا شىء، عادة لا يحدث أى شىء، وفى الحقيقة، إنها خسارة، تخيل أن ذلك الخط جرى رسمه، ولأسباب سحرية أو شىء من هذا القبيل، فيحدث صدع فى البرانس، وتنقسم جبال البرانس من أعلى إلى أسفل، وتبدأ شبه الجزيرة الأيبيرية فى الإبحار إلى أعماق البحر"، "هذه الجوانا مجنونة"، "كانت هناك واحدة، لكن هذه لم تأت إلى لشبونة لتقول لنا إن شبه الجزيرة انفصلت عن أوروبا، لأنها رسمت خطاً على الأرض"، "شكراً، ويا إلهى، ولا يزال حتى الآن هناك جدية فى هذا العالم"، "ما تقوله إن الخط لا يختفى، لا بالهواء، ولا حتى بإلقاء الماء عليه، ولا بخدشه، ولا كنسه بمكنسة، ولا بالمشى عليه بالقدمين"، "إنها أشياء بلهاء"، "ليس كما تصبح أنت أكبر قاذف أثقال فى جميع الأزمنة، ستة كيلوجرامات تقذفها إلى مسافة خمسمائة متر، ولا حتى هرقل، رغم أنه نصف إله، يمكنه أن يتخطى رقمك القياسى"، "تريد أن أصدق أن الخط المرسوم فى الأرض، على التراب، ألم يكن فى التراب؟ أليس كذلك؟ ويظل رغم الرياح، والماء، والمكنسة"، "ولو أدخلت فيه فأساً، يعود إلى حاله، إنه أمر مستحيل"، "لم تقل شيئاً جديداً، أنا قلت ذات الكلمات قبلك، وجوانيتا ذات العينين اللتين لا أعرف بالضبط، لم تفعل شيئاً سوى أن تجيب"، "فقط تذهب

لترى هناك أو فقط تذهب لترى، لا أعرف جيداً"، صمت جواكيم زازا، وكانا حينها يمران أمام الصليب المعقوف، يا له من رمز دينى يختفى فى هذه الكلمات المكشوفة، وقال جوزيه أنايسو، "كل هذا عبث لو لم يكن يجرى بالفعل"، وسأل جواكيم زازا، "لا يزال يجرى فى الحقيقة؟!".

كان لا يزال هناك بعض ضوء النهار، كافٍ لرؤية البحر حتى الأفق، من هذا المرتفع الذى ينزلق باتجاه كايشاس مما يجعله يغطى كل مناطق المياه العميقة، ربما لهذا السبب همهم جوزيه أنايسو، "إنها أشياء أخرى"، أما جواكيم زازا الذى لم يستطع معرفة عن أى أشياء أخرى يتحدث، سأل، "من؟"، "المياه، تلك المياه، إنها مختلفة، هكذا يتغير شكل الحياة، يتغير دون أن نلحظ، كنا ساكنين واعتقدنا أننا لم نتغير، خداع، خداع صافٍ، كنا نسير مع الحياة"، كان البحر يضرب جوانب الطريق بقوة، لم يكن مفاجئاً، وأيضاً تلك الأمواج أمواج أخرى، معتادة على التحرك بحرية، بلا شهود، عدا عند مرور قارب صغير، وليس الحوت المعاصر، الذى يشق المحيط، قال جوزيه أنايسو، "نتعشى هناك، فى منطقة باسو دى أركوز، نعود بعدها إلى الفندق، لنرى كيف حال بدرو"، "يا له من رجل مسكين، كانوا على وشك القضاء عليه". تركا ذات الحصانين فى شارع جانبى، وانطلقا بحثاً عن مطعم، لكن قبل أن يدخلا قال جواكيم زازا، "خلال الاختبارات والتحقيق سمعت شيئاً لم نفكر فيه أبداً،

كانت كلمة واحدة لكنها كانت كافية، إن من قالها ربما اعتقد أننى لم أكن واعياً"، "ماذا؟"، "حتى الآن، فإن شبه الجزيرة، أنا أعرف أنها لم تعد شبه جزيرة، لكن بحق الشياطين كيف نسميها، إنها كانت تتحرك فى خط مستقيم، ما بين خطى طول ٣٦ و٤٣"، "وماذا يعنى هذا؟"، "ربما كنتَ مُعلماً جيداً فى مواد أخرى، لكن فى الجغرافيا يبدو أنك لست كذلك"، "لا أفهم؟"، "ستفهم لو تتذكر أن جزر الآزور توجد فى ما بين خطى طول ٣٦ و٤٠، "اللعنة"، "سمها ما شئت، سمها ما شئت، إن شبه الجزيرة سترتطم بالجزر"، "بالضبط"، "ستكون أسوأ كارثة فى التاريخ"، "ربما نعم، وربما لا، وكما ذكرت قبل لحظة، إن كل هذا يصبح عبثاً لو لم يكن يجرى، والآن هيا نتعشى".

جلسا إلى المائدة، اختارا أطباق الطعام، كان جواكيم زازا جائعاً، فانقض على الخبز، والزبد، والزيتون، والنبيذ، بشكل كانت ابتسامته تطلب المعذرة، "إنها آخر عشاء للمحكوم عليه بالإعدام"، بعدها بدقائق فقط سأل، "وفتاة العصا، أين هى الآن؟"، "إنها تنزل فى فندق بورخيس، فى التشيادو"، "اعتقدت أنها من لشبونة"، "هى لا تعيش فى لشبونة، هذا ما قالته لى، لكنها لم تقل أين وأنا لم أسألها، فكرت أنه يمكننا أن نذهب معها"، "لماذا؟"، "لنرى الخط على الأرض"، "أنت أيضاً لديك شكوك"، "أعتقد أن لدى شكوكاً، لكنى أعتقد أن رؤيته بعينى ولمسه بيدى"، "أنت كالرجل راكب الحمار بيلاتيرو، على طرق جبال سييرا مورينا

وأراثينا"، "لو أنها كانت تقول هى الحقيقة، أكثر من رؤيتنا لروكى لوثانو، الذى لن يرى سوى الماء عندما يصل إلى وجهته"، "كيف تعرف أن اسمه روكى لوثانو، لم أذكر أننا سألناه عن اسمه، عن اسم حماره نعم سألناه، لكن اسمه هو؟"، "قد أكون حلمت به"، "وهل يريد بدرو أن يرافقنا"، "رجل يشعر بأن الأرض تهتز تحت قدميه فى حاجة إلى رفقة"، "كيف شعور الإنسان بالأرض تميد تحت قدميه"، "ليرحمنا الله". المسكينة ذات الحصانين بدأت تبدو صغيرة لتحمل كل هؤلاء الناس، أربعة أشخاص بحقائبهم، ولو كان مجرد تجربة، لقد بدأت السيارة المسكينة تشيخ، لا أحد يستطيع أن يهرب من مصيره"، "أنت حكيم"، "من حسن الحظ أنك اقتنعت"، "كان يبدو أن رحلاتنا انتهت، وكل منا سيذهب إلى بيته، ويمارس الحياة اليومية"، "سنذهب إلى الحياة اليومية، لنرى ماذا ستعطينا"، "مادامت شبه الجزيرة لم ترتطم بالآزور"، "ولو كانت تلك النهاية، وحتى يحدث هذا فإن حياتنا مضمونة".

أنهوا عشاءهم، عادوا فى طريقهم بهدوء، بالخطوة القصيرة لذات الحصانين، كان المرور قليلاً على الطريق، ربما بسبب نقص الوقود، من حس حظهم أن موتور السيارة منخفض الاستهلاك، "هذا لا يعنى أننا بعيدون عن أن نجد أنفسنا على الطريق بلا معين، حينها ستكون الرحلة قد انتهت فعلاً"، ألقى جواكيم زازا بتلك الملاحظة وفجأة تذكر، "مَن هنا قلت

أن الزرازير قد رحلت نهائياً"، "يمكن لأى إنسان أن يفرق بين مع السلامة، وإلى اللقاء"، لكن لماذا؟"، "لا أعرف ماذا أقول، لكن هناك تطابقًا، الزرازير ذهبت بمجرد ظهور جوانا"، "جوانا، آه، هل هذا اسمها؟"، "كان يمكنك أن تقول تلك المرأة، الفتاة، البنت، هكذا يتم التعبير عن الخجل الذكورى عندما ينطق اسم امرأة يبدو هذا أكثر حميمية"، "مقارنة بحكمتك أنا أكون فى قمة السذاجة، لكن كما قارنت منذ قليل، ذكرت أنا اسمها بكل طبيعية، دليل على أن حميميتى ليس فيها شىء بهذه المسألة"، "عدا إذا كانت أكثر ميكافيلية مما تظهر عليه، محاولاً التدليل على العكس مما تفكر أو تشعر حتى أصدق أن ما تشعر به أو تفكر فيه تحاول أن تريدنى أن أدلل عليه، لا أعرف إن كانت قد اتضحت فكرتى أم لا؟"، "لا ليس واضحاً، لكن لا يهم، الوضوح والغموض لهما الظل نفسه والنور نفسه، ما هو غامض واضح، وما هو واضح غامض، وعندما تكون هناك حقيقة ما يمكنها أن تقول الكلمة الحقيقية المعبرة لما تشعر أو تفكر، أرجوك ألا تصدقها، ليس لأنك لا تريد، ولكن لأنه ليس ممكناً"، "إذًا لماذا يتحدث الناس كثيراً"، "لأنه الشىء الوحيد الذى نستطيع فعله، الكلام والكلام، ولا حتى مجرد كلام، كلها تجارب أو محاولات"، "ذهبت الزرازير وجاءت جوانا، ذهبت رفقة وأخرى جاءت، يمكنك أن تقول إنك رجل محظوظ"، "هذا غير واضح حتى الآن".

فى الفندق كانت هناك رسالة من بدرو أورثى لجواكيم زازا، رفيقه فى المشاكل، "لا توقظونى"، وأخرى تليفونية من جوانا كاردا، لجوزيه أنايسو، "كل شىء كان حقيقياً، لم تكن تحلم"، من خلف كتف جوزيه أنايسو جاء صوت جواكيم زازا ساخراً، "السيدة ذات العينين اللتين لا أعرف بالضبط، تؤكد أن كل شىء حقيقى، وبالتالى، لا تضيِّع الوقت حالماً بها هذه الليلة". صعدا السلم باتجاه الغرف، قال جوزيه أنايسو، "غداً، مبكراً، سأهاتفها لأقول لها إننا سنذهب معها لو وافقت أنت على ذلك"، "وهو كذلك، ولا تهتم كثيراً بما أقوله لك، فى أعماقى، معروف، أن ما يدفعنى إلى الحديث هو الحسد"، "الحسد على الظواهر تضييعٌ للوقت"، "حكمتى تهمس لى أن المظهر، ليس كذلك، ولهذا يجب أن يحكى كل منا للآخر"، "ليلة طيبة، يا حكيم"، "أحلام سعيدة، يا رفيقى".

■■■

## - ١٠ -

فى سرية تامة، ودون إثارة للشبهات بين سكان البلدين، أعدت الحكومتان ومؤسساتهما العلمية تحقيقاً حول الحركة البارعة التى تجرُّ شبه الجزيرة إلى عمق البحر باستمرارية غامضة وثبات لا ينقطع. لمعرفة كيف ولماذا تصدعت جبال البرانس؟، وهى الفكرة التى كانت قد أُستبعِدت من قبل، كان أملاً ضائعاً استمر لأيام قليلة. رغم المعلومات المتراكمة التى تم جمعها، فإن أجهزة الحاسوب، الثابتة، كانت تطلب مزيداً من المعلومات أو تعطى إجابات متناقضة جداً، مثل ما حدث فى معهد ماسشويستس الشهير، التى احمرت وجوه مبرمجيه خجلاً من الإجابة التى قدمتها أجهزتهم، "نتيجة تعرض زائد لأشعة الشمس"، تخيلوا، فى البرتغال، ربما لاستحالة ذلك، حتى اليوم، لم يتم تنقية لغة الاستخدام اليومى من بعض المصطلحات المهجورة، أقرب النتائج التى أمكننا

الحصول عليها كانت، "ذهاب الإبريق كثيراً إلى النافورة يؤدى فى النهاية إلى كسره"، كناية تفيد فقط لمزيد من التشويش على الأرواح، لأن الموضوع لا علاقة له بالأباريق، ولا بالنافورة، لكن ما أمكن كشفه هو عنصر واحد، بطبيعته، وحسب حدوثه، لا يمكن أبداً معرفة نهايته، وهو ناتج الأحداث الجارية، فهو شىء مثل "نقطة، نقطة يمتلئ الحوض"، وهى صيغة، للغرابة، لم تعبّر عنها أجهزة الحاسوب أبداً، ولكن ما بين هذه والأخرى مؤكد أن هناك تشابهاً، فى الحالة الأولى ثقل الماء فى الإبريق، وفى الحالة الثانية لا يزال يتعلق الأمر بالماء، لكن نقطة، نقطة، فى سقوط حر، إنه الزمن، هو العنصر الآخر المشترك.

إنها فلسفات شعبية يمكننا الحديث عنها إلى ما لانهاية، لكنها لا تهم علماء الجيولوجيا ولا علماء المحيطات فى قليل أو كثير، استجابة للأرواح الأكثر بساطة، فإن القضية يمكن تلخيصها فى سؤال مبدئى، فى عبقريته يمكنه أن يُذكرنا بذلك الجيليقى الذى كان بالقرب من نهر إيراتى عندما كان هذا النهر ينحدر إلى أعماق الأرض، إذا لم تكن قد خانتكم الذاكرة، "إلى أين يذهب الماء؟"، أراد أن يعرف، سنطرح هذا السؤال الآن بطريقة أخرى، "ما الذى يحدث مع المياه فى جوف الأرض؟"، "هنا، بأقدام ثابتة على الأرض، والنظر إلى الأفق، أو عبر الهواء، كما يفعل المراقبون الذين يواصلون دون كلل، فإن شبه الجزيرة تبدو قطعة من الأرض المتماسكة، نؤكد على

الفعل، تبدو كما لو كانت تبحر على سطح الماء"، "لكن من الواضح أنها لا تستطيع الإبحار، لأنه من أجل أن تُبحر يجب أن تكون قد انفصلت فى الأعماق أيضاً، وهى حالة ستدفع بها حتماً إلى الارتكاز على الأعماق مجدداً، لأنه، حتى لو افترضنا أن عناصر قانون الدفع يمكن أن تتحقق ولن يطرأ عليها تغيير كبير، فإن تفتيت الماء والتيارات البحرية ستنحر تدريجياً وتخفف من سمك الطبقة المبحرة حتى تقضى على سطحها تماماً"، وبالتالى، ونتيجة احتكاك الأجزاء، علينا أن نفكر فى أن شبه الجزيرة تنزلق على نفسها، على عمق مجهول، كما لو كانت قد انقسمت بشكل أفقى إلى مسطحين، جزؤها السفلى يشكل جزءاً من الأرض، والعلوى، كما شرحنا من قبل، ينزلق ببطء فى أعماق الماء، بين سحابات من الطمى والأسماك المرتعبة، وتصبح بذلك مبحرة فى الأعماق، فى مكان ما من المحيطات، تماماً كالهولندى الطائر وذكرياته الحزينة. النظرية لها جاذبية خاصة وبها غموض، وبقليل من التخيل يمكنها أن تشكل فصلاً ساحراً فى رواية مثل، "عشرون ألف فرسخ من رحلة تحت الماء". لكن تلك كانت أزمنة أخرى، والعلم اليوم أكثر صرامة، وإذا لم يكن من الممكن اكتشاف ما الذى يدفع شبه الجزيرة للتحرك على أعماق الماء، فليذهب من يذهب ليرى بعينيه، ليرى المعجزة، ويصوّر انزلاق هذه التشكيل الحجرى الضخم، ويسجل ربما هذا الصوت الذى يشبه صرخة الحوت، هذا الصرير، وهذا التمزق الأبدى. إذاً لقد حانت ساعة الغطّاسين.

معروف، أنه لا يمكن الغطس إلى أعماق سحيقة أو لمدة طويلة، سواء أمكن لصياد اللؤلؤ أو الإسفنج، أو الأعشاب المرجانية، الغوص حتى خمسين متراً، بل وحتى سبعين، ويمكنه أن يحبس الهواء لثلاث أو أربع دقائق، لأنها مسألة تتوقف على التدريب والحاجة. المسألة هنا تتطلب أعماقاً أخرى، والماء أكثر برودة، وحتى مع حماية الجسم بتلك الملابس الكاوتشية التى تغيّر شكل جسد أى إنسان، سواء رجلاً كان أم امرأة، وتحوله إلى ذلك الشكل الخرافى الأسود بخطوط وأطراف صفراء. حينها لا بد من اللجوء إلى زجاجات الهواء المضغوط، وأحدث التقنيات التى تهدف إلى استخدام ألف وواحد من الأمان، ويمكنهم الوصول إلى أعماق تصل إلى مائتين أو ثلاثمائة متر. من هذا العمق إلى ما هو أسفل لا يجب المجازفة، ولذلك يجب إرسال الآلات الموجهة إلكترونياً، مدعمة بكاميرات التصوير والكاميرات التليفزيونية، وأجهزة حساسة، ومجسات لمسية وعالية التردد، كل الأجهزة المناسبة لتحقيق الهدف المنشود.

بحرص شديد، وفى الساعة نفسها، للحصول على أفضل نتائج لعمليات المراقبة، بدءوا فى عمليات على شواطئ الجنوب والغرب، تحت غطاء مناورات بحرية فى إطار برنامج تدريبى لمنظمة حلف شمال الأطلنطى، تجنباً لنتائج الإعلان عن اختبارات جديدة وما يمكن أن يدفع إلى إثارة حركة جديدة من الذعر، لأنه حتى الآن وبشكل غامض، لم يخطر على بال أحد

أن شبه الجزيرة تنزلق على ما كان يمثل قاعدتها منذ آلاف السنين. لقد حانت ساعة الكشف عن أن العلماء يخفون قلقاً مزعجاً، نتج لسوء الحظ عن تلك الفرضية نفسها القائمة على فرضية القطع الأفقى العميق، ويمكن تلخيصه فى تساؤل جديد مرعب لبساطته، "ماذا يحدث لو مرت شبه الجزيرة فى طريقها بفراغ فى الأعماق، لأنه فى هذه الحالة، ستختفى الطبقة السطحية المتواصلة التى تدعم الحركة؟"، باللجوء، كما هى العادة دائماً، كنوع من الفهم الجيد للوقائع، إلى تجربتنا الخاصة، وفى هذه الحالة تجاربنا كسباحين، سنفهم تماماً ما يعنيه هذا لو تذكرنا ما يحدث، من رعب وكرب، عندما تفقد القدم موضعها بشكل مفاجئ عندها لن تجدى الخبرة السباحية. عند فقدان شبه الجزيرة لقدم، أو لأقدام، فإن الغرق سيكون الغطس المحتوم، وبالتالى الغوص والغرق، والاختناق، من كان يصدق هذا، أنه بعد قرون عديدة من الحياة البائسة، محكوم علينا بأن نلقى مصير قارة أتلانتا.

نوفر بعض التفاصيل التى سيكشف عنها فى يوم من الأيام من لهم اهتمام بالحياة البحرية، والتى تعتبر فى هذه اللحظة سراً كاملاً، توج فقط فى سجل القبطان، ومذكرات وسجلات سرية للغاية، وبعض الوثائق المشفرة. نكتفى بالقول بأن الشكل القارى تم فحصه بدقة، وبلا فائدة تذكر. لم يتم العثور على أى صدع ولو صغير، عدا الصدوع القديمة، ولا أى

احتكاك غير طبيعى سجلته الميكروفونات. بعد أن فشلت هذه الفرضية، لم يكن سوى الجحيم. أنزلت رافعة المهندسين المدربين على تحمل الضغط العالى، وهؤلاء فى أعماق البحر الصامتة، بحثوا، وبحثوا ولم يجدوا شيئاً. الغواصة أرشيميدس، إحدى عجائب البحث فى الأعماق، تحركت تحت إدارة أصحابها الفرنسيين، هبطت إلى أقصى أعماق فى المنطقة المحيطة بالقاعدة السطحية، باستخدام الكشافات واللواقط والمجسات الإلكترونية، والموجات الصوتية من مختلف الأنواع، ومسحت أفق ما تحت الماء بالموجات الصوتية لالتقاط صورة عامة، بلا فائدة. والجروف الطويلة، والانزلاقات الرأسية، والمساقط القائمة تبدو بعظمتها، ومحتفظة بجلالها الأصلى، كانت الأجهزة تسجل، بكثير من الضربات والأضواء التى تشتعل وتنطفئ، بين التيارات الصاعدة والهابطة، تصور أسماكاً، وتجمعات السردين، ومستعمرات الميرلوثة، وجيوش التونة، وعوامات الجمبرى، وأسماك السيف. لو كانت أرشميديس تحمل فى باطنها معملاً مجهزاً بكل ما يحتاجه من مذيبات ومحللات وغيرها من الكيماويات، لفصلت العناصر الطبيعية الذائبة فى المياه المحيطية، من يعرف، بالترتيب التنازلى كمياً ولتقديم المساعدة الثقافية لمجتمع لا يتصور إن كانت هناك أشياء أخرى فى البحر الذى يسبحون فيه، من الكلور والصوديوم والماغنسيوم، والفوسفور، والجير، والبوتاس، والنتروجين والحديد والنيكل والمنجنيز

والتيتان والفحم، والفضة والذهب، يا لهذا الثراء، يا إلهى، ويقولون إنه يندر وجودها على اليابسة، لكن من يتمكن من الوصول إلى الأعماق يمكن أن يشرح ما يحدث، أمام أعين الجميع، يحدث هذا، ويؤكده. عالم أمريكى متشائم ومعه علماء آخرون مشهورون، وصل تطرفه إلى حد المطالبة على سطح السفينة العلمية، ما بين الرياح والآفاق، "أعلن أنه من المستحيل أن تتحرك شبه الجزيرة"، لكن عالماً إيطالياً، أقل خبرة لكنه مدعّم بالحنكة التاريخية والعلمية، همهم، وإن لم يكن صوته منخفضاً لا يسمعه ذلك الكائن الذى يسمعه الجميع، " .Eppur si muove" بأيدٍ خالية، وجافة بفعل الملح، اكتفت السلطات بإصدار بيان يقول إنه تحت رعاية الأمم المتحدة بدأ إجراء اختبارات حول التأثيرات السلبية لحركة شبه الجزيرة على أنواع الأحياء المائية. هذا ليس لأن الجبل تمخض عن فأر، ولكن لأن المحيط أنجب سمكة صغيرة.

سمع المسافرون الأخبار عند الخروج من لشبونة، ولكنهم لم يهتموا بها كثيراً؛ لأن الخبر جاء بين أخبار أخرى متعلقة بابتعاد شبه الجزيرة، وما هى الأهمية، التى يمكن أن تكون لأى من الأخبار الأخرى. يعتاد الإنسان على كل شىء، والشعوب اعتيادها أسهل وأسرع. ففى النهاية كما لو كنا نسافر على سفينة هائلة الحجم، كبيرة إلى درجة أنه يمكن الحياة عليها ما تبقى من العمر دون رؤية المؤخرة أو المقدمة، لم تكن شبه الجزيرة تشبه سفينة عندما كانت مربوطة

إلى أوروبا، وكان هناك كثير من الناس لا يعرفون عن الأرض أكثر من المنطقة التى وُلدوا فيها، قل لى إذًا، من فضلك، أين يكمن الاختلاف. الآن أصبح جواكيم زازا وبدرو أورثى أحراراً من ثورة التحليل العلمى وليس هناك ما يخافانه من السلطات، يمكن لكل منهما أن يعود إلى بيته، وأيضاً جوزيه أنايسو، الذى هجرته الزرازير فجأة، لكن تلك المرأة التى ظهرت، تسببت فى أن يعود كل شىء إلى البداية، هناك شىء من ناحية أخرى، يحدث دائماً، ولم يكن دائماً بطريقة جذرية. كان ذلك بعد لقاء فى هذه الحديقة نفسها، التى كان فيها بالأمس جوانا كاردا وجوزيه أنايسو، عندما قرر الأربعة، وبعد فحص ودراسة الأحداث، أن يجتمعوا للسفر إلى المكان الذى أشارت إليه برسمها خطاً على الأرض، إنه خط مثل كل تلك التى رسمها أى شخص طوال حياته، لكنه فريد فى شكله، لو صدقنا العنصر والشاهد، لأنهما موجودان فى شخص واحد، جوانا كاردا التى لم تكشف عن اسم المكان ولا حتى أقرب مدينة إليه، اكتفت بتعليمات عامة، "هيا إلى الشمال، عبر الطريق السريع، بعدها سأبيِّن لكم الطريق" . بحذر شديد تنحى بدرو أورثى مع جوزيه أنايسو جانباً ليسأله إن كان يرى أنه من المفيد القيام بتلك المغامرة دون تمعن فى النتائج، تحت تأثير امرأة طائشة تحمل عصا فى يدها، ألا يمكن أن يكون ذلك مصيدة، عملية خطف، حيلة معدة بأحكام، "من يكون؟" أراد جوزيه أنايسو أن يعرف، إجابة بدرو

أورثى، "لا أعرف من يكون؟، ربما يريدون أخذنا إلى معمل لأحد العلماء المجانين، من أولئك الذين يظهرون فى الأفلام، مثل فرانكنشتين، أو أى من أشباهه" بابتسامة، علق جوزيه أنايسو،"هناك أسباب كثيرة للحديث عن الهجرة الأندلسية"، "مخكم يغلى بقليل من الماء"، أجابه بدرو أورثى "لا ليس لأن الماء قليل، ولكن لأن النار حامية"، "لا تنزعج، ما كان يجب أن يحدث سيحدث"، واقتربا من جديد من الآخرين، اللذين كانا قد بدءا مناقشة هكذا، "لا أعرف كيف حدث، كانت العصا على الأرض، أخذتها ورسمت الخط"، "ألم تفكرى بعدها أنها ربما تكون عصا سحرية؟"، "حتى تكون عصا سحرية اعتقدت دائماً أنه كان يجب أن يكون حجمها أكبر من ذلك، ودائماً ما سمعت أن العصا السحرية مصنوعة من الفضة والبلور، بنجمة لامعة فى أعلاها"، "هل كنتِ تعرفين أن العصا فرع شجرة دردار"، "أنا أكاد لا أعرف الكثير عن الأشجار، لكن، لأجل هذا، فإن مسواك أسنان كان كافياً لإحداث نفس النتيجة"، "لمَ تقولين هذا؟"، "ما يجب أن يحدث، يحدث، لا يستطيع أحد أن يمنع حدوثه"، "أنتِ تعتقدين فى الكوارث؟"، "أنا أعتقد فيما يجب أن يحدث"، "إذًا كما قال جوزيه أنايسو هذا الصباح لبدرو أورثى، فهو أيضاً يؤمن به". فى الصباح، كانت الريح خفيفة كما لو أن شخصاً يعبث بالهواء، ولم يكن يشى بأن النهار سيكون حاراً. قال جوزيه أنايسو، "هيا"، فأجابوا جميعاً، "هيا"، بمن فيهم جوانا كاردا التى جاءت بحثاً عنهم.

الحياة مليئة بأحداث صغيرة تبدو قليلة الأهمية، وأخرى تحتل فى لحظة معينة مجال الاهتمام، وفيما بعد، نقوم بتحليلها على ضوء نتائجها، ومن الممكن أن تنتهى بعض تلك الأشياء التى احتلت أحداثاً مهمة أو على الأقل، كحلقة تربط ما بين مجموعة من الأحداث المتوالية والمهمة، مثال، ما كان هناك مكان لتلك الضجة، التى تبدو مبررة ظاهرياً، إنها ناتجة عن التنظيم الأفضل لحقائب أربعة أشخاص فى سيارة صغيرة مثل ذات الحصانين. استحوذت تلك العملية الصعبة على انتباه الجميع، وكل منهم يدلى برأى أو نصيحة بهدف المساعدة، لكن المسألة، أن هذا التزاحم، الذى يحدد ربما الاستعداد الوقتى لموضع كل واحد من الأربعة فى السيارة، وهو إلى جوار من ستسافر جوانا كاردا؟. بالطبع من الواضح أنها ستجلس إلى جوار جواكيم زازا، لأنه هو الذى سيقود ذات الحصانين، فى بداية أية رحلة عادة ما يقود السيارة هو صاحبها، نقطة غير قابلة للنقاش ومتعلقة بوضعه، والسائق البديل حين تحين اللحظة، سيكون جوزيه أنايسو؛ لأن بدرو أورثى، بسبب العمر تماماً، ولأنه يعيش فى بلاد غير بلاده، ومهنته خلف المكتب، ولم يغامر إطلاقاً فى تعقيدات القيادة الميكانيكية، والبدالة والعتلة، أما جوانا كاردا من المبكر سؤالها إن كانت تعرف القيادة أصلاً. بعرض حيثيات المشكلة، فإن هذين الاثنين يجب أن يسافرا فى المقعد الخلفى، وبالطبع يكون فى الأمام، قائد السيارة ومساعده. لكن

بدرو أورثى إسبانى، وجوانا كاردا برتغالية، ولا أحد منهما يتحدث لغة الآخر، إضافة إلى أنهما تعارفا قبل قليل، ربما يختلف الأمر بعد قليل، عندما يكونان أكثر ألفة. المكان إلى جانب قائد السيارة، ولكن المتطيرين والتجربة يؤكدون أنه مقعد الموت، مع أنه يعتبر عادة مكاناً مميزاً، ولهذا السبب كان يجب عرضه على جوانا كاردا، على يمين جواكيم زازا، فيما يجلس الرجلان فى المقعدين الخلفيين، ونعتقد أنه لن يكون سيئاً التفاهم بينهما بعد المغامرات العديدة التى عاشاها معاً. لكن عصا الدردار أكبر من أن تكون فى الأمام، ولا يمكن أن تنفصل عن جوانا كاردا لأى سبب من الأسباب، كما فهموا جميعاً. ليس هناك من حل بديل، سوى أن يجلس بدرو أورثى فى الأمام، وذلك لسببين واضحين، وكلاهما ممتاز: الأول، كما تبين من قبل، لأنه مكان مميز، وثانياً، لأنه فى النهاية فإن بدرو أورثى الأكبر سناً بين جميع من هم هنا، وهو الأقرب إلى الموت، وذلك تنفيذاً، مع قليل من الدعابة السوداء، لما نسميه قانون الحياة الطبيعى. لكن ما لم يتم حسابه حقيقة، وأكثر من كل تلك الأسباب، أن جوانا كاردا وجوزيه أنايسو يريدان أن يكونا معاً فى المقعد الخلفى، وبشىء من التململ والتوقف والشرود الظاهرى الذى مثله البعض. "إذًا هيا بنا كلٌ فى مكانه".

لم يكن فى الرحلة ما يستحق، وهذا ما يقوله عادة الرواة المتسرعون عندما يعتقدون أنه يمكنهم

إقناعنا بعد مرور عشر دقائق أو عشر ساعات لم يحدث ما يستحق الإشارة إليه أو ذكره. من الناحية الانتقائية يصبح أكثر صحة، وأكثر أمانة، أن يُقال هكذا، "ليست كل الرحلات، أياً كان طولها أو وجهتها، سيحدث فيها ألف حدث، وألف كلمة، وألف تفكير، ومن يقول ألف يمكنه أن يقول عشرة آلاف، لكن الحكاية تسير ولهذا سمحت لنفسى بالاختصار، وسرت مائتى كيلومتر فى ثلاثة أسطر، كما لو كان أربعة أشخاص فى سيارة قطعوها صامتين، دون تفكير أو حركة، متظاهرين، أن تلك الرحلة لم يكن بها شىء. فى حالتنا هذه، مثلاً، سيكون من المستحيل ألا نعثر على أى معنى لمسألة أن جوانا كاردا، بكل طبيعية، تجلس إلى جوار جوزيه أنايسو عندما احتل هو مقعد جواكيم زازا، الذى رغب فى الاستراحة من القيادة، ولا نعرف بأية حركات رياضية، تمكنت هى من الجلوس فى الأمام واضعة عصا الدردار أمامها، دون أن تعيق القيادة أو تمنع الرؤية. ويصبح بلا فائدة أن نقول الآن إنه بعودة جوزيه أنايسو إلى المقعد الخلفى، ذهبت معه جوانا كاردا، وهذا ما فعلته دائماً، حيث يوجد جوزيه توجد جوانا، دون أن يشرح أى منهما السبب، وربما كانا يعرفان، ولا يجرؤان على قوله، فكل حركة لها مذاقها الخاص، ومذاق هذه اللحظة لم يستنفد بعد.

سيارات قليلة مهجورة على الطريق، وتلك، دون تغيير، لم تكن كاملة، تنقصها الدواليب، أو الفوانيس،

المرايا الجانبية، باب واحد أو جميع الأبواب، المقاعد، بعض السيارات تبدو وقد انكمشت ولم يبقَ منها سوى الهيكل، كسرطان بحر وقد أُمتصت عظامه. من المؤكد أن هذا حدث بسبب نقص البنزين، كان المرور قليلاً، من وقت لآخر تمر سيارة. وأيضاً تبدو للعيان بعض المظاهر الغريبة من وقت لآخر، كرؤية مرور عربة يجرها حمار على الطريق السريع، أو مجموعة من راكبى الدراجات الذين تقترب أقصى سرعة مسموح لهم بها من الحد الأدنى للسرعة التى تظهر على الإشارات الموزعة على الطريق بلا فائدة، فهم غائبون عما يحدث فى الواقع من حولهم. وأيضاً كان هناك أناس يسيرون على أقدامهم، بشكل عام يحمل كل منهم كيساً على ظهره، أو يحمل كيسين مربوطين من أفواههما ومعلقين على الكتفين، كخرجين، وتحمل النساء أقفاصاً على رءوسهن وكثير من الأفراد كانوا يسافرون وحدهم، وأيضاً كانت هناك عائلات تبدو متكاملة، بشيوخها وشبابها، ومراهقيها. فيما بعد عندما تعين على ذات الحصانين الخروج من الطريق السريع، فإن تناقص المشاة كان يقل عدداً حسب أهمية الطريق. حاول جواكيم زازا ثلاث مرات أن يسأل الأشخاص: إلى أين هم ذاهبون؟، فكانت الإجابة دائماً واحدة، "إلى هناك، لرؤية العالم". لا يستطيعون تجاهل أن العالم، العالم القريب، أصبح اليوم أصغر مما كان من قبل، وربما لهذا السبب نفسه أصبح ممكناً تحقيق الحلم فى التعرف عليه كله؛ وعندما

سأل جوزيه أنايسو، "وبيتك، وعملك"، يجيبون بهدوء، "البيت هناك، والعمل سيمكن إصلاح الأمور فيه، إنها أشياء تنتمى إلى العالم القديم ولا يجب أن تعقّد الحياة فى العالم الجديد". ها أنتم ترون، بسبب الحذر أو بانشغالهم بحياتهم الخاصة، فإن الناس لا يجيبون عن السؤال، مع أنه من الأجمل الإجابة عنه، فربما يقول بدرو أورثى، "نذهب مع هذه السيدة لرؤية خط رسمته على الأرض بهذه العصا، أما بالنسبة لمسألة العمل، شكل كئيب سيكون، لقد تركت مرضاى بلا رعاية"، أما جواكيم زازا يقول، "حسناً، يا رجل، حسناً، الموظفون ما أكثرهم، ولن يحتاجوا إلىّ، إضافة إلى هذا، فأنا أستمتع بإجازة أستحقها"، وجوزيه أنايسو، "حالتى نفسها تقريباً، لو عدت الآن إلى مدرستى لن أجد التلاميذ، وحتى يحين أكتوبر فالوقت لى وحدى"، وجوانا كاردا، "عن نفسى لن أتحدث، إذا لم أكن قد تحدثت حتى الآن مع هؤلاء الذين أسافر معهم، وبالطبع لن أتحدث مع الغرباء".

كانوا قد مروا بمدينة بومبال عندما قالت جوانا كاردا، "هناك فى الأمام طريق يؤدى إلى سورى، لنواصل من هناك"، منذ أن تركوا لشبونة كانت تلك أول إشارة نحو وجهة محددة، حتى الآن كانوا كما لو يسافرون فى وسط ضباب كثيف، أو لملاءمة هذا الظرف الخاص مع الأوضاع العامة، يبدو عليهم كما لو كانوا بحارة سذجاً قدامى، "فى بحر نحن، والبحر يأخذنا، إلى أين يأخذنا البحر؟". كانوا على وشك أن

يعرفوا، لم يتوقفوا فى سورى، دخلوا عبر طريق ضيقة تتقاطع وتتشعب إلى ثنائيات وثلاثيات، وتبدو فى بعض الأحيان وكأنها تستدير حول نفسها، إلى أن وصلوا إلى قرية اسمها مُعلن على لافتة عند مدخلها، إيريرا، وحينها قالت جوانا كاردا، "هنا".

جوزيه أنايسو الذى كان يقود فى تلك اللحظة، فرمل بشكل فجائى، كما لو كان الخط موجودًا هناك، فى منتصف الطريق وكان على وشك أن يدوسه، ليس لأن خطراً كان على وشك محو الإثبات العجيب، الذى لا يُمحى كما تقول جوانا كاردا، ولكن نتيجة ذلك النوع من الخوف المقدس الذى يرتكبه حتى أكثر المتشككين عندما ينكسر الروتين اليومى كخيط كنا نتركه ينزلق فى اليد، بثقة وبلا مسئولية، سوى الحفاظ عليه وإطالة الخيط المشار إليه، واليد أيضاً إلى أطول مسافة ممكنة. نظر جواكيم زازا من حوله، شاهد بيوتاً، وأشجاراً على الأسطح، وحقولاً مسطحة، ويمكن التنبؤ برؤية مستنقعات، وحقول الأرز، والمونديجو الناعم، الأجمل من حبة الأناناس البرى. لو كان هذا تفكير بدرو أورثى، فإن من الأفضل لرواية دون كيخوته أن تتخلى عن وجهه الحزين، الذى هو وجهه والذى من صنعه، عارياً، قافزاً كمجنون بين صخور سلسلة جبال سييرا مورينا، ولكن من غير المعقول الربط بين تلك الفصول الخاصة بالفارس المرتحل، ولهذا فإن بدرو أورثى، عند خروجه من السيارة، ووضع قدميه على الأرض، اكتفى باختبار، أن الأرض

لا تزال تواصل الاهتزاز. استدار جوزيه أنايسو حول ذات الحصانين، وفتح الباب الآخر بفروسية، وتظاهر بعدم رؤيته ابتسامة جواكيم زازا الساخرة، وأخذ من جوانا كاردا عصا الدردار ومد يده ليساعدها على النزول، قدمت هى يدها له، تضم كل منهما الأخرى بأكثر مما يجب لتأكيد صلابة الارتكاز، وإن لم تكن تلك المرة الأولى، فإن المرة الأولى، والوحيدة حتى الآن، كانت فى المقعد الخلفى، كانت دفقة عاطفية، ومع ذلك لم يقولا ساعتها ولن يقولا الآن، ولا كلمة مسموعة أو هامسة يمكنها أن تكون مساوية للضغط على كلمة الآخر.

إنها لحظة تقديم الاستفسارات، وهذه حقيقة، لكن لحظة أخرى، كانت فى حاجة إلى سؤال جواكيم زازا، كقبطان السفينة عند فتح الرسائل الملكية ويخشى أن يجد ورقة بيضاء، فأجابت جوانا كاردا، "والآن، لنذهب فى هذا الطريق، وفى أثناء السير سأحدثك عما تبقى قوله، ليس لأن هذا مهم جداً للأسباب التى جاءت بنا إلى هنا، ولكن لن يكون هناك معنى أن أظل مجهولة بالنسبة لمن تبعونى حتى الآن"، "كان يمكنكِ أن تقولى هذا من قبل، فى لشبونة، أو خلال الرحلة"، كانت تلك ملاحظة جوزيه أنايسو، "لماذا؟، إما أن تأتوا معى لأنكم فقط صدقتم كلمتى، أو أن تلك الكلمة كانت فى حاجة إلى كلمات أخرى لإقناعكم وحينها لن يكون لها قيمة"، "وكجائزة بأننا صدقناها"، "أنا من يجب عليه اختيار الجائزة

واللحظة التى يجب أن أقدمها فيها". على هذا لم يرغب جوزيه أنايسو أن يجيب، تظاهر بعدم المبالاة، وبدأ فى النظر إلى خط بعيد جداً من أشجار الحور، ولكن سُمعت همهمة جواكيم زازا، "يا لها من فتاة"، ابتسمت جوانا كاردا، "فتاة، أنا لست كذلك، ولا حتى امرأة مسترجلة كما يعتقد البعض"، "أنا لم أذكر مسترجلة"، "متسلطة، متعالية، مغرورة، متحكمة"، "حسناً، قولى غامضة وكفى"، "ولماذا هذا الغموض، لأنه ما كان لى أن أجىء إلى هنا بأحد لا يصدق دون أن يرى، ولا حتى أنتم، الذين لا يعتقدون فى الآخرين"، "والآن أنتِ من يقدم لنا خدمة"، "المحظوظ هو أنا، كان يكفينى فقط أن أقول كلمة واحدة"، "أرجو ألا تحتاجى إلى المزيد من الكلمات". هذا الحوار بكامله كان بين جوانا كاردا وجواكيم زازا، أمام تعسر فهم بدرو أورثى، وعدم الصبر الذى لم يستطع جوزيه أنايسو أن يخفيه، لأنه شعر بمسئوليته عن إخراج نفسه من الحوار. لكن ذلك الوضع الغريب، انظروا جيداً، لا ينتج عنه سوى تكرار الاختلافات التى توجد بين الأوضاع التى تتكرر، إنها عودة إلى غرناطة، عندما تحدثت ماريا دولوريس مع برتغالى وفضّلت أن تتحدث مع آخر، وفى الحالة التى أمامنا الآن، لا يزال هناك وقت لإيضاحه بشكل كامل، ومن يعطش لن يعدم الماء.

الآن هم فى الطريق، يا له من طريق ضيق، كان على بدرو أورثى أن يسير فى الخلف، والآخرون يشرحون له بعد ذلك ما قيل، هذا إذا ما كان حقيقة

أن الإسبانى مهتم بحياة البرتغاليين. بدأت جوانا كاردا حديثها، "لا أعيش فى تلك القرية، إيريا، بيتى كان فى كويمبرا، وأنا هنا منذ شهْر واحد فقط، بعد انفصالى عن زوجى، وأسباب الانفصال، ماذا يفيد الآن الحديث عن الأسباب، أحياناً يكفى سبب واحد، وفى أحيان أخرى حتى لو جمعنا كل الأسباب، هذا إذا لم تكن حيواتكم قد علمتكم هذا، مساكين، وأقول حيوات كل منكم، لا حياة واحدة؛ لأن لنا أكثر من حياة، ولحسن الحظ أنها تقتل الواحدة منها الأخرى، وإلا ما كان يمكننا أن نعيش". قفزت مجرى عريضاً، وتبعها الرجال، وعندما تجمعوا من جديد فى مجموعة واحدة، كانوا يسيرون على أرض لينة ورملية، الأرض التى تركها المد، واصلت جوانا كاردا حديثها، "أعيش مع بعض الأقارب، أريد أن أفكر، ولكن ليس لإجراء الحساب المعتاد، ربما كان قرارى صحيحاً، أو ربما كان خطأً، ولكن ما حدث قد حدث، ما كنت أريده هو أن أفكر فى الحياة، لأى شىء أعيشها، وماذا فعلت بها، نعم، لقد وصلت فى النهاية إلى نتيجة وأعتقد أنه لا يوجد غيرها، لا أعرف ما الحياة؟"، كان واضحاً على وجهى جوزيه أنايسو وجواكيم زازا أنهما فى حيرة، والمرأة التى جاءت إلى المدينة وفى يدها عصا مدعية أعمالاً مستحيلة تبين أنها فيلسوفة ريفية، ومن النوع السلبى أو الأكثر تعقيداً، من ذلك المستوى الخاص الذى يقول نعم عندما يريد أن يقول لا، وتقول لا بعد أن قالت نعم. جوزيه أنايسو المدرب مهنياً كمُعلم، كان

الأكثر قدرة على تفهم التناقضات، وهذا لم يكن حالة جواكيم زازا، الذى يكاد لا يشعر بها، من هنا كان الغضب مضاعفاً. واصلت جوانا كاردا، التى توقفت الآن ؛ لأنها وصلت بالقرب من المكان الذى أرادت أن تأخذ الرجال إليه، فلا يزال لديها ما تقوله، أشياء أخرى كان يمكنها أن تنتظر فرصة أخرى، "إذا كنت قد ذهبت إلى لشبونة بحثاً عنكم، لم يكن هذا بسبب الأحداث الغريبة التى يبدو أنها مترابطة، ولكن رأيت أنكم أشخاص بعيدون عن منطق العالم الظاهرى، وهو ما أشعر به أيضاً، سيكون الأمر سيئاً بالنسبة لى لو قررتم عدم الحضور معى إلى هنا، لكنكم جئتم، ربما يكون هناك شىء له قيمة، أو ربما تكون له فيما بعد، بعد أن فقد كل شىء قيمته، والآن، هيا رافقونى".

مكان خال بعيد عن النهر، دائرة من أشجار الدردار لا تبدو أبداً أنها كانت مزروعة، أماكن مثل هذه تبدو أقل غرابة مما يتخيله الإنسان، ما إن نضع أقدامنا فيه حتى نشعر أن الزمن قد توقف، الصمت يسكت هنا بطريقة أخرى، يمكن الشعور بالنسيم على الوجه بكامله وفى اليدين، لا، ليس فى الأمر شعوذة وسحر، فهو ليس مكاناً للاستلهام والأدعية، ولا يمثل مدخلاً إلى كون آخر، إنه التأثير الناجم عن هذه الأشجار المتراصة على هيئة دائرة، وهذه التربة التى لا يبدو أن أحداً لمسها منذ بداية الكون، جاء الرمل وحده وجعلها أكثر ليونة، لكن التربة العضوية من تحته ثقيلة، إنها خطأ الذين زرعوا الأشجار بهذه الطريقة"،

أنهت جوانا كاردا شرحها، "كنت آتى إلى هنا لأفكر فى حياتى، ولا أعتقد أنه فى العالم هناك مكان أكثر هدوءاً من هذا، ولا أكثر اضطراباً، الأمر واضح، لكن لو لم تأتوا إلى هنا ما كان يمكنكم فهم هذا، فى يوم ما قبل أسبوعين بالضبط، وبينما كنت أقطع هذا المكان من أقصاه إلى أقصاه لكى أجلس فى ظل إحدى هذه الأشجار، عثرت على هذه العصا، كانت على الأرض، لم أكن قد رأيتها من قبل، وكنت هنا فى اليوم السابق، ولم تكن موجودة، كأن أحداً جاء ليضعها هنا عن عمد، ولم تكن هناك أية آثار لأقدام، الآثار التى تشاهدونها آثار أقدامى أنا، أو آثار قديمة لأشخاص مروا من هنا منذ وقت طويل جداً"، كانوا على حافة المكان، ومازالت جوانا كاردا تستحوذ على اهتمام الرجال، وكانت تلك آخر كلماتها، "أخذت العصا، وشعرت بأنها حية كما لو كانت الشجرة نفسها التى نُزعت منها، وما زلت أشعر بها كذلك حتى الآن، عندما أتذكر تلك اللحظة بالتحديد، وبحركة صبيانية أكثر منها صادرة عن امرأة رزينة، رسمت خطاً ليفصلنى نهائياً عن كويمبرا، وعن الرجل الذى عشت معه، خطاً يقسّم العالم نهائياً إلى نصفين، إنه هنا".

تقدموا إلى داخل الدائرة، اقتربوا، كان الخط هناك، حياً، كما لو كان قد رُسم الآن، التراب على الجانبين، الطبقة السفلى رطبة رغم الشمس القوية، هم الآن صامتون، لا يعرف الرجال ما يقولون، وليس لدى جوانا كاردا ما تضيفه إلى كلماتها، قررت أن

تتخذ موقفاً خطراً يمكن أن يتحول إلى سبب للسخرية من كل حكايتها العجيبة. جرّجرت إحدى قدميها على الأرض، ماحية الخط كمسطرة بنّاء، تدوس وتضغط، كما لو كانت تدنس شيئاً مقدساً. فى اللحظة التالية، وأمام أعين الجميع المندهشة، عاد الخط من جديد، يستعيد شكله الذى كان عليه من قبل، والتراب الصغير، وذرات الرمال تعود إلى التجمع من جديد، تنتظم، وتعود إلى مكانها، ويظهر الخط. ما بين الجزء المُدمر والباقى، من جانب إلى آخر، لا توجد علامة على تباعد التأثير، أولاً وثانياً. تقول جوانا كاردا بصوت خفيض مع قليل من الانفعال، "كنسته، وألقيت عليه الماء، وكان دائماً ما يظهر من جديد، لو أردتم اختباره، لقد وصل الأمر إلى أننى وضعت عليه أحجاراً، وعندما رفعتها، عاد كل شىء إلى مكانه، جربوا، جربوا إذا لم تكونوا مقتنعين". انحنى جواكيم زازا، غرز أصابعه فى الأرض اللينة، نزع حفنة من التراب، وألقى بها بعيداً، وعلى الفور عاد الخط إلى حاله. وجرب جوزيه أنايسو، لكنه طلب من جوانا كاردا أن تعطيه العصا، ورسم بها خطاً عميقاً إلى جانب الأول، بعدها داس عليه بكل عرضه. الخط الجديد لم يعد كما كان. قال جوزيه أنايسو لجوانا كاردا، "افعلى الآن مثلى". انغرس طرف العصا فى الأرض، وتم سحبه حتى صنع جرحاً طويلاً، وانغلق على الفور كجرح التئم، وهكذا ظل، قال جوزيه أنايسو، "المسألة ليست فى العصا ولا فى الشخص، السر فى اللحظة،

اللحظة هى الأساس"، حينئذ قام جواكيم زازا بفعل ما كان يجب عليه فعله، رفع عن الأرض أحد الأحجار التى وضعتها جوانا كاردا، كان الحجر من ناحية الوزن والحجم يتشابه مع الحجر الذى قذف به إلى البحر، وبكل قوته، قذف به بعيداً، إلى حيث يمكن لقوته أن تصل، سقط الحجر بالطبع فى المكان الذى كان يجب أن يسقط فيه، على بعد خطوات، إنها هذه القوة البشرية فقط.

حضر بدرو اورثى التجارب لكنه لم يشارك فيها، ربما لأنه اكتفى بأن الأرض لا تزال تهتز تحت قدميه، أخذ العصا من جوانا كاردا وقال، "يمكنك أن تكسريها، أو ترميها، أو تحرقيها؛ لأنها لم تعد ذات فائدة، عصاك، وحجر جواكيم زازا، وزرازير جوزيه أنايسو، قاموا بفعل شىء فى وقت محدد، ولن تصلح أى منها الآن لعمل أى شىء مجدداً، نحن الرجال والنساء أيضاً نصلح لفعل شىء مرة واحدة، وجوزيه أنايسو محق، لأن الأهمية تكمن فى اللحظة، نحن نكاد لا نصلح لشىء"، أجابته جوانا كاردا، "الأمر هو كذلك، لكن هذه العصا ستظل معى إلى الأبد، فاللحظات لا تعلن عن نفسها عندما تأتى". ظهر كلب من بين الأشجار، من الناحية الأخرى، نظر إليهم بهدوء وبعدها عبر المنطقة الخالية، حيوان ضخم وممتلئ، شعره أسدى، فبدا تحت بقعة من ضوء الشمس كما لو كان مشتعلاً بنار حية. بقلق، قذفه جواكيم زازا بحجر، من تلك الأحجار العادية، "لا أحب الكلاب"، لكنه لم

يصبه. توقف الكلب، لم يكن خائفاً، ولم يكشر عن أنيابه، توقف فقط لينظر، ولا حتى نبح. عند وصوله إلى الأشجار أدار رأسه نحو الخلف، من بعيد كان يبدو أضخم، ثم ابتعد، ببطء حتى اختفى. أراد جواكيم زازا أن يداعبهم ليخفف من عصبيته، "احتفظى بعصاك يا جوانا، يمكن أن تحتاجى إليها إذا جاء إلى هنا حيوان مفترس بهذا الحجم"، "من تحركاته، هذا لا يبدو متوحشاً".

عادوا على نفس الطريق، عليهم الآن أن يتوصلوا إلى حل لبعض المسائل العملية، مثلاً، هل الوقت متأخر للعودة مرة أخرى إلى لشبونة؟، أين يمكن للرجال أن يناموا؟، قال جواكيم زازا، "الوقت ليس متأخراً، حتى لو ركبنا الحمير يمكننا أن نصل إلى لشبونة عند حلول العشاء"، قال جوزيه أنايسو، "بالنسبة لى أفضل أن أبقى هنا فى فيجيراس دافوز أو فى كويمبرا، سنعود غداً إلى هنا مرة أخرى، ربما تحتاج جوانا إلى مساعدة"، كان فى صوته رغبة جامحة، قال جواكيم زازا، "لو أردت..."، لكن بقية الجملة انتقلت من الكلمات إلى النظرة. "أفهمك جيداً، تريد أن تفكر هذه الليلة، تريد أن تقرر ماذا ستقول غدا. فاللحظات حين تحين لا تنبئ عن مقدمها؟!". يسير بدرو أورثى وجواكيم زازا فى المقدمة، وكانت للمساء عذوبة كبرى تجعل الحلق ينقبض بعاطفة غير موجهة لأحد، فقط إلى الضوء، إلى السماء الباهتة، إلى الأشجار التى لا تتحرك، إلى هدوء النهر الذى

يستشعر وجوده ليظهر بعيداً، كمرآة مسطحة تقطعها الطيور ببطء شديد. كان جوزيه أنايسو يمسك بيد جوانا كاردا بين يديه، ويقول، "نحن فى هذا الجانب من الخط، معاً، ترى إلى متى؟"، وتجيبه جوانا كاردا، "لم يبقَ الكثير لنعرف".

عندما وصلوا إلى السيارة شاهدوا الكلب من جديد، أمسك جواكيم زازا من جديد بحجر، لكنه لم يقذفه به. لم يتحرك الكلب رغم التهديد، اقترب منه بدرو أورثى، مد له يده علامة على السلام، كما لو أراد مداعبة شعره. ظل الكلب ساكناً، ورأسه إلى أعلى. كان فى فمه خيط صوفى مبلل أزرق اللون، مرر بدرو أورثى يده على ظهره، ثم عاد باتجاه زملائه، "هناك لحظات تعلن عن نفسها عندما تحين، الأرض تهتز تحت أقدام هذا الكلب".

■■■

## - ١١ -

"الإنسان يفترض والكلب يمتلك"، هذا المثل الشائع كان يصلح فى الزمن القديم كما هو فى العالم المعاصر، يجب علينا أن نحدد من يملك في النهاية اتخاذ القرار، ليس الله مسئولاً دائماً عن القرارات، كما يعتقد الناس بشكل عام. هناك بعد أن اتخذوا موقف الوداع، يتجه الرجال إلى فيرجيرا دى فوز لأنها الأقرب، والمرأة إلى أولئك الأقارب المضيفين لها، لكن ما إن خففت ذات الحصانين من فراملها وبدأت فى التحرك، شاهدوا جميعاً، وسط دهشة عامة، أن الكلب وقف أمام جوانا، يمنعها من التقدم. لم ينبح ولا كشَّر عن أنيابه، ولم يأبه بتهديد العصا، التي لم تكن سوى مجرد تهويش. فكر السائق جوزيه أنايسو أن محبوبته في خطر، أوقف السيارة بشكل عنيف، وقفز إلى الأرض، وانطلق فى حركة دراماتيكية غير مبررة،

كما سيتضح على الفور، إلا أن الكلب، ببساطة، رقد على أرضية الطريق. اقترب بدرو أورثى، وجاء أيضاً جواكيم زازا، كان هذا يخفى نفوره تحت مظهر التداعى، وسأل، "ماذا يريد هذا الحيوان؟"، لكن لا أحد عرف كيف يجيبه، ولا حتى هو نفسه، بدرو أورثى، كما فعل من قبل، اقترب من الحيوان، مرر يده على مقدمته، بطريقة مداعبة، أغمض الكلب عينيه تحت تأثير المداعبة، نحن نتحدث هنا عن الكلاب وليس عن البشر الذين يمارسون الأحاسيس، ثم وقف، نظر إلى البشر واحداً بعد الآخر، منحهم الوقت ليفهموا وبدأ في السير. سار حوالى عشرة أمتار، وتوقف، وقف في وضع من ينتظر.

علمتنا التجارب، وأيضاً الأفلام والروايات التي تمتلئ بمثل هذه الحالات، مثل الكلب ليسى، مثلاً، الذى كان يجيد تلك التقنية بإتقان، وتقول لنا الخبرة إن الكلب يفعل هذا دائماً عندما يريدنا أن نتبعه. في الحالة الراهنة، كان واضحاً أنه أوقف طريق جوانا كاردا ليجبر الرجال على النزول من السيارة، وإذا كانوا الآن معاً، فهو يحاول أن يبين لهم الطريق الذى يجب أن يسلكوه حسب فهمه ككلب، هذا لأنه، نرجو المعذرة عن هذا، كان يريدهم أن يبقوا معاً. ليس مطلوباً أن يكون ذكياً كالإنسان ليفهم هذا، إنه كلب ببساطة وبطريقة طبيعية يعرف كيف يتواصل. لكن البشر، فى أحيان كثيرة خدعوا، وتعلموا أن يكونوا مجربين، يريدون التأكد من كل شيء من خلال الطلب،

وهى الطريقة الأسهل، وعندما، كما فى هذه الحالة، وصلوا إلى مستوى ثقافى متوسط، فإنهم لا يكتفون بتجربة ثانية تماما كالأولى، بل يدخلون عليها تبديلات لا تغييراً جذرياً على المعلومات الأساسية، مثلاً، ذهب جوزيه أنايسو وجوانا كاردا إلى السيارة، وبقى على الأرض بدرو أورثي وجواكيم زازا، لنرى الآن ماذا سيفعل الكلب. قام الكلب بما كان يجب عليه أن يفعل. الكلب، الذي يعرف تماماً أنه لا يستطيع إيقاف حركة السيارة، لن يتوقف أمامها؛ لأن فى هذا موت محقق ولا يوجد سائق واحد عاشق للحيوانات يندفع إلى حد التوقف ليمنحه بضع دقائق أخيرة، أو حتى سحب جسده حتى جانب الطريق، قطع الكلب طريق جواكيم زازا وبدرو أورثي كما قطع من قبل طريق جوانا كاردا. ثالث وآخر التجارب عندما دخل الأربعة إلى داخل ذات الحصانين، وبدأت السيارة فى التحرك، ولأن القدر أراد أن تكون ذات الحصانين في الاتجاه الصحيح، وقف الكلب أمامها، وهذه المرة لا ليمنعها من الانطلاق، ولكن ليفتح لها الطريق. كل هذه التحركات حدثت دون حضور فضوليين، لأنه كما حدث فى مرات سابقة منذ بداية الرواية، فإن فصولاً معينة حدثت عند الدخول أو الخروج من القرى والمدن، وليس بداخلها كما يحدث بشكل عام، وهذا يستحق ولا شك تفسيراً، لكنا لسنا مؤهلين لتقديمه، فعليكم بالصبر.

فرمل جوزيه أنايسو السيارة، توقف الكلب، ونظر، وأخيراً لخصت جوانا كاردا الموقف، "يريدنا أن

نذهب معه إلى مكان ما". أمضوا بعض الوقت حتى فهموا شيئاً كان يبدو واضحاً منذ أن عبر الحيوان الأرض الخالية، يمكننا القول إن اللحظة أعلنت عن نفسها في ذلك الوقت، لكن البشر ليسوا دائماً في حالة انتباه لتلقى الإشارات. وحتى بعد أن تبددت الشكوك، لا يزال يحاول تعلم الدرس، وهو ما يفعله جواكيم زازا، الذي يسأل، "لماذا علينا أن نتبعه، أى سخرية فى أن يتبع أربعة أشخاص كلباً غريباً، لا يحمل فى عنقه حلقة أو علامة معدنية تبين هويته، اسمي بيلوتو، إذا عثر عليّ أحدكم، هذا عنوان أصحابي، السيد فلان بن فلان، أو فلانة، من المكان الفلاني"، قال جوزيه أنايسو، "لا تتعب نفسك، هذه الحكاية عبثية مثل غيرها التى وقعت لنا والتى يبدو أن لها معنى"، " وما زلت أشك إن كان لجميعها أي معنى"، قال بدرو أورثى، "لا يهم أن تكون المعانى كاملة، لا معنى لأية رحلة سوى أن تنتهي، ونحن ما زلنا في منتصف الطريق، أو في بدايته، من يعرف، قل لي أي معنى حصلت عليه لأقول لك أي معنى أمكنك أن تحصل عليه"، "حسناً، وإلى أن يأتى ذلك اليوم، ماذا سنفعل؟". خيم الصمت. هبط المساء بينما يبتعد النهار ويترك من خلفه ظلالاً بين الأشجار، وتغير صوت غناء الطيور. رقد الكلب أمام مقدمة السيارة، على بعد ثلاث خطوات، وضع رأسه على القدمين الأماميتين الممتدتين، ينتظر دون أن يُبدى قلقاً. وحينها بدأت جوانا كاردا تقول، "أنا على استعداد أن أذهب

إلى حيث يريد أن يأخذنا، لو كان قد جاء من أجل هذا، سنعرف عندما نصل إلى المقصد"، تنفس جوزيه أنايسو بعمق، لم تكن تنهيدة الارتياح، وإن كان فيها شيء من التخفف، "وأنا أيضاً" كان هذا هو كل ما قاله، وأضاف بدرو أورثى، "وأنا"، أنهى جواكيم زازا الحوار، "إذن إذا كنتم جميعاً تريدون، فلن أكون أنا الشرير الذى يدفعكم إلى الذهاب سيراً على الأقدام خلف بيلوتو، سنذهب جميعاً معه، على الأقل قد تفيد الإجازة في شيء".

القرار هو أن تقول نعم أو لا، نفخة من الهواء إلى الخارج، بعدها فقط تأتى الصعوبات، في الجانب العملي، كما تقول خبرة الشعب الكبرى، التى حصل عليها عبر الزمن والصبر ليتحملها، مع قليل من الأمل وأقل من التغيير. فلنتبع الكلب، نعم يا سيدي، ولكن مطلوب معرفة كيف، خاصة أن المرشد لا يعرف كيف يشرح ما يريد، ولا يمكنه أن يكون فى داخل السيارة، استديروا إلى اليمين، استديروا إلى اليسار، إلى الأمام دائماً حتى الإشارة الضوئية الثالثة، إلى جانب هذا، وهو ما يبدو الأخطر، كيف يمكن أن يدخل هذا الحيوان بحجمه هذا خاصة أن كل المقاعد مشغولة، دون أن نذكر الحقائب وعصا الدردار، رغم أن هذه تأكد من أنها لا تؤذي أحداً، فهي إلى جوار جوانا كاردا وجوزيه أنايسو. وبالحديث عن جوانا كاردا، لا تزال حقيبتها غير موجودة، إضافة إلى وضعها في السيارة يجب الذهاب لإحضارها، وأن تشرح لأقاربها

رحيلها المفاجئ، لا يمكن أن يظهر ثلاثة رجال أمام الباب، وذات الحصانين والكلب، وتقول، "سأذهب معهم"، حينها سيكون صوت الحقيقة العارية، امرأة لم تكد تنفصل عن زوجها لا يجب أن تشرح أسبابها لأحد، خاصة في هذه القرية الصغيرة التى هى إيرا، بلدة صغيرة، الانفصال يمكن ألا يُنظر إليه في المدينة باعتباره أمراً سيئاً، وربما يعلم الله كم من المعاناة الجسدية والمشاعر التى يجب بذلها قبل الحصول عليه.

غابت الشمس، هبوط الليل لن يتأخر كثيراً، هذه ليست ساعة للبدء فى رحلة إلى المجهول، وسيكون سيئاً أن تختفي جوانا كاردا دون أن تقول شيئاً، لقد قالت لأقاربها إنها مسافرة إلى لشبونة لتحل مشكلة، ذهبت فى قطار وعادت فى آخر. صعوبات كهذه تبدو كعقد صعبة، لا يمكن أن تحلها صعوبات المجتمع ولا الأسرة. خرج بدرو أورثى من السيارة، ما إن رآه الكلب يقترب حتى وقف، وهناك فى منطقة الظل الخفيف، بقيا يتحدثان معاً، ربما هذا ما يمكننا قوله فقط؛ لأننا نعرف أن هذا الكلب غير قادر ولا حتى على النباح، ما إن انتهى الحوار، حتى عاد بدرو أورثى إلى السيارة وقال، "أعتقد أنه على جوانا أن تذهب إلى البيت، وسيبقى الكلب معنا، عليكم أن تقرروا أين يمكننا أن ننام، ولنتفق على المكان الذى سنلتقي فيه غداً صباحاً. لم يشك أحد في صدقه، فتح جواكيم زازا الخارطة وخلال ثلاث ثوان قرروا أن يبقوا فى

مونتي-أو-فيليو، في بنسيون متواضع، وسأل جواكيم زازا، "وإذا لم تكن هناك بنسيونات"، قال جوزيه أنايسو، "تذهب إلى فيجييرا، وإن كنت أعتقد أنه من الأفضل أن نذهب إلى فيجييرا لننام وغداً صباحاً أنتِ تأتين في الأتوبيس العام وننتظرك أمام باب الكازينو، في الجراج"، مفهوم أن تلك التعليمات موجهة إلى جوانا كاردا، التي تلقتها دون أن تشك في موقف من أصدرها إليها. قالت جوانا كاردا، "مع السلامة، إلى اللقاء في الصباح"، وفي آخر لحظة، وعندما كانت قدمها على الأرض، عادت مرة أخرى وقبلت جوزيه أنايسو في شفتيه، هذا ما أقوله، هكذا بلا مواربة، ولم تكن قبلة على الخد أو فرقعة من بعيد، كانت القبلتان فرقعتين، الأولى بالسرعة والثانية بالتلاحم، لكن هذه الأخيرة تركت انطباعاً مستديماً، وهو أمر لا يحدث إلا إذا كان لقاء الشفاه لذيذاً جداً، عندها ستستمر. ماذا سيقول الأقارب في إيرا لو عرفوا ما حدث الآن هنا، "أنتِ امرأة غير حكيمة، كنا نعتقد أن المذنب الوحيد هو زوجك، يا لصبره عليك، رجل تكادين لا تعرفينه سوى بالأمس فقط، وتقبلينه الآن، كان يجب أن تتركيه هو ليأخذ المبادأة، وهو ما يجب أن تفعله المرأة، لأنه في النهاية، تكون طريقة محترمة، إضافة إلى إنك قلت إنكِ ذاهبة وستعودين في اليوم نفسه، لقد قضيتِ الليل في لشبونة، خارج البيت، وهذا ليس شيئاً مقبولاً، لا، إن ما فعلتيه مشين، لكن ابنة العم ما إن نام الجميع حتى تركت السرير

واقتربت من جوانا لتسألها عن الأحوال، وهي تقول إنها لا تستطيع أن تعرف بالضبط، إنها الحقيقة، تتساءل جوانا كاردا، "لم فعلتُ أنا هذا؟" فيما كانت تبتعد في الضوء الخفيض تحت ظلال الأشجار، ويداها خاليتان، فتمكنت من رفعها إلى شفتيها، كمن يحافظ على الروح، لقد بقيت الحقيبة في السيارة، وعلامة على مكان باقي الحقائب تركت عصا الدردار محروسة جيداً، تحت حراسة ثلاثة رجال وكلب، ذاك المدعو بدرو أورثي، دخل السيارة وأراح جسده في المكان الذي كانت تحتله جوانا كاردا، عندما كانوا جميعاً ينامون في فيجيرا دافوز، كانت لا تزال المرأتان تتحادثان في أحد بيوت إيرا، تحت ستر الليل. قالت ابنة العم، "أدفع عمري لأذهب معك، فأنا متزوجة من زوج سيئ".

جاء اليوم التالي معبقاً، لا يمكن الثقة في الطقس، عصر الأمس كان يبدو انعكاساً للجنة، نظيفاً ورقيقاً، والأشجار تهز أفرعها برقة، والأرض ناعمة كجلد السماء، لا أحد يمكنه القول إن النهر نفسه كان تحت السحاب المنخفض، إنه البحر في شكله الرغوي، لكن الشيوخ يهزون أكتافهم، ويقولون، "اليوم الأول من أغسطس، هو اليوم الأول من الشتاء"، من حسن الحظ أن هذا اليوم جاء متأخراً ما يقرب من الشهر، وصلت جوانا كاردا متأخرة، لكن جوزيه أنايسو كان في انتظارها في السيارة، حدث هذا لأن الرجلين الآخرين حاولا أن يتركا المجال للعاشقين بالانفراد والحديث

قبل أن يبدءوا جميعاً في رحلتهم، في أي اتجاه لا أحد يعرف حتى الآن. أمضى الكلب الليلة تحت غطاء السيارة، ولكنه يتنزه الآن على الشاطئ برفقة بدرو أورثي وجواكيم زازا، محتكاً برأسه في ساق الإسباني، ويبدو واضحاً أنه يفضل رفقته عن أي شيء آخر.

في الجراج، لم تكن ذات الحصانين شيئاً ظاهراً، بين السيارات الأخرى الأكبر حجماً، هذه واحدة، بخلاف ذلك، كما شرحنا من قبل، كان الصباح فظاً، لا أحد كان يتسكع هنا، وهذه الثانية، إذاً ليس هناك ما هو أكثر طبيعية في أن يتعانق جوانا كاردا وجوزيه أنايسو كما لو كانا منفصلين من سنة، تعانقا طويلاً وبشوق كبير، لم تكن ومضة واحدة بل أكثر، وقليل من الكلام؛ لأنه من الصعب الكلام أثناء التقبيل، ولكن أخيراً، وبعد بضع دقائق، تمكنا من التفاهم، قال جوزيه أنايسو بصدق، "أنا معجب بك وأعتقد أنني أحبك"، "وأنت أيضاً تعجبني، وأنا أعتقد أننى أحبك، ولهذا قبلتك بالأمس، لا، لا ليس الأمر كذلك تماماً، ما كان لي أن أقبلك لو لم أشعر بأنى أحبك، لكني أستطيع أن أحبك أكثر"، "أنتِ لا تعرفين عنى شيئاً"، "إذا كان علينا أن نتعرف قبل أن نحب فالحياة كلها لا تكفى لذلك"، "هل تشكين في أن يستطيع شخصان أن يعرف كل منهما الآخر"، "وأنت، هل تعتقد أن هذا ممكن"، "أنا من طرح السؤال"، "قل لى أولاً ما معنى كلمة يعرف"، "ليس معى قاموس"، "ولو كان لديك فلن تعرف منه سوى ما كنت تعرفه من قبل"، "إن القواميس

لا تقول سوى ما يمكن أن يكون مفيداً للجميع"، "إنني أكرر سؤالي، ما معنى كلمة تعرف؟"، "لا أعرف"، "ومع ذلك يمكنك أن تحب"، "يمكنني أن أحبك"، "دون أن تعرفني"، يمكن القول بنعم"، "هذا الاسم أنايسو من أين جاءك؟"، "كان أحد أجدادي يدعي أيناسيو، لكنهم غيروا اسمه في القرية إلى أنايسو، ومع مرور الزمن انتهى الأمر بأن أصبح لقب العائلة، وأنتِ؟، لماذا اسمك كاردا؟"، "كان لقب أسرتي في القديم هو كاردو، لكن إحدى جداتي ترملت ووجدت نفسها مسئولة عن العائلة بعد رحيل زوجها، وبدأ الجميع يطلقون عليها كاردا، كانت تستحق لقبها الشخصي كامرأة"، "كنت أعتقد أن لقبك جاء من كاردا دي بريجو"، "ربما يكون ذلك صحيحاً حالياً، وربما يكون شيئاً آخر، ذهبت ذات مرة لأبحث في القاموس عن لقبي فوجدت أن كلمة كاردا تعني أيضاً أداة لتقطيع اللحم، يا للشهداء البؤساء، لقد أحرقوهم وقطعوا رءوسهم ومزقوا لحمهم"، "هل هذا ما ينتظرني؟"، "لو استعرت لقب كاردو فلن تكسب شيئاً في التبديل"، "هل أنتِ دائماً هكذا تمارسين الطعن"، "لا، لا هذا لا ينطبق على اللقب الذي أحمله"، "من تكونين إذاً؟" "أنا"، ومد جوزيه أنايسو يده ولمس وجهها وهمس، "أنتِ"، وقامت هي بفعل الشيء نفسه، وكررت بصوت خفيض، "أنت"، وامتلأت عيناها بالدموع؛ ربما لأن حياتها الحزينة الماضية كانت لا تزال تؤلمها، وهي راغبة الآن في التعرف على حياته، "هل أنت متزوج، لديك أطفال،

ماذا تعمل؟"، "كنتُ متزوجاً، وليس لدي أطفال وأعمل مُعلماً". تنفست بعمق، ربما كانت تلك تنهيدة ارتياح، لأنها قالت مبتسمة، "من الأفضل أن نبحث عن هؤلاء المساكين إنهم يموتون برداً"، قال جوزيه أنايسو، "عندما تحدثت مع جواكيم زازا عن أول لقاء لنا وأراد أن أخبره عن لون عينيك لم أستطع، وقلت له إنها لون سماء جديدة، ثم قلت له إنها عيون لا أعرف بالضبط، واحتفظ هو بالتعبير ولم يعد يسميك إلا هكذا"، "كيف؟"، "السيدة ذات العيون التى لا أعرف بالضبط، وإن كان لا يجازف بقول ذلك في حضورك"، "إنني أحب هذا الاسم"، "وأنا أحبك أنتِ، والآن علينا أن ننادي عليهما".

ذراع يشير، وآخر يجيبه من بعيد، يأتي بدرو أورثي وجواكيم زازا على الرمال ببطء، فيما الكلب الضخم اللطيف يسير بين الاثنين. قال جواكيم زازا، "الطريقة التي يهز بها الذراع، تؤكد أن لقاءهما كان مفيداً"، أى مستمع لهذه الكلمات وله خبرة بالحياة يمكنه أن يعرف معناها، من نغمة تلك الكلمات، يتبين أن إحداها تشى بالغيرة، والأخرى تعكس أحاسيس نبيلة، متخفية بالحسد، أو الغطرسة، لمن يفضل تعبيراً أكثر هدوءاً. سأل بدرو أورثي، "يبدو أن الفتاة تعجبك؟"، مفكراً، "لا، ليس هذا، أو ربما يمكن أن يكون الأمر كذلك، لكن مشكلتي أنني لا أعرف من أحب ولا ماذا أفعل لأواصل هذا الحب؟". بعد هذا التصريح السلبى جداً، لم يعرف بدرو أورثي بماذا

يجيب. دخلوا السيارة، ألقوا تحية الصباح، وأعربوا عن السعادة باللقاء، وأهلاً بالرحلة، والى أين ستأخذنا هذه المغامرة، وجُملاً محفوظة ومرحة، الأخيرة منها كانت خاطئة، كان من الأفضل أن تكون هكذا، "إلى أين سيأخذنا هذا الكلب؟"، أدار جوزيه أنايسو المحرك، وبما أنه كان على عجلة القيادة فعليه أن يواصل الطريق، ناور للخروج من الجراج، من هنا أولاً، ودورة إلى اليمين، ودورة إلى اليسار، خلال تلك اللحظات كان يحاول أن يعطي الكلب وقتاً للدوران حول نفسه، فيما كان يبدو الكلب ميكانيكياً، وبعدها اتجه شمالاً، والخيط الأزرق معلق في فمه.

كان هذا اليوم هو اليوم الشهير الذي أصبحت فيه أوروبا بعيدة جداً، فقد قاربت المسافة التي تفصلها عن شبه الجزيرة حوالي المائتي كيلومتر، طبقًا لآخر القياسات المعلنة. فى هذا اليوم رأت أوروبا أنها اهتزت من أساساتها وحتى سقفها بتشنج له طبيعة نفسية واجتماعية، هدد هويتها المنكرة جذرياً، هدد جذورها الذاتية، وجنسياتها، والتي تشكلت على مدى قرون بجهد كبير. الأوروبيون، منذ أول حكوماتهم وحتى شعوبهم العوام، سرعان ما اعتادوا على هذه الحال، وحتى يُشتبه في وجود شعور خفى بالراحة، رغم نقص أراضى الطرف الغربي، فإذا كانت الخرائط الجديدة، التي تم تداولها بسرعة لتحديث ثقافة الشعوب، لها تأثير بصري مزعج، فإن لهذا التأثير أسبابه الجمالية، وذلك الشعور بعدم الرضا

الذي تسبب فيه من قبل، والذي لا يزال يؤثر فينا نحن حتى الآن، كان فقدان أذرع فينوس دي ميلو، مؤكد أن هذا هو اسم الجزيرة التي عثروا فيها عليه. هكذا إن ميلو لم يكن اسم النحات، لا يا سيدي، ميلو هي الجزيرة التي أُكتشفت فيه المسكينة، ونبعت من الأعماق مثل لاثارو، ولكن لم تكن هناك معجزة تعيد إليها ذراعيها من جديد.

بتواصل القرون، هذا لو كانت تتواصل، فإن أوروبا لن تتذكر اليوم الذى انت فيه كبيرة الحجم ولها تداخلات مع أعماق البحر، تماماً كما لا نستطيع نحن أن نتخيل أن فينوس بدون ذراعين. بالطبع لا يمكن تجاهل الآثار المدمرة التي ستصيب البحر المتوسط في المستقبل، نتيجة المد العالى، والمدن الساحلية التي دُمرت جوانبها القريبة من البحر، والفنادق التي كانت تمتد سلالمها حتى الشاطئ، لم يعد لها شواطئ ولا حتى سلالم، وفينيسيا، فينيسيا تحولت إلى بحيرة راكدة، إنها قرية عائمة مهددة بالغرق، لقد انتهت السياحة الجميلة، يا أولادى، لكن، لو عمل الهولنديون بسرعة، في أشهر قليلة فإن مدينة الداجو، مقر طيور إيطاليا، يمكنها أن تعود إلى فتح أبوابها مجدداً للجمهور المتشوق، وبمظهر أفضل، ودون أن يخيم عليها خطر الغرق؛ وذلك لأن أنظمة التوازن المائي المستطرقة، والجسور، والبوابات، وصمامات الملء والتفريغ، ستحافظ على مستوى دائم من المياه، والآن أصبح على الإيطاليين مسئولية تقوية أساسات المدينة

الغاطسة حتى لا تغرق في الوحل، الخطوة الصعبة، اسمح لي أن أقول، جرى تنفيذها، وعلينا أن نشكر أحفاد ذلك الفتى البطل، الذي تمكن فقط بأنامل أصبعه أن ينقذ مدينة هارلم من المحو عن الخارطة غرقاً في الوحل.

بحل مشكلة فينيسيا، فإن بقية مشاكل البحر المتوسط ستجد حلاً. كم من الحروب والأوبئة مرت من هنا، والزلازل والحرائق، ودائماً ما تُولد تلك الأرض من رمادها وترابها وتحوّل العذاب المرّ إلى حياة ممتعة، من الحضارات البربرية إلى ملاعب الجولف والحمّام، واليخت والسيارة المكشوفة على رصيف الميناء، إن الإنسان هو الكائن الأكثر قدرة على التكيف، خاصة إذا كان متجهاً نحو الأفضل. ولو أنه غير مثير الاعتراف به، فإن بعض الأوروبيين، سعدوا برؤيتهم لبعض الشعوب الأوروبية الأخرى مبحرة في أعماق المحيط دون وجهة معينة، إلى حيث ما كان يجب أن يأتوا أبداً، ويخلق هذا راحة لهم، أخيراً بدأنا نعرف ما هي أوروبا، وإن كنا نعرف أن بها أجزاء سيأتي يوم تغادرها بشكل أو بآخر. ونراهن على أننا في مستقبل قريب سنصبح بلداً واحداً، يحمل خلاصة الروح الأوروبية، تلخيصاً، أوروبا تعني سويسرا.

لكن، إذا وُجد مثل هؤلاء الأوروبيين، هناك أيضاً يوجد من أولئك، العنصر القلق، خميرة إبليس، التي ليس من السهل اختفاؤها، مهما كان تعب التنبؤ بذلك،

هذا العنصر الذي يتبع القطار بعينيه وهو يمر ويمتلئ حزناً على الرحلة التي لن يقوم بها أبداً، العنصر الذي لا يحتمل رؤية عصفور في السماء دون أن يحلم بالطيران، هو الذي ما إن تختفي السفينة في الأفق، حتى يخرج من النفس شهقة ارتياح، متذكراً المعشوقة التي كانت بالقرب، والتى لا يعرفها إلا بوجودها في البعيد. كان هؤلاء الأشخاص الذين لا يقبلون بالأمر الواقع وتجرءوا على كتابة تلك الكلمات المشينة، علامة على حكم ظاهر، "كلنا أيبيريون"، كتبها على ركن من الحائط، بخوف، كما لو كان لا يستطيع التعبير عن رغبته، ولا يستطيع إخفاءها. وكما حدث، يمكن قراءتها، باللغة الفرنسية، فيمكن الاعتقاد أنه من فرنسا، لكن هذه مسألة قابلة للنقاش، أمكن أن يكون من بلجيكا أو من لوكسمبورج. وانتشر هذا الشعار الأولي، وسرعان ما ظهر على واجهات البنايات الكبرى، وعلى مداخلها، وعلى أسفلت الشوارع، وممرات المترو، وعلى الجسور والممرات المائية، واحتج الأوروبيون الأوفياء المحافظون، "هؤلاء الفوضيون مجانين"، ودائماً ما يحدث هذا، وتحميل المسئولية للفوضوية.

لكن الشعار عبرَ الحدود، وبعد أن عبرها، أمكن التأكد من أنه ظهر أيضاً في بلاد أخرى، بالألمانية، والإنجليزية، وفى الإيطالية، وفجأة تحوّل إلى خيط من البارود يشتعل في كل الأماكن بأحرف حمراء، وسوداء، وزرقاء، وخضراء، وصفراء، وبنفسجية، نار لا

يبدو أنه من الممكن إطفاؤها، وباللغتين الهولندية والفلامنكو، وبالسويدية، والفنلندية، والدنمركية، والإغريقية، وظهرت أيضاً، وإن كان بشكل خجول، بالبولندية، والبلغارية، والروسية، والرومانية، والسلوفاكية. لكن القمة أو الظاهر، والنهائي، بكلمة لن نستطيع أن نستعيدها، وحدث هذا على جدران الفاتيكان وأعمدة الكنيسة، وعلى أرضيات ميدان سان ميجيل، وعلى القبة، وبأحرف زرقاء ضخمة على أرضية ميدان القديس بطرس ظهرت الكلمة باللغة اللاتينية، كما لو كانت حكماً إلهياً، واستعادة للحب من جديد، فيما البابا، كان في نافذة إقامته يبارك الدهشة الخالصة، وبرسم الصليب في الهواء، بلا فائدة، ولم يكن من السهل محوها؛ لأن تلك الأحرف مكتوبة بألوان ثابتة، ولا يكفي حتى عشر مدارس لاهوتية كاملة للعمل على محوها، مسلحين بالفرش، والصنفرة، والحجر الكاشط، وبمساعدة مواد الإذابة، لا يزال أمامهم عمل حتى انعقاد المجلس الكنائسي القادم.

ما بين ليلة وضحاها وجدت أوروبا نفسها مغطاة بهذه الشعارات. والتي لم تكن فى البداية سوى نوع من التفريغ النفسى لحالم، انتشرت حتى تحولت إلى صرخة، احتجاج، مظاهرة في الشوارع. تمت مواجهة هذه الظاهرة فى بداياتها بلا مبالاة، ولكن تعبيراتها والهدف منها سرعان ما أقلقا السلطات في مواجهة عملية لا يمكن اعتبارها هذه المرة مجرد مناورة من

الخارج، حتى في حالة وجود هذه المناورة في الخارج أيضاً، وهذا الوضع وفر على الأقل عملية البحث والتقصي فى أي خارج يمكن أن يكون، وإن كان محدداً بشكل خاص. بدأت تنتشر عادة تعليق ملصقات على ياقات الملابس، أو أكثر حرية، بتعليقها في الأمام والخلف، والسيقان، وفى كل أجزاء الجسد وبكل تلك اللغات، وأيضاً باللهجات المحلية، ومختلف اللكنات، وأخيراً بلغة الإسبرانتو، وإن كانت هذه من الصعب فهمها. لمواجهة هذه النيران قررت الحكومات الأوروبية اتخاذ المبادأة بتنظيم حلقات نقاش وموائد مستديرة في التليفزيون، وبمشاركة رئيسية للأشخاص الذين هربوا من شبه الجزيرة بعد حدوث الانفصال وبدا أنه نهائي، وليس أولئك الذين كانوا هناك كسواح، هؤلاء المساكين، الذين لايزالون تحت تأثير الصدمة، بل من الاصطلاء تماماً، الذين رغم ارتباطاتهم التراثية والثقافية وممتلكاتهم والسلطة، أداروا ظهورهم لهذا التحول الجغرافي واختاروا الثبات الفيزيقي للقارة. قام هؤلاء الأشخاص برسم الصورة السوداء للواقع الأيبيري، ونصحوا بكثير من العطف ومعرفة الوضع، نصحوا الثائرين بألا يعرضوا الهوية الأوروبية للخطر، وانتهوا إلى نتيجة من خلال تداخلاتهم في الحوار بجملة نهائية، وأعينهم في مواجهة أعين المشاهدين، وبطريقة صريحة جداً، "افعلوا مثلي، واختاروا أوروبا".

لم تكن النتيجة حاسمة، عدا في المظاهرات ضد التمييز الذي تعرض له المؤيدون لشبه الجزيرة، الذين

بالنسبة لهم لو لم تكن شعارات الديمقراطية التعددية سوى كلمات جوفاء، ما كانوا قد سمحوا لهم بالظهور في التليفزيون للتعبير عن وجهة نظرهم، هذا إذا كانت لهم وجهة نظر. الاحتياط مفهوم، لأن الأسباب التي تعرضوا لها في الحوار تشكل رأياً بين الشباب، لأنهم هم من قاموا بتلك الأعمال الأكثر قوة، لأنه كان يمكنهم أن يقدموا المزيد من الحجج المقنعة لاحتجاجاتهم، سواء فى المدرسة كما في الشارع، وفي الأسرة، وهو ما لا يجب أن ننساه. يمكن طرح المناقشة حول ما لو لم يكن الشباب لديهم مبرراتهم هل كان يمكنهم التخلي عن احتجاجاتهم، ولو تحت تأثير سكون الذكاء، بعكس ما كان خلال قرون من قناعات. يمكن مناقشة ذلك، لكنه أمر لا يستحق، لأنه خلال ذلك جرى قذف الحجارة على مبنى التليفزيون، وسرقة المحال التي تبيع أجهزة التليفزيون رغم صرخات الباعة في تلك المحال، "ما ذنبي أنا؟"، لكن البراءة النسبية لم تفلح في إيقافهم، كانت اللمبات تنفجر، وتمزقت الكراتين في الشوارع، وأُحرقت، وتحولت إلى رماد. جاء البوليس، هجم، فتفرق المتظاهرون وخلال تلك اللعبة مرت ثمانية أيام، وحتى ذلك اليوم الذي نحن فيه، عندما خرج هؤلاء من فيجيرا دافوز، خلف الكلب، ثلاثة رجال وامرأة، أحدهم، لم يكن قد كان بعد، أو رغم أنه لم يكن هو إلا أنه كان، ومن كانت له تجارب في الحب والهجر قد يفهم هذا الكلام المبهم. بينما كان يسافر هؤلاء شمالاً،

قال جواكيم زازا، "لو مررنا عبر بورتو سنبقى جميعاً في البيت"، مئات وملايين من الشباب في كل القارات خرجوا إلى الشارع في الساعة نفسها، لم يكونوا مسلحين بالحجج بل بالعصى وجنازير الدراجات، والمطاوى، والقبضات الحديدية، والرماح، والمقصّات، كما لو جنُّوا من الغضب، وأيضاً من الإحباط والألم، ويصرخون، "نحن أيضا أيبيريون"، بنفس الإحباط الذي دفع بالتجار إلى البكاء، "ما ذنبنا نحن؟".

بعد أن تهدأ النفوس، خلال أيام أو أسابيع، سيأتي الأطباء النفسيون وخبراء علم الاجتماع ليؤكدوا، أنه في الأساس، فإن هؤلاء الشباب لم يكونوا أيبيريين بالفعل، ولكن ما فعلوه، هو تحقيقاً للحلم المستحيل؛ ليعيشوا حياتهم، التي تبدأ فى طور الشباب من تهور وعنف، لأنهم لم يستطيعوا التعبير بشكل آخر. فيما شاركوا فى معارك في الشوارع والميادين هذا إذا لم نذكر بشكل متقن، فإن عدد الجرحى الذين يعدون بالمئات، إضافة إلى ثلاثة أو أربعة قتلى، رغم أن السلطات حاولت إخفاء هذه الأحداث المؤسفة بإذاعة الأنباء الغامضة والمتضاربة، لم تعرف أمهات أغسطس أبداً كم عدد الأبناء المختفين، لسبب بسيط أنهن لم تفلحن أبداً في تنظيم أنفسهن، دائماً ما كانت هناك من تبقين خارج الإجماع، مشغولات بالبكاء حزناً، أو لحماية الابن الذي تبقى لهن، أو تحت أب الابن المختفى لإنجاب ابن آخر، لهذا فإن الأمهات يخسرن دائماً. قنابل مسيّلة للدموع، وسيارات إطفاء

بخراطيم، هراوات، دروع وخوذات، أحجار منتزعة من أرضية الطريق، وحواجز، ورماح من أسوار الحدائق، كانت تلك بعض الأسلحة المستخدمة من طرف أو آخر، كانت هناك أشياء جديدة، لها آثار مقنعة لكنها أكثر إيلاماً، تمت تجربتها هنا من جانب مختلف فرق البوليس، فالحروب كالكوارث، لا تأتي وحدها أبداً، أولها للتجريب، وثانيها للإتقان، وثالثها ما يمكن استخدامه بشكل نهائي، ولكل منها نتيجته طبقاً لمن يقولها، ثالثاً وثانياً وأولاً. بالنسبة لقصيري الذاكرة والذكريات فقد بقيت آخر الجمل التي أطلقها ذلك النابه الهولندي، الذي أصيب بطلقة مطاطية، نتيجة خطأ في الصناعة جاءت أكثر قوة من الطلقة المصنوعة من الصلب، وحتى لا يسيطر الحدث على الحكاية خلال قراءتها فإن كل بلد يقسم إن هذا الفتى كان ابنها، فيما الطلقة، لا تزال تبحث عن صاحب لها، ولم تكن الجملة مهمة فقط بهدفها الموضوعي، بل لجمالها، ورومانتيكيتها، وشبابها المدهش، أما بالنسبة للبلاد سواء رغبت في ذلك أم لا، خاصة إذا تعلق الأمر بقضايا خاسرة، مثل هذه. "وأخيراً، أنا أيبيري"، وبما أنه قال ذلك، فقد انتهى. هذا الفتى كان يعرف ما يريد، أو يعتقد أنه يعرف، ماذا يريد، لأنه لم تكن هناك قضية أفضل، تحتل هذه مكان تلك، لم يكن مثل جواكيم زازا، الذي لا يعرف من يحب، إلا أنه لا يزال حياً، ريثما تحين الفرصة، لو أنه كان يقظاً لانتهازها.

الصباح أضحى مساء، والمساء يصير ليلاً، في هذا الطريق الطويل المحاذي للبحر يجري الكلب

لاثاريو بخطواته الواثقة، ليس كلب صيد، وبعيداً عن أن يكون كذلك، حتى ذات الحصانين، رغم أنها منهكة القوى إلا أنها تستطيع أن تسير أسرع بكثير كما أثبتت في الأيام الأخيرة، أبدى جواكيم زازا الذي كان يقود قلقه، "بهذه السرعة لن نحقق شيئاً، لو حدث عطل ميكانيكي إضافة إلى الإرهاق حينها كان الله في عوننا"، والراديو، ببطارياته الجديدة، أعلن نبأ الأحداث الأوروبية الفاجعة، والتي تقول إن هناك ضغوطاً على الحكومتين البرتغالية والإسبانية لوضع حد لذلك الوضع، كما لو كان فى أيديهما القدرة على القيام بمثل هذا التمرد، وكما لو كان التحكم فى شبه جزيرة تسير حسب التيار تماماً كقيادة سيارة ذات حصانين. رفضت الحكومتان هذه الاحتجاجات بإباء، بكبرياء ذكورية من جانب الإسبان، وبرقة أنثوية من جانب البرتغاليين، دون إطراء جنس عن آخر، وأعلنا أن رؤساء وزراء الحكومتين سيلقيان خطاباً ليلاً، كل من بلاده، وبالطبع في وقت متفق عليه سلفاً، أحدث موقف البيت الأبيض المتعقل ارتباكاً، الذي عادة ما ينتهز الفرصة للتدخل في شئون العالم عندما يرى له مصلحة في ذلك. كما يؤكد البعض، فإن الأمريكيين ليسوا مستعدين للتورط قبل أن يعرفوا إلى أين سينتهي كل هذا، حرفياً. ومع ذلك، وصل الوقود من الولايات المتحدة، صحيح أنه حدث بطريقة غير منتظمة، لكن يجب أن نكون ممتنين لهم لأننا ما زلنا نجد البنزين في المناطق النائية، محطة بها وأخرى لا،

لو لم يكن الأمريكيون، وفي ظل إصرار مسافرينا على تتبع الكلب، لاضطروا إلى السير على الأقدام.

عندما توقفوا لتناول الغداء، ظل الحيوان خارج المطعم، دون احتجاج، فقد فهم أن رفاقه الآدميين بحاجة إلى الطعام. بعد انتهاء الطعام خرج بدرو أورثي قبل الآخرين، كان يحمل بقايا الطعام، لكن الكلب لم يرغب في الأكل، وسرعان ما اتضح السبب، كانت هناك علامات من الدم الرطب في شعره وحول فمه، قال جوزيه أنايسو، "كان يصطاد"، لاحظت جوانا كاردا، "لكنه لا يزال يحتفظ بالخيط الأزرق"، قال جواكيم زازا، "إن هذا الفعل كان أكثر فرادة من الآخر، لأن كلبنا، لو كان هو الذي نعتقد أنه هو، مضى عليه أسبوعان في هذه الحياة الطليقة، وإذا كان قد عبر شبه الجزيرة على قدميه، من جبال البرانس إلى هنا، ويعلم الله إلى أين أكثر من ذلك، ما كان يعثر على من يملأ طبقه أو يلهيه بعظمة. أما بالنسبة للخيط الأزرق، ربما كان يتركه على الأرض ثم يعود إلى التقاطه، كصياد يحبس أنفاسه عندما يطلق النار، وبعدها يعود إلى التنفس من جديد، بشكل طبيعي". أهلاً بكم في النهاية، "أيها الكلب الجميل، إذا كنت قادراً على حراستنا كما تعتني بنفسك، نعلن طاعتنا الكاملة لك". حرك الكلب رأسه، حركة تعلمنا ترجمتها، هبط بعدها إلى الطريق وبدأ في السير من جديد، دون أن ينظر إلى الخلف. المساء كان أفضل من الصباح، الشمس ساطعة، وهذا الكلب الشيطان، أو

هذا الشيطان الكلب، عاد إلى قفزاته التي لا تكل، الرأس منخفضة، والفم ممدود إلى الإمام والذيل بامتداد الجسد، الشعر أشقر غامق، سأل جوزيه أنايسو،"ترى إلى أي نوع ينتمي هذا الكلب؟"، أجاب بدرو أورثي، "لولا الذيل يمكن أن يكون نتاج تزاوج ما بين كلب صيد وكلب رعي"، أسرع قليلاً، لاحظ ذلك جواكيم زازا، بسعادة، وجوانا كاردا، ربما حتى لا تظل صامتة، قالت، "ترى أي اسم وضعتموه له، فاليوم أو غداً سيتم طرح مشكلة اختيار الاسم".



## -١٢-

تحدث رئيس الوزراء البرتغالى، فقال، "أيها البرتغاليون، خلال الأيام الأخيرة، وبشكل مكثف خلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، تحولت بلادنا إلى هدف لضغوط يمكننى أن أصفها بلا مواربة بأنها غير مقبولة، مارستها ضدنا كل الحكومات الأوروبية تقريباً، خاصة تلك التى شهدت اضطراباً خطيراً فى الأمن العام، ونحن لا نتحمل أية مسئولية عنها على الإطلاق، فالمظاهرات التى احتلت الشوارع خرجت للتعبير عن تضامنها مع بلدان وشعوب شبه الجزيرة، وهو ما يكشف عن التناقض الخطير، الذى تتخبط فيه حكومات أوروبا، التى لم نعد ننتمى إليها، وفى مواجهة الحركات الاجتماعية والثقافية لتلك البلاد، التى ترى فى المغامرة التاريخية التى وجدنا أنفسنا فيها، وعداً بمستقبل أكثر سعادة. ولتلخيص الموقف فى كلمات قليلة، إن تلك الجماهير ترى الأمل فى

إعادة الشباب للإنسانية، إن هذه الحكومات بدلاً من مساندتنا طبقاً لأبسط قواعد حقوق الإنسان، وبدلاً من أن تعبر عن الضمير الثقافى الأوروبى الحقيقى، فضلت أن تحوّلنا إلى كبش فداء للصعوبات الداخلية التى تواجهها، ووجهت إلينا إنذاراً غريباً تطالبنا فيه بوقف انجراف شبه الجزيرة، مع أنه كان يجب الحديث عن الإبحار وليس الانجراف، وذلك التزاماً بالدقة فى ذكر الحقائق واستخدام المصطلحات. وما يجعل هذا الموقف أكثر إيلاماً ومدعاة للحزن أننا نبتعد عما يسمى حالياً بالسواحل الغربية لأوروبا مسافة سبعمائة وخمسين متراً فى كل ساعة، وها هى حكومات أوروبا، التى لم تؤكد أبداً فى الماضى أنها تريدنا فعلاً، تُصدر لنا أمراً بأن نقوم بشىء هو فى الحقيقة لا يريدونه، إضافة إلى أنه أمر غير قابل للتحقيق، فهم يعرفون ذلك، فإذا كانت أوروبا مكاناً للتاريخ والثقافة، بكل تأكيد فإنها خلال الأيام الصعبة هذه أثبتت تخلفاً فى حسن التصرف والرأى السديد، ويقع علينا نحن، أن نحافظ على هدوء وأمن الأقوياء العادلين، ونحن كحكومة شرعية دستورية، نرفض هذه الضغوط بشدة وأية تدخلات من أى نوع أياً كان مصدرها، معلنين أمام العالم أن المصلحة العليا للبلاد هى مرشدنا، وبشكل عام، مصلحة شعوب وبلدان شبه الجزيرة، وإننى أؤكد ذلك بكل ثقة ورسمياً. نظراً إلى إننا عملنا معاً على مستوى حكومتى البرتغال وإسبانيا، وسنستمر فى العمل معاً لدراسة واختيار

التدابير الواجب اتخاذها وصولاً إلى نهاية سعيدة للأحداث التى تسبب فيها صدع جبال البرانس التاريخى، وهناك كلمة شكر واجبة نوجهها إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى مكنتنا من المحافظة على مستوى معقول من التزود بالوقود والمواد الغذائية التى كانت توفرها أوروبا من قبل، فى إطار علاقات الوحدة الأوروبية، إن مثل هذه القضايا بالطبع كانت ستتم معالجتها فى ظروف طبيعية وعبر القنوات الدبلوماسية المختصة، لكن فى ظل موقف بمثل هذه الخطورة، رأت الحكومة التى أتولى رئاستها ضرورة أن يعلم الشعب كله بما يجرى وبشكل مباشر، معبرة عن ثقتها فى كرامة البرتغاليين الذى سيعرفون كيف يتراصون صفًا واحدًا كما فعلوا فى مناسبات تاريخية أخرى عديدة، خلف ممثليهم الشرعيين، وحول رمز الوطن المقدس، وهم يقدمون فى لحظة شديدة الصعوبة والحرج تاريخياً صورة شعب متحدٍ ومصممٍ، عاشت البرتغال".

سمع المسافرون الخطاب عندما كانوا يقتربون من بورتو، دخلوا مقهى يقدم أيضاً أطعمة سريعة، وبقوا هناك لبعض الوقت يشاهدون فى التليفزيون صوراً للمظاهرات الكبرى ومواجهة البوليس لها، يقشعر البدن لرؤية هؤلاء الشباب الأنقياء رافعين اللافتات والأعلام المكتوب عليها بلغة كل بلد، تلك الجملة الشهيرة. سأل بدرو أورثى، "لماذا، يهتمون بنا إلى هذا الحد؟"، وجوزيه أنايسو كان يكرر، أطروحة

رئيس الوزراء بشكل مباشر، دون أن ينتبه، ويقول، "إنهم منزعجون خوفاً على أنفسهم"، من المؤكد أنه ما كان يمكنه أن يعبر عن نفسه بأفضل من هذا. أنهوا طعامهم وخرجوا، التهم الكلب هذه المرة بقايا الطعام التى قدمها له بدرو أورثى، وتحركت ذات الحصانين، وإن كانت بطريقة أكثر بطئاً حتى أصبح المرشد يكاد لا يبين أمامها بشكل جيد، قال جواكيم زازا، "عند نهاية الجسر سنحاول إقناع الكلب ليدخل السيارة، نضعه فى الخلف، بين جوانا وجوزيه؛ لأنه لا يمكننا السير فى المدينة كما كنا نفعل حتى الآن، ومن المؤكد أنه لا يريد مواصلة الرحلة ليلاً".

كانت تكهناته حقيقية وتم تنفيذ رغبة جواكيم زازا، ما إن انتبه إلى ما يريدونه منه، حتى دخل الكلب، ببطء وتثاقل وانبطح على سيقان المسافرين فى المقعد الخلفى، أراح رأسه على ذراع جوانا كاردا، لكنه لم ينم، كانت عيناه مفتوحتين، تنزلق عليهما أضواء المدينة كانزلاقها على مسطح من الزجاج الأسود. قال جواكيم زازا، "سنبقى فى بيتى، عندى سرير كبير وكنبة سرير يمكنها أن تسع اثنين بشكل مريح نسبياً، شخص من الثلاثة"، بالطبع كان يشير إلى الرجال، "عليه أن ينام فى المقعد، حسناً، سأنام أنا، فأنا صاحب البيت، أو قد أذهب للنوم فى بنسيون موجود بالقرب من هناك". لم يجب الآخرون، وهى طريقة صامتة علامة على الموافقة، أو ربما يفضلون تقرير ذلك فيما بعد، بهدوء، المسألة الأصعب، بدأت تظهر

الآن على السطح، صعوبة، يبدو أن جواكيم زازا فعلها عمداً، فقط ليستمتع بها، وهو قادر على ذلك. لكن لم تكُن قد مضت دقيقتان حتى كانت جوانا كاردا تقول بصوت واضح، "نحن سننام معاً"، الحقيقة هى أن العالم سيضيع لو لم تأخذ النساء بزمام مبادرة من هذا النوع، فى زمن مضى كانت هناك قواعد، إذا عدنا دائماً إلى البداية، كانت هناك نظرات حارة ومثيرة دائماً من جانب الرجل، وإرخاء للجفون من جانب المرأة، ملقية بنظرة إغراء من خلف الرموش، وبعدها، وحتى أول احتكاك بين اليدين، فإن الأشياء تتحدث مع بعضها جيداً، وكانت هناك رسائل، ولحظات غضب سريعة، وتصالح، وإشارات بالمنديل، وسعال دبلوماسى، وبالطبع فإن النتيجة النهائية واحدة، الوصيفة راقدة فى السرير، وفوقها الرجل اللطيف، بزواج أو بدونه، لكن أبداً، أبداً لن تكون هذه النهاية، هذا عدم احترام أمام رجل مسن، ولا يزالون يقولون إن الأندلسيات تجرى فى عروقهن دماء ساخنة، خذوا هذا السؤال إلى بدرو أورثى، الموجود معنا هنا، لم تقلها واحدة من قبل أكثر وضوحاً، "نحن سننام معاً". "لكن الزمن تغير جداً، آه نعم نحن موجودون هنا"، لو أن جواكيم زازا أراد أن يسخر من مشاعر الآخرين، فإن الحوار جاءه جاداً، وربما كان بدرو أورثى قد سمع الحوار خطأ، فكلمة "معاً" لا تقول المعنى نفسه بالإسبانية كما فى البرتغالية، لم يفتح جوزيه أنايسو فمه، ماذا كان يمكنه أن يقول هو،

سيكون فى وضع سيئ لو وضع نفسه للعب دور الإغواء، وأسوأ لو أبدى رد فعل مستنكر، لذلك من الأفضل الصمت، ليس هناك حاجة إلى التفكير كثيراً لفهم أن جوانا كاردا أمكنها أن تقول كلمات مثيرة، لنتخيل مدى الوقاحة لو أنه نطقها هو دون أن يسألها أولاً، وحتى بهذه الطريقة، ولو كانت مجرد سؤال، فهناك مواقف تتخذها المرأة وحدها، بالطبع حسب الحالة واللحظة، هذا هو، اللحظة، تلك الثانية المحددة الموضوعة بين ثانيتين يتسببان فى وقوع الخطأ والكارثة. يدا جوانا كاردا وجوزيه أنايسو كانتا معاً على ظهر الكلب، شاهدهما جواكيم زازا بطرف عينيه عبر المرآة، كانا يبتسمان، وأخيراً انتهت اللعبة نهاية سعيدة، "هذه الجوانا لها شخصية قوية"، وشعر جواكيم زازا مجدداً بوخز الحسد، لكن الذنب، كما اعترف من قبل، ذنبه، لأنه لا يعرف من يمكنه أن يحب.

لم يكن البيت قصراً، به غرفة نوم صغيرة، داخلية، وصالة أصغر حيث توجد الكنبة سرير، ومطبخ، وحمّام، إنه بيت شخص أعزب، ورغم هذا فهو محظوظ، فليس عليه أن يبحث عن غرف للإيجار. كان مخزن الطعام خالياً، وإن كان الجوع قد أُشبع خلال التوقف الأخير. شاهدوا التليفزيون فى انتظار أخبار جديدة، لم تحدث حتى الآن ردود فعل فى وزارات الخارجية الأوروبية، مع ذلك، حتى لا يظهرون عدم اكتراثهم، ظهر فى نشرة الأخبار الأخيرة

رئيس الوزراء من جديد، وقال، "أيها البرتغاليون"، والباقى نعرفه أيضاً، وقبل أن يذهبوا إلى النوم عقدوا مجلس حرب، ليس بهدف اتخاذ قرارات، لأن تلك القرارات كانت فى يد الكلب الذى ينعس عند أقدام بدرو أورثى، ولكن ليعرض كل منهم وجهة نظره، قال جواكيم زازا، "ربما تكون نهاية الرحلة هنا"، آملاً فى ذلك، قال جوزيه أنايسو، فيما كان يفكر فى شىء آخر، "أو ربما فى الشمال"، وأضافت جوانا كاردا، التى كانت تفكر فى الأمر نفسه، "أعتقد أن نهايتها فى الشمال"، لكن بدرو أورثى من قال الكلمة النهائية، "هو يعرف"، بعدها تثاءب، وقال، "أنا فى حاجة للنوم".

الآن لم تعد هناك حاجة إلى التردد حول من سينام مع من؟ فتح جواكيم زازا الكنبة سرير بمساعدة بدرو أورثى، انسحبت جوانا كاردا بهدوء، فيما بقى جوزيه أنايسو بعض الوقت، فى حالة من البلادة، كما لو كان لا علاقة له بالمسألة، لكن ضربات قلبه كانت تنبض بقوة فى صدره منذرة، وكانت تتردد الضربات عند فم المعدة، تهز البيت من أساساته، وإن كانت هذه الاهتزازات لا تشبه الأخرى فى شىء، وأخيراً قال، "تصبحون على خير، إلى اللقاء صباحاً"، وانسحب. من الأفضل القول إن تلك الكلمات لم تكن أبداً على مستوى اللحظة. غرفة النوم فى الجانب نفسه، هناك نافذة عالية، بالقرب من السقف كطريقة لإطالة دخول ضوء النهار، وليس عليها ستارة، ومفهوم ما يحدث لو كان هناك قليل من الحياء، فالبيت يسكن فيه أعزب،

حتى لو كانت لدى جواكيم زازا مثل هذه الانحرافات، فهو لن يتلصص على نفسه، نقول إنه على أية حال قد يكون مثير جداً، بغض النظر عن الجانب التربوى، من أن نكون من وقت لآخر متلصصين على أنفسنا، ربما لا نحبه. من خلال ذكر هذا لا نريد أن نقول إن بدرو أورثى وجواكيم زازا يفكران فى ارتكاب بذاءات بهذه الخطورة، لكن تلك النافذة، تبدو الآن مجرد خيال نافذة، تكاد لا تُرى من الصالة المظلمة، لكنها مثيرة للتشوش، تُجمّد الدم، كما لو كان كل شىء هنا غرفة واحدة، قمرة سفينة، عنبر نوم، فيما كان جواكيم زازا راقداً على ظهره، لم يكن يريد أن يفكر، لكنه رفع رأسه عن المخدة ليخلق صمتاً ويمكنه أن يتنصت بشكل أفضل، فمه جاف، وقاوم ببطولة الرغبة فى النهوض والذهاب إلى المطبخ ليشرب كوب ماء، وفى الطريق يمكنه أن يتنصت على الهمهمات. أما بدرو أورثى، من جانبه، فقد نام على الفور من تأثير التعب، واتجه بوجهه باتجاه الخارج، وترك ذراعه يسقط على ظهر الكلب، الذى رقد هناك، اهتزازات الواحد منهما هى اهتزازات الآخر، وربما كان النوم أيضاً. لم تصل من غرفة النوم أية حركة، ولا حتى كلمة مبهمة، ولا حتى شهيق، أو أنة مكتومة، فكر جواكيم زازا، "يا له من صمت"، وبدا له غريباً، فلم يتخيل أبداً إلى أى حد يمكن أن يكون غريباً، ولن يعرف أو يتخيله أبداً، أن تلك الأشياء عادة ما تظل سراً لمن يمارسها، دخل جوزيه أنايسو فى جوانا كاردا واستقبلته هى، دون أية

حركة أخرى، كان قوياً هو، وناعمة هى، وظلا هكذا، الأصابع تضغط على الأصابع، والشفاه ملتصقة فى صمت، فيما الموجة العنيفة تهز منتصف الجسد، دون أية همهمة، وحتى آخر ذبذبة، وحتى الدفق الأخير، لنقولها هكذا، بلطف، حتى لا يتهمونا بالاستعراض أكثر من اللازم، فى وصف مشاهد جماع، كلمة رديئة من حسن الحظ تم نسيانها اليوم. غداً، عندما يستيقظ جواكيم زازا، سيفكر أن هذين الاثنين انتظرا بصبر، ليعلم الله المجهود الذى بذلاه، لأن الله يحب إعلاء الجسد، الانتظار حتى ينام الآخران، إنه مخطئ؛ ففى نفس اللحظة التى دخل فيها النوم، للمرة الثانية كانت جوانا كاردا تستقبل جوزيه أنايسو، والآن لن يكونا صامتين كما كانا من قبل، بعض الانتصارات قد لا تتكرر. قال أحدهما، "مؤكد أنهما نائمان الآن"، وهكذا تمكن الجسدان من إفراغ شهوتيهما، فقد كانا فى حاجة إلى ذلك.

كان بدرو أورثى أول من استيقظ، فقد لامس فمه المتعب أصبع الفجر الرمادى، حلم لحظتها أن امرأة تقبله، آه كم ناضل من أجل أن يظل الحلم ويستمر، لكن عينيه تفتحتا، وكانت شفتاه جافتين، ولم يترك أى فم علامة من اللعاب الحقيقى على شفتيه، الرطوبة الخصبة. رفع الكلب رأسه، لعق قدميه، ونظر بتركيز فى بدرو أورثى فى ظلام الصالة الثقيل، كان من المستحيل معرفة مصدر الضوء المنعكس على عينيه. دغدغ بدرو الحيوان، ولعق هذا يده المعزوقة مرة

واحدة. استيقظ جواكيم زازا على أثر الحركة، لم يكن واعياً فى البداية بالمكان الذى يوجد فيه، حتى لو كان بيته الخاص. ربما بسبب السرير الذى كان نائماً فيه، والرفقة. فيما بدرو أورثى راقد ورأس الكلب على صدره، قال، "بدأ يوم جديد، ترى ماذا يخبئ لنا؟"، وقال جواكيم زازا، "ربما غيَّر الكلب رأيه، لنرَ إن كان قد فقد الاتجاه بعد النوم، هذا يحدث كثيراً، ما إن ينام الواحد منا حتى تتغير الأشياء، نحن سيان فى هذا ونتعرف كل منا على الآخر". فى هذه الحالة لا يبدو أن شيئاً قد تغير. نهض الكلب، ضخماً، وممتلئاً، وسار حتى الباب المغلق. كان شكله الخارجى يظهر غير واضح، حدود جسده، وبريق عينيه، قال جواكيم زازا، "إنه ينتظرنا، من الأفضل تنبيهه إلى أن الوقت لا يزال مبكراً"، لبى الكلب نداء صوت بدرو أورثى، ورقد دون مقاومة، كان الرجلان يتحدثان بصوت خفيض جداً، قال جواكيم زازا، "سأذهب لسحب رصيدى الذى لى فى البنك، ليس كثيراً، وسأطلب قرضاً"، "وعندما تنتهى هذه الأموال"، "ربما تنتهى المغامرة قبل انتهاء الأموال"، "يعلم الله ما ينتظرنا؟"، "سنعثر على طريقة للعيش، لو كان ضرورياً، بالسرقة"، قال هذا جواكيم زازا ضاحكاً، "ربما لن نكون فى حاجة إلى الوصول إلى ارتكاب أشياء خارجة على القانون، وهنا أيضاً فى بورتو يذهب جوزيه أنايسو لفرع البنك؛ حيث يحتفظ برأس ماله الكبير"، كان مع بدرو أورثى بعض البيزيتات، أما

عن جوانا كاردا لا نعرف شيئاً عما تملكه، فهى على الأقل لا تبدو مثل أولئك الذين يعيشون على الإحسان أو على حساب الرجل. الشك الحقيقى فى عثورهم على عمل للأشخاص الأربعة، لأن العمل فى حاجة إلى المداومة، والإقامة الثابتة، والاستمرارية، فإذا كان مصيرهم الأول هو السفر خلف كلب وربط مصيرهم بمصيره الذى لا يعرفون عنه شيئاً، لكن ليس هذا هو الوقت الذى تتكلم فيه الحيوانات لو تكلمت، ويمكنها القول أين تريد أن تذهب، فما بلك إن كانت تنقصها الأحبال الصوتية.

ساعة الرحيل، وقف الأربعة فى البيت ينظرون إلى الكلب فى حالة من الحيرة، كمن ينتظرون الأوامر، هناك شك فيمن يأمر ومن يتلقى الأمر بجدية. قال جواكيم زازا، "أرجو بعد الخروج من بورتو أن يثق فينا كما وثق عند دخوله؟"، وفهم الآخرون سبب هذه الملاحظة، فلنتخيل لو أن الكلب كان أميناً على سلوك طريق الشمال. ففى المدينة ماذا يفعل لو اضطر إلى دخول الشوارع ذات الاتجاه الواحد، عندها ستكون الواقعة مع رجال البوليس، والحوادث، والاختناقات المرورية، ويتجمع سكان بورتو للسخرية من هذا الاستعراض، لكن هذا الكلب ليس كلباً عادياً، ومشكوكًا فى أصوله، جذور شجرة نسبه تصل إلى الجحيم، وكما يعرف كل فرد، فالمكان الذى تؤدى إليه المعرفة القديمة الموجودة من قبل، والحديثة والمستقبلية، ستتبع الطريق نفسه. لذلك، وربما لأن

بدرو أورثى عاد إلى آلاعيبه، وهمس فى أذنه بكلمات لم نتمكن من معرفتها، دخل الكلب إلى السيارة بشكل طبيعى جداً، كما لو كان معتاداً على السفر بهذه الطريقة طوال حياته. لكن من الملاحظ أنه هذه المرة لم يضع رأسه على ذراع جوانا كاردا، ولكنه نظر بانتباه إلى جواكيم زازا الذى يقود السيارة عبر منحنيات وتقاطعات الشوارع، فى جميع الاتجاهات، من يراهم يمرون ويجد تسلية فى مراقبتهم، قد يقول، "إنهم متجهون نحو الجنوب"، ثم يصحح ما قاله من قبل، "إنهم يذهبون باتجاه الغرب"، أو، "إنهم يتجهون نحو الشرق"، وهى الجهات الرئيسية أو الأصلية، لكن حتى لو استعرضنا وردة الرياح بالكامل، لن نستطيع الخروج من بورتو ولا من الارتباك.

هناك اتفاق بين الكلب وهؤلاء الأشخاص، أربعة كائنات عاقلة تسمح أن تقودها غريزة حيوانية، إلا إذا كانوا جميعاً منجذبين إلى مغناطيس فى الشمال، أو يسحبهم طرف خيط أزرق توءم لهذا الذى فى فم الكلب ولا يتركه. خرجوا من المدينة، معروف أن الطريق، رغم المنحنيات، تسير فى الاتجاه الصحيح، أبدى الكلب علامات على أنه يريد الخروج، يفتحون له الباب وها هو هناك، مستعيداً حيويته بعد الراحة الليلية والطعام الجيد الذى قدموه له. خطواته سريعة جداً، وترافقه ذات الحصانين بسعادة، لم تعد فى حاجة إلى كبح سرعتها. الطريق لم يعد الآن موازياً للبحر، يسير فى أرض داخلية، لهذا السبب لا نرى

الشاطئ الذى حصل فيه جواكيم زازا على قوة أكبر من قوة شمشون فى ساعة من حياته، وهو نفسه قال، "خسارة ألا يرغب الكلب فى السير بمحاذاة الشاطئ، كان يمكننى أن أبيّن لكم مكان ما جرى لى مع الحجر، وما كان لشمشون نفسه المذكور فى الإنجيل أن يفعل ما فعلت"، لكنه صمت تواضعاً، لأن الأعجب لا يزال ما حدث مع جوانا كاردا هناك فى حقول إريرا، والأكثر إلغازاً الاهتزازات التى يشعر بها بدرو أورثى، إذا كان مرشدنا هنا على الأرض من الفصيلة الكلبية القادمة من العالم الآخر، ماذا يمكننا أن نقول عن آلاف الزرازير التى رافقت جوزيه أنايسو لفترة طويلة، وغادرته فقط فى اللحظة التى بدأت فيها طيراناً آخر.

الطريق يصعد إلى أعلى، ويصعد بعدها مرة أخرى، ويصعد دائماً، وعندما يهبط فقط لينخفض قليلاً، تلك التلال ليست عالية جداً، لكنها تصيب قلب ذات الحصانين بالتعب وتدفعها إلى اللهاث فى الصعود، والكلب فى الأمام، بلا كلل. توقفوا ليتناولوا طعام الغداء فى مطعم صغير على حافة الطريق، واختفى الكلب مرة أخرى بحثاً عن صيده، وعندما عاد كانت الدماء على فمه، لكننا نعرف السبب من قبل، وليس هناك أى سر، إذا لم يكن لك من يملأ لك طبقك، عليك أن تفعل ما تستطيع. وفى الطريق من جديد، دائماً باتجاه الشمال، فى لحظة قال جوزيه أنايسو، متوجهاً بحديثه إلى بدرو أورثى، "لو سرنا

على هذا النحو سندخل إسبانيا، نعود إلى أرضك"، "أرضى هى الأندلس"، "أرضك، بلادك سيان"، "لا، قد لا نعرف وطننا، لكنا نعرف أرضنا"، "هل زرت جيليقيا من قبل؟"، "لم أذهب إلى جيليقيا أبداً، جيليقيا أرض الآخرين".

سنرى إن كانوا سيدخلون إسبانيا، لأنهم سينامون الليلة فى البرتغال. ذهب جوزيه أنايسو وجوانا كاردا إلى بنسيون كزوج وزوجة، بدرو أورثى وجواكيم زازا، توفيراً للمال بقيا معاً فى غرفة واحدة، والكلب كان عليه أن ينام فى ذات الحصانين، حيوان قوى الجسم قد يثير الرعب فى قلب صاحبة النزل. "لا أريد رؤية مثل هذا فى البيت، ليبق فى الشارع لأنه مكان انتظار الكلاب، ما ينقصنى هو أن يملأ بيتى بالحشرات"، احتجت جوانا كاردا، "هذا الكلب نظيف" ولكن بلا نتيجة، النقطة الأساسية لم تكن هذه. "استيقظ بدرو أورثى فى منتصف الليل، واثقاً أنه سيجد باب الشارع غير مغلق بالمفتاح، والحقيقة أنه لم يكن كذلك، وذهب لينام ساعتين فى السيارة، محتضناً الكلب، وإذا لم يكن عاشقاً لأسباب مفهومة بحكم الطبيعة، فالصداقة أفضل تعويض. عند دخول بدرو أورثى السيارة اعتقد أن الكلب نبح بصوت خفيض، لكنها تخيلاته هو، وهى تخيلات تطرأ علينا عندما نحب شيئاً بشكل كبير، فالجسد الحكيم رحيم بنا، يختلق من نفسه ما يشبع رغباتنا، والحكم هو هذا، أم أنكم تعتقدون شيئاً آخر، "لو كان الأمر كذلك، قل لى كيف يمكننا أن نكون

قادرين على تحمل متاعب الحياة"، هذا التعليق لصوت مجهول يتحدث من وقت لآخر.

عندما عاد بدرو أورثى إلى غرفته، جاء الكلب من خلفه، وبما أنه كان ممنوعاً من الدخول، فقد تمدد أمام عتبة الباب وبقىّ هناك، لا توجد كلمات لوصف الرعب والصرخات التى انطلقت مع أشعة الصباح الأولى، صاحبة البنسيون المبكرة جاءت لافتتاح يوم العمل الجديد، فتحت المصاريع لتدخل رطوبة الفجر، ما بدر من الكلب كان مجرد تثاؤب من لم ينم جيداً، ولكن حتى التثاؤب يجب الحذر منه عندما تبرز الأنياب القوية واللسان الأحمر اللامع، كما لو كان ينضح بالدم، كان الغضب بعدها عارماً إلى درجة أن خروج النزلاء كان طرداً أكثر منه انسحاباً سلمياً، وتقدمت ذات الحصانين، وتكاد تقترب من الناصية، ولا يزال صوت الصراخ مستمراً ضد الوحش الصامت، بل كان ذلك أسوأ مما ذكرناه، الكلب الذى ينبح لا يعض، حقيقة أن هذا الكلب لم يعض بعد، لكن لو كانت قوة الشكوى من الأسباب المباشرة للصمت، فليحررنا الله من الحيوان. استمر المسافرون فى طريقهم ساخرين مما حدث، "لو كنت مكان تلك المرأة لأصبت بالذعر أيضاً، وأنتم لا تحاولوا إظهار شجاعتكم، خاصة أنه ما يجب أن يكون الإنسان شجاعاً رغم أنفه"، النصيحة وصلت الأعماق، وازن كل واحد من الرجال ما حدث سراً، حول جُبنهم، والحالة الأكثر إثارة كانت حالة جوزيه أنايسو، الذى قرر أن

يبلغ جوانا كاردا بما يشعر فى أول فرصة، الحب لن يكون كاملاً ما لم يتم الحديث عن كل شىء، والأسوأ عندما ينتهى الحب، فإن المُعترف سيندم، وليس غريباً أن يخون الآخر الثقة، ولنرَ كيف سيتم الأمر بين جوانا كاردا وجوزيه أنايسو حتى لا يحدث هذا بينهما هذه المرة.

لم تكن الحدود بعيدة، وكما هو معتاد من فضائل المرشد الاستكشافية، لم يلاحظ المسافرون الطريقة العجولة التى اختار فيدل أو بيلوتو، لا بد من أن يأتى يوم يختارون فيه أحد هذين الاسمين، طريقاً خاصاً، إنه مفترق لعدة طرق، ورغم خبرة الحيوان الذى من المؤكد أنه سلك هذا الطريق من الشمال إلى الجنوب، مع أنه لا أحد يمكنه أن يؤكد ذلك، ، فإن الخبرة قد لا تفيد كثيراً أمام اختلاف وجهات النظر، والتى من حسن الحظ أننا لا نتجاهلها، فكل شىء متعلق بها. معروف بالطبع أن البشر يعيشون محاطين بالكثير من المميزات، ولكن عن المميزات يكاد لا يعرف النصف، وعن النصف المعروف، فالأكثر عمومية هو الخطأ، لأنهم يريدونه أساساً، بالقوة الغاشمة، أن يكون الله سيدنا، إنه خلق هذه وتلك على هيئته، بالنسبة لهذه الحالة ليس مهماً من الذى أنشأها، فالغريزة تقود هذا الحيوان، لكننا لا نعرف ماذا ولا من يرشد هذه الغريزة، ولو أننا عثرنا فى يوم من هذه الأيام على تفسير لهذه المسألة الغريبة، فالأكثر احتمالاً أن يكون التفسير معتمداً على الظواهر، إلا إذا كان يمكننا أن

نستخرج من التفسير تفسيراً وهكذا إلى ما لا نهاية، وحتى نصل إلى اللحظة التى لا يكون هناك شىء فى حاجة إلى التفسير من الذى تم تفسيره، من هنا نفترض أنه لن يكون فى النهاية سوى الفوضى، لكننا هناك لا نتعامل مع تكوين الكون، ماذا نعرف عن هذا، فنحن نتعامل هنا مع الكلاب فقط.

أما عن البشر، من أولئك الذين يتبعون الكلب باتجاه الحدود التى تقترب، سيغادرون الأراضى البرتغالية مع حلول المساء، وفجأة، وربما حتى الآن لأن الظلام بدأ يقترب، حينها سينتبهون إلى اختفاء الحيوان، فيشعرون جميعاً كأطفال تاهوا فى الغابة، "والآن ماذا نفعل؟"، انتهز جواكيم زازا الفرصة ليشوه أمانة الكلب، ولحسن الحظ ظهرت خبرة الحياة من فم بدرو أورثى الجاد، "مؤكد أنه ذهب لعبور النهر سباحة وسينتظرنا على الجانب الآخر"، لو كانت الناس منتبهة بالفعل للوجود والتفاعل الكيميائى، لفهموا على الفور، ونشير هنا إلى جوزيه أنايسو وجواكيم زازا، إن أسباب الكلب يمكن أن تساوى تماماً أسباب آلاف الزرازير، إذا كان فيدل قد جاء من الشمال ومر من هذا المكان، ربما لا يريد تكرار التجربة، دون طوق فى رقبته، ربما يكون مُشتبَهاً فيه بالسعار، ويطلقون عليه الرصاص لقتله.

طالع رجال البوليس الأوراق الثبوتية بعدم اهتمام، وأمروهم بمواصلة الطريق، يبدو أن العمل قليل لدى هؤلاء الموظفين، حقيقة أن الأشخاص، كلما

أتيحت لنا الفرصة لنعرف، يسافرون كثيراً، ولكن سفرهم أكثر داخل الحدود، كما لو كان الخوف يمنعهم من الابتعاد عن البيت الكبير، وهو الوطن، حتى لو غادروا البيت الصغير، البيت البائس الذى يعيشون فيه. على الطرف الآخر من نهر المينيو فإن الغضب لا يختلف، رغم وضوح شرارة من الفضول الخفيف، لأن مع هؤلاء البرتغاليين إسبانيًا من جيل آخر، لو كانوا فى فترة عبور فيها الكثير من الدخول والخروج ما كان لهم أن ينتبهوا لوجود هذا الرجل. سار جواكيم زازا كيلومتراً واحداً، وأوقف ذات الحصانين على حافة الطريق، "لننتظر هنا، لو أن الكلب، كما يقول بدرو، يعرف ما يفعل، سيأتى بحثاً عنا". لم ينتظروا طويلاً، بعد عشر دقائق ظهر الكلب أمام السيارة، مبتل الشعر. كان بدرو أورثى محقاً، ونحن، لو لم نشك قليلاً، كان يمكننا أن نبقى على الشاطئ لمشاهدة العبور الثمين، الذى نَصِفه بلذة كبيرة، وبعدها، بدلاً من هذا التقاطع الحدودى بحرس لكل منهم زيه المختلف، "واصل"، "مر"، وتم تلخيص الفصل فى هذا، وحتى برق الفضول لم يكن سوى اختلاق مسكين ليزخرف مادة الموضوع بعض الشىء.

اختلافات أخرى أفضل ستأتى الآن لتزين ما تبقى من الرحلة، بفارق يومين وليلتين، هن كن ينمن فى خانات ريفية، فيما هم يسيرون على طريق قديمة، باتجاه الشمال، ودائماً نحو الشمال، أراضى جيليقيا والضباب، بأمطار خفيفة تعلن عن مقدم الخريف، هو

فقط ما يمكن أن يُقال، ولم نكن فى حاجة إلى اختلاقه. ما عدا العناق الليلى بين جوزيه أنايسو وجوانا كاردا، وأرق جواكيم زازا المتقع، ويد بدرو أورثى على ظهر الكلب، هنا تركوا الحيوان يدخل إلى الغرف والنوم هناك. وفى أيام الطريق، بمواجهة الأفق الذى لا يريد الاقتراب. عاد جواكيم زازا إلى القول بأن كل هذا جنون، السير خلف كلب غبى حتى نهاية العالم، دون معرفة السبب، وهو ما أجابه عليه بدرو أورثى بشىء من الجفاء، "هذا لن يكون حتى نهاية العالم، لأننا سنصل إلى البحر أولاً". لوحظ أن الكلب متعب، يسير منخفض الرأس، وهبطت نوارة الذيل، وباطن الأقدام، رغم الجلد القوى، متألمة من كثرة احتكاكها بالأرض والأحجار، وبعد ذلك فى الليل سيذهب بدرو أورثى للكشف عليه ويرى التجمعات الدموية، ليس غريباً أن يجيب جواكيم زازا بهذا الجفاء، الذى كان يراقب باهتمام ويقول، برنة الاعتذار، "قليل من ماء الأكسجين يفيده"، قوله هذا كمن يريد تعليم راعى الكنيسة الصلاة، عن فنون الصيدلة يعرف بدرو أورثى ما يفيض، ولهذا ليس فى حاجة إلى من يعلمه. لكن، بهذا فقط، تم الصلح.

عندما وصلوا بالقرب من سانتياجو دى كومبوستيلا انحرف الكب باتجاه الشمال الشرقى. يبدو أن وجهته قريبة، ويمكن ملاحظة هذا فى القوة المحددة لخطواته الآن، وفى ثبات أقدامه، ووضع الرأس، وانتصاب ذيله، كان على جواكيم زازا أن يزيد

من سرعة ذات الحصانين ليرافق سير الكلب، والاقتراب منه، حتى كاد يلمس الحيوان، زعقت جوانا كاردا، "انظروا إلى الخيط الأزرق". رأوه جميعاً. الخيط لا يبدو هو نفسه. الآخر، كان قذراً ويمكن أن يكون أزرق أو بنيًا أو حتى أسود، لكن هذا كان يلمع بلونه الخاص، أزرق ليس سماوياً ولا بزرقة البحر، ترى مَن لوَّنه، ومَنْ غسله، وهل هو نفسه، ووضعه مرة أخرى فى فم الكلب، قائلاً، "هيا". بدأ الطريق يضيق، يكاد يكون طريقاً ملتفاً حول التلال. الشمس على وشك السقوط على البحر الذى لا يظهر من هناك، الطبيعة خبيرة فى تركيب المشهد المناسب للحالة البشرية، خلال هذا الصباح وحتى المساء كانت السماء ملبدة بالغيوم وحزينة، يهطل المطر الجيليقى الخفيف، ضوء قمرى يهبط الآن على الحقول، والكلب يبدو كجوهرة لامعة، حيوان ذهبى، حتى ذات الحصانين لا تبدو عليها علامات التعب التى نعرفها، وفى الداخل كان المسافرون كائنات جميلة، يضرب الضوء وجوههم، وتبدو عليهم السعادة. نظر جوزيه أنايسو إلى جوانا كاردا وانتفض عندما رآها جميلة جداً، حرك جواكيم زازا المرآة إلى أسفل ليشاهد عينيه لامعة، وبدرو أورثى يتأمل يديه المعروقتين، ليستا شائختين، لا، كما لو خرجتا للتو من عملية كيميائية، عادت خالدة، ولو مات باقى جسده.

توقف الكلب فجأة. كانت الشمس تحتك بحافة التلال، يمكن التنبؤ بالبحر على الجانب الآخر، يهبط

الطريق بمنحنيات، ويبدو أن هضبتين تخنقانه هناك فى الأسفل، لكنه خداع البصر والمسافة. فى الأمام، فى منتصف السفح، بيت كبير، معماره بسيط، يبدو كما لو كان خالياً منذ زمن، رغم علامات الزراعة فى الحقول المحيطة به. جزء من البيت غارق فى الظلال، ويخفت الضوء شيئاً فشيئاً، كما لو كان العالم على وشك الإغماء والعزلة. أوقف جواكيم زازا السيارة. خرجوا جميعاً. للصمت صوت يُسمع، ذبذبة نهاية الصدى، ربما هذا ليس سوى رجع ضربات الأمواج البعيدة على الجروف، إنه أفضل تفسير، صدى ضربات الأمواج يظل يتردد حتى داخل القواقع، ولكن هذه ليست حالتنا هنا، ما يُسمع هنا هو الصمت، لا يجب أن يموت أحد قبل أن يعرفه، الصمت، هل سمعته، يمكنك أن تذهب، أنت تعرف الآن كيف هو. لكن تلك اللحظة لم تأت بعد لأى من الأربعة. يعرفون أن نهاية رحلتهم فى ذلك البيت، فقد جاء بهم الكلب العجيب إلى هنا، وقف صامتاً كتمثال، فى الانتظار. كان جوزيه أنايسو إلى جوار جوانا كاردا لكنه لا يلمسها، يفهم أنه لا يجب أن يلمسها، وهى تفهم هذا أيضاً، هناك لحظات حتى الحب يجب أن يفقد معناه، اعذرونا إن كنا نلخص النتائج إلى لا شىء تقريباً، والذى كان فى مواقف أخرى هو كل شىء. كان بدرو أورثى آخر من هبط من السيارة، وضع أقدامه على الأرض فشعر باهتزازاتها بشكل مرعب، يمكن هنا أن تنكسر جميع إبر أجهزة رصد الزلازل، وتلك التلال

تبدو كما لو كانت تتماوج مع موجات البحر التى تتراكم على بعضها، مندفعة بفعل الطواف الحجرى، مندفعة باتجاهها كانعكاس للتيارات القوية التى تقطعها.

غابت الشمس. حينئذ تماوج فى الهواء خيط أزرق، يكاد لا يبين من شفافيته، كما لو كان يبحث عن دعم، لمس الأيدى والوجوه، أمسك به جواكيم زازا، كانت مصادفة، إنه القدر، لنترك تلك الفرضيات على حالها، رغم وجود أسباب كثيرة لعدم تصديق لا هذه ولا تلك، والآن ماذا سيفعل جواكيم زازا، لا يستطيع الرحيل فى السيارة ويده تمسك بالخيط فى الخارج، خيط يرفعه الهواء، لا يرافق انحناءات الطريق، "ماذا أفعل بهذا؟"، لكن الآخرين لا يمكنهم أن يجيبوا، الكلب، نعم، خرج عن الطريق وبدأ فى هبوط المنحدر الخفيف، سار جواكيم زازا من خلفه، رافعاً يده بالخيط الأزرق كما لو كان يلمس أجنحة أو صدر طائر على رأسه. عاد جوزيه أنايسو إلى السيارة مع جوانا كاردا وبدرو أورثى، وانطلق بها، ببطء، وعيناه معلقتان دائماً بجواكيم زازا، وبدأ فى هبوط الطريق، لم يكن يريد أن يصل قبله، ولا بعده بكثير، التناغم الممكن بين الأشياء يعتمد على التوازن والوقت الذى تحدث فيه، لا قبلها بكثير، ولا متأخراً عنها، من هنا ليس صعباً الوصول إلى الإتقان.

عندما توقفوا فى الباحة المواجهة للبيت، كان جواكيم زازا قد وصل إلى عشر خطوات من الباب،

كان مفتوحاً. شهق الكلب شهقة تشبه شهقة البشر ورقد ماداً رقبته على قدميه الأماميتين. أخرج بأظافره قطعة الخيط، وألقى بها إلى الأرض. من أعماق البيت المظلمة خرجت امرأة. تحمل فى يدها خيطاً، هو نفسه الذى يمسك به جواكيم زازا. هبطت المرأة الدرجة الوحيدة للباب، وقالت، "ادخلوا، يبدو عليكم التعب"، كان جواكيم زازا أول من تقدم، يحمل طرف الخيط الأزرق ملفوفاً حول ساعده.

■■■

## -١٣-

روت ماريا جوافايرا الحكاية، "فى يوم من الأيام فى ساعة كهذه الساعة، وكان النهار لا يزال كما هو الآن، ظهر الكلب، كان يبدو عليه أنه جاء من مكان بعيد جداً، شعره قذر، وأقدامه تنزف، جاء وضرب الباب برأسه، فتحت معتقدة أنه أحد هؤلاء المتسولين الرحل من مكان إلى آخر، وما إن يصلوا حتى يخبطوا الباب ويقولوا، "حسنة لهذا المسكين يا سيدتى"، ولكن ماذا رأيت، الكلب، كان يلهث كما لو جاء جرياً من آخر الدنيا، والدماء تلوث الأرض تحت أقدامه، والأكثر إثارة للدهشة أننى لم أشعر بالخوف، رغم أن الحال كان يستدعى ذلك، من لا يعرف طبع الكلاب يعتقد أنه أمام حيوان متوحش، مسكين، وهكذا ما إن رآنى حتى انبطح على الأرض، كما لو كان ينتظرنى ليستريح، كما لو كان يبكى، كمن يريد أن يتكلم ولكنه لا يستطيع، وخلال الفترة التى قضاها هنا لم أسمعه

ينبح أبداً". قالت جوانا كاردا، "له ستة أيام معنا ولم ينبح"، "أدخلته البيت، وطببته، إنه ليس كلباً ضالاً، يبدو هذا من شعره، ويبدو أن أصحابه كانوا يغذونه جيداً، كانوا يعتنون به، ولمعرفة الفارق يكفى مقارنته بالكلاب الجيليقية، تُولد موتى من الجوع وتموت جوعاً بعد حياة من الجوع، وتُعامل بالعصا والحجر، لذلك فإن أى كلب جليقى لا يستطيع رفع ذيله، يخفيه بين فخذيه على أمل ألا يلفت النظر، إنه كلب سريع"، قال بدرو أورثى، "هذا لا يعض". قال جوزيه أنايسو، "من يستطيع أن يعرف من أين جاء؟ وربما لا نعرف أبداً، ربما لا يكون لهذا أهمية، لكن ما يدفعنى إلى التفكير هو أنه جاء بحثاً عنا ليأتى بنا إلى هنا، ولا يمكن ألا يجعلنا هذا نطرح السؤال: لماذا؟"، "لا أعرف، كل ما أعرفه أنه ذهب ذات يوم وقطعة من الخيط بين أنيابه، نظر إلىَّ كمن يريد أن يقول، "لا تخرجى من هنا حتى أعود"، واتجه إلى أعالى التلال، من المكان الذى هبط منه الآن"، سأل جواكيم زازا، بينما كان يفك الخيط عن ساعده، ولا يزال الطرف الآخر فى يد ماريا جوافايرا، "أى خيط هذا؟"، أجابت وهى تطوى الخيط بين أصابعها، " أنا أيضاً أريد أن أعرف؟"، وظلت تجذب الخيط حتى أصبح أشبه بوتر جيتار مشدود، لكن لا يبدو أنه لا هى ولا هو انتبها إلى أنهما مشدودان بهذا الخيط، والآخرون، نعم كانوا ينظرون، لكنهم سكتوا عن الإعلان عن الأفكار التى شعروا بها، "لأن الشىء الوحيد الذى فعلته أنا هو فك جورب

قديم، من تلك التى كانت تستخدم لحفظ النقود، وفكه قد يعطينى ملء كف من الخيوط، إلا أن هذا أعطانى صوفاً يكفى مائة شاة، ومن يقول مائة يقول ألفاً، ترى ما تفسير هذا؟"، قال جوزيه أنايسو، "حامت من خلفى ألفان من الزرازير"، وأضاف جواكيم زازا، "قذفت حجراً إلى البحر فسقط بعيداً جداً"، وانتبه إلى أنه كان يبالغ، وقال بدرو أورثى، "الأرض اهتزت ولا تزال تهتز".

وقفت ماريا جّوافايرا لتفتح باباً، وقالت، "انظروا"، كان جواكيم زازا إلى جوارها، لكن لم يكن الخيط ما جذبه، شاهدوا سحابة زرقاء، من لون أزرق يميل إلى القتامة حتى يصبح فى منتصفه أسود تقريباً. وقالت لجواكيم زازا، "لو تركت الباب مفتوحاً تخرج دائماً قطع مثل هذه، مثل تلك التى صعد بها هذا إلى الطريق، وجاءت بك حتى هنا"، أما المطبخ الذى اجتمعوا فيه فقد بقى خالياً، عدا هذين الاثنين مشدودين بالخيط الأزرق، والسحابة الزرقاء تبدو كما لو كانت تتنفس، وتُسمع طرقعات الخشب فى المكان حيث يجرى تسخين حساء الخضراوات مع قطع اللحم، نوع من الطعام الجيليقى الخفيف.

ما كان يمكن لجواكيم زازا وماريا جوافيرا أن يبقيا مشدودين إلى بعضهما هكذا أكثر من الوقت اللازم لمنح هذا الاتحاد معنى واضحاً، لذلك أخذت هى الخيط كله؛ وعندما وصلت إلى ساعده دارت من حوله كما لو كانت تربطه مرة أخرى بشكل مخفى، ثم

وضعت الكرة الصغيرة بين نهديها، لا يمكن أن يشك أحد فى معنى هذه الإشارة سوى أبله، ابتعد جوزيه أنايسو عن النار، التى تحرق، وقال، "رغم أنه يبدو عبثياً، سننتهى إلى الاعتقاد بأن هناك علاقة ما بين ما حدث لنا وانفصال إسبانيا والبرتغال عن أوروبا، مؤكد أنك استمعت إليهم يتحدثون عن هذا"، "نعم، لكننا لم نشعر هنا بأى شىء، لو عبرنا التلال وهبطنا إلى الشاطئ سنرى البحر نفسه دائماً"، "بثه التليفزيون"، "ليس لدى تليفزيون"، "والإذاعة بثت الخبر"، "الأخبار ليست سوى كلمات، ولا يمكن أن نعرف إن كانت الكلمات أخباراً أم لا".

أمام هذا الحكم المتشكك انقطع الحوار لبضع دقائق، ذهبت ماريا جوافايرا لإحضار الأطباق من على الرف، أخرجت الحساء من على النار، طبق الحساء ما قبل الأخير كان من نصيب جواكيم زازا، والأخير كان لها. وفجأة انتبه الجميع إلى نقص ملعقة، لكن لا، كانت هناك ملاعق كافية للجميع، لهذا لم يكن على ماريا جوافايرا أن تنتظر حتى ينتهى جواكيم زازا من تناول الحساء. حينها أراد أن يعرف إن كانت تعيش بمفردها؛ لأنه حتى تلك اللحظة لم يشاهدوا أى شخص آخر فى البيت، فأجابت هى بأنها أرملة منذ ثلاث سنوات، والأرض يزرعها أجريون باليومية. "أنا هنا بين البحر والتلال، ليس لى أبناء ولا أسرة، إخوتى هاجروا إلى الأرجنتين، وأبى مات، وأمى مجنونة بمستشفى فى لاكرونيا، أشخاص وحدهم

مثلى فى هذا العالم قلة". قال جوانا كاردا، "كان يمكنك أن تتزوجى مرة أخرى؟"، لكنها ندمت فيما بعد على هذا الرأى، لأنه ما كان لها الحق أن تقول ذلك؛ فهى التى انفصلت عن زوجها قبل أيام قليلة وترافق رجلاً آخر، "كنتُ متعبة، وامرأة فى مثل سنى، لو عادت إلى الزواج مجدداً سيكون ذلك بسبب الأرض التى أملكها، الرجال هنا يأتون ليتزوجوا الأرض، وليس المرأة"، "أنتِ لا تزالين شابة بعد"، "كنتُ شابة"، ما إن قالت هذا حتى اتجهت نحو المدفأة، لتبدو أفضل إلى جوار الضوء، وكانت تنظر إلى جواكيم زازا من أعلى اللهب، كما لو كانت تقول له، "هذه أنا، انظر إلىَّ جيداً، لقد جئت إلى الباب مشدوداً بخيط طرفه الآخر فى يدى، ولو أردت يمكننى أن أسحبك إلى سريرى، وأنا متأكدة أنك ستأتى، لكنى لن أكون جميلة أبداً، إلا إذا حولتنى أنت إلى أجمل امرأة فى الوجود، وذلك عمل لا يقدر عليه سوى الرجال، ويستطيعون فعله، المؤسف أنه لا يستمر إلى الأبد".

كان جواكيم زازا ينظر إليها من الجانب الآخر من النار، وبدا له أن النيران المتراقصة تغير ملامح وجهها، الملىء أحياناً بالتجاعيد، وبعدها أملس بالظلال، لكن ما لا يتغير هو بريق عينيها السوداوين، ويبدو أن دمعة معلقة تحولت إلى شريط من النور الصافى. فكّر، "ليست جميلة، ولكنها ليست دميمة، يداها نحيلتان ومتعبتان، ولا يمكن مقارنتهما بيدى موظف مكتبى يتمتع بإجازة، غداً، هذا إذا لم أكن قد

فقدت حساب الزمن، يجب أن أعود إلى العمل، لكن لا، هذا لا يمكن، كيف يمكننى أن أترك هنا جوزيه وجوانا وبدرو والكلب؟ ليس لديهم أى سبب يجعلهم يرافقوننى، ولو أخذت ذات الحصانين سيواجهون صعوبات كبيرة فى العودة إلى بلادهم، وربما لا يريدون، الشىء الوحيد الحقيقى الذى يوجد على ظهر الأرض هو أننا هنا جميعاً معاً"، كانت جوانا كاردا وجوزيه أنايسو يتحدثان بصوت خفيض، ربما عن حياتهما، وربما عن حياة كل واحد منهما، أراح بدرو أورثى يده على رأس بيلوتو، ربما كانا يقيسان درجة اهتزازات وزلازل لا يشعر بها غيرهما، فيما أنظر أنا وأواصل النظر إلى ماريا جوافايرا التى لها طريقة فى النظر، ليس النظر، وإنما الكشف عن عينيها، ترتدى ملابس قاتمة، أرملة شفاها الزمن ولكن لا تزال مسودَّة بالعادات والتقاليد، من حسن الحظ أن عينيها تلمعان، وهناك توجد السحابة الزرقاء والتى تبدو غريبة عن هذا البيت، وشعرها كستنائى، وجسدها مستدير والشفاه غليظة، والأسنان، التى رأيتها قبل قليل، بيضاء، شكراً لله، هذه المرأة حقيقة جميلة وأنا لم أنتبه إلى ذلك، كنت مشدوداً إليها دون أن أعرف من تكون، علىَّ أن أقرر، أعود أم أبقى هنا، ولو عدت إلى العمل متأخراً بضعة أيام فلن يحدث شىء، فى حالة الفوضى هذه من سينتبه إن كان الموظفون قد عادوا أم لا، يمكن التعلل بصعوبة المواصلات، تبدو الآن عادية، لكنها الآن أكثر جمالاً، والآن، والآن، إلى

جانب ماريا جوافايرا فإن جوانا كاردا لا تساوى شيئاً، التى لى أجمل بكثير، يا سيد جوزيه أنايسو، هل تعتقد أنه يمكن مقارنة امرأتك المدنية والفاخرة بهذه المخلوقة البرية التى تعرف أى ملح يأتى مع الرياح عابرة التلال، ومؤكد أن جسدها أبيض تحت هذه الملابس، لو أمكننى الآن، يا بدرو أورثى سأقول لك شيئاً"، "أى شىء تريد أن تقول؟"، "الآن أعرف من التى أحب"، "مبروك، هناك من تأخر أكثر منك ليقرر، أو ربما لم يعرف أبداً من يحب"، "هل تعرف أحدًا؟"، "مثلاً، أنا"، وبعد أن أجاب هكذا قال بدرو أورثى بصوت عالٍ، "سأذهب للتنزه مع الكلب".

الوقت الآن ليس ليلاً كاملاً، لكن المناخ كان بارداً، باتجاه التل الذى يخفى البحر هناك طريق يبدأ بعد قليل فى الصعود المتوالى حسب الجرف، يساراً ويميناً، ويتوالى حتى يضيع فى الأفق غير المرئى الذى لا تستطيع الأعين اختراقه. لن يمر وقت طويل فى هذا الوادى حتى يصبح ليله أسود، ليس صحيحاً تماماً أن نقول إن الوادى الذى تعيش فيه ماريا جوافايرا لياليه شديدة السواد، لذلك لم يكن مهماً أن تنقطع خطوط الكهرباء مع أوروبا المتحضرة والمثقفة، حتى يصبح كذلك. خرج بدرو أورثى من البيت لأنهم؛ لم يكونوا فى حاجة إليه هناك، تقدم دون أن ينظر خلفه، أولاً بسرعة بقدر ما سمحت له قوته، وبعدها، ببطء تحت ضغط التعب، لم يشعر بأى خوف من هذا الصمت بين تلك القمم الجبلية، فهو رجل وُلد وتربى فى الصحراء،

على تراب وحجارة، حيث يمكن العثور بشكل عادى على بقايا حصان، أو ساق لا تزال بها الحدوة، هناك من يقول إنه ولا حتى فرسان يوم القيامة كان يمكنهم أن يعيشوا هناك، فحصان الحرب مات فى الحرب، وحصان الوباء مات بالوباء، وحصان الجوع مات جوعاً، فالموت هو ملخص وجود كل الأشياء ونهايتها، أما نحن فما يخدعنا هو ذلك الخط الفاصل بين وجودنا أحياء، والذى يتقدم نحو ما نسميه المستقبل فقط؛ لأنه يجب أن نطلق عليه اسماً، ونأخذ منه الكائنات الجديدة بلا توقف، ونترك خلفنا كائناتنا القديمة التى كان علينا أن نُطلق عليها أسماء الموتى حتى لا يعودو من الماضى.

أصبح قلب بدرو أورثى عجوزاً ومتعباً. والآن عليه أن يستريح بشكل متكرر وكل مرة لوقت أطول، لكنه لن يتوقف، يشجعه صبر الكلب. يشير كل منهما للآخر، كما لو كانت إشارات مفهومة بينهما دون حاجة إلى فك شفرتها؛ لأنه يكفى فقط فعل الوجود، جانب الحيوان يحتك بسمانة ساق الرجل، ويد الرجل تداعب الجلد الداخلى الناعم لأذن الكلب، العالم مسكون بصدى الخطوات، وتنفسها، بالاحتكاكات، والآن نعم، يمكن من خلف التل سماع هدير البحر العنيف، فى كل مرة أكثر قوة، وأكثر وضوحاً، حتى يظهر أمام الأعين السطح الشاسع، يشع خافتاً تحت انعكاس ليلة بلا قمر نجومها غريبة، وتحت، كخط حى يفصل الموت عن الليل، البياض العنيف للزبد

المتجدد المتوالى. والأحجار التى تحتك بها الأمواج أكثر سواداً، كما لو كانت الحجارة هناك أكثر تركيزاً وغارقة فى المياه منذ بداية الزمن. تأتى الرياح من البحر، جزء منها نفخة طبيعية، والجزء الآخر، قليل، من أثر حركة شبه الجزيرة على المياه، ليس أكثر من لهاث، كما هو معروف، ومع ذلك لم يُعرف إعصار مماثل منذ أن كان العالم عالماً.

يقيس بدرو أورثى حجم المحيط فيكتشف فى تلك اللحظة أنه صغير، لأنه عندما يتنفس بعمق تتمدد الرئتان كثيراً، حتى يمكنها أن تسع كل بحار العالم مرة واحدة، تاركة للطوف الذى يرسم طريقه نتوءات صخرية بين الأمواج. لم يعد يعرف بدرو أورثى إن كان إنساناً أم سمكة، فينزل البحر، يسبقه الكلب لاستطلاع واختبار الطريق، هذا كشّاف ماهر ومفيد جداً، لأنه ما كان باستطاعة بدرو أورثى أن يعثر بمفرده على مدخل ومخرج فى متاهة الأحجار هذه قبل طلوع النهار، وأخيراً، بلغا السفح الذى يميل نحو البحر بانحدار خفيف، حيث تصيب ضوضاء الأمواج بالصمم، لو أن القمر صعد الآن بين صخب البحر وتحت السماء المظلمة، فلن يعتقد أى إنسان أنه قد يموت من الخوف والوحدة، ولا يكون قادراً على الموت سعادة، لم يعد بدرو أورثى يشعر بالبرد، الليل أقل إظلاماً، وهناك عدد كبير من النجوم. عاد الكلب راكضاً بعد أن ابتعد للحظة، لم يُعلِّمه أحد أن يجذب صاحبه من سرواله، لكننا عرفنا من قبل أنه قادر على

التواصل، وسيتعين على بدرو أورثى مشاركته اكتشافاته، غريق لفظه البحر إلى الساحل، أو صندوق كنز، أو بقايا من قارة أتلانتا، أو حطام من الهولندى الطائر، إنها ذاكرة تخضع لوسواس قهرى، وعندما وصل الساحل الرملى، لم يجد سوى أحجار بين الأحجار، ولكن بما أن هذا الكلب لا يضل ولا يُضلل، فقد اعتقد بدرو أورثى أنه لا بد وأن يكون هناك شىء مهم، حينها لاحظ أن قدميه شخصياً تقفان على هذا الشىء، إنه حجر ضخم، له شكل يقرب من شكل السفينة، وهناك آخر، طويل ونحيل كالصارى، وحجر ثالث يبدو كدفة مكسور مقبضها، ولأنه تخيل أن الضوء ضعيف جداً فقد خدعه، اختبر محيط الصخور بيده، وسرعان ما تأكد، هذا الجانب المرتفع والمدبب هو مقدمة السفينة وذلك الجانب الآخر المربوط هو مؤخرتها، الصارى لا يمكن الخلط بينه وبين أى شىء آخر، والدفة لا يمكن أن تكون، مثلاً، سيفاً عملاقاً لو لم تكن كذلك، حقيقة، أين هى، سفينة حجرية. إنها ظاهرة جيولوجية، حقيقة، يعرف بدرو أورثى عن الكيمياء بما فيه الكفاية ليفسر لنفسه الاكتشاف، إنها سفينة خشبية قديمة قذفت بها الأمواج أو تركتها الدوامات، وسقطت بين تلك الجروف منذ أزمنة سحيقة فى القدم، ثم غطاها الطين، فتحجرت المادة الحيوية، ثم انسحب عنها الطين مرة أخرى، وحتى اليوم، كان يجب مرور آلاف السنوات حتى يختفى المحيط بها، وتتآكل الأحجار،

بفعل الرياح والأمطار، ومبرد البرد والحرارة، حتى جاء اليوم الذى لا يمكن فيه التفريق ما بين الحجر والحجر. جلس بدرو أورثى فى داخل السفينة، من مكانه ما كان يمكنه أن يرى غير السماء والبحر البعيد، لو أن تلك السفينة اهتزت قليلاً قد يعتقد أنه مبحر، وحينها، حسب ما استطاعت قدراته التخيلية جاءته فكرة عبثية، لو أنه شعر بأنه يبحر حتى يجذب من خلف شبه الجزيرة، لكن لا يجب الثقة فى أحلام الخيال، بالطبع سيكون من المستحيل أن يحدث، شوهدت تخيلات أكثر صعوبة من قبل، لكن فى تلك الحالة المؤخرة تتجه نحو البحر، ولا توجد سفينة يمكن احترامها سافرت مرة بمؤخرتها. وقف بدرو أورثى، شعر بالبرد، وقفز الكلب على حافة السفينة، "إنها ساعة العودة إلى البيت، يا سيدى، فأنت لست فى حالة تسمح لك بالسهر، لم يفعلها شاباً ولن يفعلها الآن".

عندما وصلا إلى قمة الجبل لم يكن فى استطاعة بدرو أورثى أن يستمر، رئتاه المسكينتان اللتان كانتا قبل قليل قادرتين على امتصاص المحيط بكامله تلهثان مثل قربة مقطوعة، الهواء جاف يجرح دواخل أنفه، ويجفف حلقه، تلك المغامرات الجبلية لا يصلح لها صيدلى على وشك الشيخوخة. ترك نفسه يسقط على حجر، ليستريح، مرفقاه مغروسان فى ركبتيه، ورأسه ترتاح على كفيه، والجبهة تلمع بالعرق، والريح تهفهف مقدمة شعر رأسه، إنه حطام رجل،

متعب وحزين، لسوء الحظ لم تبدأ بعد عملية تعدين إنسان فى زهرة شبابه لتحويله إلى تمثال خالد. التنفس أكثر هدوءاً الآن، وخفف الهواء من جفائه، يدخل ويخرج بلا ألم. عندما انتبه الكلب المقعى إلى هذه التحولات، وقف، رفع بدرو أورثى رأسه، نظر إلى أسفل، نحو الوادى حيث يوجد البيت. بدا كما لو كانت هالة من الضوء تحلق على البيت، لو كانت تلك الجملة، مثل تلك الأخريات، فإنها تتكون من كلمات فقط، قد تصل إلى الفهم بمعنى واحد لا يقبل الشك، فالذكرى جاءت لبدرو أورثى عن رجل أورثى المصاب بالصرع، بعد الصرعات التى ألقت به أرضاً، حاول أن يفسر الأحاسيس المشوشة التى كانت تتجاذبه، إنها ذبذبات ذرات الهواء غير المرئية، إنها إشعاعات الطاقة كالحرارة عن بعد، قد تكون انحراف الإشعاعات نهاياتها، هذه الليلة، حقيقة، سكنتها الدهشة، الخيط والسحابة الصوفية الزرقاء، السفينة الحجرية الجانحة على جانب الشاطئ، والآن بيت عجيب يقشعر، أو هكذا نقول عنه من خلال رؤيته من هنا. الصورة تنمحى وتتداخل الأشياء، وفجأة تبدو وكأنها تنفصل وتبتعد حتى تتحول إلى نقطة تكاد لا تُرى، تعود بعدها، نابضة ببطء شديد. خاف بدرو أورثى للحظات أن يبقى وحيداً فى هذه الصحراء الأخرى، لكن الرعب مرّ، استمر فقط خلال زمن الانتباه إلى أن هناك تحت تجتمع ماريا جوافايرا وجواكيم زازا، تغيرت الأزمنة كثيراً، الآن فقط ما إن

تصل حتى تملأِ الخرج، لو سمحتم لى بهذا التعبير المازح القديم. نهض بدرو أورثى ليبدأ الطريق هبوطاً من السفح، لكنه عاد إلى الجلوس من جديد وانتظر بصبرٍ كبير، شعر بالبرد، وانتظر أن تعود للبيت صورته، حيث لا لهب سوى ذلك الذى لا يزال يحترق هناك فى المطبخ، لو تأخر كثيراً، فإن الأكثر توقعاً ألا يجد سوى الرماد مكان النار التى كانت من قبل.

■■■

## - ١٤ -

استيقظت ماريا جوافايرا مع أول خيوط الفجر. كانت في غرفة نومها، في السرير، وكان هناك رجل نائم إلى جوارها. تنفسه مسموع، عميق، كما لو كان يستمد تجديد قواه من نخاع عظامه، ونصف واع، أرادت أن يكون تنفسها متسقاً معه. حركة صدرها غير المتناسقة جعلتها تنتبه إلى عريها. مررت يدها على كل جسدها، من منتصف السمانة مستديرة حول العانة والبطن وصولاً إلى الثديين، وفجأة تذكرت صرخة الدهشة التي أطلقتها عندما انبثقت اللذة داخلها كالشمس. والآن وقد استيقظت تماماً، تعض أناملها كي لا تصرخ هذه الصرخة من جديد، لكنها كانت تريد أن تستعيد الأحاسيس المكبوتة في الصوت، وتجعلها لا تنفصل أبداً عنها، أو ربما كانت الرغبة قد عادت تستيقظ فيها من جديد، من يعرف، ربما الندم أو القلق الذي تتضمنها تلك الجملة الشهيرة، "والآن

ماذا سيحدث لى؟"، الأفكار ليست مستقلة عن بعضها، والأحاسيس ليست بعيدة عن التعبيرات الأخرى، هذه المرأة تعيش فى الريف، بعيداً عن فنون الحب الحضارية، وسرعان ما يصل الرجلان اللذان يفلحان أرض ماريا جوافايرا، ماذا تقول لهما والبيت ملىء بالأغراب؟، ليس هناك شىء يغيّر وجه الأشياء مثل ضوء النهار. لكن هذا الرجل النائم قذف حجراً إلى البحر، وقسّمت جوانا كاردا الأرض إلى نصفين، وكان جوزيه أنايسو ملكاً للزرازير، وبدرو أورثى يهز الأرض بقدميه، والكلب الذى وصل من حيث لا يعرف أحد ليجمع كل هؤلاء الأشخاص، "لقد ربطنى بك أكثر من الآخرين، أنا جذبت الخيط حتى أتيت إلى بابى وسريرى، إلى داخل جسدى، إلى روحى، لأن الصرخة التى أطلقتها لا يمكن أن تصدر إلا من هنا". أغمضتْ عينيها لبضع لحظات وعندما فتحتهما أدركت أن جواكيم زازا قد استيقظ. شعرت عندها بصلابة جسده، وانفتحت له، تشهق هى من القلق، ودون أن تصرخ هذه المرة، أخذت فى البكاء والضحك فى آن، كانت الشمس قد أشرقت تماماً. إن تكرار اللقاء معاً سيكون غير مجدٍ وحساسًا، ليعمل كل منهما خياله، ويتصرف حسب اعتقاده، لا شك ستخطئون، رغم أن مفردات الحب محدودة جداً، وقفت ماريا جوافايرا فبدا جسدها أبيض كما تخيله جواكيم زازا، وقالت، "ما كنت أحب أن أرتدى هذه الملابس الداكنة، لكن لم يعد لدىّ وقت لأبحث عن غيرها، سيأتى العمال

حالاً"، ارتدت ملابسها وعادت إلى السرير، غطت وجه جواكيم زازا بشعرها وقبلته، ثم هربت، وغادرت الغرفة، تقلَّب جواكيم زازا فى السرير، ثم أغمض عينيه، سينام من جديد، كانت هناك دمعة على خده، إنها دمعة ماريا جوافايرا أو ربما دمعته هو، فالرجال يبكون أيضاً، وليس فى ذلك مدعاة للخجل بل إن البكاء يمكن أن يكون مفيداً لهم.

تلك هى غرفة التى نام فيها جوانا كاردا وجوزيه أنايسو، بابها مغلق، لا يزالان يغطان فى النوم. وذلك الباب الآخر موارب، جاء الكلب لينظر إلى ماريا جوافايرا، ثم عاد إلى الداخل، وتمدد من جديد، حارساً على نوم بدرو أورثى، الذى يرتاح بعد مغامراته واكتشافاته. كان واضحاً فى المناخ العام أن اليوم سيكون حاراً. تأتى السحب من ناحية البحر وتبدو كأنها تجرى بسرعة أكثر من اللازم بسبب الرياح. إلى جوار ذات الحصانين رجلان، إنهما الأجيران جاءا ليبدءا عمل اليوم، يتحدثان فيما بينهما ويقولان إن الأرملة، التى دائماً ما تشكو من قلة إنتاج الحقل، اشترت سيارة، "الميت من الجوع، يعيش سعيداً"، هذا الحكم جاء من الأكبر سناً. نادت عليهما ماريا جوافايرا، بينما كانت توقد النار لتسخين القهوة وشرحت لهما أنها آوت بعض المسافرين التائهين، ثلاثة منهم برتغاليون، لكن معهم إسبانى، لا يزالون نائمين، إنهم مساكين، قال الأكثر شباباً، "أنتِ وحدكِ هنا لستِ آمنة جداً"، لكن تلك الجملة، التى تبدو

تضامناً إنسانياً، ليست سوى واحدة من أخريات قالها لها من قبل، موجهة إلى معانٍ مختلفة، "ما يجب عليك يا سيدتى هو أن تتزوجى من جديد، أنتِ فى حاجة إلى رجل يحافظ لك على البيت، ولن تجدى أفضل، أنا لا أمدح نفسى، منى، سواء فى العمل كما فى الأشياء الأخرى، المسألة أننى أحترمكِ، وها أنتِ ترين، أحبكِ كثيراً، سيأتى يوم أدخل فيه من الباب وسأبقى، أنتِ تصيبيننى بالجنون، فأنا لست من خشب"، "إننى أحذرك، إن اقتربت منى سأقذفك بالطاسة فى وجهك"، هذا ما قالته ماريا جوافايرا، والأكثر شباباً لم يجد أمامه سوى العودة إلى جملته الأولى، معدلاً فيها بعض الشىء، "ما تحتاجينه هو شخص يحرس كل هذا"، ولا حتى بهذا المعنى استطاع أن يحصل على شىء، إلى اليوم.

ذهب العاملان إلى الحقل وعادت ماريا جوافايرا إلى الغرفة. كان جواكيم زازا لا يزال نائماً. ببطء، وحتى لا يستيقظ، فتحت الصندوق وبدأت فى اختيار ملابس من زمن السعادة، درجات من الوردى، والأخضر، والأزرق، الأبيض والملون، البرتقالى والبنفسجى، والألوان النسائية الأنيقة، هذا ليس مخزن ملابس مسرح أو أنها تتمتع بحس عاملة التطريز، لكن العالم كله يعرف أن فستانين لامرأة يمثلان استعراضاً، وبقميصين وجونلتين يمكن صنع قوس قزح. كانت الملابس تفوح برائحة النفتالين والتخزين، بدأت ماريا جوافايرا فى نشرها فى

الشمس حتى تتبخر الروائح الكيميائية والزمن الميت، وبينما كانت تهبط وذرعاها محملة بالألوان، التقت جوانا كاردا التى تركت رجلها أيضاً فى حماية الشراشف، وفهمت على الفور ما يحدث، تضرب الرياح شعريهما، تنطلق الملابس وترفرف كما الأعلام، حتى تدفع إلى الرغبة فى الصراخ، "تحيا الحرية".

تعودان إلى المطبخ لإعداد الطعام، تنتشر رائحة القهوة الطازجة، والحليب، وخبز من الأكثر لذة، وجبن جاف، وحلوى من الفاكهة، كل هذه النكهات معاً توقظ الرجال، ظهر جوزيه أنايسو أولاً، وبعده جواكيم زازا، ولم يكن الثالث رجلاً بل الكلب، برز أمام الباب، نظر ثم عاد إلى الخلف، قالت ماريا جوافايرا، "سيذهب بحثاً عن سيده"، التى لها نظرياً حق الملكية لكنها تنازلت عنها. وأخيراً ظهر بدرو أورثى، ألقى بتحية الصباح وجلس صامتاً، يبدو فى نظرته شىء من الضيق عندما يلاحظ إشارات الرقة الخفية التى يتعامل بها الأربعة، سواء بين كل زوجين أو بينهم الأربعة جميعاً، فعالم الفرح له شمسه الخاصة والمختلفة.

هذا الغضب لا يناسب بدرو أورثى، الذى يعرف أنه شيخ، ولكن من واجبنا أن نتفهمه، لو لم يقبل بالهزيمة، أراد جوزيه أنايسو أن يُدخله فى الحوار العام، ويسأله إن كانت قد أعجبته النزهة الليلية، وإن كان الكلب رفقة طيبة، وبدرو أورثى الذى استسلم، يشكر داخلياً اليد الممدودة، فقد جاءت الكلمات فى

لحظتها المناسبة، قبل أن تعقّد المرارة المشاعر المستثارة، قال، "لقد ذهبت حتى البحر"، وهنا بدت الدهشة الكبرى، والأكثر دهشة كانت ماريا جوافايرا، التى تعرف جيداً أين يوجد البحر وصعوبة الوصول إليه. يقول بدرو أورثى، "لكن لو لم يكن الكلب معى، ما كان يمكننى أن أصل"، وسرعان ما تذكر السفينة الحجرية، أربكته هذه الذكرى، غير قادر على الفهم، لبضع ثوان، إن كانت تلك السفينة حلماً أم أنها كانت شيئاً محدداً وواقعياً، "لو أننى كنت أحلم، ولم تكن تلك صورة متخيلة، فإن السفينة موجودة، وأنها هناك فى هذه اللحظة، أنا هنا أشرب القهوة والسفينة توجد هناك"، إن قدرات التخيل قوية إلى حد أنه يستطيع الآن، رغم كونه شاهدها فقط تحت الضوء القليل للنجوم، فإنه يتخيلها الآن فى ضوء النهار، تحت الشمس والسماء الزرقاء، والصخرة السوداء تحت السفينة المتحجرة، ودون أن يفكر أنه ربما كان مخدوعاً، نظم نظريته، وعرضها، وإن كان بعض التشوش يشوب كلماتها، والعملية الكيميائية، ولكن بدأت تهرب الكلمات منه، فقد أقلقته جملة ماريا جوافايرا، المستهجنة، وانتهى إلى فرضية أخرى تحميه وتضمن له خط الرجعة، "بالطبع أقرُّ تماماً أنها ربما كانت نتيجة عوامل التعرية".

قالت جوانا كاردا إنها تريد أن تذهب لرؤيتها، وأبدى جوزيه أنايسو وجواكيم زازا موافقتهما على الفور، فقط ماريا جوافايرا لم تنطق، وتبادلت

النظرات مع بدرو أورثى. سكت الآخرون، وفهموا أن الكلمة الأخيرة لم تقل بعد، هذا إذا ما كانت هناك كلمة أخيرة تصلح لكل الأشياء، ما يُعرض على مائدة البحث القضية الحساسة عن كيف انتهت الأشياء بعد أن قيل كل شىء عنها. أمسكت ماريا جوافايرا يد جواكيم زازا كما لو كان يؤدى قسماً، وقالت، "سفينة حجرية؟"، "هذا ما قلته على التو، تحولت إلى حجرية مع الزمن، أمكنها أن تتحجر، ولكن من الممكن أن تكون من صنع الصدفة وأن شكلها الحالى صنعته ونحتته الريح وعناصر مناخية أخرى، مثلاً، ويمكن أن تكون من صنع البحر، ربما ارتفع المد فى فترة من الفترات"، "إنها سفينة حجرية كانت دائماً هناك، سفينة جاءت من بعيد، وبقيت هناك بعد أن غادرها الأشخاص الذين سافروا عليها"، استفسر جوزيه أنايسو، "أشخاص؟"، "أو ربما فرد واحد، لست متأكدة من هذا"، سأل بدرو أورثى متشككاً، "وهل مؤكد ما تقولينه، كيف يمكن التأكد منه؟"، "يقول القدماء، من نقلوا عن آخرين أكثر قدماً، وأولئك عن أكثر قدماً منهم، أنه على هذا الشاطئ، جاءت سفن حجرية قادمة من صحراوات من الطرف الآخر من العالم، بعضهم قديسون، بعضهم وصل حياً، وآخرون موتى، كما كان الحال مع سانتياجو، وانغرست السفن وبقيت فى مكانها منذ تلك الأزمنة، وهذه واحدة منها"، سأل بدرو أورثى، "هل تعتقدين فعلاً فيما تقولين؟"، "المسألة ليست فى الاعتقاد أو عدم الاعتقاد، كل ما

نقوله يُضاف إلى ما هو قائم، إلى ما هو موجود، قلت أولاً جرانيت، وبعدها أقول سفينة، وعندما أصل النهاية من كلامى، وإن لم أكن أعتقد فيما قلت أنا علىَّ أن أعتقد فيما قلته أنت، فى كثير من الأحيان هذا يكفى، والماء أيضاً، والدقيق والخميرة يصنعان الخبز".

لقد وقع جواكيم زازا على امرأة حكيمة، إلهة حكيمة من جبال جيليقيا، أحياناً لا نفكر فى هذا، لكن الحقيقة أن الأشخاص يعرفون أكثر مما نعتقد، وكثيرون لا يتخيلون ما لديهم من علوم، السيئ هو محاولة أن يكونوا من ليسوا هم فعلاً، حينها يفقدون المعرفة واللطف، من الأفضل لهم أن يفعلوا مثل ماريا جوافايرا التى اكتفت بالقول، "قرأت فى حياتى بعض الكتب، الجميل أننى استطعت أن أستفيد منها"، إنها ليست المرأة التى يغريها ما يُقال عنها، إنه الراوى، العاشق للعدالة، من لا يستطيع مقاومة التعليق. ستسأل الآن جوانا كاردا متى سيذهبون لرؤية السفينة الحجرية، فى اللحظة التى كانت ماريا جوافايرا، ربما حتى لا يطول الحوار فى هذا المجال لأنه ليس من مهامهم، كنا نقول، إنه فى تلك اللحظة التى قامت فيها بتشغيل الراديو الموجود فى المطبخ، فالعالم لديه أنباء يريد أن يقولها لنا، إنه هكذا كل صباح وكلها أخبار مرعبة، ورغم ضياع بعض الجمل الأولى، سرعان ما يجرى استعادتها. "منذ ليلة أمس، بشكل غير مفهوم، فإن سرعة إبحار شبه الجزيرة تغيرت،

آخر قياس سجل أكثر من ألفى متر فى الساعة، أى حوالى خمسين كيلومتراً يومياً، أى، ثلاثة أضعاف ما تم تسجيله منذ أن بدأ الإبحار".

ربما سيطر الصمت على كل شبه الجزيرة فى تلك اللحظة، الأخبار مسموعة فى البيوت والساحات، ولكن هناك من سيعرف عنها بعد بثها بوقت متأخر، مثل الرجلين اللذين يعملان فى أرض ماريا جوافايرا، هما هناك فى الحقل، بعيداً، نراهن أن الأكثر شباباً سيترك مسألة الغزل والمطاردة ولن يفكر سوى فى حياته وإنقاذ نفسه. لكن الأسوأ ما هو آت، عندما يقرأ المذيع نبأ لشبونة، لا بد أن يعرف مهما حدث، فالسر مرَّ عليه وقت طويل قبل إعلانه. هناك انزعاج كبير فى الأوساط الرسمية والعلمية البرتغالية، بما أن أرخبيل جزر الآزور موجود بالضبط فى المسار الذى سلكته شبه الجزيرة حتى الآن، فقد بدأت أولى علامات القلق بين السكان، وإن لم يكن من الممكن الحديث بعد عن الرعب، وإن كان من المقرر البدء بعد ساعات فى تنفيذ خطة إجلاء مدن وقرى الساحل التى تعتبر مهددة بشكل مباشر بالاصطدام، بالنسبة لنا نحن، الإسبان، يمكننا أن نعتبر أنفسنا بعيداً عن النتائج المباشرة؛ فالأرخبيل يقع ما بين خطى طول السادس والثلاثين والأربعين، وبما أن جليقيا كلها توجد فى شمال خط طول الثانى والأربعين، من السهل ملاحظة، إذا لم يحدث تغيير فى اتجاه السير، أن البلد الشقيق فقط، سيعانى من الاصطدام المباشر،

دون نسيان، بالطبع، الجزر سيئة الحظ نفسها، فهى تخضع لخطر الاختفاء تحت الكتلة الحجرية المبحرة الآن، وكما ذكرنا، فإنه إضافة إلى السرعة الكبيرة التى تصل إلى خمسين كيلومتراً يومياً، وإمكانية أن تلعب الجزر دور الكابح المؤقت الذى يحاول إيقاف هذا السير الذى لا يجد من يوقفه حتى الآن، نكون جميعاً بين يدى الله، فقوة الإنسان لا تكفى لوقف الكارثة إذا حدثت، من حسن الحظ، نكرر، نحن الإسبان تقريباً بعيدون عن الخطر، رغم كل شىء، لا مكان للتفاؤل المفرط، ويجب التخوف دائماً من النتائج الثانوية للاصطدام، لذلك لابد من الاحتياط، ولا يجب أن يبقى على الشواطئ الجيليقية سوى الأشخاص، الذين لا غنى عن وجودهم هناك، والذين لا يستطيعون الانسحاب نحو الأراضى الداخلية". صمت المذيع، وبدأت موسيقى موضوعة لمناسبة أخرى مختلفة، وجوزيه أنايسو، متذكراً يقول لجواكيم زازا، "كنت محقاً عندما تحدثت عن جزر الآزور"، يا لقدرة الرقة الإنسانية، حتى فى هذه اللحظة الخطرة من الحياة، أعجبه أن يتم الاعتراف لجواكيم زازا بأنه محق أمام ماريا جوافايرا، وإن لم يكن يستحق لأنه سمع هذا الكلام فى المعامل التى أخذوا إليها بدرو أورثى.

كما فى حلم متكرر، كان جوزيه أنايسو يعيد حساباته، طلب ورقة وقلماً، لم يكن يريد هذه المرة أن يعرف كم من الأيام تمضى قبل أن يمر جبل طارق أمام سييرا جابور؟ لقد كان ذلك فى زمن الفرح، والآن

يجب الإسراع لمعرفة الأيام المتبقية قبل أن يصطدم رأس روكا بجزيرة ترسييرا، يشعر الواحد بقشعريرة فقط عند التفكير فى تلك اللحظة، بعد أن تنغرس جزيرة سان ميجيل كمهماز فى الأرض اللينة للألينتيخو، فى الحقيقة، فى الحقيقة أقول لكم، ليس هناك من حدث سيئ إلا ويأتى بما هو حسن. يقول جوزيه أنايسو بعد أن يُنهى حساباته، "سرنا ما يقرب من ثلاثمائة كيلومتر، وبما أن المسافة ما بين لشبونة وأرخبيل الآزور حوالى ألف ومائتا كيلومتر، علينا أن نسير حوالى تسعمائة كيلومتر وتسعمائة كيلومتر، بسرعة خمسين كيلومترًا يومياً، يمكننا الوصول فى حوالى ثمانية عشر يوماً، أى، فى حوالى العشرين من سبتمبر، وربما قبل ذلك، سنصل إلى أرخبيل الآزور". حيادية الخلاصة كانت سخرية مريرة لم تدفع أحداً للضحك. ذكَّرت ماريا جوافايرا، "لكننا نحن هنا فى جيليقيا، بعيداً عن الاصطدام"، حذر بدرو اورثى، "لا يجب الوثوق، يكفى أن ينحرف الاتجاه قليلاً، نحو الجنوب، وسنكون نحن من نصطدم بكاملنا بالجزر، أو ربما، الشىء الوحيد الممكن فعله، هو الهرب باتجاه الداخل، كما أشار المذيع، ورغم ذلك فلا أحد آمن"، "ونترك البيت والأرض؟"، "لو حدث ما يعلنون فإنه لن يكون هناك لا بيت ولا أرض"، كانوا جالسين حتى هذه اللحظة ويمكنهم أن يظلوا جالسين طوال ثمانية عشر يوماً. كان الحطب يحترق فى المطبخ، والخبز على المائدة، وأشياء أخرى، لبن وقهوة، وجبن، لكن الخبز

كان اللافت لأنظار الجميع، نصف رغيف كبير، بقشرة ثقيلة ولب متماسك، لا يزالون يشعرون بطعمه فى أفواههم، منذ زمن، لكن اللسان يشعر بما تبقى بعد المضغ، عندما يأتى يوم نهاية العالم سننظر إلى آخر نملة بالصمت المؤلم لمن يعرف أنه يودع إلى الأبد.

قال جواكيم زازا، "تنتهى إجازتى اليوم، وللقيام بعمل الأشياء جيداً، علىَّ أن أكون فى بورتو غداً"، كانت تلك الكلمات الموضوعية فقط مقدمة لإعلان ما، "لا أعرف إن كنا سنظل معاً أم لا، هذه مسألة لا بد من حلها، لكن، بالنسبة لى، أريد أن أكون حيث تكون ماريا إذا هى قبلت الأمر وأرادته"، الآن، وكما أنه لا بد من قول الأشياء فى وقتها، وكما يجب وضع كل جزء فى مكانه طبقا للنظام والمكان، فقد انتظروا أن تتكلم ماريا جوافايرا أولاً، فقالت هى، "هذا ما أريده"، دون حاجة إلى كلمات لا مكان لها هنا. وقال جوزيه أنايسو، "إذا اصطدمت شبه الجزيرة بالآزور، فإن المدارس لن تفتح مبكراً، حتى أنه من الممكن ألا تفتح أبداً، سأبقى مع جوانا ومعكم لو هى قررت ذلك"، أصبح الدور الآن على جوانا كاردا، التى قالت مثل ماريا جوافايرا ثلاث كلمات فقط، فالنساء أصبحن اليوم قليلات الكلام، "سوف أبقى معك"، كان ذلك لأنها كانت تنظر إليه بشكل مباشر، لكنهم فهموا جميعاً الباقى. وأخيراً، الأخير، لأن أحدهم لا بد أن يكون الأخير، بدرو أورثى، قال، "أنا أذهب حيث نذهب جميعاً"، تلك الجملة، التى من الواضح أنها تسىء إلى

قواعد اللغة والمنطق لتماديها فى المنطق وربما فى قواعد اللغة أيضاً، يجب أن تبقى دون تصحيح، كما قيلت، لو وجد لها أحد حلاً فلينفذه، من له خبرة مع الكلمات يعرف أنه يمكن أن ينتظر منها كل شىء. والكلاب، معروف، أنها لا تتكلم، وهذا لا يستطيع حتى إصدار صوت يعبر به عن فرحته بالموافقة.

فى ذلك اليوم، ذهبوا جميعاً لرؤية السفينة الحجرية، ارتدت ماريا جوافايرا ملابسها الملونة، دون حتى أن تهتم بكيها، مسحت الرياح والضوء كرمشات وجودها طويلاً فى الأعماق. كان بدرو أورثى فى مقدمة الجمع، كمرشد مستحق وإن كان يثق أكثر فى غريزة وتوجه الكلب من عينيه، والتى كان ضوء النهار بالنسبة لها كل شىء فى الطريق الجديد. من لا يجب أن ننتظر من ماريا جوافايرا أى توجيه، طريقها كان آخر، كل شىء بالنسبة لها مناسبة للإمساك بيد جواكيم زازا والسير خلفه، تلتصق به من وقت لآخر بقبلة، إنها طريقة متفاوتة كما نعرف، لذلك بدلاً من أن ترافق المجموعة كانت سبباً فى تأخيرهم. استخدم جوزيه أنايسو وجوانا كاردا اتجاهاً آخر، لهما أسبوع معاً، وقتلا الجوع الأول، ورويا العطش الأول، نقول إن الاستعجال يأتيهما كلما أرادا ذلك، ولقول الحقيقة، فهما لا يوفران شيئاً. فى الليلة السابقة، عندما رأى بدرو أورثى الضوء من بعيد، لم يكن فقط لأن جواكيم زازا وماريا جوافايرا تحابا، بل كان يمكن لعشرة أزواج النوم فى ذلك البيت ويمارسون جميعاً الحب فى وقت واحد.

السحب تأتى من البحر وتجرى بسرعة، تتجمع وتذوب بسرعة، كما لو كانت كل دقيقة لا تدوم سوى ثانية واحدة أو جزء من الثانية، وكل حركات النساء وهؤلاء الرجال، لا تبدو نفسها أو متشابهة للحظة، بطيئة ومعروفة، يمكن القول إن العالم تغير، لو أنه إضافة إلى التفاهم يمكن وصول المعنى الكامل للتعبير الفقير والشعبى. قد يصلون إلى أعلى التلال وصخب البحر. يكاد بدرو أورثى لا يتعرف على المكان، بين كتل الأحجار المتدحرجة التى تتراكم، والطريق الذى يكاد لا يبين يهبط متدرجاً، كيف أمكنه أن يصل بالأمس إلى هنا، حتى ولو بمساعدة الكلب، إنه إنجاز يعجز عن تفسيره حتى لنفسه، يبحث بعينيه عن السفينة الحجرية ولا يراها، ولكن الآن ماريا جوافايرا هى من تأخذ المبادأة أمام المجموعة، لقد حانت ساعتها، فهى الأفضل من الجميع فى معرفة الطرق. يصلون إلى المكان، ويفتح بدرو أورثى فمه ليقول، "ليس هنا"، لكنه يصمت، أمام عينيه الصخرة التى تمثل الدفة المحطمة، والصارى الذى يبدو أكثر ضخامة تحت الضوء، والسفينة، فى داخلها يكتشف الفوارق الأكبر، كما لو كانت عوامل التعرية، التى تحدث عنها هذا الصباح فعلت فى الليل ما تفعله في آلاف السنين، أين هى؟ لا أراها؟ الدفة مرتفعة ومحطمة، حقيقة أن الصخرة فى شكلها العام تشبه السفينة، لكن ولا أفضل القديسين يمكنه أن يحافظ على شئ كهذا طافياً على وجه الماء، دون أن تغرق، فهى تفتقد إلى

الجوانب، الشكوك ليست فى أنها من الحجر، ولكن الشك يأتى فى أن شكل السفينة قد اختفى، وفى النهاية فإن الطائر يطير لأنه طائر، فكر بدرو أورثى، ولكن هناك الآن ماريا جوافايرا تقول، "هذه هى السفينة التى جاء فيها قديس من الشرق، وهناك لا تزال تظهر آثار الأقدام عندما نزل من السفينة واتجه نحو الأرض الداخلية، الآثار كانت حفراً فى الصخر، وهى الآن بحيرات صغيرة، تحرك الأمواج خلال المد يجددها بشكل متواصل، بالطبع فإن كل شك مشروع، لكن الأشياء تتوقف على القبول أو الرفض، فإذا جاء قديس من بعيد مبحراً على صخرة، فليس من المستحيل ألا تصهر آثار أقدامه النارية الصخر وتبقى حتى اليوم. لم يكن أمام بدرو أورثى سوى القبول والثقة فيما يسمع، لكنه يحتفظ لنفسه بذكرى السفينة الأخرى التى شاهدها هو فقط، فى تلك الليلة التى تكاد لا تبين نجومها ورغم ذلك كانت مليئة بالرؤى العليا.

يقفز البحر على الصخور كما لو كان يصارع ضد تقدم المد نحو الأحجار والأرض. لا ينظرون الآن نحو السفينة الأسطورية، ينظرون إلى الأمواج التى تتحكم، وجوزيه أنايسو يقول، "نحن فى الطريق، نعرفه ولا نشعر به"، وجوانا كاردا، "أى مصير؟". حينها قال جواكيم زازا، "نحن خمسة أفراد وكلب، لا تكفينا ذات الحصانين، إنها مشكلة علينا أن نحلها، أحد الحلول أن نذهب نحن ـ الاثنين ـ جوزيه وأنا، بحثاً عن سيارة

أكبر، من بين تلك المهجورة فى كل مكان، من الصعب العثور على واحدة فى حالة جيدة، فكل ما شاهدناها كانت دائماً ينقصها شىء"، قال جوزيه أنايسو، "عندما نصل البيت سنقرر ما يجب عمله، لا يزال لدينا وقت"، همهمت ماريا جوافايرا، "لكن ماذا عن البيت، والأرض؟"، قال بدرو أورثى، "ليس هناك اختيار، إما أن نرحل من هنا، أو نموت جميعاً"، كانت تلك الكلمات نهائية.

بعد الغداء ذهب جواكيم زازا وجوزيه أنايسو فى ذات الحصانين بحثاً عن سيارة أكبر، ومن الأفضل أن تكون سيارة جيب، ولو كانت عسكرية ستكون أفضل، والأفضل أن تكون من الناقلات، من تلك ذات الصندوق المغلق بحيث يمكن تحويلها إلى بيت متحرك وغرفة نوم، لكن، تماماً كما تخيل جواكيم زازا بشكل تقريبى، لم يعثروا على ما يفيدهم، إضافة إلى أن تلك المنطقة لم تكن من المناطق المعروفة بسياراتها بشكل خاص. عادا عند حلول المساء عبر الطريق الذى بدأ يزدحم بالمرور شيئاً فشيئاً، من الغرب باتجاه الشرق، إنها بداية هروب الناس من الساحل، كانت هناك سيارات صغيرة، وعربات، ومرة أخرى الحمير المحمّلة التى لا تُنسى، والدراجات، وإن كانت قليلة فى طريق لا يصلح لها، ودراجات نارية وسيارات نقل الركاب العامة، من ذات الخمسين أو أكثر من الركاب، تنقل قرى بكاملها، لقد كانت أكبر هجرة فى تاريخ جيليقيا. بعض الركاب كانوا ينظرون بدهشة إلى المسافرين فى

الاتجاه المعاكس، وحتى وصلوا إلى حد إيقافهما، ربما ليعرفوا منهما ما الذى يحدث. يقول جوزيه أنايسو، "نعرف نحن هذا، شكراً، نحن ذاهبان فقط للبحث عن بعض الأصدقاء، ولا يزال الخطر بعيدًا الآن"، "إذا كان الحال هنا هكذا، فما الذى يحدث فى البرتغال؟"، وفجأة طرأت على ذهنه فكرة منقذة، "كم نحن أغبياء، الحل سهل جداً، نقوم بالرحلة على مرتين، أو ثلاث، أو العدد الذى نحن فى حاجة إليه، نختار مكاناً فى الداخل لنقيم فيه، بيتاً، لن يكون صعباً، فالناس تهجر كل شىء". كان هذا هو النبأ الذى حملاه، واحتفوا به كما يجب، وفى اليوم التالى بدءوا فى اختيار وتنظيم ما هم فى حاجة إليه من حاجيات لحمله، انعقدت بعد الغداء حلقة نقاش، وتم وضع قائمة بالاحتياجات، وأصبح على ذات الحصانين أن تسير كثيراً وتحمل أكثر.

فى صباح اليوم التالى لم يظهر العاملان وموتور ذات الحصانين لم يعمل. الكلام بهذه الطريقة يبدو كما لو كان يريد الربط بين أى من الحدثين، مثلاً، أن الفلاحين المتغيبين قد يكونان أخذا قطعة أساسية من السيارة، لحاجة عاجلة أو بقصد سيئ. لكن الأمر ليس كذلك، فالشيخ كما الفتى الشاب ذهبا تحت ضغط الهجرة الجماعية، التى أقفرت الساحل بعمق خمسين كيلومتراً، لكن خلال ثلاثة أيام، عندما هجر السكان البيت، سيعود العامل الأكثر شباباً الذى كان يطارد ماريا جوافايرا وأرض ماريا جوافايرا، سواء

بهذه الأولوية أو العكس، ولن نعرف أبداً إن كان قد عاد لتحقيق حلمه بأن يكون مالكاً لتلك الممتلكات، ولو لأيام محدودة فقط قبل أن يموت فى كارثة جيولوجية ستأخذ معها الأرض والأحلام، أو ما إذا كان قد قرر البقاء كحارس، مناضل ضد العزلة والخوف، مخاطر بكل شىء على أمل الفوز بكل شىء، يد ماريا جوافايرا وأموالها، لو لم يصل التهديد الغامض، من يعرف، بشكل قاطع، ربما عندما تعود ماريا جوافايرا فى يوم من الأيام، هذا لو عادت، ستجد رجلاً يحرث الأرض، أو نائماً، متعباً من العمل، فى سحابة من الصوف الأزرق.

ناضل جواكيم زازا طوال اليوم مع الميكانيكا العنيدة، وساعده جوزيه أنايسو بقدر ما استطاع، لكن خبرة كليهما لم تكن كافية لحل المشكلة، لم تكن تنقص قطع غيار، ولا الوقود، لكن فى أعماق الموتور هناك شىء متعب ومكسور، أو كان يتآكل ببطء، يحدث هذا مع البشر، ويمكنه أن يحدث مع الماكينات، فى يوم ما، دون سابق إنذار، يقول الجسد، "لا"، أو الروح أو النفس أو الإرادة، ويتوقف كل شىء، وذات الحصانين وصلت إلى هذه النقطة، أحضرت إلى هنا جواكيم زازا وجوزيه أنايسو، وتركتهما فى منتصف الطريق، على الأقل شكراً لها ولا تغضبوا منها، فاللكمات لا تحل أية مشكلة، وضربات الأقدام لا تُصلح شيئاً، ذات الحصانين ماتت. عندما دخلا البيت منهكين، وملطخين بالزيت، وأيديهما تالفتان من كثرة النضال،

وبلا أدوات تقريباً، ضد الصواميل والمسامير والتروس، وذهبا ليغتسلا، بالمعاونة الجميلة لنسائهما، المناخ كان كارثياً، سأل جواكيم زازا، "والآن كيف سنخرج من هنا؟"، منطلقاً من إحساسه بملكية السيارة، وليس فقط كمسئول، ولكن كمذنب، وقد اعتقد أن الأمر شيء من عدم اعتراف القدر بالجميل، وإهانة شخصية، فبعض خدش الحياء لا يعنى على الأقل عملاً عبثياً.

تم عقد مجلس عائلى على الفور، كان يبدو أن اللقاء سيكون عاصفاً، لكن ماريا جوافايرا أخذت المبادرة بالكلام بتقديم عرض، "عندى عربة قديمة ربما تصلح، والحصان ليس فتياً، لكن لو عاملناه بحرص من الممكن أن يحملنا". مرت لحظات من الحيرة، رد فعل طبيعى من أناس اعتادوا على السيارات وفجأة يجدون أنفسهم مجبرين، لأسباب حياتية صعبة، بالعودة إلى عادات قديمة. سأل بدرو أورثى، "وهل العربة مغطاة؟"، إنها عملية ومن الأجيال القديمة، "الغطاء ربما لا يكون الآن فى حالة جيدة، ولكن يمكن ترقيعه فى الأماكن التى تحتاج إلى ذلك، عندى قماش سميك يصلح لعمل الرقع"، قال جواكيم زازا، "ولو احتاج الأمر، يمكن نزع غطاء ذات الحصانين، فهى لن تكون فى حاجة إليه، وستكون آخر مساعدة تقدمها لنا". نهضوا جميعاً واقفين، سعداء، يعتقدون أن المغامرة كبيرة، يتجولون فى هذا العالم فى عربة، كلمة عالم ما هى إلا طريقة فى

القول، وهم يقولون، "هيا نرى الحصان"، "هيا نرى العربة"، ومطلوب أن تقوم ماريا جوافايرا بشرح أن العربة ليست عربة، لها أربع عجلات، ومجموعة توجيه كاملة فى الأمام، وتحت الغطاء الذى سيقيهم من العراء، هناك مكان كافٍ لعائلة، بالتنظيم وحسن الإدارة لاستغلال القليل فإنها ستصبح كما لو كانوا فى البيت.

الحصان شائخ، ما إن رآهم يدخلون إلى الإسطبل حتى أدار نحوهم عينه السوداء الكبيرة، مفزوعاً من الضوء والضوضاء. ينطبق عليه ما قاله الحكيم، حتى تحين ساعته الأخيرة، يمكن أن يحدث أى شىء، لا تفقد صبرك.

■■■

## ـ ١٥ ـ

نظراً للبعد عن الأحداث نعرف القليل عن المشاكل المعقدة التى ظهرت منذ انفصال شبه الجزيرة، وتراكمت وازدادت خطورة داخل الحكومات، وبشكل خاص بعد الغزو الشهير للفنادق، عندما هجمت الجموع الجاهلة وداست على القانون والنظام، إلى درجة عدم القدرة على وضع حلول للأوضاع المستقبلية، وإعادة الممتلكات لأصحابها، كما تقضى قيم الأخلاق والعدالة العليا. هذا مع أننا لا نعرف إن كانت هناك أزمنة قادمة أم لا. نبأ أن شبه الجزيرة تنجرف بسرعة كيلومترين فى الساعة باتجاه الآزور استغلته الحكومة البرتغالية لتستقيل، تحت ضغط خطورة الوضع والخطر الجماعى، مما يسمح بالتفكير أن الحكومات قادرة فقط على العمل بجدية فى اللحظات التى لا تتطلب عملاً ولا قدرة على الإنجاز.

رئيس الوزراء، فى تصريحات للبلاد، أشار إلى أن الشكل الحزبى الواحد لحكومته يعتبر عقبة أمام الحصول على توافق وطنى عام، فى لحظة الانتقال الرهيبة التى نعيشها، وحتى يمكن العودة إلى الأوضاع الطبيعية لا بد من طرح عددٍ من الأفكار المنظمة، وعرَضَ على رئيس الجمهورية تشكيل حكومة إنقاذ وطنى، بمشاركة جميع الأحزاب، سواء من لهم أو لم يكن لديهم ممثلون فى البرلمان، خاصة أنه من الممكن دائماً توفير مناصب وكلاء وزارات ومساعدين بأى وزارة يمكن وضعها تحت تصرف السياسيين، الذين فى الأحوال العادية، لا يُدعون ولا حتى لفتح الباب. ولم ينسَ أن يترك كل شىء واضحاً على أنه وجميع وزرائه فى خدمة البلاد، للقيام بعملهم أو بأية أعمال جديدة مختلفة، والمساعدة على إنقاذ الوطن والسهر على سعادة المواطنين.

قَبِلَ رئيس الجمهورية الاستقالة، وتطبيقاً للدستور وقواعد العمل الديمقراطى للمؤسسات، طلب من رئيس الوزراء المستقيل، كمسئول أعلى عن حزب الأغلبية والذى، حتى الآن، حكم البلاد بمفرده، طلب منه، كما قلنا، تشكيل حكومة إنقاذ وطنى. لأنه من الأفضل ألا تكون هناك شكوك، فحكومات الإنقاذ الوطنى صالحة أيضاً، وحتى يمكننا أن نقول إنها أفضل ما هو موجود، من المؤسف أن الأوطان تحتاجها فى فترات متباعدة جداً، ولهذا ليس لدينا، بشكل عادى، حكومات تعرف كيف تحكم بشكل وطنى. عن

هذا الموضوع، الحساس كالموضوعات الأخرى، بدأت حوارات لا تنتهى بين الدستوريين، والسياسيين والخبراء، وخلال سنوات عديدة ما كان لهم التقدم خطوات لها أهميتها فى مواجهة معانى الكلمات الواضحة، نعم هذا هو، فإن حكومة الإنقاذ الوطنى، بما أنها وطنية، وللإنقاذ، فإنها إنقاذ وطنى. لكن جرولو سيقول نفس الكلام، وسيؤكد أنه أمر طيب. والأفضل من كل هذا أن الشعوب ستشعر أنها بعيدة عن الخطر، أو فى طريقها للابتعاد عنه، وهكذا تم الإعلان عن تشكيل الحكومة المذكورة، ولكنها لم تستطع تجنب مظاهر التشكك الفطرى منذ إعلان الأسماء ونشر صور الوزراء فى التليفزيون. فهى الوجوه نفسها، إذًا ماذا ننتظر، مادمنا نرفض أن نقدم وجوهنا نحن.

تحدثوا عن الأخطار التى تتعرض لها البرتغال إن هى اصطدمت بجزر الآزور، وأيضاً عن الآثار الجانبية، إذا لم يكن الاصطدام مباشراً، وتلك التى تهدد جليقيا، لكن الأكثر خطورة هو، حقيقة، الوضع الذى يواجهه سكان الجزر. لأنه ماذا تعنى جزيرة، الجزيرة، وفى هذه الحالة الأرخبيل بكامله، الجزيرة عبارة عن بروز التلال الواقعة تحت سطح البحر، أى فى أكثر الأوقات ليست إلا قمماً مدببة من الإبر الصخرية التى تتماسك على قاع يمتد لآلاف الأمتار تحت المياه، الخلاصة، أن الجزيرة تكون الأكثر تعرضاً للخطر من الناحية المجازية، والآن هذا الشىء الذى

يظهر، أنه جزيرة أيضاً، لكنها كبيرة وسريعة حتى إننا نوشك أن نشاهد، ونرجو ألا يكون ذلك بعيداً، القطع المتوالى لجزيرة سان ميجيل وترسيرا، وساو خورخى، وفايال على التوالى والعديد من جزر الآزور الأخرى، وما ينتج عن ذلك من فقدان الكثير من الأرواح إذا لم تستطع حكومة الإنقاذ الوطنى، التى يجب أن تبدأ عملها من الغد، وضع حلول لنقل مئات الآلاف، فى وقت قصير، بل الملايين إلى مناطق أكثر أمناً إن وُجدت تلك الأماكن. حتى قبل تسلم الحكومة الجديدة مهام عملها وجه رئيس الجمهورية نداء للتضامن الدولى، هذا التضامن الذى أنقذ إفريقيا من الجوع، وهو ما يتذكره الجميع، ليس سوى مثال من بين الأمثلة العديدة، ويُلاحظ فى الدول الأوروبية أن اللهجة أصبحت الآن أكثر وداً نسبياً، لحسن الحظ فإن ما يتعلق بإسبانيا والبرتغال بعد أزمة الهوية الخطيرة التى مرت بها تلك الدول عندما أعلن الآلاف من الأوروبيين أنهم أيبيريون، فقد استقبلت هذه الدول النداء بتعاطف وطلبت معلومات عن الطريقة التى يريد الأيبيريون مساعدتهم بها، رغم أن الأمر مرتبط، كالعادة بمعرفة هل يمكن تلبية احتياجاتنا مما هو متاح من الفائض عندهم. أما الولايات المتحدة الأمريكية، التى يجب ذكر اسمها دائماً بشكل كامل هكذا، رغم أنها أوضحت أن صيغة حكومة الإنقاذ الوطنى لا تعجبها مطلقاً، لكن نظراً للظروف، تعلن استعدادها إجلاء سكان جزر الآزور، حوالى مائتين وخمسين ألف مواطن فقط، دون أن تبين المكان

المناسب لإقامتهم بعد التهجير، بالطبع فلن يكون فى أراضى الولايات المتحدة نفسها، نظراً إلى أن قوانين الهجرة تمنع دخولهم، فقد كان الحلم السرى لوزارة الخارجية الأمريكية وزارة الدفاع أن توقفها جزر الآزور، وبذلك تثبت شبه الجزيرة فى منتصف المحيط، لأنه الحل الأمثل للسلام فى العالم والحضارة الغربية، وأيضاً من أجل المصالح الإستراتيجية، وتم الإعلان عن أن جميع الأسراب الأمريكية تلقت الأوامر للاتجاه إلى جزر الآزور، لنقل عدة آلاف من الآزوريين، فيما يتم إنقاذ الباقى عبر جسر جوى بدأ الإعداد له بالفعل. وعلى إسبانيا والبرتغال أن تحل مشاكلهما المحلية، ومشاكل الإسبان أقل منا، فقد عاملهم التاريخ والقدر بتحيز واضح.

بترك جيليقا جانباً، فهى منطقة هامشية تماماً، أو تحديداً، منطقة زائدية، تكون إسبانيا بمنأى عن أسوأ نتائج الاصطدام؛ لأنه من الناحية النظرية تحميها البرتغال كواقٍ من الصدمات، لكن هناك مشاكل إمدادية معقدة لا تزال فى حاجة إلى الحل، مثل المدن المهمة، فيجو وبنتيفيدرا، وسانتياجو دى كومبوستيلا، ولاكرونيا، لكن فيما يختص بالباقى، فإن سكان القرى اعتادوا على إهمال الحكومة لحياتهم، دون أن ينتظروا أوامر، أو نصائح أو آراء، اندفعوا باتجاه الداخل، مسالمين طائعين، مستخدمين الوسائل التى أشرنا إليها، ووسائل أخرى، بدءاً بأكثرها بدائية، وهى الأقدام.

لكن الوضع فى البرتغال مختلف جذرياً، انتبهوا إلى أن كل الشاطئ، عدا منطقة الغربى الجنوبية، معرض لرجم الجزر الآزورية، كلمة تستخدم هنا، رجم؛ لأنه فى النهاية لا يوجد فارق كبير فى النتائج بين أن يضربونا بحجر أو نصطدم نحن بحجر، المسألة تكمن فى السرعة والقصور الذاتى، بالطبع دون أن ننسى، أنه فى الحالة المُشار إليها، فإن الرأس المجروح أو المشجوج، يمكنه أن يحول كل هذا إلى حصى. والآن، بشاطئ هكذا، أرضه كلها تقريباً منخفضة والمدن الكبرى كلها على حافة الماء، مع الأخذ فى الاعتبار انعدام البرتغاليين إلى الإعداد لمواجهة الكوارث العامة، الزلازل، والإغراق، وحرائق الغابات، والجفاف، هناك شك فى أن تقوم حكومة الإنقاذ الوطنى بواجبها. الحل يكمن فى زيادة الرعب، ودفع الناس إلى مغادرة بيوتهم على عجل ليحتموا بالحقول الداخلية. السيئ أنه خلال الرحلة أو إقامة هؤلاء الأشخاص سيجدون أنفسم بلا تموين، هناك لن يتخيل أحد إلى أى حد يمكن أن يصل التمرد. كل هذا، بالطبع، يزعجنا، لكن، علينا أن نعترف، بأن ما يزعجنا أكثر لو لم نكن فى جيليقيا، هو أن نهتم بالإعداد لرحلة ماريا جوافايرا وجواكيم زازا، وجوانا كاردا وجوزيه أنايسو، وبدرو أورثى والكلب، الأهمية نسبية لأن الموضوعات مختلفة، حسب وجهة النظر، وحالة اللحظة، والتعاطف الشخصى، وموضوعية الراوى اختراع حديث، يكفى أن نرى أن الله سيدنا لم يضمنه فى كتابه.

مر يومان، وتلقى الحصان غذاءً مقوياً، مدعماً بالقرطم والشوفان، فقد كان يخضع من قبل لنظام طعام أولى، وحتى جواكيم زازا اقترح تقديم حساء النبيذ له، وتم ترقيع ثقوب العربة بالغطاء المأخوذ من ذات الحصانين، إضافة إلى الراحة الداخلية التى تتيحها، فهى تحمى من المطر عندما يهطل بشكل متواصل عما أمطرته فى الأيام الأخيرة، فقد جاء سبتمبر ونحن فى أرض كثيرة المياه. فيما بين الرواح والقدوم يمكن حساب أن شبه الجزيرة ربما تكون قد أبحرت مائة وخمسين كيلومتراً منذ أن حسب جوزيه أنايسو حساباته. سيبقى إذًا، السير لحوالى سبعمائة وخمسين كيلومتراً، أو خمسة عشر يوماً، لمن يفضل مقياساً أكثر تجريبية، بعدها، دقيقة أكثر أو دقيقة أقل، سيأتى أول صدام، "بحق يسوع، ومريم ويوسف"، هؤلاء الألتيخانوس المساكين، لحسن الحظ أنهم معتادون، فهم كالجيليقيين، جلودهم قاسية جدًا، وهنا يمكننا العودة إلى الكلمات القديمة، بتسميتها الجلود نوفر شروحاً أكثر. فى هذا الوادى الفردوسى لجيليقيا فإن الزمن يأتى ويكفى للحماية من الرفقة. وبالعربة الآن مراتب، وشراشف وبطاطين، وحقائب الجميع، ومطبخ بدائى، وطعام معد للأيام الأولى، عجة بطاطس، هذا إذا كان مطلوب التحديد، وأنواع أخرى من الأغذية، الريفية والمنزلية، لوبيا حمراء، وفاصوليا بيضاء، وأرز، وبطاطس، وبرميل مياه، وقربة نبيذ، وفرختان تضعان البيض، إحداهما مبرقشة وبعنق

عارٍ، وسمك مجفف، وإبريق زيت، وزجاجة خل، وملح، لا يمكن الحياة بدونه، إلا إذا هربنا من التعميد، وفلفل أسود وأحمر، وكل الخبز الموجود فى البيت، ودقيق فى كيس، وحشائش مجففة، وقرطم، وشوفان للحصان، أما الكلب فعليه أن يبحث عن طعامه بلا مساعدة، وقبوله كان من باب الإرضاء. ماريا جوافايرا، دون سبب ظاهر، وربما لا تستطيع تفسيره لو سألوها، قالت، "صنعت أساور للجميع من خيط الصوف الأزرق وأطواقاً لرقبة الحصان والكلب. كان حجم الصوف كبيراً فلم يتم ملاحظة الفارق. من ناحية أخرى، ولو كانت تريد أن تحمله معها، فإن العربة لا تكفى. إضافة إلى أن نقله لم يكن موضوعاً فى الحسبان، وإلا فأين يمكن للأجير الشاب أن ينام الذى سينتهى به الحال إلى النوم هنا.

ناموا متأخرين فى آخر ليلة أمضوها بالبيت، ظلوا يتحدثون ساعات وساعات، كما لو كان اليوم التالى يوم الوداع المؤلم، كل فى مكانه، أما البقاء معاً فإنه كان دافعاً لتقوية العزيمة، فالأعضاء تنقسم فى اللحظة التى تنقسم فيها الجماعة، كل ما هو قابل للتحطم قد تحطم. نشروا خارطة شبه الجزيرة على مائدة المطبخ، فى تلك الصورة التى كانت لا تزال مرتبطة فيها بفرنسا، وحددوا مسيرة اليوم الأول، الافتتاحى، واختاروا باحتراس الطرق الأقل عرضة للحوادث، مع الأخذ فى الاعتبار قوة لاثارو الحصان، لكن عليهم الانحراف إلى الشمال قليلاً، حتى

لاكورونيا، هناك حيث توجد أم ماريا جوافايرا المجنونة فى المستشفى، حب الابنة البسيط كان مع إخراجها من المستشفى، ولكن لنتصور الرعب الذى يمكن أن يسيطر على البيت عندما تفتح جزيرة الباب وتجرف فى طريقها المراكب الراسية، وكل تلك العنابر الزجاجية فى شارع لامارينا محطمة فى اللحظة نفسها، والمجانين يعتقدون، وفى جنونهم يمكنهم أن يعتقدوا، أن يوم القيامة قد حان. كان على ماريا جوافايرا أن تكون أمينة لتقول، "لا أعرف كيف سنتصرف مع أمى داخل العربة، رغم أنها ليست عصبية، سنأخذها فقط إلى مكان آمن، فتحلوا بالصبر". أجابوها بأنهم سيفعلون، وأنها لا يجب أن تنزعج، وأن كل شىء سيجرى على أفضل حال ممكن، لكننا نعرف جيداً أنه لا الحب الكثير يمكنه أن يبقى فى ظل جنونها، وأنها ستُلقى به على الآخرين لو أرادت، فى هذه الحالة الأم المجنونة لأحد المجانين. لحسن الحظ أن جوزيه أنايسو طرأت عليه الفكرة السعيدة بالحديث تليفونياً عند أول مكان يمكن فيه عمل هذا، للتعرف على الأخبار، فاكتشف أن السلطات الصحية نقلت أو ستنقل المرضى إلى مكان آمن، لأن هذا الغرق لن يكون تقليدياً، وهنا سيتم أولاً إنقاذ من هم فى خطر.

وأخيراً انسحب كل زوجين إلى غرفتهما، ليفعلا ما يقومون به عادة فى مثل هذه المواقف، من يعرف ربما نعود يوماً إلى هنا، فليبق إذًا هنا صدى الحب

الإنسانى الجسدى، هذا الذى لا شبيه له بين أى من الكائنات؛ لأنه مكون من تنهيدات، وهمهمات، وكلمات مستحيلة، من لعاب وعرق، من احتضار، واستشهاد متوحد، "ليس بعد، يمكن الموت عطشاً، ورفض الماء المحرر"، "الآن، الآن، الحب، إنه هذا الذى لا يجب أن يسرقه لا الشيخوخة ولا الموت". بدرو أورثى، الذى شاخ وجاءه أول إنذار من الموت، وهو العزلة، خرج مرة أخرى ليرى السفينة الحجرية، ذهب معه الكلب الذى يحمل كل الأسماء ولا اسم منها، ولو قالوا إنه للذهاب لو لم يذهب الكلب، فإن بدرو أورثى لن يذهب وحده؛ لأنه ينسى الأصل البعيد للحيوان، فكلاب جهنم شاهدت كل شىء، وبما أن حياتها طويلة فهى ليست رفيقا لأحد، إنهم البشر، من يعيشون قليلاً، هم من يرافقون هذه النوعية من الكلاب. كانت السفينة الحجرية هناك، والدفة عالية ومدببة كما فى الليلة الأولى، هذا لا يدهش بدرو أورثى، فكل إنسان يرى العالم من خلال ما تراه عيناه، والعينان تريان ما تريدان، العينان تجمعان اختلافات الدنيا وتصنعان منها العجائب، حتى لو كانت من حجر، والدفات العالية حتى لو كانت من صنع الخيال.

استيقظ الصباح غائماً وممطراً، طريقة لقول شىء عادى ولكن ليس بالضبط؛ لأن الصباح لا يستيقظ، بل نستيقظ نحن فيه، وحينما نقترب من النافذة، نرى أن السماء مغطاة بالسحب المنخفضة وتسقط الأمطار الخفيفة، سيرافقهم البلل، رغم أن

قوة العادات كبيرة، فإنه سيرافقنا خلال تلك الرحلة، ولو كانت لرحلتنا هذه يوميات فإن كاتبها سيبدأ صفحته الأولى هكذا، "استيقظ الصباح غائماً وممطراً، كما لو كانت السماء تجهض المغامرة، دائماً ما يحدث فى مثل هذه الحالات نُحمّل السماء المسئولية، لا يهم إن كانت تمطر أم أن الشمس مشرقة". دفعوا ذات الحصانين لتحل محل العربة تحت السقف، رغم أنه ليس سقفاً من الطوب وإنما من القش، وأنه ليس جراجاً بل مخزنًا مفتوحًا أمام كل الرياح. ستظل هكذا متروكة، دون الغطاء الذى استخدموه فى ترقيع غطاء العربة، تبدو الآن مجرد بقايا، فالأشياء يحدث لها ما يحدث للبشر، عندما تفقد قيمتها تنتهى، تنتهى إذا لم يكن منها نفع. العربة، على العكس تماماً، رغم قدمها، تجدد شبابها بالخروج إلى الهواء الطلق، وغسلها المطر المتساقط وجددها، كانت النتيجة مثيرة للإعجاب، انظروا إلى الحصان، تحت السرج الذى يغطى كتفيه يبدو كجواد سباق، مستعد للمعركة.

لا يجب أن يزعج هذا التأخير الموصوف أحداً؛ لأنه طريقة لبيان كم هو صعب على الناس الخروج من أماكنهم التى عاشوا فيها سعداء، خاصة إذا لم يكن هروباً من رعب مثير. تغلق ماريا جوافايرا الأبواب الآن باحتراس شديد، تطلق الدجاجات التى ستبقى، وتُخرج الأرانب من حظيرتها، والخنزير من زريبته، إنها حيوانات اعتادت على تناول الأكل من أيدى

الآخرين وستبقى الآن تحت رحمة الله، إن لم تبق تحت رحمة الشيطان، فالخنزير قادر، لو تركوا له الحرية، على القضاء على الحيوانات الأخرى. عندما يظهر أكثر الأجيرين شباباً عليه أن يحطم النافذة ليدخل البيت، فليس هناك أحد قريب يمكنه أن يشهد على الواقعة، إنها كلماته هو، ومن الممكن أن تكون حقيقة.

صعدت ماريا جوافايرا إلى المقدمة وجلس إلى جوارها جواكيم زازا والمظلة مفتوحة، إنه واجبه، مرافقة المرأة المحبوبة وحمايتها من الطقس السيئ، لأنه لا يستطيع أن يمارس عملها، فمن بين هؤلاء الأشخاص الخمسة فقط ماريا جوافايرا من يستطيع التحكم فى العربة والحصان. عندما لاح المساء، وتصبح السماء صافية، ستكون هناك دروس، وسيبذل بدرو أورثى جهداً ليكون أول من يتلقى التدريب، وهذا نبل منه لأنه بهذه الطريقة يمكن للأزواج الاستراحة تحت الغطاء برفقة مرغوبة، وأيضاً بما أن مقعد قائد العربة متسع، يمكن سفر ثلاثة أشخاص، وهو حل مثالى للحفاظ على حميمية الاثنين الباقين، حتى لو كان تحت إجبار إن كانا صامتين، هادئين ومعاً. هزت ماريا جوافايرا لجام الحصان، دافعة به ليجر العربة، دون رفقة إلى جانبه، أطلق أول جذبة، لكن ثقل الحمولة، أعادت الذاكرة إلى عظامه وعضلاته العجوز، فتكرر ما كان منسياً، وانبعجت الأرض تحت ثقل العجلات الحديدية. كل شىء قابل للتعلم، يمكن

أن يُنسى ويمكن تعلمه من جديد لو كانت هناك حاجة لذلك. رافق الكلب العربة خلال المائة متر الأولى تحت المطر، انتبه بعدها إلى أنه يستطيع السفر، على قدميه، فى حماية العربة. دخل تحت العربة، ونسّق خطواته مع خطوات الحصان، وسنراه هكذا طوال زمن الرحلة، سواء أمطرت أم كان الوقت صحواً، إلا إذا رغب فى العمل كمرشد أو التسلى بالرواح والعودة دون معنى ظاهر وهو ما تقوم به فصيلته من الكلاب والبشر.

ساروا كثيراً فى هذا اليوم. كان يجب عدم إجهاد الحصان، خاصة أن الطريق الوعر كان يحتاج إلى جهد متواصل، الشد عند الصعود، والتحمل عند الهبوط. على مدى البصر لم تكن هناك حياة، قالت ماريا جوافايرا، "يبدو أننا آخر من غادر هذا المكان"، السماء منخفضة والهواء غير مستقر، والمشهد موحش، كانت تبدو ترنحات نهاية عالم، خالٍ من البشر، يستحق الشفقة بعد كل هذه المعاناة والتعب، من كثرة الحياة والموت، من كثرة الحياة المحددة المصير والموت المتوالى. لكن من يسافر فى هذه العربة عشاق جدد، والعشق الجديد، كما لا يجهل المراقبون، هو الأكثر قوة فى العالم، لهذا لا تقع لهم حوادث، لأنهم هم أنفسهم حادثة، الحب، كما هم الأكثر تعبيراً عن الحادثة، البرق الفجائى، والسقوط الباسم، والعرقلة المرغوبة. مع ذلك، لا يجب الثقة بشكل كامل فى الانطباعات الأولى، هذا الوداع الذى يكاد يكون

جنائزياً فى الخلاء، تحت المطر المجنون، ربما يكون مفضلاً، لو لم نكن نحن أكثر احتراساً، نصيخ السمع ونتابع الحديث بين جوانا كاردا وجوزيه أنايسو، وبين ماريا جوافايرا وجواكيم زازا، وصمت بدرو أورثى الأكثر احتراساً بعد، بالنسبة له يمكننا القول إنه يبدو غائباً هنا.

أول قرية عبروها لم تكن مهجورة من كل سكانها. بعضهم شيوخ قالوا لأولادهم القلقين وأقاربهم إنه لو كان الموت من أجل الموت، فالموت هنا أفضل من الموت جوعاً أو نتيجة أمراض سيئة، إذا كان الإنسان مُختاراً بعظمة حتى يصل إلى الموت فى عالمه الخاص، ما لم يكن بطلاً أوبرالياً، إن انتظار الشهادة الأعلى حيث تقع الكوارث الكبرى، فكله نابع من جيليقيا أو البرتغال، إنهم لا يعرفون شيئاً عن تلك الأشياء، وأكثر، لأسباب غير مفهومة، كانوا قادرين على القول، "لن أخرج من هنا، اذهبوا أنتم لو كنتم خائفين"، وهذا لا يعنى أنهم كانوا شجعاناً، لكنهم فقط فى تلك اللحظة من حياتهم فهموا أن الشجاعة والخوف ليسا سوى كفتى ميزان أمين على البقاء ثابتاً، ومتوقفاً بقوة الدهشة بالعواطف والانطباعات الخائبة.

عندما عبرت العربية القرية، فإن الفضول، الذى من المؤكد أنه آخر الفضائل التى تضيع، دفعت الشيوخ إلى الخروج إلى الطريق، للتحية برفع الأذرع ببطء،

فكان كما لو كانوا يودعون أنفسهم. عندما قال جوزيه أنايسو، إنه من الأفضل انتهاز الفرصة والنوم فى أحد البيوت المهجورة، هنا أو فى قرية أخرى، أو فى مكان خالٍ، مؤكد توجد أسرة، وراحة أكثر من العربة، لكن ماريا جوافايرا أعلنت أنها لن تدخل أبداً بيتاً دون إذن من أصحابه، هناك أناسٍ هكذا، حريصون، آخرون يرون نافذة مغلقة فيحطمونها، لكنهم يقولون، كان السبب خيراً، تُرى هل الخير له أم لغيره، دائماً ما يبقى الشك حول الأول والسبب الأخير، ندم جوزيه أنايسو على فكرته، ليس لأنها فكرة شريرة بل لأنها غبية، كانت كلمات ماريا جوافايرا كافية لوضع قاعدة من الكرامة. " أن تكتفى بذاتك مادمت تستطيع التحمل، وبعدها ثق فى من تعرف، ومن الأفضل أن يكون هذا يستحق الثقة أيضاً". بالطريقة التى تسير بها الأمور فإن هؤلاء الخمسة يستحقون بعضهم بعضاً، بشكل متبادل ومتكامل، إذاً فليبقوا فى العربة، يأكلون عجة البطاطس، ويتحدثون عن الجزء الذى مضى والجزء الذى تبقى من الرحلة، زادت قوة ماريا جوافايرا بنظرية الدروس التدريبية للقيادة وإن كانت قد بدأتها بالفعل، الحصان يأكل تحت الشجرة ويمضغ نصيبه من القرطم، واكتفى الكلب هذه المرة بالغذاء المنزلى، يتجول هناك متشمماً ومرعباً طيور الليل. توقف المطر، بطارية تضىء غطاء العربة من الداخل، من يمر من هنا يمكنه أن يقول، "انظر، إنه مسرح"، وهذه حقيقة إنهم شخصيات، لكنها لا تمثل..

عندما تحين اللحظة غداً وتهاتف ماريا جوافايرا لاكرونيا، سيقولون لها إن أمها والمرضى الآخرين تم نقلهم إلى الداخل، "وهى كيف حالها؟"، "لا تزال مجنونة كما كانت فى السابق"، لكن تلك الإجابة تنفع للرد على أى شخص. سيواصلون الرحلة من جديد إلى أن يعثروا على أرض مسكونة. وينتظرون هناك.

■■■

## - ١٦ -

تم تشكيل حكومة الإنقاذ الوطنى للبرتغاليين، وبدأت فى العمل على الفور، بذهاب رئيس الوزراء، بنفسه إلى التليفزيون وأطلق شعارات لا شك أن التاريخ سيحفظها ، شىء من هذا النوع، "الدم، والعرق، والدموع"، أو، "ادفنوا الأموات وحافظوا على الأحياء"، أو، "مجدوا الوطن أولاً، فالوطن ينظر إليكم"، أو، "تضحية الشهداء ستزرع حصاد المستقبل". فى الحالة التى بين أيدينا، مع الأخذ فى الحسبان الخصوصيات، فإن رئيس الوزراء اعتقد أنه من الأفضل القول، "أيها البرتغاليون والبرتغاليات، السلامة فى الانسحاب".

لكن تسكين الملايين من قاطنى الشريط الساحلى بعيداً عن المواجهة مهمة معقدة لا يملك أحد الادعاء بأنه يستطيع تقديم مبادرة وطنية للترحيل العام قادرة على توحيد جميع المبادرات المحلية. مثلاً، بالنسبة

لمدينة لشبونة وما حولها، فإن تحليل الأوضاع والوسائل المطلوبة لها انطلقت من فرضية، موضوعية وشخصية، يمكن تلخيصها هكذا، الجانب الأكبر، ولمَ لا نقولها، الغالبية العظمى لسكان لشبونة لم يُولدوا هناك، ومن وُلِدوا هناك مرتبطون بروابط عائلية بسكان الداخل. ونتائج هذا واسعة وحاسمة، لهذا لا بد من نقلهم إلى مناطقهم الأصلية، حيث لديهم بشكل عام أقارب هناك، ربما كان بعضهم قد فقد تلك الروابط نتيجة تقلبات الحياة، لكنهم قد يستغلون الفرصة لاستعادة التواصل العائلى، بتهدئة النزاعات القديمة والكراهية الناتجة عن إرث قديم أو قسمة غير عادلة، وهى قضايا شريرة، وأكبر كارثة يمكن أن تقع على عاتقنا عليها تقريب القلوب. والنتيجة الثانية، بالإشارة إلى مشكلة إطعام المهجرين. وحتى هناك، ودون أن تجد الدولة نفسها مجبرة على التدخل، فتكون للعائلة الكبرى دورها، وهو بترجمتها إلى أرقام، يمكن التعبير عنها باستعادة المقولة القديمة للاقتصاد العام، "حيث يأكل اثنان، يأكل ثلاثة"، إنه استسلام حسابى وعائلى عندما يكون هناك طفل فى الطريق، وسيقولون الآن، بنغمة أكثر تسلطاً، "حيث يأكل خمسة ملايين، يمكن أن يأكل عشرة"، وبابتسامة باهتة، "الوطن ليس سوى عائلة كبيرة".

لن تكون هناك موارد لمن يعيشون بمفردهم وبلا عائلة، ولا للمتمردين على المجتمع، ولكن حتى هؤلاء سيتم عزلهم من المجتمع تلقائياً، لا بد من الثقة فى

أعمال التضامن العفوية، فى ذلك الحب للجار الذى كان يُعبر نفسه فى مثل هذه الحالات قديماً، أنظر إلى رحلات السفر فى القطار، بشكل خاص فى الدرجة الثانية، عندما كانت تحين ساعة فتح السلة أو صرة ربة الأسرة فإنها لا تنسى أبداً دعوة الغرباء أن يقتربوا، فتسأل، "هل لكم فى شىء؟"، وإذا قبلّ أحدهم، لا تأخذ هذا على محمل سيئ رغم أنها تنتظر أن يجيبوا جميعاً، "شكراً، هنيئاً"، إن الصعوبة تكمن فى السكن، إن عرض طبق من السمك المملح أو كأس نبيذ شىء، وشىء آخر مختلف، تقديم نصف سرير للنوم فيه، ولكن لو استطعنا أن نضع فى رءوس الناس أن هؤلاء الفرادى والمُهملون تجسيد حى لله سيدنا جميعاً، كما فى الأزمنة التى كان يجوب فيها العالم متخفياً فى ملابس فقير يطلب الإحسان، ليجرب مدى كرمة البشر، حينئذ سيكتشف أنه بالإمكان العثور على مكان لهؤلاء، أو بالمعنى الريفى، طوبة وكومة من القش، الله، هذه المرة، مهما تضاعف، ستجرى معاملته كما يجب أن يستحق لمن يؤمن بالإنسانية.

تحدثنا عن لشبونة، ويمكننا الحديث عن بورتو أو كويمبرا، عن سيتوبال أو أفييرو، بنفس الكلمات وإن كان باختلاف كمى، ويمكننا الحديث عن فيانا أو فيجييراس، دون أن ننسى تلك المدن والقرى الصغيرة المنتشرة فى كل مكان، وإن كان سيعيد هذا طرح قضايا حساسة، وهى معرفة أين يجب أن يذهب من

يعيشون فى تلك الأماكن التى وُلدوا فيها، وأيضاً من يعيشون فى أرض الشاطئ، وولدوا فى أرض أخرى من الشاطئ نفسه. وتم طرح تلك القضية على مجلس الوزراء، فجاء المتحدث الرسمى ومعه الإجابة، "تثق الحكومة أن تُحل المشكلة بمبادرة من الأفراد من منطلق الإحساس بالمسئولية، وربما بهذه الطريقة الجديدة والنفع العام للجميع، خاصة الأوضاع التى لا تدخل فى أى إطار وطنى للترحيل وتسكين السكان." ومن هنا صدرت أوامر عليا بتركها جانباً، لأنها شخصية، أما بالنسبة لبورتو، فإن قضية رؤساء وزملاء جواكيم زازا، يكفى أن يُقال إنه لو نفذ الأوامر والتعليمات الصادرة والإحساس بالمسئولية المهنية، وعاد مسرعاً من التلال الجيليقية، تاركاً حبه وأصدقاءه تحت رحمة القدر، فسيجد المكاتب مغلقة، وتنبيهاً مكتوباً مُعلقاً على الباب بآخر تعليمات الإدارة، "الموظفون العائدون من الإجازات عليهم بالحضور إلى المكاتب الجديدة المفتوحة فى بينيافييل، حيث نواصل استقبال طلبات زبائننا الكرام". وأبناء عم جوانا كاردا، المقيمون فى إيريرا، موجودون الآن فى كويمبرا، فى بيت ابن العم المهجور، الذى لم يرحب بهم، وهو أمر مفهوم، فهو الخاسر، وإن كان لديه بصيص أمل عندما اعتقد أن عودة أبناء العم تهيئة لعودة الهاربة، ولكن إقامتهم طالت، فسأل، "أين جوانا؟". فاضطرت ابنة العم أن تعترف نادمة، "نحن لا نعرف عنها شيئاً، لقد كانت فى المنزل، لكنها اختفت قبيل هذه الفوضى بوقت قليل، ومنذ ذلك الحين لم تصلنا أى أخبار

عنها"، وتجنبت الحديث عما تعرفه من الحكاية، فإذا كان القليل الذى تعرفه أفزعها، ماذا يمكنها أن تقول لو عرفت ما تبقى منها؟!

العالم معلق وفى حالة انتظار وترقب قلق، ما الذى سيحدث أو لا يحدث للشواطئ البرتغالية والجيليقية فى الغرب. لكننا نكرر مرة أخرى، وإن كان بملل، أن كل شىء يحمل فى داخله شيئاً طيباً، على أية حال إنها وجهة نظر الحكومات الأوروبية، التى رأت حماس الشباب الثورى يقل تدريجيا ويكاد ينطفئ تماماً، بالتوازى مع النتائج الإيجابية للقمع الذى سبقت الإشارة إليه، والآن، يقول الأهالى العقلاء لهؤلاء الشباب، "هل ترى يا بنى، الخطر الذى كنت ستتعرض له لو استمر إصرارك على أن تكون أيبيرياً؟"، يرد الابن الذى اقتنع قائلاً، "نعم يا أبى"، ، وبينما تدور مشاهد المصالحة العائلية، وعودة السلام الاجتماعى، كانت الأقمار الصناعية، التى تم ضبطها فى الفضاء لتظل على وضع ثابت نسبياً، ترسل إلى الأرض صوراً وقياسات، الصور ثابتة، فيما يتعلق بشكل الجسم المتحرك، أما القياسات فإنها تسجل تناقصاً فى كل دقيقة تمر يقدر بحوالى خمسة وثلاثين متراً فى المسافة الفاصلة بين الجزيرة الكبرى والجزر الصغيرة، ربما يبدو الاهتمام بمسافة خمسة وثلاثين متراً أمر مثير للسخرية فى هذا العصر، عصر السرعات الجسيمة، لكن لو تذكرنا أن وراء هذه الشواطئ الجميلة الرقيقة، وتلك السواحل الرائعة،

والمصاطب المنحدرة باتجاه البحر، تتقدم بمساحة تقدر بحوالى خمسمائة وثمانين ألف كيلومتر مربع، وكمية لا تحصى من ملايين الأطنان، ولم نذكر سوى الجبال والتلال، ولو حاولنا تصور ما يمكن أن ينتج عن القصور الذاتى لكل هذه الأنساق الجبلية لشبه الجزيرة المتحركة، دون إغفال جبال البرانس التى تحولت إلى نصف حجمها القديم، حينها لن يبقى لنا غير الإعجاب بشجاعة هذه الشعوب التى اختلطت فيها دماء كثيرة، والثناء أيضاً على إحساسهم القدرى بالوجود الذى انتهى بالارتكاز، مع التجارب المتراكمة عبر القرون، على القاعدة المعروفة التى تقول، "بين الموتى والجرحى يوجد دائماً من ينجو".

لشبونة مدينة مهجورة، تجوبها دوريات من الجيش، بدعم من طائرات الهليوكوبتر، كما حدث فى إسبانيا وفرنسا عند حدوث الصدع وخلال الأيام المقلقة التالية. ما لم يتم سحبهم، وهو أمر محسوب حدوثه خلال الأربع وعشرين ساعة السابقة على الاصطدام، فقد كانت مهمة الجنود السهر والحراسة، رغم أن هذا فى الواقع لا يجدى شيئاً، فقد تم سحب كل ما له قيمة من البنوك فى وقته. لكن لا أحد سيغفر للحكومة إن غادرت مدينة مثل هذه، جميلة، متناسقة، متكاملة فى تقسيماتها وسعادتها، كما سيُقال عنها ولا شك بعد تدميرها. لذلك فالجنود هنا كتمثيل رمزى للشعب الغائب، كحرس شرف يطلق النار فى اللحظة السامية لغرق المدينة فى الماء.

فيما عدا ذلك، فالجنود سيواصلون إطلاق النار على اللصوص، ونصح وتوجيه الأشخاص القلائل الذين يصرّون على عدم مغادرة بيوتهم، وأولئك الذين قرروا فى النهاية تركها، وعندما يجدون، كما يحدث من وقت لآخر، مجانين يتصعلكون فى الشوارع، من أولئك الهادئين، وتساعدهم صحتهم لسوء الحظ للخروج من المستشفى يوم الهروب، ولم يعرفوا أو يفهموا أوامر العودة، فانتهى بهم الحال إلى البقاء تحت رحمة الله، عندها هناك طريقتان للعمل، بعض المسئولين يرون أن المجنون يكون دائماً أخطر من اللص، مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا، على الأقل، يحتفظ بتفكير مشابه لغيره من البشر. فى هذه الحالة فإنهم يفكرون مرتين ويأمرون بإطلاق النار. آخرون، أقل تسامحاً، وهناك من لديهم الوعى بالحاجة الحيوية بضبط الأعصاب فى حالات الحرب أو ما شابهها، فيصدرون الأوامر لمرءوسيهم أن يتسلوا لبعض الوقت على حساب المجنون المسكين، وبعدها يتركونه يذهب لحال سبيله، وهو ما لا يحدث، لو تعلق الأمر ليس بمجنون بل بمجنونة، فهم لن يتركوها كما كانت، ويعود ذلك إلى أنه بين الجنود وخارج نطاقهم أيضاً، هناك من يسىء استخدام المبادئ الأولية للتحقيق ويرون أن الجنس، نتحدث أدائياً، ليس فى الرأس.

لكن عندما لا يظهر فى شوارع وطرق وساحات وأحياء وحدائق تلك المدينة شخص واحد، عندما لا يطل أحد من نافذة، عندما لا تكون طيور الكنارى قد

ماتت من الجوع والعطش فتغنى فى صمت مطلق فى البيت أو فى الشرفة المطلة على الأفنية الخالية، عندما تشع المياه فى النوافير والصنابير دون أن تمتد يد لتبتل بها، وتبحث عن عيون لا تراها، عندما تكشف أبواب المقابر المفتوحة أنه لا فارق بين الغياب والغياب الآخر، وعندما، فى النهاية، تكون المدينة على حافة لحظة الاحتضار تنتظر أن تأتى جزيرة من البحر لتدمرها، حينئذ تحدث الحكاية المدهشة والمُعجزة لإنقاذ الملاح الوحيد.

منذ ما يقرب من عشرين عاماً والملاح يتجول فى بحار العالم. فقد ورث القارب الشراعى، أو اشتراه، أو أهداه له ملاح آخر تجول هو أيضاً عشرين عاماً، ويبدو أنه قبل عشرين عاماً أخرى قام ملاح آخر بشق المحيطات وحيداً، إن التاريخ والسفن والملاحين الذين يتحكمون فيها مليئة بالأحداث، والعواصف الرهيبة والهدوء الأكثر تدميراً من الزوابع، وحتى لا تنقصها العناصر الرومانتيكية، كما يُقال، وتجرى عنها الأغانى المؤلفة خصيصاً، فهناك دائماً فى ميناء ما امرأة تنتظر الملاح، طريقة خاصة متفائلة لتأمل الحياة، ولكن أفعال وقرارات المرأة تُكذِّب هذا كله. فالملاح الوحيد، عندما يرسو، يحدث فقط للتزود بالماء، وشراء التبغ وقطع غيار الموتور، أو للتزود بالزيت والوقود، والأدوية، وإبر الشراع، والبلاستيك الواقى من المطر والندى، والطعم، والصنانير، وصحيفة اليوم ليتأكد مما يعرفه مسبقاً، وهو ما لا يستحق شيئاً،

لكنه، أبداً وعلى الإطلاق، يضع الملاح الوحيد قدمه على الأرض بهدف الحصول على امرأة ترافقه فى إبحاره. لو كان حقيقة أن فى كل ميناء امرأة تنتظره، فإنه يصبح من العبث تجاهلها، لكن بشكل عام هى من تريد ذلك، وللفترة الزمنية التى ترى أنه لا يمكن أن يقولها الملاح الوحيد، "انتظرينى سأعود يوماً ما"، إنه ليس طلباً يسمح لنفسه بطلبه، "انتظرينى"، ولا يمكنه أن يؤكد أنه سيأتى ربما فى يوم ما، أو فى مرة أخرى، ويعود، كم من المرات يجد الرصيف خالياً، أو لا يجد عليه امرأة، تكون فى انتظار ملاح آخر، وليس غريباً أن يغيب هذا الملاح، فتخدم من يظهر أولاً، والذنب، إذا كان يجب قول ذلك، ليس على المرأة أو الملاح، الذنب للوحدة التى لا تُحتمل فى كثير من الأحيان، فهى قد تأخذ أيضاً الملاح باتجاه الميناء، والمرأة إلى الرصيف.

تلك اعتبارات روحانية وميتافيزيقية، لكن لا نستطيع مقاومة عرضها قبل أو بعد الوقائع البسيطة، وتساعدنا دائماً على توضيحها أكثر من هذا. للكلام ببساطة، نقول إنه إطول تلك شبه الجزيرة التى تحولت إلى جزيرة متحركة يبحر فيها الملاح الوحيد، بشراعه ومحركه، ومذياعه ومنظاره، وذلك الصبر اللانهائى لمن قرر فى يوم من الأيام تقسيم حياته، نصف للسماء ونصف للبحر. توقفت الرياح فجأة عن الهبوب، وجمع شراعه، وانخفض النسيم فجأة، وفقدت الموجة العريضة التى كان القارب الشراعى

يبحر على قوتها فجأة، وقبل مرور ساعة كان البحر منبسطاً وهادئاً، فبدا لنا أنه من المستحيل أن يكون هذا الجحيم المستحيل، بآلاف الأمتار من الأعماق، أن يظل متوازناً على نفسه، دون أن يسقط باتجاه أو آخر، التأمل يبدو غبياً لمن يعتقد أن كل الأشياء فى هذا العالم يمكن تفسيرها ببساطة لكونها كما هى، وهو ما يقبل بوضوح، لكنه لا يكفى. المحرك يعمل، تونك.. تونك، تونك.. تونك، البحر يمتد على مدى البصر، يستجيب، إشعاعة بإشعاعة، كالمرآة التقليدية، والملاح، رغم انضباطه طوال سنوات من الحلم والسهر، يغلق عينيه، وينتصب تحت الشمس، وينام، ربما اعتقد لبضع دقائق، أو بضع ساعات، ولم يكن سوى ثوان، استيقظ منتفضاً تحت تأثير ما اعتقد أنه فرقعة كبيرة، فى ذلك الحلم القصير حلم أنه صعد على بقايا حيوان، حوت، مقشعراً، والقلب يدق بلا انتظام، بحث عن مصدر الضوضاء، ولم ينتبه إلى أن المحرك قد توقف. لقد أيقظه الصمت الفجائى، لكن الجسد، ليستيقظ بشكل طبيعى، اخترع الحدث، والصدمة والصوت. المحركات معطلة، فى البحر والأرض، فهو أكثر ما يمكن العثور عليه، نعرف أنه ليس هناك من مفر، فتحطمت روحه وظل تحت السقيفة معرضاً لكل الرياح، هناك فى الشمال، حيث يحتمى من الصدأ. لكن هذا الملاح ليس مثل سائقى السيارات، إنه محنك وخبير، اشترى القطع المهمة فى آخر مرة لمس فيها الأرض والمرأة، سيفكك محركه إلى المدى الذى

يستطيعه، ويفحص الآلية، إنه عمل بلا فائدة، فالعطب فى الأذرع والأعماق، أحصنة هذا المحرك أصيبت فى مقتل.

اليأس، كما نعرف جميعاً، سلوك بشرى، لا نعرف خلال التاريخ الطبيعى أن الحيوانات تيأس. لكن الإنسان نفسه لا ينفصم عن اليأس، اعتاد على الحياة فيه، ويحتمله حتى آخر الحدود، وليس لأن محركاً أصابه العطب فى منتصف البحر مما جعل الملاح يشد شعره، وأن يضرع للسماء أو يطلق اللعنات والشتائم ضدها، عمل مثل هذا لا فائدة تُرجى منه، والعلاج هو الانتظار، فما تأخذه الريح ستعيده. لكن الريح، التى ذهبت، لم تعد. مرت الساعات، وجاء الليل الجهم، ووُلد يوم آخر، والبحر لا يتحرك، خيط صوفى رفيع يسقط مشدوداً كما لو كان من رصاص، ولا أدنى حركة فى المياه، إنها سفينة حجرية ترقد على لوح حجرى. الملاح غير منزعج، ليست هذه تجربته الأولى، لكن المذياع الآن، ودون سبب ظاهر، توقف عن العمل، لا يسمع سوى صفير، فالموجة الحاملة، لو كانت هناك موجة، لا تحمل سوى الصمت، كما لو كان العالم فى تلك الدائرة المتجمدة قد توقف ليشاهد، بشكل غير مرئى، القلق المتزايد للملاح، الذى يسير باتجاه الجنون، ربما كان موته فى البحر. لا ينقصه لا الطعام ولا ماء الشرب، لكن الساعات تمر، كل ساعة أطول من سابقتها، يطبق الصمت على السفينة كحلقات الكوبرا الناعمة، والملاح يضرب جوانب المركب من وقت لآخر، يريد أن يسمع صوتاً لا يكون نابعاً من دمه

الجارى فى عروقه، ثقيلاً، أو من القلب، الذى أحياناً ما ينساه، وحينها يستيقظ بعد أن يعتقد أنه يستيقظ لأنه حلم بأنه مات. الشراع مفرود فى وجه الشمس، ولكن سكون الريح يوقف الحرارة، والملاح الوحيد جلده محترق، والشفاه تشققت. مرّ ذلك اليوم، والتالى كان مشابهاً. يهرب الملاح باتجاه الحلم، هبط إلى الكابينة الصغيرة رغم أنها كانت كالفرن، هناك سرير وحيد، ضيق، دليل على أن هذا الملاح وحيد فعلاً، وعارٍ تماماً، غارق فى عرقه، أولاً، وبعدها ببشرة جافة، مشققة من القشعريرة، يقاوم النوم، وصفوف من الأشجار العالية تتأرجح على وقع الريح التى تهز الأوراق من اتجاه إلى آخر، وبعد أن يتركها يعود إليها من جديد، بلا نهاية. يستيقظ الملاح ليشرب ماء، وينتهى الماء. يعود النعاس، والأشجار لم تعد تتحرك، لكن نورساً جاء ليقف على الصارى.

تتقدم فى الأفق كتلة ضخمة وقاتمة، وعند الاقتراب أكثر تظهر البيوت المتراصة بطول الشواطئ، والفنارات كأصابع بيضاء مرفوعة، وخط رفيع من الزبد، وقريباً من المصب العريض للنهر، تقوم مدينة كبيرة على التلال، تبدو من هذه المسافة كما لو كانت كفاً دقيقة. يواصل الملاح نومه، كان قد غرق فى آخر ثبات عميق لكن الحلم عاد بشكل فجائى، هزت نسمة سريعة أفرع الأشجار، انغرس القارب فى المصب الطينى الخارج من النهر، لا يزال ساكناً، لكن الأرض لا. شعر الملاح الوحيد بالاهتزازات فى عظامه

وعضلاته، فتح عينيه، فكر، "إنها الريح، لقد عادت الريح"، وبلا قوى تقريباً، سقط على السرير من جديد، وزحف نحو الخارج، اعتقد أنه يمكنه أن يموت فى أية لحظة، ويمكنه أيضاً فى أية لحظة أن يُولد من جديد، ضربت أشعة الشمس عينيه، لكنها كانت أشعة الأرض، تأتى معها بما استطاعت أن تأخذه من خضرة الأشجار، وأعماق الحقول، وألوان البيوت الرقيقة. لقد نجا، أولاً لم يعرف كيف؟، الهواء لا يتحرك، ونسمة الهواء كانت وهماً. مر بعض الوقت قبل أن يفهم أن من أنقذه جزيرة، شبه الجزيرة القديمة التى تبحر للقائه وتفتح له أذرع النهر. يبدو مستحيلاً، إن الملاح الوحيد نفسه، الذى سمع قبل أيام أخبار الصدع الجيولوجى، رغم أنه كان يعرف أنه يسير على طريق السفينة الأرضية، لم تخطر أبداً على باله فكرة أن يتم إنقاذه بهذه الطريقة، للمرة الأولى منذ أن وُجد غرقى وتائهين فى البحر. لكنه لم يشاهد أحداً على الأرض، وعلى أسطح السفن الراسية لا يوجد خيال واحد، عاد الصمت من جديد بحراً قاسياً، "إنها لشبونة" همهم الملاح، "لكن أين الناس؟". تسطع نوافذ البيوت، وهناك سيارات وأتوبيسات متوقفة، وساحة كبيرة محاطة بالأروقة المقوسة، فى العمق قوس النصر بتماثيل حجرية وتيجان من البرونز، هل هو برونز، باللون فقط؟. الملاح الوحيد، الذى يعرف جزر الآزور ويعرف أين يعثر عليها سواء على الخريطة أم فى البحر، تذكر حينئذ أن الجزر كانت الخاسرة فى الاصطدام، وما

أنقذه هو الذى دمرها هى، وما سيدمرها سيدمره هو أيضاً إن لم يبتعد سريعاً من تلك الأماكن. الريح غائبة، والمحرك متوقف، ولا يستطيع صعود النهر، ومخرَجه الوحيد نفخ القارب المطاطى، وإلقاء الهلب لحماية القارب الشراعى، وهو أمر لا فائدة منه، الدخول إلى الأرض بالمجداف. الطاقة تعود دائماً عندما يعود الأمل.

للخروج إلى الأرض، ارتدى الملاح الوحيد بنطلوناً وقميصاً، وغطاء رأس، وشبشباً، كلها بيضاء بلون الثلج، إنها نقطة شرف الملاح. سحب القارب المطاطى حتى الدرج المنحدر نحو للرصيف، توقف لبضع ثوان، متأملاً، وأيضاً فى انتظار تجميع مزيد من القوة، ولكن أيضاً ليمنح الوقت لظهور أحد من بين ظلال الأقواس، أو أن تتحرك السيارات والأتوبيسات فجأة وتمتلئ الساحة بالناس، ويمكنه أن ينتظر أن تتقدم امرأة مبتسمة، هازة وسطها بنعومة فى مشيتها، بلا تصنع، فقط للتدليل على الرغبة التى تثير نظرة وكلمات الرجل، خاصة أنه قد وضع قدمه على الأرض الآن. لكن ما كان مهجوراً، ظل مهجوراً، وسيظل مهجوراً. فهم الملاح أخيراً ما كان ينقصه ليفهم، "ذهبوا جميعاً مع الاصطدام بالجزر". نظر خلفه، شاهد قاربه الشراعى فى منتصف النهر، إنها المرة الأخيرة، كان متأكداً، ولا حتى المدمرات المصفحة يمكنها أن تنجو من هذه الاصطدام، فماذا تفعل قشرة عين الجمل ذات الشراع التى هجرها صاحبها. عبر

الملاح الساحة مترنحاً من طول البقاء ساكناً، يبدو بجلده المحترق كأسفنجة كبيرة، والشعر المجعد يبرز من تحت غطاء الرأس، والشبشب ينزلق من قدميه. عندما يقترب من القوس الكبير يرفع عينيه، يشاهد أحرفاً لاتينية، لم يتعلم اللاتينية أبداً، ولكنه يفهمه بشكل غامض، "إن هذا التمثال أقيم على شرف فضائل قدماء هذا الشعب"، يتقدم فى أحد الشوارع الضيقة المحاط ببيوت متشابهة، إلى أن يخرج إلى ساحة أخرى، أصغر قليلاً، يطل عليها مبنى إغريقى أو رومانى، وفى المنتصف نافورتان بنساء عرايا من الحديد، فشعر بالعطش فجأة، الرغبة فى إغراق فمه فى تلك المياه والجسد فى ذلك العرى. يسير بأيد ممتدة، مستثاراً، كأنه فى حالة هذيان، مهمهماً، لا يعرف ما يقول، فقط يعرف ما يريد.

ظهرت الدورية على الناصية، خمسة جنود تحت قيادة ملازم، شاهدوا المجنون يمشى كمجنون، سمعوه يقول كلمات مجنون غير مفهومة، ما كان حتى لهم أن يصدروا إليه أمراً بالتوقف. سقط الملاح الوحيد ممدداً على الأرض، وكان لا يزال الطريق أمامه طويلاً ليصل إلى الماء. والنساء كما نعرف لم يكن سوى تماثيل من الحديد.

■■■

## -١٧-

كانت تلك الأيام أيضاً أيام الهجرة الثالثة.

الأولى، كانت بعد أن تم إعلان النبأ، فكانت هجرة السواح الأجانب، الذين هربوا، رغم أنه فى ذلك الوقت، لم يكن هناك سوى خطر صدع فى جبال البرانس حتى مستوى البحر، من المؤسف أن الحدث لم يقف عند هذا الحد، فنتخيل ما كان يمكن من مجد أوروبا، امتلاكها بكل فخر، ممراً جيولوجياً يفوق فى العظمة ممر كولورادو. والهجرة الثانية كانت هجرة الأثرياء والمسئولين، عندما تبين أن رأب الصدع أصبح مستحيلاً، وبداية إبحار شبه الجزيرة، وإن كان قد بدأ بشكل فاتر، كما لو كانت تبحث عن طريقها، وجاء ليؤكد، بشكل نعتقد أنه نهائى، مدى ضعف البنية والأفكار الثابتة. وكان وقتها يُنظر إليه كالبناء الاجتماعى، بكل تعقيداته، فتبين أنه ليس سوى قلعة من ورق، متماسك ظاهرياً، ولكن ما إن تهتز الطاولة

التى بُنى عليها حتى يسقط. والطاولة فى هذه الحالة، ولأول مرة فى التاريخ، تحركت وحدَها. يا إلهى، يا إلهى، لإنقاذ ممتلكاتنا الثمينة وحياتنا الغالية، فلنهرب.

الهجرة الثالثة، هذه التى نتحدث عنها الآن قبل أن نلخص الهجرتين الأوليين، وكان لها عنصرا تفسير، أو جزآن، إذا أخذنا فى الاعتبار الفوارق الأساسية التى تفرق بينهما، فى رأى البعض، كان يجب أن تُعتبر الهجرتان الثالثة والرابعة. غداً، أى فى المستقبل البعيد، لأن المؤرخين سيركزون جهودهم لدراسة الأحداث ليس بمعناها المجازى، ولكن بالمعنى الحرفى أيضاً، هجرتان تغيران وجه العالم، وتقرران، وإن كنا ننتظر أن يتم ذلك فى حكمة واعتدال لمن يراقبون أحداث الماضى بموضوعية، أن كان يمكن أم لا حدوث الازدواج الذى يعرضونه اليوم. يقول هؤلاء إن هذا سيكشف عن نقص الحس النقدى والإحساس بإبراز انسحاب الملايين من الأراضى الساحلية إلى الأراضى الداخلية، وهرب عدة آلاف من السياح الأجانب. فقط بسبب أنه بين كل هجرة وأخرى هناك زمن متساوٍ لا يمكن إنكاره. لا نهدف من موقفنا هذا فى النقاش إلى إصدار حكم مسبق، لأنه ليس من الصعب معرفة، سبب خوف البعض أو تشابه البعض الآخر، ليست هناك مساواة فى الوسائل والإمكانات لاتخاذ الإجراءات لمعالجته.

كان الأمر فى الحالة الأولى متعلقًا بعامة الناس الذين لا يملكون سوى القليل، عندما وجدوا أنفسهم مجبرين تحت ضغط السلطات وعنف الأحداث للانتقال إلى أماكن أخرى، انتظروا، ليس أكثر من إنقاذ حياتهم بالطرق التقليدية، والمعجزات، والحظ، والصدفة، والقدر، وحسن الطالع، والصلاة، والإيمان بالروح القدس، فإن لم يكن هناك حجاب يمكن أن يكون هناك قرن جعران معلق فى الرقبة، أو ميدالية مباركة، والأشياء الأخرى التى لا تحتاج إلى حيز كبير، وإن كان يمكن تلخيصه فى ذلك الشكل الآخر، الشهير كما لو كان هو نفسه، "لم تحن ساعتى بعد". فى الحالة الثانية، فإن الهاربين كانوا أناساً يملكون الوسائل المتوسطة أو العالية، ويمكنهم استخدامها سريعاً، بقوا إلى أن يتبينوا إلى أى حد يمكن أن يصل الحدث، لكن عندما لم يعد هناك شك، ملأوا طائرات الجسر الجوى الجديد، وحملوا أقصى ما يستطيعون من أربطة وصناديق وأشياء أخرى أقل حجماً، عن فصول ما حدث، لم يكن هناك أى حس أخلاقى، ولا حتى غلالة من حياء، فالرشوة والدس والخيانات وحتى ارتكاب الجرائم، هناك من قتلوا فقط للحصول على تذكرة سفر، لقد كان ذلك مشهداً شائناً، لكن، بما أن العالم هو على هذه الشاكلة، سنكون أغبياء لو كنا ننتظر منه شيئاً آخر. وأخيراً، فإنه بعد النظر فى كل شىء وفحصه، فإن الأكثر احتمالاً أن كتب التاريخ سوف تسجل أربع هجرات وليس ثلاثاً، ليس بسبب

المغالاة فى التصنيف، ولكن حتى لا يتم خلط العاطل بالباطل.

غير أننا نؤكد فى تحليلنا النهائى الذى عرضناه، أنه يمكن أن يعكس، وإن كان بشكل لا إرادى، ميلاً عقلياً نحو التجميل، أى، الميل نحو رؤية مثالية للطبقات الأدنى، والإدانة المفرطة للطبقات العليا، تحت شعارات براقة، ليست مناسبة دائماً، كالأثرياء وأصحاب السلطة، وهو ما يدفع بالطبع إلى الكراهية والرفض، وفى الوقت نفسه فإنها رؤية تعكس شعوراً بائساً يتمثل فى الحسد، الذى يعتبر مصدراً لكل الشرور. لا شك أن هناك فقراء، وهو أمر صعب نفيه، ولكن لا يجب منحهم أكثر مما يستحقون من اهتمام، خاصة عندما يكونون، ولم يكونوا، فى هذه الحالة الجانبية التى جعلت من المناسب وجودهم، ولم يكونوا، نموذجاً للصبر، والانضباط الحر المقبول. لأنه بعيداً عن تلك الأحداث والأماكن يمكن تخيل الهاربين الأيبيريين، متراكمين فى بيوت، وملاجئ ومستشفيات، ومخيمات، ومخازن، فى المحال العامة والأكواخ التى أمكن إقامتها، وأكثر من تم التخلى عنهم وتسليحهم من الجيش، وأولئك الآخرين، الأكثر عدداً، الذين لم يجدوا مسكناً فسكنوا تحت الجسور، فى حماية الأشجار، وفى السيارات المهجورة، إن لم يكن فى العراء، من تصور أن الله جاء ليعيش مع هذه الملائكة، سيعرف الكثير عن الملائكة والله، ولكن عن البشر لا يعرف ولا حتى الحرف الأول.

يمكن القول، دون أية مبالغة، إن الجحيم، فى الأزمنة الأسطورية كانت موزعة على كامل شبه الجزيرة، كما ذكرنا فى بداية هذه الرواية، ولكنها مركزة الآن فى رقعة رأسية تقريباً عرضها حوالى ثلاثين كيلومتراً، من شمال جيليقيا وحتى إقليم الغربى بالبرتغال، مع الأخذ فى الاعتبار الأراضى الغربية الخالية التى يعتقد قليلون فى إمكانية اصطدامها. مثلاً، لو أن الحكومة الإسبانية لم تؤكد على الخروج من مدريد، التى تعتبر داخلية مرفهة، وهو ما كانت الحكومة البرتغالية تريد العثور عليه فى ألفيس، وهى المدينة الأبعد عن الشاطئ، فى خط مستقيم، أفقى تقريباً ومتوسطى، بداية من لشبونة. بين المهجرين، من هم سيئو التغذية، قليلو النوم، وشيوخهم يموتون، والأطفال ما بين البكاء والصراخ، والرجال بلا عمل والنساء تحملن على ظهورهن العائلة كلها، الكلمات السيئة، والفوضى والعراك، والسرقات، والنهب، أيضاً، من كان يمكنه أن يتخيل أن هذا سيمتد هذا إلى العادات المتحررة التى حولت هذه المخيمات إلى بغاء جماعى، إنه مخجل، ومثال سيئ للأبناء الكبار من يعرفون جيداً من هم آباؤهم ومن هن أمهاتهن، لا يعرفون الآن ماذا يفعل الأبناء ولا أين ولا مع من؟. بالطبع أهمية هذا الجانب من القضية يعتبر أقل من الناحية السطحية، لو أننا أخذنا فى الاعتبار قلة الاهتمام التى يعيرها مؤرخو اليوم عن الأزمنة السابقة، لسبب أو آخر، ولها نقاط تلاقٍ مع ما يحدث

الآن، بشكل خاص، فى الممارسة الحرة للجنس، فى أوقات الأزمات، وهو الأكثر إلحاحاً ونفعاً لمصالح البشرية والإنسان، كلاهما مرفوض بالطبع أخلاقياً، لكننا، نشير إليها من باب إرضاء المراقب المحايد.

مع ذلك فإنه فى كل هذه الفوضى والارتباك توجد واحة سلام، هذه الكائنات السبعة التى تعيش فى تناغم تام، امرأتان وثلاثة رجال، وكلب وحصان، وإن كان هذا عليه أن يسكت بعض الأسباب المثيرة للشكوى، خاصة فيما يتعلق بتوزيع العمل، أن يظل هو وحده يجر العربة المحمَّلة، ولكن لهذا علاج سيأتى فى يوم من الأيام القادمة. المرأتان والرجلان يشكلان زوجين، من تلك الأزواج السعيدة، فقط الرجل الثالث الذى لا يجد رفيقة له، لكن ألا يؤثر هذا فيه؟، لو نظرنا إلى عمره، فعلى الأقل لم يلحظ عليه حتى الآن أية علامات من العصبية تشى بإفرازاته الغددية. فيما يتعلق بالكلب، ففى اللحظات التى يرغب فيها فى الطعام فإنه يبحث عن أشياء أخرى ترضيه ويجدها، وهو أمر لا نعرفه، فالكلب، فى هذا المجال من أكثر الكائنات استعراضاً بين الحيوانات، وإن كان الحذر يوجد لدى بعض بنى جلدته، ونرجو ألا يفكر أحد فى السير خلف هذا الكلب، هناك حالات من التطفل لا يجب أن تحدث. ربما كانت هذه الاعتبارات عن العلاقة والمعاملة تتعلق بالجنس، يظهرها الزوجان ربما بسبب العاطفة المشبوبة أو لحداثة الارتباط، وإن كانا لا يظهران أنهما فى حالة من النشوة، وهو شىء،

من الأفضل قوله من الآن حتى لا يفكر أحد فى شىء سيئ، فهو لا يعنى أنهما يجب أن يمارسا القبل والعناق فى كل مكان، هم جادون حتى هذه اللحظة، ولكن ما لا يستطيعون كتمان الهالة التى تحيط بهما أو تشع منهما، فقط رآها بدرو أورثى قبل أيام من التلال وهى تشع. هنا، على أطراف الغابة حيث سيعيشون من الآن، بعيدون جداً عن القرى القريبة منهم حتى يمكنهم تخيلهم وحدهم، لكنهم قريبون إلى حد ما فيما يتعلق بالتموين الغذائى حتى لا تكون هناك مشكلة معقدة، لا يزال أمامهم أيام عدة. ولكنهم يستغلون الفرصة كما يقول الشاعر، كارب ديم، لأن أهمية هذه الإشارات القديمة من اللاتينية التى تحتوى عالماً من المعانى الثنائية والثلاثية، هذا دون تعداد ما يكون تحتها أو غير واضح منها، التى يعثر عليها الواحد منا عندما يبدأ فى ترجمة كلمة، الاستمتاع بالحياة، مثلاً، فإن الترجمة تبدو غير جميلة، ضبابية، ولا تستحق حتى مجرد المحاولة. لهذا فإننا نؤكد على قول كارب ديم، ونشعر كالآلهة حتى نتمكن من الوصول إلى المعنى الحقيقى للتعبير، وهو استغلال الزمن.

أى زمن لا يزال باقياً، هذا شىء لا يعرفه أحد، محطات الإذاعة والتليفزيون تعمل أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم، ولم تعد هناك نشرات أخبار كل ساعة، لأنهم يقطعون البرامج بشكل متكرر ليقرأوا آخر الأخبار، والأنباء تتوالى، نحن على مسافة ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً، نحن على مسافة ثلاثمائة

وسبعة وعشرين، يمكننا أن نعلن أن جزر سانتا ماريا وسان ميجيل تم إخلاؤهما تماماً، تهجير باقى الجزر يتواصل بوتيرة سريعة، نحن الآن على مسافة ثلاثمائة وثلاثة وعشر كيلومتر، لم يبق فى قاعدة لاخى سوى عدد قليل من العلماء الأمريكيين وسينسحبون فقط، ليواصلوا مراقبة الاصطدام من الجو، نقول فقط الاصطدام، دون وصف محدد، ولم يتم الرد على طلب الحكومة البرتغالية ليسمحوا لعالم برتغالى بالانضمام إلى مجموعة العلماء المشار إليهم من قبل، كمراقب، لا يزال هناك ثلاثمائة وأربعة كيلومترات، المسئولون عن البرامج الثقافية والترفيهية بالتليفزيون والإذاعة يناقشون ما يجب بثه، من الموسيقى الكلاسيكية، كما يقول بعضهم، للتواؤم مع خطورة الحدث، فيما يرى آخرون، أنه من الأفضل بث موسيقى خفيفة، أو أغانٍ فرنسية من سنوات الثلاثينيات، أو أغانٍ شعبية برتغالية، وإسبانية وأشياء أخرى من الدفوف، والأشبيليات، وكثير من أغانى الروك، والموسيقى الفولكلورية، والأغانى الفائزة فى مسابقات الأغانى الأوروبية، فيرد الكلاسيكيون، لكن تلك الموسيقى السعيدة ستفاجئ وتصدم من يعيشون الآن لحظاتهم الأخيرة، ويعلق المحدثون، يصبح من الأسوأ أن نعزف لهم موسيقى جنائزية، باقى مائتان وخمسة وثمانون كيلومتراً.

تم استخدام مذياع جواكيم زازا بحرص، هناك بطاريات احتياطية، لكن من الأفضل توفيرها، لا أحد

يعرف ما الذى يخبئه لنا الغد، إنها جملة شعبية، من تلك التى تُقال كثيراً، وهنا نراهم على ما سيكونون فى ذلك اليوم، الموت والتدمير، وملايين الجثث، وغرق نصف شبه الجزيرة. ولكن الدقائق التى لا يعمل فيها المذياع لا تحتمل، فقد أصبح الزمن شيئاً محسوساً، لزجاً، يخنق الحلق، وأصبح محسوساً أن الاصطدام قريب رغم أنه لا يزال بعيداً، ليس هناك من يحتمل توتراً مثل هذا، يدير جواكيم زازا المذياع، يغنى صوت جميل عاشق للحياة، "من المؤكد أنه بيت برتغالى، بيت برتغالى من المؤكد"، "إلى أين تذهبين بشال مانيلا، أين تذهبين بالقرنفلة الحمراء"، باللذة نفسها، والحياة نفسها، لكن فى لغة أخرى، عندها يتنفسون جميعاً بارتياح، لأنهم أقرب إلى الموت بعشرين كيلومتراً، ولكن هذا لا يهم، فالموت لم يعلن بعد، وجزر الآزور لا تزال بعيدة عن البصر، "غنى يا فتاة، غنى".

كانوا يجلسون فى ظل شجرة، انتهوا من الطعام قبل قليل، يشبهون الرُحل فى عاداتهم وملابسهم، يا له من تحول فى فترة زمنية قليلة، إنه نتيجة النقص فى وسائل الرفاهية، الملابس قذرة ومكرمشة، والرجال لم يحلقوا ذقونهم منذ أيام، ليس هناك مجال لتوبيخهم، فشفاه المرأتين لم يعد فيها سوى اللون الطبيعى، الباهت نتيجة الهم، ربما تضعان مسحوق التجميل عند اللحظة الأخيرة لاستقبال الموت بشكل لائق، إلا أن هذه الحياة التى توشك على نهايتها لا تستحق أى اهتمام. استندت ماريا جوافايرا على كتف

جواكيم زازا، وأخذت يده، وانحدرت من بين رموشها دمعتان، لم يكن خوفاً مما سيحدث، لكنه الحب الذى صعد إلى عينيها. جذب جوزيه أنايسو جوانا كاردا بين ذراعيه، وقبل جبهتها وجفونها التى ترتخى، كما لو كانت هذه اللحظة تتبعنى أينما كنت، إنا لا أطلب المزيد، فقط تلك اللحظة، ليست هذه اللحظة بالذات والآن، إنما الأخرى التى سبقتها، والسابقة على سابقتها، التى بالكاد يمكن تمييزها من هنا. لم أحتفظ بها عندما كنت أعيشها، والآن فات وقتها. نهض بدرو أورثى وابتعد، يلمع شعره الأبيض فى الشمس، يحمل هالة من النور البارد، ويتبعه الكلب، منكساً رأسه، لن يذهبا بعيداً، يقضون معاً أطول وقت ممكن، لا يريد أى منهما أن يكون وحيداً عند وقوع الكارثة. رغم الإرهاق الكبير من السير الطويل، يشعر الحصان بالسعادة، فهو كما يؤكد العلماء، الحيوان الوحيد الذى يجهل أنه سيموت. يمضغ الشوفان، ويهز جسده ليتخلص من الذباب، ويضرب كفله الأبلق بشعر ذيله الطويل، يجهل على الأرجح إن كان ينهى وجوده فى الدنيا منتفخ الرئة فى إسطبل منهار وشبه مظلم، بين خيوط العنكبوت والروث، مؤكد أن مأساة البعض قد تكون مصدر سعادة للآخرين، ولو كان لبعض الوقت.

مر نهار، وجاء آخر ومر أيضاً، تبقى مائة وخمسون كيلومتراً. يتزايد الإحساس بالخوف مثل ظل أسود، والرعب فيضان يبحث عن نقاط ضعف فى

السد، ينخر أساساته العميقة وينتهى بتدميرها، وأخيراً انفجر، الذين ظلوا هادئين حتى الآن تقريباً فى الأماكن التى استقروا فيها انتقلوا باتجاه الشرق؛ لأنهم أدركوا أنهم قريبون جداً من الساحل، على مسافة سبعين أو ثمانين كيلومتراً، فبدأوا فى الانتقال؛ لأنهم تخيلوا أن الجزر ستشق الأرض حتى ذلك المكان، ويكتسح البحر كل شىء. القمة أشبه بالشبح، من يعرف، ربما ينشط البركان نتيجة الاصطدام، "لكن ليس على جزيرة بيكو أى بركان"، لم يجد هذا التفسير اهتماماً ولا أى تفسير آخر، بالطبع، وسرعان ما أصبحت الطرق مليئة، كل تقاطع مثل عقدة صعبة التفكيك، وبعدها أصبح مستحيلاً التقدم ولا حتى التراجع، كانوا أشبه بالفئران، كثيرون من تخلو عن ممتلكاتهم البائسة التى يحملونها فى محاولة لإنقاذ حياتهم فى الحقول. لدعم هذه الموجة وتقديم القدوة الحسنة، تركت الحكومة البرتغالية أمان ألفيس لتذهب للإقامة فى إيفورا، وانتقلت حكومة إسبانيا لتقيم فى ليون بشكل مريح تماماً، وبدأتا من هناك فى بث بيانات بتوقيع من رئيس الجمهورية هنا وملك المملكة هناك، كل من جانبه، لأننا نسينا، للأسف، أن نقول إن الرئيس والملك تقاسما عذابات حكومتيهما فى كل مراحل الحدث، وما لم نكن قد صححنا هذا السهو، كان لزاماً علينا أن نفعل ذلك الآن، لأن كلاً منهما عرض أن يذهب للقاء الجماهير التى فقدت صوابها بأذرع مفتوحة، وأن يقدما حياتهما فداء،

نتيجة لحركات العنف أو الحوادث، ويقول كل منهما مرة أخرى، "أيها الأصدقاء، أيها المواطنون، إلخ، إلخ"، "لا يا جلالة الملك، لا يا سيادة الرئيس، الجماهير لن تفهم وهى فى حالة رعب، إضافة إلى الجهل، لا بد أن يكون الإنسان متحضراً ومثقفاً جداً كى يتوقف عند رؤية ملك أو رئيس فاتحاً ذراعيه فى منتصف الطريق، ليعرف ما يريد، لكن هناك آخرين، يستديرون ليصرخوا فى غضب: الموت أفضل من الحياة بهذه الطريقة، لننه الأمر"، وظل هؤلاء ينتظرون وهم ينظرون إلى الجبال الساكنة فى الأفق، ودرجات لون الفجر الوردية، والزرقة العميقة لسماء مساء حار، والليل الموشى بالنجوم، ربما تكون هذه آخر ليلة، لكن عندما تحين الساعة لن أدير عينى عنها.

حينئذ، وقع الحدث، على بعد حوالى خمسة وسبعين كيلومتراً من الجانب الشرقى لجزيرة سانتا ماريا، دون أن يكون هناك ما ينذر بوقوعه، ودون أدنى إحساس بأية هزة، بدأت شبه الجزيرة فى الإبحار نحو الشمال، وخلال دقائق قليلة، وبينما كان المراقبون فى كل المؤسسات الجغرافية فى أوروبا والولايات المتحدة يحللون، غير مصدقين، البيانات التى تم استقبالها عبر الأقمار الصناعية، ويترددون فى الإعلان عنها، أفلت من الموت الملايين من الأشخاص المرعوبين فى كل من إسبانيا والبرتغال، دون أن يعرفوا، أنه أثناء تلك الدقائق المأساوية، هناك من خاض مشاحنات على أمل الموت فيها، فيما انتحر

آخرون؛ لأنهم لم يحتملوا الإحساس بالخوف. كان البعض يطلب العفو والمغفرة لخطاياهم، فى حين فكر آخرون أنه لم يعد هناك وقت للتوبة، فكانوا يسألون الله والشيطان عن آثام جديدة يمكنهم ارتكابها. ووضعت بعض النساء متمنين أن يُولد أطفالهن موتى، وعلمت أخريات أنهن حوامل فى أطفال لن يولدوا أبداً، وعندما دوت الصرخة الشاملة فى العالم كله، "لقد نجوا، لقد نجوا"، رفض البعض تصديق ذلك واستمروا فى البكاء حزناً على نهايتهم القريبة، لكن سرعان ما تأكد أنه ليس هناك شك مما حدث، وأقسمت الحكومات على هذا بكل الطرق، وقدم العلماء تفسيرات، وكان يُحكى أن النجاة نتجت عن تيار بحرى قوى تم إحداثه اصطناعيا، فثار جدل واسع حول من كان وراء هذا، الأمريكيون أم السوفييت.

انتشرت الفرحة كالبارود وملأت شبه الجزيرة بالضحكات والرقصات، خاصة فى الشريط العريض الذى تجمع فيه الملايين من المهجرين، وكانت السلطات المسئولة قد قالت، "إنه لحسن الحظ أن الحدث وقع فى وضح النهار، وقت تناول الغداء بالنسبة لمن كانوا يأكلون، وإلا لعم اضطراب وفوضى مرعبان"، لكن سرعان ما شعرت هذه السلطات بالندم على التسرع فى التعليق لأنه ما إن تم التيقن من صحة الخبر، حتى بدأ الآلاف والآلاف من المهجرين طريق العودة إلى بيوتهم، وتعين أن يتم التصحيح بشكل مؤلم، هناك إمكانية أن تعود شبه الجزيرة مرة أخرى إلى مسارها

الأصلى، وإن كان باتجاه الشمال قليلاً، لكن لم يصدق أحد ذلك، خاصة وأن قلقاً جديداً تسلل إلى أرواح الناس، حيث كانوا يرون فى مخيلتهم مدنهم وقراهم المهجورة، والمدينة، والقرية أو النجع الذى عاشوا فيه، والشارع الذى كانوا يسكنونه، والبيت، البيت المنهوب من أشخاص وطدوا العزم، ولا يصدقون الحكايات أو فرضية الخطر الطبيعى لمن، هم بحكم المهنة، اعتادوا على اللعبة الخطرة كل ليلة، ولم تكن تلك مجرد خيالات مريض، لأن كل اللصوص والنشالين وكل الدنيئين القدامى والمحدثين يتسكعون ويحومون حول المناطق المهجورة، متخذين كل احتياطياتهم، وكل الأهداف الشريرة فى رءوسهم، والذين انتشرت بينهم بشكل جماعى قانون موحد، "من يصل أولاً له حق الاختيار، وليبحث التالى عن بيت آخر، ولا مجال للخلاف لأن هناك بيوتاً تكفى الجميع". ومن الأفضل ألا يستسلم أحد للإغراء، كما نقول نحن، سرقة بيت ماريا جوافايرا، لأنه من الأفضل له ألا يغامر بسرقته، لأن الرجل الموجود فيه يملك بندقية صيد ولن يفتح الباب إلا لصاحبة البيت ليقول لها، "لقد حرست ممتلكاتك، والآن عليك أن تتزوجينى". إلا إذا كان قد غلبه السهر والتعب، فنام على كومة الصوف الأزرق منهكاً ومتعباً من سهر الليالى، وبذلك يكون قد أضاع حياته كرجل.

دفع الحذر سكان جزر الآزور إلى عدم العودة إلى بيوتهم مباشرة، ولو كنا مكانهم لفعلنا الشىء نفسه،

حقيقة، إن الخطر المباشر قد تلاشى، لكنه لا يزال موجوداً فى جميع الأنحاء، يدور، وكأنه صورة جديدة لحكاية مرجل الطين ومرجل الحديد، مع فارق أساسى أنه أمكن بالفخار صنع أوانٍ صغيرة من الجزر، ولكن لم تتوافر كمية كبيرة تكفى لصنع قدرٍ كبيرٍ لقارة، وهذه، لو أمكن أن تكون، فإنها ستغرق، ويسمونها أتلانتا، ونكون مجانين لو لم نتعلم من التجربة، سواء بالخبرة أو بالذكرى التى تركتها، حتى لو كانتا غير صحيحتين لا هذه ولا تلك، لكن ما أبقى على الأفراد الخمسة تحت الشجرة لم يكن سوى الإحساس بالحيطة أو الحذر، فى اللحظة التى بدأ فيها الجميع السير باتجاه الشواطئ البرتغالية وجيليقيا، كنوع من العودة المنتصرة، يحملون أفرع الأشجار، والزهور، وتعزف الفرق الموسيقية والغنائية ويطلقون الألعاب النارية، وتدق الأجراس عند مرورهم، تعود العائلات إلى بيوتها، قد ينقصها أشياء لكن الحياة عادت معهم، وذلك هو الأهم، الحياة، المائدة التى نأكل عليها، والسرير الذى ننام فيه، والذى سيشهد هذه الليلة، الابتهاج الخالص، ونمارس عليه أكثر ممارسات الحب سعادة فى العالم. تحت الشجرة، تنتظر العربة والحصان الذى استعاد قواه، كان الأشخاص الخمسة الذين بقوا فى المؤخرة، ينظرون إلى الكلب، وكأنهم ينتظرون منه النصيحة أو الأمر، "أنت يا من جئت من مكان لا نعرف أين؟"، "أنت يا من ظهرت لى يوماً ما، جئت من بعيد، مرهقاً حتى إنك لم

تبد أية مقاومة"، "أنت يا من مررت عندما كنت أشير لهؤلاء الرجال إلى المكان الذى رسمت فيه على الأرض خطأً بعصا ونظرت إلينا"، أنت يا من كنت تنتظرنا إلى جوار ذات الحصانين التى تركناها تحت السقيفة"، "وأنت يا من كنت تحمل فى فمك خيط الصوف الأزرق، وكنت مرشدنا فى كل الطرق والدروب"، "أنت يا من ذهبت معى إلى البحر فعثرت على السفينة الحجرية"، "قل لنا إلى أين علينا أن نذهب، أوضح لنا، بحركة أو إيماءة أو علامة، إذا لم تكن تعرف النباح، لأنه لا أحد منا يريد العودة إلى البيت فى الوادى، لأنها ستكون بداية العودة النهائية لنا جميعاً"، "لأن الرجل الذى يريد أن يتزوجنى سيقول لى، "سيدتى تزوجينى"، وسيقول لى رئيس المكتب الذى أعمل فيه، "أحتاج إلى هذه الفاتورة"، وزوجى سيقول لى، "أخيراً عدتِ"، وسيقول لى والد أسوأ تلميذ، "سيدى المُعلم، اضربه قليلاً"، وستقول لى زوجة كاتب المحكمة التى تشكو من الصداع، "أعطنى أقراصاً للصداع النصفى"، "قل لنا أنت الآن إلى أين يجب أن نذهب، انهض وتقدم، وسيكون هذا مصيرنا".

الكلب الذى كان مقعياً تحت العربة، رفع رأسه، وكأنه سمع أصواتاً، قفز فجأة، وركض نحو بدرو أورثى، الذى احتضن رأسه بين يديه، "أصحبك معى، لو أردت ذلك؟"، فقط كانت الكلمات التى نطقها الرجل، ماريا جوافايرا، صاحبة الحصان والعربة لم تقرر شيئاً، لكن جوانا كاردا نظرت إلى جوزيه أنايسو

الذى فهم نظرتها، "قرروا ما تشاءون، فأنا لن أعود"، حينئذ قالت ماريا جوافايرا بصوت مرتفع وواضح، "لا يزال هناك وقت للإقامة ووقت للرحيل، وقت العودة لم يحن بعد"، وسأل جواكيم زازا، "الرحيل إلى أين؟"، اقترح بدرو أورثى، "إلى أى مكان بلا وجهة معينة، لنذهب إلى الجانب الآخر من شبه الجزيرة، فأنا لم أشاهد جبال البرانس أبداً"، رد عليه جوزيه أنايسو، "ولن تشاهدا هذه المرة لأن نصفها ظل فى أوروبا"، "لا يهم فالعملاق يمكن معرفته من إصبعه"، واحتفلوا بالقرار، إلا أن ماريا جوافايرا قالت، "قادنا الحصان وحده إلى هنا، لكنه لا يستطيع إكمال الرحلة وحده، إنه عجوز والعربة مصنوعة ليجرها حصانان، وبحصان واحد فإنها تكون كتعاء"، سأل جواكيم زازا، "إذًا يجب الحصول على حصان آخر، لن يكون من السهل العثور على خيول فى هذا المكان، إضافة إلى أننى أعتقد أن ثمن الحصان كثير، وبالطبع ليس لدينا المال الكافى".

بدت الصعوبة بلا حل، لكننا سنشاهد إثباتاً على مدى قدرة الذهن البشرى على التطويع، منذ أيام، رفضت ماريا جوافايرا فكرة النوم فى بيت مهجور، ولا يزال صدى هذا الدرس يرن فى آذان من يتذكرونه، وإذا بها الآن، بعد أن أصبح قانون الضرورة حاكماً، تعلن استعدادها لإدانة حياة كاملة من الطهارة الأخلاقية، شرط ألا ينتقد أحد تهاونها، "لن نشتريه، ولكن سنسرقه"، تلك هى كلماتها، وجاء دور جوانا

كاردا لكى تصحح ما قيل بطريقة غير مباشرة حتى لا تصطدم بأحاسيس ماريا جوافايرا، "أنا لم أسرق شيئاً فى حياتى أبداً"، عم صمت ثقيل، كان عليهم أن يعتادوا على القوانين الأخلاقية الجديدة، فقام بدرو أورثى بالخطوة الأولى، على خلاف العادة أن يكون الشيوخ المحنكين أكثر احتراماً للقانون القديم، فقال، "نحن لا نسرق أى شىء أبداً فى حياتنا، لكن نسرق دائماً فى حياة الآخرين"، وقد يحدث أن يمثل ذلك مبدأ أساسياً لأحد الفلاسفة الأغبياء"، رغم أنه لم يكن هذا سوى إثبات مبسط لحقيقة واقعية، أخفى بدرو أورثى ابتسامته بخبث، لكن الكلمات قيلت، "حسن جداً، لقد تقرر الأمر، سنسرق حصاناً، لكن كيف يتم ذلك؟، هل نُجرى قرعة لمعرفة من الذى يقوم بالحملة؟"، قالت ماريا جوافايرا، "علىَّ أن أذهب أنا لأنكم لا تعرفون شيئاً عن الخيول، وستعجزون عن إحضار أى منها"، قال جواكيم زازا، "سأرافقك، لكن لو جاء الكلب معنا سيكون الوضع أفضل، يمكنه الدفاع عنا عند أى خطر".

فى تلك الليلة، خرج ثلاثتهم من المخيم وتوجهوا شرقاً، حيث توجد فرص أكبر للعثور على ما يبحثون عنه، لأن المنطقة ربما كانت هادئة نسبياً، وقبل مغادرتهم قال جواكيم زازا، "لا نعلم كم يستغرق ذلك، انتظرونا هنا"، رد جوزيه أنايسو، "لنفكر بشكل جيد، أليس من الأفضل أن تعودا بسيارة كبيرة تسعنا جميعاً، بما فى ذلك الأمتعة والكلب؟"، "لا توجد سيارة

من هذا النوع، المطلوب شاحنة، وأذكرك أنه لا توجد شاحنة واحدة فى حالة تسمح لها بالسير، ثم معنا الآن حصان لا يمكن تركه"، "الواحد فداء للجميع، والجميع فداء للواحد"، "هكذا قال قديماً الفرسان الثلاثة، الذين كانوا أربعة وهم حالياً خمسة، غير الكلب"، "والحصان".

ذهبت ماريا جوافايرا وجواكيم زازا، فيما كان الحيوان يتقدمهم، متشمماً ومتفحصاً الظلال، هناك شيء عبثى فى هذه الحملة، البحث عن حصان، أعلنت ماريا جوافايرا، "يمكن لبغل أن يؤدى المهمة أيضاً"، دون أن تعرف إن كان هناك حيوان من هذا النوع على مسافة خمسة فراسخ، لا شك أنه من الأسهل العثور على بقرة، لكن لا يمكن ربط البقرة والحصان معاً فى عربة، ولا حتى حمار، نظراً للحمولة فى هذه الحالة، سيكون الأمر هو جمع ضعيف إلى آخر، للحصول على قوة واحدة لا يحدث هذا ولا حتى فى الأمثال، والحلم كحكمة المهد المصنوع من أغصان الصفصاف التى سبق ذكرها، سارا وسارا، وكانا يتركان الطريق كلما لحا أكواخاً وبيوتاً ريفية بين الحقول؛ لأن الخيول لا توجد سوى هناك، نحتاج إلى خيول جر، وليس حصان سباق أو حصان تنزه، بدأت الكلاب فى النباح، لكنها سرعان ما تهدأ، ولن يعرف أحد مواهب هذا الكلب، فما كان أكثر صخباً وهياجاً يخرس فجأة، ليس لأن هذا الحيوان المتوحش قادم من العالم الآخر قد قتله، لأنه فى هذه الحالة كان يمكننا

أن نسمع صراخاً وعراكاً وأنات مؤلمة، من الممكن أن يُقال إن الصمت صمت قبور لولا أن أحدا فى الحقيقة لم يمت.

كان الفجر قد قارب على الانتهاء، ولم يكن ماريا جوافايرا وجواكيم زازا يستطيعان تحريك أقدامهما من الإنهاك، قال هو "علينا أن نرتاح فى مكان ما"، لكنها أصرت، "لنبحث، لنبحث"، وبحثا بكفاءة كبيرة حتى عثرا على ما يريدان، فقد عثرا عليه ولم يكتشفاه، وتم ذلك بأبسط طريقة فى الدنيا، كانت السماء صافية، وتحول الليل الأسود فى الشرق إلى زرقة قاتمة، عندما سمعا، صهيلاً مكتوماً عند أدنى مستوى من المكان، إنها معجزة لطيفة، إنه هناك، اتجها نحو المكان فوجدا حصاناً أبلق، لم يكن الله هو الذى وضعه هناك لزيادة قائمة المعجزات، لكن صاحب الحيوان الشرعى الذى قال للبيطار، "ضع له هذا الدهان على جرحه واتركه ينام فى العراء، افعل هذا ثلاث ليالٍ متتالية، وإذا لم يشف الحصان أعيد لك نقودك وأخسر اللقب الذى أحمله"، لا بد من العثور على سكين بسرعة لقطع الحبل، لأنه لا يمكن نقل حصان مقيد، إلا أن ماريا جوافايرا تعرف كيف تتكلم مع الحيوانات، رغم عصبية الحيوان الذى لم يتعرف على من تقوده، فإنها نجحت فى أن توجهه نحو ظلال الأشجار، وهناك، معرضة نفسها لخطر أن يدوسها أو تحصل ضربة حافر قوية، نجحت فى فك عقدة الحبل الخشن، تُربط العقدة عامة فى مثل هذا

الموقف حتى يكون فكها سهلاً، لكن قد يجهل الناس فى هذه المنطقة هذا العلم، ولحسن الحظ، فهم الحصان أنه يُراد إطلاقه، والحصول على الحرية أمر طيب فى جميع الأحوال حتى لو كانت إلى المجهول.

عادا عبر طرق جانبية، واضعين ثقتهما أكثر من أى وقت مضى موهبة الكلب ليحذرهما عند أى اقتراب مشبوه، وتخليصهما من أية ورطة عند ظهور جيران غير مرغوب فيهم، وعندما طلع النهار تماماً، كانا قد ابتعدا عن المكان بشكل كافٍ، وبدءا يلتقيان بأناس فى الحقول وعلى الطرق، لكن لم يكن هناك من يعرف الحصان، وحتى لو رأوه ما كان لهم أن يتعرفوا عليه، بسبب التشوش ولبراءة المشهد، الذى يبدو كما لو كان ينتمى إلى القرون الوسطى، مكون من آنسة تجلس على أحد جانبى الحصان، وفارس راجل يمسك بلجام الحيوان، فلم ينسيا أخذه معهم، وكلب الحراسة يكمل الرؤية الفاتنة التى تبدو كحلم فى عينى البعض فى حين كان البعض الآخر يرى ذلك علامة على تغيير فى طريقة الحياة، ويجهل كلا الفريقين أنهما لصان شريران من لصوص الخيول، وإذا كانت المظاهر خادعة حقاً، فإننا نجهل فى كثير من الأحيان أنها تخدع مرتين، وهو ما يشكل سبباً جيداً للثقة فى انطباعاتنا الأولية، وعدم تقصى ما هو أبعد من ذلك. لهذا السبب قد يقول بعض الناس اليوم، "رأيت أماديس وأوريان هذا الصباح، كانت تركب حصاناً وهو راجل، ويرافقهما كلب"، "مؤكد أنهما لم

يكونا أماديس وأوريان ولم يرهما أحد أبداً ومعهما كلب"، "شاهدتهما وهذا يكفى، إنها شهادة تساوى مائة"، "لكن لم يكن هناك ذكر لأى كلب أبداً فى حياة وغراميات ومغامرات الاثنين"، "إذًا يجب إعادة صياغة قصة حياتهما، مرات ومرات قدر ما يكون ذلك ضرورياً لإدخال كل شىء فيها"، "كل شىء"، "بقدر ما أمكن".

وصلا المخيم مع حلول المساء، وجرى استقباليهما بالعناق والضحكات. ألقى الحصان الأبلق نظرة جانبية على الأشقر الذى كان يتنفس بجهد، "به جرح فى الكفل، جاف تقريباً، وضعوا عليه دهاناً دون شك وتركوه فى العراء لثلاث ليالٍ ابتداء من الجمعة، إنه علاج ناجع".

■■■

## -١٨-

بينما كان الناس يعودون إلى بيوتهم وتستعيد الحياة وتيرتها شيئاً فشيئاً، أو كما يقولون، تعود إلى مجراها الطبيعى، كانت الحوارات غير المجدية بين العلماء تذروها الرياح حول أسباب تحول مسيرة شبه الجزيرة فى آخر لحظة، فى الوقت الذى لم يكن هناك من يمنع وقوع الكارثة. الأطروحات عديدة، وكلها متعارضة تقريباً فيما بينها، وهو ما يدفع بشكل أوتوماتيكى إلى عدم الثقة فى الخبراء.

أولى تلك الأطروحات تؤكد على أن الصدفة المطلقة كانت وراء التوجه الجديد، لأنه يشكل زاوية مستقيمة مع التوجه السابق، وسيكون من غير المقبول أى تفسير يعتمد على التوجه الإرادى، خاصة أنه لا يوجد من يدعمه، لأنه ليس فى إمكان أحد أن يحتمل كتلة ضخمة من الحجر والطين يتحرك عليها عشرات

الملايين من البشر، وأنه يمكن أن يحدث، لمجرد الرغبة أو بالتعدد المتقابل، من الذكاء والقوة القادرة على توجيهها بهذه الدقة، الذى يمكن وصفها، بأنها عمل شيطانى.

تدافع أطروحة أخرى عن أن تقدم شبه الجزيرة، أو بشكل أكثر دقة، خط سيرها، وسنعرف على الفور لمَ تم استخدام هذه الكلمة، سيتم فى كل مرة بزاوية مستقيمة جديدة، مما يسمح، طبقاً لواقع الحال، الإقرار بالاحتمال المدهش، بعودة شبه الجزيرة إلى نقطة انطلاقها، وذلك بعد سلسلة متوالية، أو بشكل أدق، مجموعة من الاندفاعات المتدرجة، يمكن أن تكون بداية من لحظة معينة أقل من ملليمترية، إلى التطابق النهائى، والتام.

تفترض الأطروحة الثالثة وجود مجال مغناطيسى على شبه الجزيرة أو أية قوة أخرى مماثلة فى شبه الجزيرة، بحيث يكون رد فعله عند اقتراب أى جسم غريب، ضخم بما فيه الكفاية، بحيث يحدث رد فعل تنافرى ذو طبيعة خاصة جداً، يدفع هذا، كما رأينا، بالعمل فى الاتجاه المعاكس للحركة الأصلية أو النهائية، لكنه على النقيض من ذلك، يحدث انزلاقاً باتجاه الشمال أو الجنوب، لكن هذه الفرضية تجاهلت تأمل هذا الجانب.

وأخيراً الأطروحة الرابعة، وأكثرها تطرفاً، وتعتمد على القوى التى يمكن تسميتها، ما وراء

نفسية، وتؤكد على أن شبه الجزيرة ابتعدت عن الاصطدام لوجود عنصر مكون من عشر ثانية، من الرغبة فى النجاة والفزع لدى السكان، وهذا التفسير، اكتسب شعبية كبيرة، وأصبح أكثر شعبية خاصة عندما عقد المدافع عنه مقارنة مع ما يجرى فى مجال الفيزياء، فى محاولة لتقريب العملية من الأذهان غير المثقفة للسكان، فأوضح كيفية سقوط تلك الأشعة الشمسية على عدسة محدبة الوجهين تدفع تلك الأشعة إلى التجمع فى نقطة أو بؤرة واحدة، مما يحدث النتائج المعروفة من الحرارة والاحتراق واشتعال النار، وبالتالى فإن التأثير المكثف للعدسة له موازٍ واضح فى قوة التفكير الجماعى، شمس عشوائية، تستطيع أن ترتفع فى فترة الأزمة، إلى الذروة من القوة والقدرة إذا ما تم تركيزها، لكن هذا التفسير لم يُدهش أحداً، بل على العكس تماماً، فقد اقترح البعض معالجة الحالات النفسية والذهنية والروحية وتلك الخاصة بالإرادة والخلق، من الآن فصاعداً، طبقاً لمفاهيم الفيزياء، حتى لو كان ذلك بطريقة القياس فقط، أو بالاستقراء الناقص، وتجرى حالياً دراسة تلك الأطروحة وتطويرها، ويهدف البعض إلى تطبيق مبادئها الأساسية على الحياة اليومية، خاصة فى مجال عمل الأحزاب السياسية والمسابقات الرياضية، هذا لمجرد ذكر أمثلة معروفة.

يقول بعض المتشككين إن الإثبات الحقيقى هو أن كل تلك الأطروحات ليست سوى فرضيات، ولا يمكن

أن تكون أكثر من ذلك، ويمكن التأكد من ذلك خلال أسابيع، إذا استمرت شبه الجزيرة فى طريقها الحالى فإنها ستعبر فيما بين أيسلاند وجريونلاند، وتلك بلاد غير مرغوبة من البرتغاليين والإسبان المعتادين بشكل عام على الدفء والمناخ المعتدل المائل إلى الحرارة معظم فترات السنة. وإذا حدث هذا فإن النتيجة المنطقية الوحيدة التى يمكن استخلاصها من كل ما جرى حتى الآن هى: هذه الرحلة لا تستحق العناء. ومن ناحية أخرى، ما يكون، أو سيكون تبسيطاً مُغالى فيه فى عرض المسألة، فلا توجد رحلة مرغوبة فى حد ذاتها، وإن كان ظاهرياً، لأن كل رحلة تتضمن رحلات متعددة، إحداها يبدو أن لها القليل من المعنى الذى نتعجل الحكم عليه، "أنها لا تستحق العناء"، فالحس العام، الذى تخلينا عنه فى كثير من الأحيان لو قارنا الرحلات فإن النتيجة لن تكون ذات قيمة كبيرة، وأخيراً، ، مطلوب التأكد إن كانت تستحق العناء أم لا. كل هذه الاعتبارات مجتمعة تجعلنا نأخذ على عاتقنا التخلى عن إصدار الأحكام القطعية والتخمينات الأخرى تتطلب منا التخلى عن الأحكام المسبقة. تتوالى الرحلات وتتراكم كالأجيال، ما بين الحفيد الذى كنته والجد الذى ستكونه، أى أب كان من المحتمل أن تكونه، ربما كنت أباً سيئاً، ولكنك ضرورى.

قدَّر جوزيه أنايسو حساب الرحلة الذى ينتظرهم، عبر طرق ليست الأكثر مباشرة لو أرادوا تفادى المنحدرات الكبيرة وتلال كانتابريا، "المسافة من بالاس

دى رى، حيث نوجد الآن تقريباً، وحتى بلد الوليد، تبلغ حوالى الأربعمائة كيلومتر، ومن هناك وحتى الحدود، فى هذه الخريطة لا تزال هناك حدود، أربعمائة كيلومتر أخرى، المجموع ثمانى مائة كيلومتر، إنها رحلة طويلة بخطى حصان"، صححت ماريا جوافايرا، "حصان واحد، لا، لقد انتهى هذا، ولن يكون السير بطيئاً، بل عدواً"، حينئذ قال جواكيم زازا، "بحصانين لجر العربة"، ثم توقف عند هذا الحد من الجملة مع تعبير كمن يرى نوراً يشع فى جمجمته، وقهقه ضاحكاً، "يا للعجب، تركنا ذات الحصانين وها نحن نسافر بحصانين آخرين، اقترح تسمية العربة من الآن بذات الحصانين فعلاً وشرعاً، كما يقال باللاتينية، أنا لم أتعلم اللاتينية على أية حال، أعرف ذلك سماعياً فقط، كما قال أحد أجدادى الذى كان يجهل أيضاً لغة أجداده". كان الحصان يأكل الشوفان خلف العربة، وجرح الحصان الأشقر قد التأم تماماً، وإذا كان الحصان الأبلق لم يسترد حيويته فإنه استعاد قواه، وأصبح شكله أفضل كثيراً، يرفع رأسه أقل من الآخر لكنه لن يكون سيئ المظهر مع رفيقه"، بعدها أعاد جواكيم زازا سؤاله بعد الضحك العام، "كنت أقول إذن، بحصانين كم كيلومتر سنسير فى المتوسط فى الساعة؟"، أجابت ماريا جوافايرا، "حوالى ثلاثة فراسخ"، "أى خمسة عشر كيلومتراً طبقاً للقياسات الحديثة"، "بالضبط، عشر ساعات بمعدل خمسة عشر كيلومتراً فى الساعة يعنى مائة وخمسين

كيلومتراً، أى يمكننا أن نصل بلد الوليد فى أقل من ثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أخرى سنكون فى البرانس، سيكون ذلك سريعاً"، أبدت ماريا جوافايرا علامة على عدم الرضا وأجابت، "البرنامج ليس سيئاً، بشكل حتى لا نقضى على الحيوان فى وقت قصير"، "لكنك قلت"، "قلت خمسة عشر كيلومتراً، لكن هذا على الأرض المنبسطة، وعلى أية حال فإن الحصانين لن يسيرا أبداً عشر ساعات يومياً"، "مع الراحات"، "لحسن الحظ أنك لم تنس الراحات"، مع رنة السخرية كان يبدو أن ماريا جوافايرا غاضبة تقريباً.

فى حالات مثل هذه، وإن لم تدخل أحصنة فى المسألة، فإن الرجال يتخذون أوضاعاً متواضعة، إنها حقيقة تجهلها النساء بشكل عام، وينتبهن فقط إلى ما يمكن أن يشتبهن فى أنه علامة على إظهار الذكورية، فيتخذن ردود أفعال غاضبة، ومن هنا يرتكبن الأخطاء الناتجة عن الخلط وسوء الفهم، ربما كان سبب كل هذا نقص فى الجهاز السمعى للكائنات البشرية، ولدى النساء بشكل خاص، وإن كن يبدين حساسية سمعية كبيرة، غمغم جواكيم زازا، "فى الحقيقة أنا لا أعرف شيئاً عن الخيول، فأنا من المشاة"، تدخل الآخرون فى المشادة الكلامية، ويضحكون لأن الحالة لا تستدعى كل هذه الجدية، فالخيط الأزرق أقوى رابط فى العالم، كما سنرى سريعاً. قالت ماريا جوافايرا، "ست ساعات فى اليوم على الأكثر، وإن لم نستطع فليكن ما يستطيعه الحصانان"، سأل جوزيه

أنايسو، "نبدأ الرحلة غداً؟"، أجابته ماريا جوافايرا، "لو كنا جميعاً متفقين على ذلك؟"، وبصوتها النسائى توجهت إلى جواكيم زازا، "هل ترى هذا مناسباً؟"، وهو الذى أصبح أعزل من كل سلاح بشكل فجائى، قال، "أعتقد أنه مناسب"، وضحك.

قاموا فى تلك الليلة بإجراء حساباتهم المالية، كم إسكودو وكم بيزيتة، وبعض العملات الأجنبية لجواكيم زازا، حصل عليها عندما خرجوا من بورتو، كان ذلك قبل أيام قليلة رغم أنه يبدو كمرور قرون، إنه تفكير لا جديد فيه، وإن كان فيه بعض الجديد، لكنه لا يقاوم، كأشياء عادية أخرى ومتعددة. المواد الغذائية التى جاءوا بها من بيت ماريا جوافايرا قاربت على الانتهاء، ويجب استكمال المئونة، وهذا لن يكون سهلاً، خلال كل هذه الفوضى فى التموين، وكل هذه الجموع الجائعة التى لا تترك فى طريقها ولا حتى أعقاب الكرنب، دون الحديث عن حظائر الدجاج المنهوبة، نتيجة أيضاً للحاجة، لمن يطلب ثروة مقابل دجاجة بارزة العظام. عندما بدأت الأوضاع تعود إلى طبيعتها، هبطت الأسعار بعض الشيء، لكنها لم تعد إلى سابق عهدها، فالأمر معروف، فهى لا تعود أبداً إلى سابق عهدها. ولكن المشكلة أنه لا يوجد شيء الآن، وحتى السرقة تكتنفها الكثير من الصعوبات، هذا إذا ما قروا الاستمرار فى هذا الطريق المعوج، مسألة الحصان كانت حالة خاصة، فلو لم يكن يعانى من جرحٍ لكان ينام الآن فى حظيرته ويساعد فى أعمالُ صاحبه

القديم، أما عن مصير الحيوان فلا يعرف صاحبه عنه سوى أنه قد سرقه لصان وكلب، وكانت هناك آثارهم. يقولون دائماً ليس هناك من سيئ ولا يأتى بالخير، منذ تلك اللحظة التى نهتم فيها بالتمييز بين الخير والشر والذين يقدر لهم هذا أو ذاك، أعلن بدرو أورثى، "لا بد من العمل للحصول على المال؟"، كانت فكرة منطقية، لكن بعد وضع قائمة بالمهن، تم التوصل إلى نتيجة كانت متوقعة مسبقاً، وهى، إذا كانت جوانا كاردا حاصلة على شهادة فى الآداب ولكنها لم تعمل فى التدريس من قبل؛ لأنها بقيت فى البيت منذ زواجها، إضافة إلى أن الاهتمام بالأدب البرتغالى فى إسبانيا محدود جداً، ولدى الإسبان انشغالات أخرى، مما يعنى أنه جزء من الكم المهمل من الموظفين فى المكاتب، وهذا يعنى أنه نشاط له قيمته، لا يشك أحد فى هذا، لكن فى فترات السلام الاجتماعى تتم معالجة الأمور العادية، بشكل مختلف. مارس بدرو أورثى تحضير الأدوية طوال حياته، وكان يعد جرعات الكينا لحظة أن تعارفا عليه، لكنه للأسف نسى أن يأخذ صيدليته معه، وإلا كان بإمكانه أن يقدم استشارات عامة، ويكسب مالاً لا بأس به؛ لأن هذه المناطق الريفية من يقول صيدلى فهو يعنى طبيباً. أما جوزيه أنايسو، فهو معلم أطفال، ومن يقول ذلك فقد قال كل شىء، دون الحديث عن حقيقة أنه يوجد الآن فى بلد يملك جغرافيا وتاريخاً مختلفين، إذ كيف يفسر لصغار الإسبان أن الخوباروتا كانت انتصاراً بينما اعتادوا نسيان أنها كانت هزيمة، لم يبق سوى

ماريا جوافايرا الوحيدة التى تستطيع الذهاب للبحث عن عمل فى هذه الحقول، والقيام فى حدود قواها ومعرفتها، وهى لا تشكل كل الأعمال الحقلية.

ينظر بعضهم إلى بعض، دون أن يعرفوا ما تخبئه لهم الحياة. قال جواكيم زازا، متردداً، "لو كان علينا أن نتوقف من وقت لآخر لكسب بعض المال فإننا لن نصل إلى البرانس أبداً، فالمال الذى نكسبه بهذه الطريقة لا يدوم كثيراً، ما إن يأتى حتى يختفى، الحل أن نفعل مثل الغجر، أريد أن أقول الرُحل الذين ينتقلون من أرض إلى أخرى، يجب أن يعيشوا من عمل شىء، أليس كذلك؟"، هل كان سؤالاً أم شكاً، ربما كان المن والسلوى يسقطان على الغجر من السماء. مَن أجابه على تساؤله كان بدرو أورثى، لأنه من الجنوب، حيث يوجد من مثل هؤلاء الكثير، "هناك من يتاجرون فى الخيول، وآخرون يبيعون الملابس فى الأسواق، وهناك من يتاجرون من باب لباب، والنساء يقرأن الكف"، "لا نريد المزيد من حكايات الخيول، لإثارة الخجل كان هذا كافياً، إضافة إلى هذا فهى مهنة لا نعرف عنها شيئاً، أما بالنسبة لقراءة الطالع، نرجو من الله ألا يكون طالعنا سيئاً ومليئاً بالمشاكل"، "عدا بيع الخيول نحن فى حاجة إلى البدء فى شرائها أولاً، والمال الذى معنا لا يكفى، إذا كان الحصان الذى معنا سرقناه". حل الصمت، كيف كان ذلك، لا أحد يعرف، وعندما كان كل شىء جاهزاً، قال جواكيم زازا، الذى بدا كروح كاشفة وعملية، "حالنا لا أجد له سوى مخرج واحد،

نشترى ملابس من أحد المحال التى تبيع الملابس القديمة، من المؤكد أنها موجودة فى أول المدن التى نمر بها، ونبيعها فيما بعد فى القرى، يمكننا أن نكسب شيئاً معقولاً، وأنا أتولى عملية الحسابات". بدت الفكرة طيبة، وفى وجود فكرة أفضل يمكن تكوين خبرة جيدة، خاصة أنهم لا يستطيعون القيام بأعمال الفلاحة أو الصيدلة أو التعليم، ولا القص، سيعملون باعة ملابس متجولين، يبيعون ملابس رجال ونساء وأطفال، وهو أمر غير مخجل على الإطلاق، وبإدارة جيدة يمكنهم الاستمرار فى الحياة.

برسم خطة الحياة على هذا النحو، ذهبوا إلى النوم، ستكون هذه اللحظة المناسبة لنقول إنهم ينامون الخمسة فى العربة التى يطلقون عليها الآن ذات الحصانين، وبهذه الطريقة، فإن بدرو أورثى سيظل فى الأمام، ممدداً بالعرض، فى ممر ضيق يكاد يسعه وحده فقط، بعد ذلك جوانا كاردا وجوزيه أنايسو، بالطول، فى المساحة الجانبية الباقية إلى جوار الحاجيات التى يسافرون بها، ويحدث الأمر نفسه مع ماريا جوافايرا وجواكيم زازا، فى الخلف. هناك قماش معلق يلعب دور التقسيم الرمزى، الاحترام بين الجميع كبير، لو أن جوانا كاردا وجوزيه أنايسو اللذين يحتلان منتصف العربة، أرادا الخروج إلى الهواء الطلق خلال الليل، يمكنهم المرور من جانب بدرو أورثى، لا مجال لديهما للشكوى، وعدم الراحة، هنا يجب التعامل بالطريقة نفسها التى يتعامل بها

الجميع، أما القبلات والعناق، وتفريغ الشحنات الجسدية، عندما يجرى ممارستها، عليهم أن يسألوا تلك الأرواح الفضولية فى الطبيعة التى لها ميول شريرة. نقول هناك طريقتان لإشباع رغبات العشاق الخاضعين للاندفاعات الجميلة فى الطبيعة، إما أن يذهب هؤلاء إلى الحقول بحثاً عن مكان منعزل وهادئ، أو ينتهزوا الابتعاد الوقتى للزملاء الآخرين، لعمل هذا ليس مطلوباً فيه استخدام الكلام، بل تكفى الإشارات المعبّرة، فقط بالتلميح بها وسيفهمونها، هنا يمكن أن تغيب النقود ولكن التفاهم لا يمكن أن يغيب.

لم يبدءوا الرحيل مع حلول الفجر كما تتطلب الشاعرية، لم يكن عليهم أن يبكروا إذا كان الوقت ملكهم، ولكن لم يكن هذا هو السبب ولا أقواها على الإطلاق، ما حدث أنهم تأخروا بسبب الإعداد الجسدى للرحلة، من اغتسال، وحلق الرجال لذقونهم، وتجميل أجساد النساء والملابس والتمشيط، فى ركن قصى تحت الأشجار، حيث أخذن جرادل الماء من المجرى، اغتسلوا واحداً واحداً، الأزواج من غير المعروف إن كانوا قد اغتسلوا بالجسد عارياً بالكامل لأنه لم يكن هناك شاهد على ذلك. كان بدرو أورثى آخر من اغتسل، ورافقه الكلب، بدا شكلهما كالبلهاء، كان الواحد منهما يسخر من الآخر، يدفع الكلب بدرو وروثى، وبدرو أورثى يقذف الكلب بالماء، رجل فى مثل سنه ما كان يجب عليه أن يقوم بهذا علنا، قال أحدهم، "يجب عليه أن يحترم نفسه، فهو ليس

صغيراً"، لم يبق من المخيم أى أثر، فقط الأرض المهروسة بالأقدام، وبقايا ماء الاستحمام تحت الأشجار، والرماد والأحجار المحترقة، ستمحو الرياح كل هذا، وأول الأمطار تسوى الأرض المحروثة، وتذيب الرماد، فقط الأحجار يمكنها أن تدل على أنه كان هنا بعض الناس، ولو تطلب الأمر فمن الممكن أن تفيد فى إشعال نار جديدة.

النهار أجمل لبداية الرحلة، من أعلى التل بدأوا سيرهم باتجاه الطريق، كانت ماريا جوافايرا تقود العربة لأنها لا تثق فى أحد للتحكم فيها، لأنه من المطلوب الحديث مع الحصانين، وهناك أحجار وزلط على الطريق، وكسر العربة هناك يعنى نهاية الرحلة، دعوا السقا لعمله. فالأشقر لم يتفاهم بعد مع الأبلق، يبدو أن أحدهما يشك فى قدرة الآخر، بمجرد ربطه مع رفيقه، مال إلى الشد باتجاه الخارج، وكأنه يريد الابتعاد عنه، مما يضطره إلى بذل مزيد من الجهد فى الجر، تراقب ماريا جوافايرا مناوراتهما، لكن ما إن يصلا إلى الطريق حتى يستعيدا انتظام سيرهما، بالموازنة الناتجة عن المعاملة الحسنة والسوط وتحريك اللجام. ستنجح فى تقويم عيوبهما، كان جواكيم زازا أول من ابتدع الاسمين للحصانين، لأنهما ليسا كحصانى السيارة، المتقاربين من بعضهما وترددهما واحد وزمنهما واحد، ولا يمكن التمييز بينهما، فيما أن هذين يختلفان فى كل شىء، اللون والسن والقوة والشكل والطباع، من هنا يجب التمييز تماما بينهما

ومنح كل منهما اسماً خاصاً به، قال جوزيه أنايسو، "لكن بيج يعنى بالإنجليزية الخنزير، فيما آل اختصار لألفريد مثلاً"، رد عليه جواكيم زازا، "نحن لسنا فى أرض إنجليزية، وبيج تعنى بيجارسو، وآل تعنى الأشقر، وأنا أبوهما الروحى"، تبادلت جوانا كاردا وماريا جوافايرا الابتسامات فى مواجهة صبيانية رجليهما، وفجأة انطلق بدرو أورثى، "لو كان الأمر يتعلق بمهرة وحصان ليكون لديهما وليد، لكان من الممكن تسميته بيجال"، قد يذهل من يكون على معرفة بالثقافة الأوروبية، بحق الشيطان كيف يذكر بدرو أورثى اسم بيجال، إلا أن سوء الفهم نابع منه، بعض أنواع الأجناس الناجحة بشكل خاص ليست سوى الثمرة اللاإرادية للمصادفة، بدرو أورثى لا يعرف شيئاً عن بيجال.

لم يسيروا فى هذا اليوم الأول أكثر من ستين كيلومتراً، أولاً ما كان عليهم أن يدفعوا الحصانين إلى بذل مجهود شاق بعد هذه الراحة الطويلة التى عاشاها؛ أحدهما بسبب الجرح، والآخر فى انتظار اتخاذ القرارات التى تأخرت، وثانياً لأنه كان من المطلوب المرور بمدينة لوجو، التى كانت تبتعد عن الطريق العام قليلاً، إلى الشمال الشرقى، لشراء البضاعة المطلوبة للتجارة التى تقرر أن يعيشوا منها. اشتروا من المدينة صحيفة لمعرفة آخر الأخبار، وأبرز ما وجدوه صورة لشبه الجزيرة، التقطت قبل يوم واحد، وكان واضحاً التحرك باتجاه الشمال منذ أول

انزلاق، وتمت الإشارة إلى هذا من قبل إدارة التحرير. لم يكن هناك من شك، فقد كانت الزاوية مستقيمة جداً. لكن عن الافتراضات الشهيرة المطروحة للنقاش، التى نشروا تلخيصاً لها هنا، لم يكن هناك أدنى تقدم، أما عن موقف الصحيفة نفسها يمكن ملاحظة، أنه ربما ناتج عن الإحباط، وبعض الشك، الصحى ربما، ولكن أيضاً يمكن إرجاعه إلى قصر النظر الناتج عن رؤية مدينة إقليمية.

فى حوانيت الملابس، فإن النساء، بالطبع، أوكل بهن عملية اختيار البضاعة، وإلى جانبهن كان جواكيم زازا يقوم بالعمليات الحسابية، كان لديهن شك كبير فى الطريقة التى كان يجب أن يتبعاها، إن كانت ملابس شتوية للموسم الذى يقترب، أم العمل على المسافات المتوسطة، واختيار ملابس تناسب الربيع القادم، صححت جوانا، "أعتقد أنه لا يقال المسافات المتوسطة، بل المدى المتوسط". لكن جواكيم زازا أجاب بجفاء، "نقولها هكذا فى مكتبى، ومتوسطات، وبعيدات وقصيرات". ولكن عند اتخاذ القرار النهائى كانت احتياجاتهم هى التى تحدد الأمر، كان واضحاً أنهم جميعاً فى حاجة إلى تغيير ملابسهم، فقد كانوا يرتدون ملابس منتصف الموسم، يُضاف إلى هذا محاولة منع ماريا جوافايرا وجوانا كاردا من الانسياق وراء رغباتهن. ولتلبية جميع الرغبات، أمكن طلب البضاعة حسب تطلعات المستقبل، ليكون الطلب حسب العرض. كان جواكيم زازا قلقاً، "لقد وضعنا فى

هذا أكثر من نصف الأموال التى لدينا، فإذا لم نحصل على نصف هذا النصف خلال أسبوع، ستكون لدينا مشاكل، وفى حالات مثل حالتنا، بلا وجود أموال احتياطية أو إمكانيات للحصول على قروض مصرفية، نكون فى حاجة إلى إدارة حازمة للمتبقى، وتنسيق كامل بين الخارج والداخل، لا زيادة ولا نقصان". هذه الملاحظات أبداها جواكيم زازا فى أول توقف بعد الخروج من مدينة لوجو، بحكم سلطته كمدير، وهو أمر قبله الجميع.

أن تكون هذه تجارة فإنها لن تسبح فى بحر من الورود، فهموا هذا جميعاً عندما أجبرتهم إحدى الزبائن المتمرسات على تخفيض سعر جونلتين ووصلت إلى حد تهديد المكاسب المحتملة. بالصدفة كانت البائعة هى جوانا كاردا، التى اعتذرت للجميع بعد ذلك ووعدت، أنها فى المستقبل، ستكون أكثر شراسة من كل البائعين النشطين فى شبه الجزيرة، ذكَّرهم جواكيم زازا مرة أخرى، "لأنه إذا لم نحترس، ستكون تجارتنا مثل خوان صاحب الماعز، ننتهى إلى أن نبقى بلا تجارة ولا بضاعة؛ لأن الأمر لا يتعلق فقط بوجودنا، فلدينا أيضاً ثلاثة أفواه تريد أن تأكل؛ الكلب والحصانان"، قال بدرو أورثى، "الكلب يحصل على معاشه وحده"، "قام بهذا حتى الآن، ولكن لو جاء يوم كان الصيد خلاله شحيحاً فسترونه وقد عاد وذيله بين فخذيه، وحينها ماذا سنفعل لو لم يكن لدينا شيئاً نقدمه له؟"، "نصف طعامى سيكون له"، "جميل

أن تفعل هذا، ولكن مشكلتنا ليست تقسيم الفقر، بل زيادة رأس المال"، أبدى جوزيه أنايسو ملاحظة، "رأس مال وفقر، فى هذه اللحظة من حياتنا فنحن أكثر فقراً مما نحن فى الحقيقة، الوضع غريب، نعيش كما لو اخترنا أن نعيش كفقراء"، "لو كان الأمر يتعلق بالاختيار، أعتقد أنه لن يكون اختيار بحسن نية، ولكن الأوضاع هى التى أجبرتنا، وعلينا أن نختار بعضها، التى تخدم أهدافنا الشخصية، نحن كالممثلين، أو نحن مجرد شخصيات، نعم، مثلاً، سأعود أنا مع زوجى، من أكون لحظتها؟، الممثل خارج دوره، أم شخصية تلعب دور ممثل، ما بين أحدنا والآخر، أين أكون"، قالت هذا جوانا كاردا. كانت ماريا جوافايرا تستمتع إليها، والآن تقول كمن يبدأ حواراً جديداً، ربما لم تفهم جيداً ما قاله الآخرون، "الأشخاص يولدون كل يوم، وإن يعيشوا يوم الأمس أو البداية من جديد هذا يخضع لرغبتهم، فمن الميلاد وحتى اليوم الجديد، اليوم"، "لكن هناك الخبرة وكل ما تعلمناه"، ذكرها بدرو أورثى، "نعم، لديك كل الحق" قال جوزيه أنايسو، "لكننا نمارس الحياة كما لو لم تكن لدينا أية تجارب سابقة، أو نستخدم جزءاً منها بما يسمح لنا بتكرار الأخطاء، ونفسرها بالتجارب والخبرات السابقة، والآن خطرت على بالى فكرة وإن كانت تبدو عبثية، شىء مضاد، وربما كانت الخبرة لها قوتها الكبرى فى المجتمع أكثر من وجودها فى كل واحد من أفراده، المجتمع يستغل تلك التجارب أكثر من أفراده جميعاً، لكن لا أحد يريد، يعرف أو يريد أن يستغل كل تجربته

الخاصة".

يناقشون كل هذه القضايا المهمة فى ظل شجرة، فى ساعة الغداء، كان الغداء بسيطاً ومناسباً لرحل لم يكملوا عمل يومهم بعد، وإذا كان هناك من يرى أن هذا النقاش غير متوازن، سواء لمكانه، أو بما يحيط به من أوضاع، فنذكره، أنه بشكل عام، أن تدريب وثقافة الحجيج تقبل دون نفور غير مناسب، حديثاً مضمونه يتضمن عيوباً حقيقية، من وجهة نظر نظرية بحتة تهدف إلى حق لا يقل دقة، إلا أن حديثنا، بغض النظر عن إمكانياته، قام أو قيل، ولو مرة واحدة فى الحياة على الأقل بأن هناك أشياء أسمى بكثير من طبيعتها ووضعها، ولو أمكن إخراج الناس من رتابة الحياة اليومية التى يفقدون فيها إحساسهم بما يحيط بهم، فإنهم يجبرون أنفسهم على انتزاعها من حبسها، حينها سنرى كم من العجائب يمكنهم تحقيقها، والجوانب الأساسية للمعرفة التى يصبحون قادرين على تبادلها، لأن كل واحد منهم يعرف أكثر مما يعتقد، وكل واحد من الآخرين يعرف أكثر بكثير مما نريد الاعتراف به، هنا تجمع خمسة أشخاص لأسباب غير منطقية، وسيكون غريباً ألا ينجحوا فى أن يقولوا لبعضهم أشياء بعيدة عن المعتاد.

يكون غريباً أن يتم العثور على سيارة فى المناطق، فقط من وقت لآخر تمر شاحنة لتموين السكان، تحمل فى الأساس مواد غذائية، لأنه مع كل هذه الحكايات يكون من الطبيعى اختيار نظام تجارة محلى

بعض الشىء، هناك نقص فى الأشياء ثم فجأة يصبح العجز زيادة، إلا أن كل ذلك مقبول، لأنه لا يجب أن ننسى أن الإنسانية لم تواجه موقفاً مماثلاً من قبل، أبحرت من قبل ولكن على سفن صغيرة والكثير من البشر يسيرون على الأقدام، وآخرون يمتطون الحمير، ولو كانت الأرض مستوية لشاهدنا عدداً أكبر من الدراجات الهوائية. بشكل عام، طبيعة الناس هنا طيبة، مسالمون، إلا أن الشعور بالحسد الوحيد الذى لا يختار طبقة دون أخرى، ويظهر فى النفس البشرية بتكرار أعلى، لذلك فإن العربة ذات الحصانين كانت تثير حسداً عند مرورها خلال المشهد العام. عندما تكون الأوضاع صعبة للغاية يكون الطمع فيها واضحاً، من بالعربة أحدهم مسن والآخران ليسا شمشون ولا هرقل، ويمكن أن تكون المرأتان فريسة سهلة بعد التغلب على رفاقهما، نعرف أن ماريا جوافايرا تستطيع أن تقاوم رجلاً ولو تسلحت بجمرة نار، لكن ليس من المحتمل ألا يواجهوا هجوماً غادراً، يتركهم فى حالة انسحاق تام، المرأتان مغتصبتان والرجال جرحى، لكن كان هناك الكلب، الذى يخرج من تحت العربة عندما يقترب أى شخص، سواء كان فى المقدمة أم الخلف، أثناء التوقف أم أثناء السير، يبدو الكلب بفمه المفتوح كذئب يحدق بعينيه اللتين تطلقان شرراً بارداً فى المارة الأبرياء فى أكثر الأوقات، وإن كان فزعهم لا يقل عن فزع الأشرار. لو أننا دققنا فيما فعله الكلب حتى الآن، فإنه يستحق حقاً لقب الملاك

الحارس، رغم التلميحات المتكررة عن أصله الجهنمى المزعوم. وبالوقوف خلف حكم التقاليد المسيحية وغير المسيحية، يمكن الاعتراض بأن الملائكة يمكن تمثيلهم دائماً على أنهم بأجنحة، إلا أنه فى الحالات التى لا يحتاج فيها الملاك للطيران، وهى كثيرة، ماذا يمكن أن يحدث لو تمثل فى شكل أليف مثل الكلب، ولن يضطر إلى النباح، لأنه لا يتناسب مع جوهره الروحى، وعلينا أن نعترف، أنه أقل ما يمكن عمله، الكلاب التى لا تنبح ما هى سوى ملائكة تقوم بمهامها.

خيموا مع حلول المساء على ضفة نهر الميميو، بضواحى قرية كبيرة اسمها بورتومارين، بينما كان جوزيه أنايسو وجواكيم زازا يخليان ويعتنيان بالحصانين، ويعدان النار، ويقشران البطاطس ويخرطان الخضراوات، انتهزت المرأتان برفقة بدرو أورثى وملاكهم الحارس آخر خيوط النهار ليدوروا على بيوت القرية، لم تفتح جوانا كاردا فمها، بسبب اختلاف اللغة، من المؤكد أنه فى البيعة السابقة كان اختلاف اللغة وصعوبة التواصل هما السبب فى الخطأ فى السعر، لكنها بدأت تتعلم للمستقبل، فهو المكان الوحيد الذى يمكن للواحد أن يصحح فيه أخطاءه. لم تكن المبيعات سيئة، فما باعوه كان بسعره المحدد. عندما عادوا إلى المخيم كان يبدو بيتاً، النار تشتعل بين الأحجار، والقنديل المعلق على العربة يرسل على المكان بضوئه المستدير، وروائح الخضراوات كانت حاضرة كحضور الله رب العالمين.

فيما بعد العشاء تحادثوا حول النار، فجأة

طرأت على ذهن جواكيم زازا فكرة فسأل، "من أين جاءك هذا اللقب جوافايرا، ما معناه؟"، وأجابت ماريا جوافايرا، "ما أعرفه هو أنه لقب لا يحمله أحد غيرى، أطلقته علىَّ أمى عندما كنت ما أزال فى بطنها، كانت تريد أن يسموننى جوافايرا، على هذا النحو فقط، لكن أبى أصر على أن أحمل أيضاً اسم ماريا، وبقيت حسب ما لم يكن علىَّ أن أكون، ماريا جوافايرا"، "إذًا، تعرفين معناه"، "اسمى نبع عن حلم"، "الأحلام دائماً ما يكون لها معنى"، "لكنه ليس الاسم الذى نبع من الحلم، والآن اذكروا لى أسماءكم؟"، "فذكروا أسماءهم، كل واحد باسمه، واحداً بعد الآخر، حينها قامت ماريا جوافايرا بتحريك جذوة النار، وقالت، "الأسماء التى نحملها ليست سوى أحلام، بمن أحلم إن لم أحلم باسمك".

■■■

## - ١٩ -

لقد تغير المناخ، إنها طريقة مثالية، رقيقة أو بحياد موضوعى، تقول لنا إن المناخ تغير إلى الأسوأ، إنها تمطر، أمطار هادئة، إعلاناً عن بداية الخريف، عندما لا تُغرق الأرض فإنها تدفعنا إلى الرغبة فى التنزه فى الحقول، بأحذية ذات رقبة وواقٍ من المطر، مستقبلين على وجوهنا رذاذ الماء الخفيف ومستمتعين بحزن البعاد الضبابى، تُسقط الأشجار أولى أوراقها فتبدو عارية، مرتعدة، كما لو كانت تشتاق إلى اللمس، هناك من يرغب فى ضرب صدره برقة حانية، نقرِّبُ وجوهنا من السقيفة المبتلة فيبدو كالمبتل بالدموع.

إلا أن غطاء العربة من أوائل الأغطية التى صُنعت من أجل هذا، كانت وقتها التكنولوجيا قوية، سواء فى استخدام الخيوط أم فى النسيج، إلا أنها لم تكن تحمى كثيراً من الماء، لقد كان زمان ومكان الأشخاص القادرين على تجفيف الملابس على

أجسادهم بكل الحماية، وليسوا فى حاجة دائماً إلى كأس من العرقى. تزايد أثر الفصول فجفت الخيوط، وتفتقت الحياكة، ومن السهل رؤية الغطاء المأخوذ من ذات الحصانين، تواصل نفاد الماء، رغم قناعة جواكيم زازا، الذى دافع عنها، عندما ابتل القماش وتضخمت الخيوط مما قلل من حجم المساحة فيما بينهم، فللمطر جانبه المفيد لو كان هناك صبر للانتظار. نظرياً، ليس هناك شىء مكتمل، إلا أن الممارسة شىء آخر، فلو لم يحترسوا بطى ورفع الحشيات، ما كان يمكن لأحد أن ينام عليها.

عندما يسقط المطر بقوة أكبر وتكون هناك فرصة، يدخل المسافرون تحت أحد الجسور، إلا أن الجسور قليلة فى هذا الطريق، فهو ليس سوى طريق جانبى، بعيداً عن الطرق الكبرى، من تلك التى تحاول اتقاء الاحتكاك وتسمح بسرعة أكبر، لذلك تسمح بمرور الطرق الثانوية عبر جسور علوية. فى أحد تلك الأيام خطرت لجوزيه أنايسو فكرة شراء ورنيش أو طلاء مانع للمطر، وهكذا فعلوا، إلا أن الطلاء الوحيد الصالح الذى عثر عليه، كان طلاء أحمر اللون، ولا يكفى حتى ربع غطاء العربة. لو لم تخطر على بال جوانا كاردا فكرة أفضل وأكثر معقولية، بخياطة شرائح عريضة من البلاستيك إلى جوار بعضها البعض لتكون غطاءً كاملاً، وغطاء آخر للحصانين، ولم يكن هناك حاجة إلى التفكير فى أنه على بعد ثلاثين كيلومتراً لن يمكنهم العثور على طلاء بألوان

ودرجات مختلفة، فينتهى بهم الأمر إلى المرور بالعربة فى هذا العالم الواسع بغطاء ملئ بالخطوط والدوائر والمربعات، طبقاً لما كان يخطر على بال الفنان، أخضر وأصفر وبرتقالى وأزرق وبنفسجى، أبيض على أبيض، كستنائى، وربما أسود. فيما يستمر المطر فى الهطول.

بعد الحوار القصير والمتقطع عن معانى الأسماء والأحلام، تحاوروا حول أى الأسماء التى يمكنهم أن يطلقوها على الحلم الذى يعنيه هذا الكلب. انقسمت الآراء، وهو ما يجب أن نعرفه، إنها مجرد توجهات، ونقول حتى إن الرأى ليس سوى تعبيراً ظاهرياً لتبرير وجهة النظر. عرض بدرو أورثى وبيَّن أسباب اختيار اسم ريفى تقليدى: فيدل (الأمين)، أو بيلوتو (القائد)، وكلاهما أسماء طبيعية لو أخذنا فى الاعتبار مزايا الحيوان؛ فهو مرشد لا يبارى وأمانته لا تقبل الشك، تتردد جوانا كاردا ما بين سنتينيلا (الحارس) وكومباتيتنتى (المقاتل) أسماء لها رنين توراتى لا تتناسب مع شخصية من يختارها، لكن الروح الأنثوية لها أعماق لا تقاوم، "ستقاوم مارجيتا فى النوم طوال حياتها لتقمع فراغ الليدى ماكبث التى تحملها داخلها، وحتى آخر ساعة فى حياتها، لن تحصل على الأمان الذى تبحث عنه". أما بالنسبة لماريا جوافايرا، التى تكاد لا تعرف شرح السبب، إنه شئ لا يحدث لأول مرة، تعرض، وسيلة مخجلة لفكرتها الخاصة، وهى تسميته الملاك الحارس، لكنها خجلت من قوله؛ لأنها انتبهت إلى أنه سكون مثيراً للسخرية، خاصة فى

العلن، تسمية الملاك الحارس وبدلاً من تلك النوارنية والملابس النقية الناصعة المعبرة عن الأجنحة الملائكية، يظهر الحيوان القذر الملطخ بالطين والدم المتبقى من آخر أرنب التهمه، ورعب الكلاب الذى لا يحترم سوى أصحابه فقط، هذا لو كانوا هم أصحابه فعلاً. أراد جوزيه أنايسو أن يخفف من هذا الغليان الهستيرى من الضحكات الذى أثارته ماريا جوافايرا، فعرض أن يطلقوا عليه اسم كونستانتى (الاستمرارية)، وتذكر أنه قرأ هذا الاسم فى أحد الكتب، "لا أذكر الآن، لكن كونستانتى، إن كنت أفهم معنى الكلمة جيداً، تحتوى على كل هذه الأسماء التى عرضتموها: فيل وبيلوتو، وسنتينيلا، وكومباتينتى؛ وحتى الملاك الحارس، لأنه إذا لم يكن أى منها كونستانتى أى مستمراً، ستضيع الأمانة، ويضل المرشد طريقه، والحارس يغادر مكانه، والمقاتل سيلقى بسلاحه، والملاك الحارس سيغرى الفتيات المفترض أنه يحميهن من الرذيلة". صفقوا له جميعاً، رغم أن جواكيم زازا يرى أنه من الأفضل تسميته ببساطة الكلب، لأنه الوحيد من نوعه الموجود هنا، وليس هناك مجال للخلط فى التسميات والعروض. وأخيراً استقر الرأى على تسميته كونستانتى، لكن كل هذا المجهود لم يكن مجدياً؛ لأن الحيوان كان يستجيب لكل هذه الأسماء التى أطلقوها عليه، لو وصلت إلى سمعه أية كلمة منها، أياً كانت فهى موجهة إليه، رغم أن اسما آخر ينضم أحياناً إلى الذاكرة وهو "أردنت"، لكن هذا الاسم لم يخطر على

بال أحد، ومن نطقه مرة يعرف السبب، فى مواجهة رأى ماريا جوافايرا، التى ترى أن الاسم ليس شيئاً، ولا حتى حلماً.

كانوا يسيرون، دون أن يعرفوا، أنهم على طريق سانتياجو القديم، فيمرون بأراض محملة أسماؤها بالأمل أو الذكريات السيئة، طبقاً لكل فصل عاشه المسافرون فى ذلك الطريق البدائى: سارا، ساموس، أو الأرض المتميزة؛ فيلافرانكا ديل بييثو، حيث يمكن للحاج المريض أن يطرق باب كنيسة الحوارى فيُعفى من إكمال الطريق إلى كومبوستيلا، مع احتفاظه بالميزات التى كان يمكنه أن يحصل عليها حتى الغفران ذاته لو أكمله كله. إنه الإيمان، حينئذ، كل شىء له حلوله التوفيقية، ولكنه لا يُقارن بما يحدث اليوم، لأن التوفيقية تأتى من الإيمان نفسه، سواء هذا أم غيره. على الأقل، إن هؤلاء المسافرين يعرفون إذا ما أرادوا رؤية البرانس أن عليهم أن يصلوا حتى هناك، وأن يضعوا أيديهم عليه، فوضع الأقدام لا يكفى؛ لأنها أقل حساسية، أكثر مما يُعتقد، ويمكن خداعها. بعد قليل بدأ يخف انهمار المطر، وتسقط الآن نقاط متفرقة، إلى أن يتوقف نهائياً. إلا أن السماء لا تزال مغطاة بالسحاب، والليل يأتى بسرعة أكبر. خيموا تحت بعض الأشجار ليحتموا من أمطار محتملة أخرى، رغم أن بدور أورثى يذكر المثل الأيبيرى، "من يحتمى بشجرة، يبتل مرتين"، وهذه النسخة البرتغالية منه، وإن كانت نسخة معدلة، لم يكن إشعال النار سهلاً،

لكن فنون ماريا جوافايرا انتهت بالانتصار على مقاومة الأخشاب المبتلة، التى كانت تنفجر وتغلى عند الأطراف كما لو كانت تسكب اللعاب. أكلوا ما استطاعوا، أو ما يكفى حتى لا تقرقر البطون من الجوع ليلاً، لأنه كما يقول مثل آخر، "من ينام بلا عشاء، يمضى ليله سعراناً"، هذه نسخة حقيقية. أكلوا فى داخل العربة، تحت ضوء القنديل الضبابى، فى مناخ ثقيل وملابس مبللة، والحشيات ملفوفة وموضوعة فوق بعضها، والأشياء الأخرى الباقية مكومة، هذا المشهد مقلق بالنسبة لربة بيت جيدة. لكن ليس هناك شىء سيئ يمكن أن يستمر إلى الأبد، فالأمطار قد تتوقف ويأتى مناخ أفضل، وحينها سنرى النشاط الذى يدب فى المعسكر، الحشيات مفتوحة حتى تجف أكثر خيوطها نعومة، والملابس منشورة على الحشائش والأحجار، وعندما نجمعها سيكون لونها دافئاً من الشمس التى تترك حرارتها أينما تمر، يحدث هذا بينما المرأتان، تشكلان صورة عائلية جميلة، تضبطان وتحيكان شرائح بلاستيكية عريضة للتغلب على مشكلة الماء، المجد لمن اخترع التقدم.

ظلوا يتحدثون بكسل وتراخٍ كمن يريد قتل الوقت فيما ساعة النوم لا تحين، حينها قاطع بدرو أورثى ما كان يقوله وبدأ حديثه، "قرأت مرة لا أعرف أين، أن المجرة التى ينتمى إليها نظامنا الشمسى تتوجه إلى مركز لم أعد أتذكر اسمه الآن، وأن هذا المركز يتوجه بدوره إلى نقطة معينة فى الفضاء، أريد أن أكون أكثر

تحديداً، إلا أن رأسى لم تعد تتذكر التفاصيل، لكنْ ما أريد قوله هو التالى: انظروا، نحن هنا نتحرك على شبه الجزيرة، وشبه الجزيرة تبحر فى البحر، والبحر يدور فى الأرض التى يعتبر جزءاً منها، والأرض تُدور حول نفسها، وبينما تدور حول نفسها، تدور أيضاً حول الشمس، والشمس تدور أيضاً حول نفسها، وكل هذا يدور معاً باتجاه ذلك التجمع المركزى، وأنا الآن أتساءل، إن لم نكن نحن النقطة الأصغر فى كل تلك الحركة، أريد أن أعرف ما الذى يتحرك داخلنا والى أين؟، لا، لا أتحدث عن الديدان والبكتيريا والميكروبات، وتلك الكائنات الحية التى تعيش داخلنا، أنا أتحدث عن شىء آخر، عنْ شىء يتحرك وربما هو الذى يحركنا، وكيف يتحرك وكيف يحركنا فى كل هذا؟، الكوكب، والنظام الشمسى، الشمس، الأرض، البحر، شبه الجزيرة، وذات الحصانين، ما اسم كل هذا الذى يتحرك من طرف إلى آخر؟، وربما لا تكون هناك سلسلة، وربما كان العالم كله مجرد حلقة، هشة جداً، ربما نكون نحن فقط، ويمكنه أن يدخل فينا، أو ندخل فيه، وربما كان ضخماً يمكنه أن يحتوى أقصى الكون كله فيما هو يكون، ما اسم ما يأتى من خلفنا؟"، "الجوع يظهر المخفى"، كانت تلك الإجابة المفاجأة لجوزيه أنايسو، التى فتحت شهية التفكير.

تسقط على الغطاء، قطرات كبيرة من الماء انزلقت من ورقة إلى أخرى بين الأشجار، ويمكن سماع حركة بيج وآل هناك فى الخارج.تحت غطاء

الوقاية المائية الذى لا يغطيهما بالكامل، وربما هذا سبب الصمت التام، نسمع بأن ما يُقال لا أهمية له. كل واحد من الموجودين هنا يعتقد أن من واجبه أن يشرك معرفته للتواصل مع الآخرين، لكنهم يخافون جميعاً أنه عندما يفتحون أفواههم تخرج منها أشياء تافهة، وإن كانت لديهم شكوكهم عن الكلمات وانتمائها إلى المحيط البدائى المعادى، قطرات المطر والحصان، دون أن ننسى الكلب الذى ينام. أما ماريا جوافايرا بسبب أنها الأقل تعليماً، كانت أول من تكلم، "ما لا نراه نسميه الله"، لكن المدهش أنها قالت الجملة برنة تساؤل، "أو الإرادة"، كانت تلك إجابة جواكيم زازا، وأضافت إليها جوانا كاردا، "أو الذكاء"، وأنهى الحوار جوزيه انايسو، "أو التاريخ"، لم يكن لدى بدرو اورثى أى شىء جديد، واكتفى بالتساؤل، ومن يعتقد أن هذا هو الأسهل يكون مخدوعاً، فالإجابات التى تنتظر هذا التساؤل لا حصر لها.

يعلمنا الحذر أن اختبار أشياء بهذا التعقيد خاسر قبل أن يبدأ كل واحد منا فى التدخل والحديث عن أشياء مختلفة من الأشياء التى تحدثنا عنها من قبل، وليس هذا لأنه من المفضل تغيير الرأى، بل لأن الاختلافات الكثيرة التى يمكن أن تحدث، وتحدث بشكل عام، تدفع بالحوار إلى بدايته دون أن ينتبه المشاركون فيه إلى ذلك. فى هذه الحالة، فإن أول جملة لجوزيه أنايسو، بعد أن دارت دورة الحديث بين كل الأصدقاء، انتهت إلى الوصول إلى نتيجة مؤداها

عدم القدرة على رؤية الله، أو الإرادة، أو الذكاء، وربما بشكل أقل التاريخ. بينما كانت جوانا كاردا تتكور على نفسها، وتشكو من البرد، ويحاول جوزيه أنايسو ألا ينام؛ لأنه يريد شرح فكرته، إذا كان التاريخ حقيقة غير مرئى، وإذا كانت نتائج التاريخ ظاهرة ولها الظاهرية الكافية، وإذا كانت الظاهرية بهذه الطريقة لها نسبيتها، فإن التاريخ ليس سوى مجرد غطاء، كالملابس التى يرتديها الرجل الخفى، ويظل خفياً. لم تستمر تلك الدورات التفكيرية كثيراً، ولحسن الحظ، وقبل أن يحل النوم، فإن تفكيره تركز بطريقة عبثية فى التأكيد على الفارق بين ما هو ظاهر وما هو خفى، شىء يبدو معلوماً لدى من يفكر قليلاً، وليس له أهمية فى هذه الحالة. إن ما كشف عنه كل هذا الحوار المتشابك ليس له أدنى أهمية، فالله المثال الأكثر وضوحاً بين كل الأمثلة المذكورة، خلق العالم لأن الدنيا كانت ليلاً عندما طرأت له هذه الفكرة، فشعر فى تلك اللحظة السامية أنه لم يعد يحتمل الضباب أكثر من ذلك، وربما لو كان النهار المسيطر ربما ترك الله كل شىء كما كان. وبما أن السماء أصبحت خالية من السحب، وظهرت الشمس بلا عوائق، وظلت هكذا، فإن السفسطات الليلية تبددت تماماً، وتركز الاهتمام كله على حسن سير ذات الحصانين على ظهر شبه الجزيرة، ولم يعد يهم إن كانت شبه الجزيرة تسبح أم لا، حتى لو أخذتنى حياتى باتجاه نجمة، فلن يكون ذلك سبباً فى عدم التجوال فى طرقات العالم.

فى ذلك المساء، وبينما كانوا مشغولين بتجارتهم، علموا أن شبه الجزيرة، بعد أن بلغت نقطة مستقيمة شمال جزر الآزور، ربما فهموا أن هذا الوصف المختصر يتحدث عن أقصى جنوب شبه الجزيرة، رأس طريفة، الموجود فى المنتصف من الشرق، إلى شمال أقصى شمال جزيرة كورفو، ورأس تارسايس، حسن الآن، فإن شبه الجزيرة، بعد ما كنا نحاول شرحه، عادت إلى الإبحار نحو الغرب، باتجاه موازٍ لمسارها الأول، أى، لنحاول أن نفهم الأمر بشكل واضح، باتباعها لعدة درجات نحو الأعلى. بهذا الحدث ينتصر مؤلفو ومدافعو فرضية المسار فى خط مستقيم، التى أصابها العطب فى بعض الزوايا، وإذا لم يتم حتى الآن إثبات وجود أية حركة تؤكد على حتمية فرضية العودة إلى نقطة البداية، المعلنة، فإن هذا لن يعنى استحالة التقهقر، مادام مقبولاً أن شبه الجزيرة لن تتوقف أبداً عن الحركة، وستظل تبحر بشكل أبدى عبر بحار العالم، تماماً كالهولندى الطائر الذى ذكرناه مرات عدة، ستظل شبه الجزيرة، وباسم آخر، لا نضعه هنا كنوع من الحذر منعاً من تقديم تفسيرات قومية وعنصرية ضيقة، يمكن أن تكون مأساوية فى ظل الأحداث الجارية الحالية.

لم تكن أنباء تلك التغييرات قد وصلت إلى تلك القرية التى وصلها المسافرون، كل ما علموهِ فقط أن الولايات المتحدة أعلنت من فم رئيسها نفسه، أن الدول التى تلقت الدعم البحرى من الأمة الأمريكية،

"إذا استمرت تبحر على هذا النحو باتجاهنا، سنستقبلها استمرت تبحر على هذا النحو باتجاهنا، سنستقبلها بأذرع مفتوحة". لكن هذه التصريحات، ذات الطابع غير الاعتيادى، سواء من خلال وجهة النظر الإنسانية كما هى من وجهة النظر الجغرافية السياسية، خفتت تحت توجهات شركات السياحة فى العالم كله، التى حاصرتها طلبات السياح للسفر إلى جزيرة كورفو فى أسرع وقت ممكن، دون النظر إلى الوسائل أو التكاليف، ولماذا؟، لأنه إذا لم يحدث تعديل فى المسار، فإن شبه الجزيرة ستمر أمام ناظرى جزيرة كورفو، وهو مشهد لا يمكن مقارنته بمشهد استعراض صخرة جبل طارق، عندما انفصلت شبه الجزيرة عن الصخرة وتركتها هناك على الأمواج وحيدة. والآن ستكون الكتلة الضخمة التى تمر أمام المحظوظين الذين استطاعوا الوصول إلى ركن صغير فى النصف الشمالى من الجزيرة، لكنه رغم اتساع شبه الجزيرة، فإن الحدث قد يستمر بضع ساعات فقط، ربما يومين على أكثر تقدير، لأنه يجب الأخذ فى الحسبان الشكل غير العادى لهذه الطوافة، فأقصى الجنوب هو الجزء الوحيد الذى يمكن رؤيته، وهذا يتطلب أن يكون النهار واضحاً. والباقى، بسبب انحناء الأرض، سيمر بعيداً عن الأنظار، ولنتخيل ما كان يحدث لو أنه فى تلك المرة كانت تلك الزاوية مقسمة بشكل مستقيم عن أقصى جنوبها، لا أعرف إن كنتم على وعى بالرسم، سيكون من الممكن رؤية مسارها طوال ستة عشر يوماً،

إجازة كاملة، هذا إذا ظلت تسير بسرعة خمسين كيلومتراً فى اليوم. أياً كان الوضع فإن المكاسب المالية ستكون كبيرة فى جزيرة كورفو، بل أكثر مما حدث فى أى وقت مضى، وهو ما دفع بالسكان إلى طلب مزاليج للأبواب، بمتاريس وأجراس إنذار.

تمطر من وقت لآخر مطراً خفيفاً، وفى أسوأ الحالات يسقط البَرَد فى زخات سريعة، إلا أن الشمس تسطع فى معظم فترات النهار، السماء زرقاء والسحب مرتفعة. أما الغطاء البلاستيكى فقد تم تدعيمه وخياطته وتقويته، وأصبح الآن، عندما يهددهم المطر، يتوقف السير، على ثلاث مراحل، يتم فرده أولاً، وثانياً يجرى رفعه، ثم ربطه ثالثاً، أصبح الغطاء محمياً. وفى العربة الحشيات أكثر جفافاً من أى وقت مضى، ورائحة الرطوبة العطنة اختفت من العربة، وأصبح الداخل نظيفاً ومرتباً، تحولت العربة إلى بيت حقيقى. لكنها أصبحت مرئية الآن كلما أمطرت هنا. الأرض موحلة، ويجب اتخاذ الاحتياطيات فى العربة، وعدم إدخالها فى الطرق الجانبية قبل استطلاع الوضع؛ لأنهم فى هذه الحالة سيبذلون جهوداً مضاعفة لإخراجها من هناك، حصانان وثلاثة رجال وامرأتان لا يملكون قوة جرار. تغير المشهد الطبيعى من حولهم، فقد تركوا الجبال والوهاد، وآخر التموجات تتلاشى، وظهر أمامهم سهل منبسط بلا نهاية، وفوقه سماء من فرط إثارتها الدهشة تثير الشك فى أنها مكونة من قطعة واحدة،

قد تكون أكبر أو أصغر، أكثر ارتفاعاً أو انخفاضاً، إنه اكتشاف بالطبع يا سيدى، السماء تبدو عدداً لا نهائياً من القباب المتكررة المرصعة، تناقض التعبيرات والكلمات مسألة ظاهرية، يكفى النظر إلى السماء. عندما وصلت ذات الحصانين إلى قمة الربوة بدا وكأن الأرض لن ترتفع حتى نهاية الزمن، وبما أنه من الأمور العادية تتولد آثار عن أسباب مختلفة، فإن الشعور بالدهشة واللهاث على الأرض المسطحة أشبه بالوجود على قمة إيفرست فجأة، قل لمن كان هناك، إن كان لم يحدث له الأمر نفسه كما حدث لنا على هذه الأرض المنبسطة.

أجرى بدرو حسابات جيدة، إلا أنها حسابات مختلفة تماماً عن حسابات أى تاجر، مما يجعلنا نقول إن هذا البدرو لا علاقة له بأورثى، فالراوى نفسه يجهل من يكون هذا الشخص، يُقال عادة إن بدرو أجرى حساباته عندما تكون خاطئة، وهى طريقة شعبية ساخرة تعنى أنه على البعض إنجاز ما يجب على الآخرين إنجازه، أى لو أخطأ جواكيم زازا فإنه يكون قد أخطأ فى حساب السير مائة وخمسين كيلومتراً يومياً، وأن ماريا جوافايرا لم تكن صائبة أيضاً عندما نزلت بهذا الرقم إلى تسعين كيلومتراً، فالتاجر يعرف البيع، والخيول تعرف الجر، وكما يُقال أيضاً فإن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، لأن سرعة الحصان العجوز حدَّت من سرعة الحصان الأكثر شباباً، وربما نفسر هذا على أنه إشفاق من

الأكثر شباباً، وربما نفسر هذا على أنه إشفاق من الأخير، وخفة روحه، واحترامه البشرى؛ لأن استعراض قوته فى مواجهة من هو أضعف يعد علامة على سوء الأخلاق، كانت هذه الكلمات ضرورية لتفسير بطء تقدم العربة عما كان مقرراً لها، إلا أن الاختصار ليس فضيلة كاملة، ولكن الإسهاب قد يؤدى أحياناً إلى الإرباك والحيرة، هذا حقيقى، إلا أنه كم من مرة ربحنا بالكلام أكثر مما هو مطلوب، الحصانان يتقدمان على وتيرتهما الخاصة، وإذا دفعهما السائق إلى إسراع الخطى قد يطيعان نزوته بالتدريج، وبطريقة ماهرة، ودون أن يلاحظ أحد يقوم بيج وآل بخفض سرعتهما، ويقومان بذلك بطريقة متناسقة جداً، إنه سر غامض، لم يسمع أحد أن أحدهما قال للآخر، "أبطئ قليلاً"، ولا أن الآخر أجابه، "بعد المرور من تلك الشجرة".

لحسن الحظ أن المسافرين لم يكونوا فى عجلة من أمرهم. فى البداية، عندما خرجوا من أرض جيليقيا البعيدة الآن، كانوا كمن ينفذ جدولاً زمنياً، ويتبع طرقاً محددة لا يجب الابتعاد عنها، بل كان لديهم إحساس بالاستعجال، كما لو كان على كل واحد منهم أن يصل فى الوقت المناسب لإنقاذ أبيه من حبل المشنقة والوصل إلى سقالة الإعدام قبل أن يفتح الجلاد الطبلية. الأمر هنا لا يتعلق لا بالأب ولا بالأم؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن هؤلاء، عدا ما نعرفه عن أم ماريا جوافايرا، والتى المجنونة ولم تعد فى مستشفى

لاكورونيا، أو ربما عادت من جديد بعد أن زال الخطر. عن الأمهات الأخريات والآباء الآخرين، القدامى والحديثين، لم يكشفوا لنا شيئاً، وعندما يصمت الأبناء يجب أن تصمت الأسئلة أيضاً، وكذلك يتوقف جمع المعلومات، فالعالم فى الحقيقة يبدأ وينتهى فى كل واحد منا، إذا لم يكن فى هذا التصريح ما ينال من روح العائلة، والاهتمام بالميراث ونقاء الاسم. تحول الطريق فى أيام قليلة إلى عالم خارج العالم، مثل أى إنسان موجود فى العالم يكتشف أنه هو عالم فى حد ذاته، ليس سهلاً، بل يكفى خلق شىء من العزلة من حوله، مثل هؤلاء المسافرين، يذهبون معاً ووحدهم أيضاً. لهذا لم يكونوا متعجلين، ولهذا أهملوا حساب مسافة الطريق، والراحات للتجارة والراحة، وليس غريباً أن يتوقفوا دون أى سبب سوى الرغبة فى ذلك، وهناك دائماً أسباب لذلك، ولا نضيع الوقت بحثاً عن تلك الأسباب. كلنا نصل فى النهاية إلى حيث نريد، والمسألة مسألة وقت وصبر، فالأرنب أسرع من السلحفاة، ربما يصل أولاً، على شرط ألا يواجه فى الطريق صياداً ببندقية.

نترك سهل ليون، ونسير الآن فى أرض كامبوس، حيث ولد وترعرع المبشر الشهير جيروندیو دى كامباثاس، الذى روى أفعاله وأقواله الأب إيسلا الذى لا يقل شهرة عنه، لتعليم الخطباء المختارين والكُتاب المبتدئين، لسوء الحظ فإن أحداً لم يستغل أحد هذا الدرس رغم وضوحه. لنختصر الحديث، ونقول

ببساطة أن المسافرين سيذهبون للنوم هذه الليلة فى قرية اسمها فيلاألار، ليست بعيدة عن تورو، وتورديسياس، وسيمانكاس، كلها أماكن قريبة جداً من التاريخ البرتغالى، بالمعارك والاتفاقيات والأرشيف. بما أن جوزيه أنايسو يعمل مُعلماً، فإنها أسماء تحيى فيه قناعات سهلة، دون نمو كامل، من ناحية أخرى فإن علومه التاريخية بشكل عام بدائية، فقط بما يكفى إقناع السامعين، الإسبان والبرتغاليين، الذين تعلموا شيئاً من قبل، ولم ينسوا ما تعلموه كله، بالنسبة لسيمانكاس وتورو وتورديسياس، طبقاً للانتشار الإعلامى والاهتمام القومى للكتب الدراسية التى تعتبر وطناً لجانب كما هى للآخر. لكن فيلاألار لا أحد يعرف عنها شيئاً، عدا بدرو أورثى، رغم أنه ينتمى إلى الأراضى الأندلسية، فلديه خبرة من سافر كثيراً، وفى أى زمن، فى كل أراضى شبه الجزيرة، أما قوله بأنه لا يعرف لشبونة، عندما كان هناك قبل شهرين، فإن هذا لا يتعارض مع هذه الفرضية، ربما لم يتعرف عليها، كما لا يتعرف اليوم على مؤسسيها الفينيقيين، وسكانها الرومان، والمسيطرين عليها من القوط، وربما يعرف شيئاً عن تاريخ المسلمين فيها، ولكن عن البرتغاليين فإن معلوماته أكثر تشوشاً.

يجلسون حول النار، وقد جلسوا على هيئة أزواج، جواكيم وماريا، وجوزيه وجوانا، وبدرو وكنستانتى، الليل بارد بعض الشىء، لكن السماء صافية وهادئة، تكاد النجوم لا تظهر؛ لأن القمر الذى بزغ مبكراً

يضىء الحقول المستوية، وبالقرب من هنا، تظهر أسطح فيلاأرلار، التى لها عمدة عاقل، لم يعترض على أن يقيموا مخيمهم الإسبانى البرتغالى بالقرب من القرية، رغم المهنة التى يمارسونها، رحل وباعة متجولين، ومنافسين فى هذه المهنة للتجارة المحلية. لم يكن القمر عالياً، لكن شكله كان كما نحب أن نراه، قرص مضىء يوحى بالشاعرية السهلة والمشاعر الفياضة، كمنخل من الحرير يلقى دقيقاً صافياً من ضوء الفجر على المشهد المستسلم له. نقول حينئذ، "يا له من قمر جميل"، ونحاول أن ننسى رعشة الخوف التى نشعر بها عندما يظهر الكوكب ضخماً، أحمر، مهدداً، عند منحنى الأرض. فبعد آلاف وآلاف السنين، فالقمر الوليد لا يزال يبدو اليوم كتهديد، علامة على النهاية، لحسن الحظ أن هذا الإحساس يستمر فقط لبضع دقائق، يرتفع فيها الكوكب فى السماء، ويصغر حجمه ويصبح أبيض، فنشعر بالراحة. حتى الحيوانات تخافه، قبل قليل، عندما ظهر القمر، ظل الكلب ينظر إليه متصلباً ومشدوداً، ربما كان يريد أن ينبحه لولا أحباله الصوتية المفقودة، لكن شعره انتفش بكامله كما لو كانت يد باردة دغدغت ظهره بالاتجاه العكسى. إنها لحظات يخرج فيها العالم عن مركزه، وننتبه إلى أنه لا شىء آمن، ولو أمكننا أن نصرخ بأعلى صوتنا بما نحس به فسنقول، بكل الرغبة المتجذرة فينا، "لقد نجونا فى آخر لحظة".

سنعرف الآن حكايات قرية فيلاألار التى يعرفها بدرو أورثى، عندما ينتهى العشاء، بينما.ترقص النار

فى الهواء الساكن، ينظر المسافرون إليها بتأمل، يمدون أيديهم نحوها كما لو كان ذلك واجباً عليهم أو للاستسلام للنار، هناك سر قديم فى هذه العلاقة بيننا وبين النار، حتى والسماء فوقنا، النار ونحن داخل الكهف البدائى، السجن والرحم معاً. اليوم دور جوزيه أنايسو فى غسيل الأطباق، لكن ليس هناك ما يدعو للعجلة، الوقت وقت هدوء وساعة لطيفة، يُلقى اللهب بضوئه على الوجوه التى لوحها الهواء، فتحول لونها إلى اللون الذى تتركه الشمس عليها عند الشروق، للشمس طبيعة أخرى، إنها حية، ليست ميتة كالقمر، هذا هو الفارق.

يقول بدرو أورثى، "قد لا تعرفون ما سأقوله، منذ وقت طويل جداً وقعت فى ضواحى فيلاألار معركة كبيرة، كان ذلك فى العام ١٥٢١، وترجع أهميتها إلى نتائجها أكثر من أهمية عدد ضحاياها، لو انتصر من خسروها، لكان الأحياء حالياً قد ورثوا عالماً آخر". يعرف جوزيه أنايسو المعارك الكبرى جيداً، خاصة تلك التى تركت بصماتها على وجه التاريخ، ولو طُلب منه ذكر بعضها لقال دون تردد عشرة أسماء، بادئاً بشكل تقليدى بماراتون ولاس تيرّموبيلاس، ودون ترتيب تاريخى، اوستيرليتز وبورودينو، والمارنى، ومونتى كاسينو، ولاس ارديناس، والعلمين، وبويتيريس، والقصر الكبير، وأيضاً موقعة البشارة، التى لا تعنى شيئاً للعالم، أما بالنسبة لنا فهى كل شىء، جاءت كل هذه متزاوجة دون سبب خاص، أنهى جوزيه أنايسو

حديثه بالقول، "لكن معركة فيلاألار لم أسمع عنها مطلقاً". شرح بدرو أورتى، "هذه المعركة وقعت عندما تمردت الأقاليم الإسبانية على الإمبراطور كارلوس الخامس، الملقب بالأجنبى، ولكن ليس بسبب أجنبيته، لأنه فى القدم كان عادياً جداً أن ترى الشعوب ملوكاً يدخلون على أبوابهم ويحدثونهم بلغة أجنبية، لقد كانت كلها تجارة بين العائلات الملكية يلعبون بشعوبهم وببلاد أخرى، ولن أقول إن أوراق اللعب أو الكوتشينة، اخترعوها لأسباب لها علاقة بالميراث الملكى، بكل ما فيها من تحالفات خفية وأشياء لها علاقة بالزواج، لذلك لن نقول إن تمرد الأقاليم كان ضد الملك الدخيل، ولا حتى سنصورها على أنها المعركة الكبرى بين الفقراء والأثرياء، كنا نتمنى أن تكون كل هذه الأشياء، وأشياء أخرى، بسيطة كما يفسرونها، ولكن المسألة أن النبلاء الإسبان لا يعجبهم العجب، لا شىء، وأن الأجانب الذين رافقوا الإمبراطور كان يمكنه أن يوزع عليهم المناصب والمكاتب، ولكن كانت أولى قراراته للسادة الجدد زيادة الضرائب، إنه العلاج الناجع لدفع تكاليف الرفاهية والمغامرات، والآن نقول إن أول مدينة تمردت كانت طليطلة، وبعدها جاء من يتبع ما حدث، تورو ومدريد وأفيلا، وصورية وبورجوس وسلمنقا، وأكثر فأكثر، لكن أسباب تمرد كل مدينة كان مختلفاً عن أسباب تمرد الأخرى، تطابقت الأسباب أحياناً، بالطبع، ولكن أسباباً أخرى تعارضت، وإذا كان هذا حدث مع المدن فإن الأشخاص الذين

يسكنونها حدث مع مواقفهم الأمر نفسه، هناك فرسان دافعوا فقط عن مصالحهم وتطلعاتهم، ولذلك كانوا يغيّرون مواقعهم طبقاً لاتجاه الريح والمصلحة، حسن، وكما يحدث دائماً، كان الشعب غارقاً فى كل هذا لأسباب خاصة بمصالح لا يد له فيها، حدث ويحدث هذا منذ بدء الخليقة، ولو كانت الشعوب كلها شعباً واحداً، كان من الممكن أن تكون النتيجة شيئاً آخر، لكن الشعب ليس واحداً، إنها فكرة من الصعب وضعها فى رءوس الناس، دون أن نقول لهم إن الشعوب تعيش عادة فى خداع دائم، كم من المرات حملوا نوابهم بأصواتهم إلى كراسيهم فى البرلمان، وعندما يصلون إلى هناك، تبدأ الرشوة أو التهديد، فيصوت نواب الشعب لصالح تحقيق رغبة من يأمرهم، المدهش أنه رغم كل الغضب والتناقضات، تمكنت الأقاليم من تنظيم ميليشيات والذهاب إلى الحرب لمواجهة جيش الملك، ولذلك ما كان يمكننا أن نقول إن هناك معركة خاسرة أو منتصرة، كانت معركة فيلاألار آخر معركة ضائعة، لماذا؟، كما هو دائماً، كانت هناك أخطاء، وعدم الكفاءة والخيانات، وتعبت الناس من انتظار الجندية فغادرت أرض المعركة، بدأت المعركة وانتهت، بعضهم كسبها وبعضهم خسرها، ولم يعرف أحد مطلقاً عدد ضحاياها الذين سقطوا هنا، بحسابات هذا الزمان الحديث لم يكونوا كثيرين، هناك من يقول إنهم ألفان، وهناك من يقسم أنهم لم يتعدوا الألف، وهناك من يقول لم يتعدوا المائتين، لم

يعرف ولن يعرف أحد، إلا إذا خطر على بال أحدهم فى يوم من الأيام نبش هذه الأرض المقبرة وتعداد الجماجم المدفونة، أما تعداد المخلفات الأخرى من عظام فإنه لن يفيد شيئاً أكثر من زيادة التشوش، ثلاثة من قادة الأقاليم جرت محاكمتهم فى اليوم التالى، وصدرت ضدهم أحكام بالموت، وقُطعت رءوسهم فى ساحة فيلاألار، أسماؤهم: خوان دى باديا من طليطلة، وخوان برافو من شيجوبيه، وفرانثيسكو مالدونادو من سلمنقا، كانت تلك معركة فيلاألار، لو كان كسبها من خسرها لتغير مصير إسبانيا، بقمر مثل هذا من كان يمكنه أن يتخيل ما كان يمكن أن يكون عليه الليل والنهار يوم المعركة، إنه المطر، كانت الحقول غارقة، فكانوا يقاتلون وأجسادهم مدفونة فى الوحل، مؤكد أنه بحسابات الزمن الحديث، فإن من ماتوا كانوا قلة، ولكن لى الرغبة فى أن أقول إن القلة من الناس الذين ماتوا فى الحروب القديمة لهم قيمة أكبر فى التاريخ عن مئات الآلاف والملايين الذين يسقطون فى القرن الحاضر، ولكن ما لا يتغير هو القمر، فهى يغطى فيلاألار كما يغطى اويسترلتز أو ماراتون، أو..."، قال جوزيه أنايسو، "أو القصر الكبير"، سألت ماريا جوافايرا، "أية معركة كانت تلك؟"، أجابها جوزيه أنايسو، "وهذه أيضاً لو كسبها من خسرها ما كان يمكننا أن نتخيل ما يمكن أن تكون عليه البرتغال اليوم"، قال بدرو أورثى، "قرأت مرة فى أحد الكتب أن ملككم مانويل دخل هذه الحرب"، "فى

الكتب التى أُعلمها لا يتحدثون عن أن البرتغاليين كانوا فى حرب مع إسبانيا فى تلك الفترة"، "لم يأت البرتغاليون بأنفسهم، جاء خمسون ألفاً من الصليبيين الذى أعارهم ملككم للإمبراطور"، "آه، حسن" قال جواكيم زازا، خمسون ألفا من الصليبيين للجيش الملكى، لهذا خسرت الأقاليم الحرب، الصليبيون يكسبون دائماً.

حلم الكلب كونستانتى فى تلك الليلة أنه ينتشل من أرض المعركة عظاماً. كان قد جمع مائة وأربع وعشرين جمجمة عندما غاب القمر وأظلمت الأرض. حينها عاد الكلب إلى النعاس. يومان بعد ذلك، كان هناك بعض الأطفال يلعبون فى الحقول لعبة الحرب، وقالوا إن العمدة عثر على كومة من الجثث فى حقل القمح، ولم يعرف أحد أبداً كيف ظهرت هناك، معاً. لكن أولئك البرتغاليين والإسبان الذين جاءوا بالعربة ورحلوا، تقول عنهم نساء فيلاألار، "من ناحية السعر والنوع كانوا أكثر الناس أمانة من بين كل من مروا من هنا".

■■■

## - ٢٠ -

قال القدماء: خيراً تفعل شراً تجد، وهم محقون، على الأقل استغلوا أوقاتهم للحكم على الوقائع الجديدة على ضوء ما اعتبروه وقتها أحداثاً قديمة، خطؤنا المعاصر هو موقفنا المتشكك فى علاقتنا بالدروس القديمة. قال رئيس الولايات المتحدة إنه سيتم الترحيب بشبه الجزيرة فى حال وصولها إلى هناك، أما الكنديون فلم يعجبهم هذا. المسألة أن الكنديين قالوا إنه إذا لم يتغير اتجاه الإبحار فسنكون نحن من يستضيف شبه الجزيرة، وحينها سيكون هناك عالمان جديدان لا واحداً، وسكان شبه الجزيرة المساكين لا يعرفون ما ينتظرهم هناك، البرد القاتل والجليد، المكسب الوحيد أن البرتغاليين سيكونون هناك أقرب إلى سمك الباكلاو، الذى يحبونه كثيراً، ما يفقدونه من صيف قد يكسبونه فى الطعام.

أسرع المتحدث الرسمى للبيت الأبيض ليوضح بأن تصريحات الرئيس كانت بدوافع إنسانية، دون أن تكون هناك دوافع سياسية؛ لأن الدولتين اللتين تشكلان شبه الجزيرة لم تفقدا سيادتهما واستقلالها بسبب إبحارهما على المياه، وأنه سيأتى اليوم الذى ستتوقفان فيه، وحينها سيكون وضعهم مثل بقية دول العالم، وأضاف، "من جانبنا نضمن رسمياً أن تسود الروح التقليدية لحسن الجوار بين الولايات المتحدة وكندا وألا تتأثر لأى سبب، وتعبيراً عن حسن الجوار مع الأمة الكندية، نعرض عقد قمة ثنائية لدراسة الوجوه المتعددة، فى ظل الأوضاع المأساوية التى تعيشها السياسة والإستراتيجية العالميتان، كخطوة أولى لتشكيل الواقع الدولى الجديد المكون من الولايات المتحدة وكندا، ولذلك فإن الدولتين الأيبيريتين ستدعوان للمشاركة فى الاجتماع بصفة مراقبين؛ لأنهما لا يزالان بعيداً فيزيقياً بحيث لا يمكن التعامل معهما على أنهما واقع، ويمكنهما من الانضمام إلينا".

قبلت كندا علناً تلك الإيضاحات، لكنها قالت إنها لا تعتبر أن الوقت مناسب لعقد القمة فوراً، وبالطريقة التى تم طرحها، لأنها يمكن أن تسىء إلى الإحساس القومى لإسبانيا والبرتغال، وكبديل عن ذلك، تطرح عقد مؤتمر رباعى لدراسة الآثار التى يمكن أن تنتج عن الاصطدام العنيف لشبه الجزيرة عند اقترابها من الشواطئ الكندية. وافق الأمريكيون على الاقتراح فوراً، وشكر زعماؤهم فى أحاديثهم الخاصة الله على

خلقه لجزر الآزور، لأنها منعت انحراف شبه الجزيرة باتجاه الشمال، واستمرت حركتها فى خط مستقيم منذ انفصالها عن أوروبا، من هنا فإن مدينة لشبونة ستدخل من نوافذ مدينة أتلانتيك سيتى، وبعد تفكير وتفكير توصلوا إلى خلاصة مفادها أنه كلما توجهت شبه الجزيرة شمالاً كان أفضل، تخيلوا أن مدناً مثل نيويورك وبوستون وبروفيدنس وفيلادلفيا وبالتيمور يمكن أن تتحول إلى مدن داخلية، وما يتبع ذلك من انخفاض فى مستوى معيشة السكان، لا يوجد شك فى أن الرئيس الأمريكى تعجل عندما أدلى بتصريحاته الأولى. وفى تبادل جديد للمذكرات الدبلوماسية السرية، والتى تبعتها لقاءات سرية أيضاً بين سلطات الدولتين، كندا والولايات المتحدة، أعلنتا اتفاقهما على أنه من الأفضل إيقاف شبه الجزيرة فى نقطة قريبة منهما لإبعادها عن النفوذ الأوروبى، وبعيداً عنه بشكل كافٍ حتى لا تؤثر على المصالح الآنية والبعيدة للكنديين والأمريكيين، وقد أسفر كل هذا عن دراسة أُجريت لمعرفة تأثير هذا على قوانين الهجرة، وتقوية علاقاتهما الثقافية؛ حتى لا يعتقد الإسبان والبرتغاليون أنه من السهل عليهم الاختلاط بهم بسهولة، بحجة أنهم أصبحوا جيراناً.

احتجت حكومتا البرتغال وإسبانيا على ما اعتبرتاه اعتداء على استقلالهما من جانب القوتين الكبيرتين، وعلى مصالحهما ومصيرهما، وكانت الحكومة البرتغالية الأكثر احتداداً فى الاحتجاج؛ لأنها وجدت نفسها مجبرة على ذلك، لأنها حكومة.إنقاذ

وطنى. وبفضل مبادرة من الحكومة الإسبانية، بدأت المشاورات بين بلدى شبه الجزيرة لتنسيق سياستهما التى ترتكز على الخروج من الوضع الحالى بأفضل وسيلة ممكنة، إلا أنهم فى مدريد كانوا يخشون أن تذهب الحكومة البرتغالية وفى ذهنها الحصول على منافع خاصة مستقبلية، بسبب اقترابها من الشواطئ الكندية والأمريكية. ومعروف، أو يُعتقد، أنه بين بعض الأوساط السياسية البرتغالية يوجد تيار يفضل تفاهماً ثنائياً مع جيليقا بشكل غير رسمى، وهو أمر بالطبع لا يمكن أن ترضى به الحكومة المركزية الإسبانية، مهما حاولت التمويه على ذلك، بل وهناك من يقول، بسخرية، وقد نُشر هذا التوجه، إن كل هذا ما كان يمكن أن يحدث لو كانت البرتغال تقع بالقرب من البرانس، بل وكان الأفضل، أن تظل مرتبطة بها عند لحظة الانفصال؛ لأنها طريقة ما للتخلص وللأبد من الصعوبة التى تواجه أن يكون المرء أيبيريا، ولكن الإسبان يخدعون أنفسهم هنا؛ لأن الصعوبة ستظل، ولن نقول أكثر من هذا. يجرى حساب الأيام المتبقية على الوصول إلى العالم الجديد، ويدرسون خططاً حتى يمكن للقوى المتحاورة أن تمارس عملها بشكل كامل وفى لحظة مناسبة، لا مبكراً ولا متأخراً، وهو شىء، من ناحية أخرى، يمثل قاعدة ذهبية فى فن الدبلوماسية.

بعيداً عما يجرى فى كواليس السياسة من مؤامرات، تواصل شبه الجزيرة إبحارها باتجاه الغرب،

تماماً وكما حدث منذ انسحاب جزيرة كورفو وما أكده جميع المراقبين من مختلف التوجهات، سواء كانوا من أصحاب الملايين أم من العلماء، الذين قرروا الإقامة هناك لمشاهدة مرورها. كان المشهد مذهلاً، يكفى القول إن أقصى نقطة من شبه الجزيرة مرت على مسافة أقل من خمسمائة من متر من جزيرة كورفو، فتحركت المياه بشكل قوى، وبدت كما لو كانت سهماً فى أوبرا من تأليف فاجنر، لكن أفضل مقارنة كان يمكن أن تكون أخرى، وهى أن نكون نحن فى البحر، فى قارب صغير، وأن نشاهد على بعد أمتار منا مرور تلك الكتلة الضخمة التى تشبه ناقلة بترولية فارغة، يبرز الجزء الأكبر منها خارج الماء، إنه أمر يصيب بالدوار، مدهش، كادوا يركعون ضارعين، معلنين توبتهم ألف مرة عن مروقهم وكل ما فعلوه من شرور، فالله موجود، ويسكن فى أرواح البشر، وحتى المتحضرين منهم، ويمكن الإحساس به عبر تغير أحوال الطبيعة القاسية.

لكن بينما تكمل شبه الجزيرة هكذا دورها فى الحركة فى العالم، فإن المسافرين كانوا قد مروا من بورجوس، وتجارتهم مزدهرة إلى درجة أنهم خرجوا بذات الحصانين على الطريق العام، وهو الطريق الأفضل دائماً. وهناك فى الأمام، بعد المرور من خيستييس، عادوا إلى الطرق التى تخدم القرى الصغيرة، حيث تصبح العربة جزءاً من مشهدها الطبيعى، عربة تجرها الخيول فى طرق ريفية، وليس

ذلك المشهد الغريب والمزعج لتسببها فى تأخير الحركة على الطرق المخصصة للسرعات الكبيرة، والسرعة المحتملة على أساس خمسة عشر كيلومتراً فى الساعة، هذا فى حالة ألا تكون هناك مطالع، وتكون الحيوانات فى حالة طيبة. العالم الأيبيرى متغير جداً إلى درجة أن رجال المرور، الذين شاهدوا هذا المشهد، لم يوقفوهم، ولم يحرروا لهم محاضر، بل كانوا يجلسون على دراجاتهم البخارية ويلوحون بأيديهم ويتمنون لهم رحلة طيبة، وفى بعض الأحيان يسألونهم عن معنى ذلك اللون الأحمر فى الغطاء، خاصة إذا كانوا على الجانب الذى يظهر فيه المربع الأحمر. كان المناخ جيداً، لم تمطر منذ أيام، حتى اعتقدنا أننا عدنا إلى الصيف مرة أخرى لولا الرياح والبرد، الذى ينذر بخريف حقيقى، خاصة حين نكون بالقرب من الجبال العالية. عندما اشتكت المرأتان فى يوم من الأيام من الهواء القارص، كان جوزيه أنايسو يلمِّح دون إصرار إلى أن هذا نتيجة لاقترابهم من الجبال العالية، حتى إنه قال، "لو توقفنا فى تيرانوفا ستنتهى الرحلة، وحتى نواجه الحياة فى الهواء الطلق يجب أن نكون مثل الإسكيمو"، لكنهن لم تعيراه اهتماماً؛ ربما لأنهن لم تكن قد شاهدن الخريطة.

وربما لأنهن لم تكن تتحدثن عن البرد الذى يشعرن به، بل عن برد آخر أقوى من أى إنسان، من يمكنه أن يشعر، ليس بنفسه، حقيقة، فلديهن كل ليلة حرارة رجالهن، وأيضاً خلال النهار عندما تسمح

الظروف بذلك، فكم من مرة كان زوج منهما إلى جوار بدرو أورثى، بينما الزوج الآخر راقداً باهتزازات مسير العربة ذات الحصانين، وبعدها يظهران نصف عاريين: الرجل والمرأة بعد أن أشبعا رغباتهما المفاجأة أو أجلا تلك الرغبة. من يعرف أنه داخل هذه العربة يسافر خمسة أشخاص موزعين هكذا بسبب الجنس، يمكنه أن يعرف، من خلال تجاربه الحياتية، ما يحدث تحت الغطاء، طبقاً لتشكيل المجموعة التى تجلس على المقدمة، مثلاً، لو كان يسافر عليه ثلاثة رجال، فيمكنه أن يراهن على أن المرأتين تقومان بأعمال منزلية، وبشكل خاص الحياكة، أو كما قيل من قبل، يسافر رجلان وامرأة، فإن المرأة الأخرى والرجل الآخر يكونان فى حالة حميمية، مع أنه يمكنهما أن يكونا بكامل ملابسهما ويتحاوران فقط. لم تكن تلك كل التشكيلات الوحيدة الممكنة، لكن لا يذكر أحد أنه كان فى مقدمة العربة كانت هناك امرأة مع رجل ليس رجلها؛ لأنه فى هذه الحالة يقوم رجلها بعمل آخر كفرد الغطاء مثلاً، وهذا ما يجب تجنبه حتى لا يتقولون عليهما. هذا التخطيط ثبت بشكل ذاتى، ولم يكونوا فى حاجة إلى عقد جلسة حوار عائلية لمناقشة الطريقة التى يمكن من خلالها الحفاظ على الأخلاق داخل وخارج الغطاء، وما يمكن أن ينتج عن ذلك من آثار حسابية، ففى معظم الأحيان يسافر بدرو أورثى فى المقدمة، عدا فى مناسبات قليلة يخلد فيها الرجال إلى الراحة فى وقت واحد وتقود المرأتان؛ أو عندما

تكون الحواس فى حالة سلام، يمكن أن يذهب فى المقدمة زوج، فيما يبقى الآخرون فى حالة أقل حميمية، وهى حالات يمكن أن تثير بدرو أورثى، وتجرح شعوره فيما يرتاح فى مكانه الضيق المتعارض، قالت ماريا جوافايرا لجوانا كاردا عندما كان جوزيه أنايسو يتحدث عن برد تيرانوفا، وضرورة أن يكون من الإسكيمو لتحمل البرد، "مسكين بدرو أورثى"، ووافقتها جوانا كاردا، "مسكين بدرو أورثى".

غالباً ما كانوا يخيمون قبيل الغروب، يحبون اختيار مكان جيد، قريب من الماء، وعلى مرأى من السكان كلما أمكن ذلك، وإذا أعجبهم مكان كثيراً ما يخيمون حتى لو كانت الشمس لا تزال أمامها ساعتان أو ثلاث حتى تغرب. تعلموا درس الخيول جيداً، باستغلال جيد بشكل عام، والحيوانات تستريح الآن أكثر لأن البشر تخلصوا من عدم الصبر الإنسانى وسرعته. لكن منذ أن قالت ماريا جوافايرا فى ذلك اليوم، "مسكين بدرو أورثى"، خيم على العربة مناخ مختلف خلال الرحلات، وعلى الأشخاص الذين يرحلون داخلها. يدفعنا هذا إلى التفكير أن جوانا كاردا سمعت الكلمات التى قيلت فقط، وأنها بتكرارها سمعتها بدورها ماريا جوافايرا، وعرفنا نحن أن كليهما احتفظت بها لنفسها، وأن هذا ليس موضوعاً للحوار العاطفى لخصناه حينها فى كلمة واحدة، عندما تُقال، تستمر أطول من الصوت أو الأصوات

التى تتكون منها، وتظل هناك، خفية وغير مسموعة لتحمى سرها الخاص، كنوع من البذرة الخفية تحت الأرض، تختمر بعيداً عن الأعين، إلى أن تنفتح الأرض فجأة وتخرج إلى الضوء فى شكل جذع ملفوف، ورقة مكرمشة تتفتح ببطء. بعد أن خيموا، وحلوا الحصانين من حمل العربة والأربطة، أشعلوا النار، وقاموا بأفعال وإشارات أصبحت من تكرارها عادية ولها معناها الخاص، طبقاً للمهام الموزعة على كل واحد منهم. ولكن عكس ما كان معتاداً منذ البداية، لم يكونوا يتحدثون كثيراً، ومؤكد أنهم هم أنفسهم سيندهشون لو أخبرناهم بذلك، "مر وقت طويل دون أن تتبادلوا كلمة واحدة"، حينها سينتبهون للطبيعة الغريبة لذلك الصمت، أو يجيبون كمن لا يريد أن يعترف بحقيقة واقعة، ويبحث عن تبرير لا قيمة له، "أحياناً يحدث هذا، فى الحقيقة لا يمكن أن نظل نتحدث بشكل دائم". لكن لو نظروا فى وقت واحد إلى بعضهم البعض، كما ينظرون إلى المرآة، فإن اندفاعهم والخوف من أن تخرج كلماتهم فارغة من معانيها. وإن كان علينا أن نوضح أنه فى النظرات المتبادلة ما بين ماريا جوافايرا وجوانا كاردا كانت هناك معانٍ مفهومة بينهن، إلى درجة أنهن لا تحتملن تبادل تلك النظرات كثيراً، فيبعدن عيونهن.

اعتاد بدرو أورثى، بعد الانتهاء من المهام الموكولة إليه، أن يبتعد عن المخيم مع الكلب كونستانتى، كان يقول لاستطلاع المكان المحيط بهم. وكان يتأخر كثيراً،

ربما بسبب خطواته البطيئة، وربما لأنه كان يقوم بجولات واسعة، وربما يظل جالساً على أحد الأحجار متأملاً نهاية المساء، بعيداً عن أعين الرفاق. فى أحد الأيام، قبل قليل، قال جواكيم زازا، "إنه يريد أن ينفرد بنفسه، ربما يشعر بالحزن"، وعلق جوزيه أنايسو، "لو كنت مكانه من المحتمل جداً أن أفعل مثله". كانت المرأتان قد فرغتا من غسل بعض الملابس وعلقتها فى حبل ممدود بين قوس الغطاء وفرع شجرة، سمعن وسكتن؛ لأن الحوار لم يكن معهن. بعدها بأيام قليلة وعلى أثر كلام ماريا جوافايرا عن الشعور بالبرودة، قالت لجوانا كاردا، "مسكين بدرو أورثى".

كانوا يشعرون بالوحدة، إنها حالة شاذة أن يشعروا بأنهم وحدهم، فى انتظار أن ينضج الحساء، كان النهار لا يزال فى أوجه، ولاستغلال الوقت قام جوزيه أنايسو وجواكيم زازا بالتفتيش على حالة أربطة الخيول، فيما كانت المرأتان تقمن بحساب ما تم بيعه، حسابات يجرى بعد ذلك إدراجها فى كتب المحاسب جواكيم زازا. ابتعد بدرو أورثى، اختفى بين تلك الأشجار قبل عشر دقائق، وذهب معه الكلب كونستانتى كما هى العادة. لم يكن هناك شعور بالبرودة، وربما كان النسيم الجارى آخر أنفاس الخريف، أو وربما كنا نحن من يشعر بذلك بعد تلك الأيام القارصة التى مرت. قالت ماريا جوافايرا، "علينا أن نشترى مرايل، ما تبقى منها قليل؟"، وبعد أن قالت ذلك رفعت رأسها ونظرت باتجاه الأشجار،

تحرك الجسد الجالس، كاندفاع أولى مكتوم وبعدها أصبح حرا، لم يكن هناك شىء مسموع سوى حركة أفواه الحصانين، حينئذ وقفت ماريا جوافايرا وذهبت باتجاه الأشجار، باتجاه المكان الذى خرج إليه بدرو اورثى. لم تنظر خلفها، ولا حتى عندما سألها جواكيم زازا، "إلى أين أنتِ ذاهبة؟"، ولا حتى انتظرت حتى يكتمل السؤال، ولكنها تركته معلقاً فى الهواء، يمكننا القول إن الرد الذى سبق السؤال كان بليغاً ولا يحتمل الاعتراض. بعد بضع دقائق ظهر الكلب، رقد تحت العربة، ابتعد جواكيم زازا بضعة أمتار، كان يبدو عليه أنه يتفحص أعشاباً فى البعيد، وجوزيه أنايسو وجوانا كاردا لم ينظر أى منهما إلى الآخر.

وأخيراً عادت ماريا جوافايرا عندما كانت تسقط آخر ظلال المساء. جاءت وحدها. اقتربت من جواكيم زازا، إلا إن هذا أدار لها ظهره بعنف. خرج الكلب من تحت العربة واختفى. أشعلت جوانا كاردا المصباح، وأخرجت ماريا جوافايرا الحساء من على النار، وضعت زيتاً فى المقلاة، ووضعته على الكانون، انتظرت إلى أن سخن الزيت، فيما كانت تكسر بعض البيض، ضربته، ووضعت بعض قطع السجق، وانتشرت بعدها فى الهواء رائحة كان يمكنها فى أوقات أخرى أن تسيل لعابهم جميعاً. إلا أن جواكيم زازا لم يأت ليتناول عشاءه، نادت عليه ماريا جوافايرا لكنه لم يأت. تبقى بعض الطعام، لم يكن لدى جَوانا كاردا وجوزيه أنايسو شهية، وعندما عاد بدرو أورثى، كان المخيم قد أظلم،

لم يكن هناك سوى بعض البصيص فى النار. نام جواكيم زازا تحت العربة، لكن الليل بدأ يشعر بالبرد، كانت البرودة تأتى من الجبال دون رياح، كتلة من الهواء البارد. حينئذ طلب جواكيم زازا من جوانا كاردا أن تنام مع ماريا جوافايرا، دون أن يذكر اسمها، قال، "نامى إلى جوارها، أنا سأبقى مع جوزيه"، وكما لو كان الوقت مناسباً للسخرية، أضاف، "ليس هناك خطر منها، كلنا هنا أناس جادون، لا خطر من الاختلاط". عندما عاد بدرو أورثى، صعد إلى مقدمة العربة، ودون أن يعرف أحد السبب، وجد الكلب كونستانتى طريقة ليصعد إلى جواره، وكانت تلك أول مرة.

قضى بدرو أورثى اليوم التالى كله على كرسى مقدمة العربة. إلى جانبه جوزيه أنايسو وجوانا كاردا، وبداخل العربة كانت ماريا جوافايرا وحدها. انتظم الحصانان فى خطوهما، وعندما تكون لديهما رغبة فى الإسراع كانا يفعلان ذلك دون حاجة إلى دفعهما إليه، وكان جوزيه أنايسو يحاول كبح إسراعهما، فيما كان جواكيم زازا يسير على قدميه، خلف العربة، متخلفاً عنها. قطعوا فى ذلك اليوم كيلومترات قليلة. كان الوقت فى منتصف المساء عندما أوقف جوزيه أنايسو ذات الحصانين فى مكان كان يبدو مشابهاً تماماً للمكان الآخر، وبدا كما لو لم يخرجوا من هناك أو أنهم داروا دورة كاملة وعادوا إليه، حتى الأشجار تبدو نفسها. لم يظهر جواكيم زازا حتى وقت طويل بعد ذلك، عندما كانت الشمس تسقط فى الأفق.

شاهدوه يقترب، ابتعد بدرو أورثى، حتى اختفى بين الأشجار، وتبعه الكلب. كانت النار تشتعل عالياً، لكن الوقت كان مبكراً على إعداد العشاء، إضافة إلى أن الحساء كان معداً، وكانت هناك بقايا البيض بالسجق الفائض من اليوم السابق. قالت جوانا كاردا لماريا جوافايرا، "سأذهب غداً، عليكم أن تعطونى نصيبى من النقود، وأشيرى لى أين نحن على الخريطة، هل توجد محطة قطار بالقرب من هنا؟". وقفت حينها جوانا كاردا وذهبت باتجاه الأشجار، حيث اختفى بدرو أورثى والكلب، لم يسألها جوزيه أنايسو، "إلى أين أنتِ ذاهبة؟". بعدها بدقائق قليلة ظهر الكلب ورقد تحت العربة. بعد وقت ليس بالقليل عادت جوانا كاردا، وبرفقتها بدرو أورثى، الذى كان يقاوم العودة، لكنها كانت تجذبه برقة، كما لو لم تكن تحتاج إلى بذل مجهود كبير، أو كانت قوتها مختلفة. وصلا أمام النار. بدرو أورثى ينكس رأسه، وشعره الأبيض منكوش وتحت ضوء النهار والنار تتراقص على وجهه، وجوانا كاردا التى كانت بلوزتها خارج جانب من البنطلون، قالت، وانتبهت إلى ذلك خلال حديثها، ودون أن تتوقف عن الكلام، أصلحت حالها دون أن تبدى اهتماماً غير عادى، "العصا التى رسمت بها خطاً على الأرض فقدت سحرها، ولكنها تصلح لرسم خط آخر هنا، ولنعرف من سيبقى على جانب ومن الذى سيبقى على الجانب الآخر، إذا لم نستطع البقاء على جانب واحد؟"، قال جواكيم زازا، "أنا الأمر سيان عندى،

سأذهب غداً"، وقال بدرو أورثى، "لا، أنا من سيذهب"، وقالت جوانا كاردا، "لقد تجمعنا فى يوم ما ويمكننا الانفصال على الطريقة نفسها، لكن إذا كان علينا أن نبحث عن مذنب لتبرير الانفصال، فالذنب ليس ذنب بدرو أورثى، وإذا كان من يتحمل المسئولية فإنها مسئوليتنا نحن، ماريا جوافايرا وأنا، ولو كنتم فى حاجة إلى تفسير ما فعلنا، فهذا لأننا كنا جميعاً مخطئين منذ اليوم الذى تعارفنا فيه"، "قال بدرو أورثى، "سأهب غداً"، قالت ماريا جوافايرا، "لا لن تذهب، وإذا ما ذهبت فمن المؤكد أننا سنتفرق جميعاً، لأنهما لن يكونا قادرين على البقاء معنا، ولا نحن معهما، وهذا ليس لأننا لا نحب بعضنا، ولكن سيكون حينها لأننا لسنا قادرين على أن يفهم كل منا الآخر".

نظر جوزيه أنايسو باتجاه جوانا كاردا، ومد يديه فجأة باتجاه النار كما لو كان قد شعر بالبرد فجأة، وقال، "أنا سأبقى". سألت ماريا جوافايرا، "وأنت؟، ستذهب أم ستبقى؟". لم يجب جواكيم زازا على الفور، حك رأس الكلب الذى اقترب منه، ثم مرر أنامل أصابعه على الطوق الصوفى الأزرق، وفعل الأمر نفسه مع الحلقة المحيطة برسغه، وأخيراً قال، "سأبقى، لكن بشرط واحد". ولم يكن عليه أن يقول ما هو، فقد كان بدرو أورثى يتحدث، "أنا عجوز، أو تقريباً عجوز، أنا فى ذلك العمر الذى لا وصف له، لكنى عجوز أكثر منى شاباً"، "يبدو أنك لست عجوزاً بما فيه الكفاية"، ضحك جوزيه أنايسو، وكانت ضحكته هيستيرية، "إنها

أشياء تحدث، وتحدث بشكل لا يجعلها تتكرر"، كان يبدو أنها ستستمر لكنه انتبه إلى أنه قال كل شىء، حرك رأسه وابتعد من هناك حتى يتمكن من البكاء. كان بكاؤه قليلاً أم كثيراً لا أحد يعرف، وللبكاء كان عليه أن يكون وحيداً. ناموا فى تلك الليلة جميعاً فى العربة، لكن الجراح كانت لا تزال تنزف، بقيت المرأتان معاً، والرجلان المخدوعان معاً، أما بدرو أورثى، فقد كان متعباً، وأمضى الليلة يحلم، كان يرغب فى تغيير قلقه، إلا أن الطبيعة كانت أقوى.

أيقظتهم العصافير مبكراً، أولاً، وقبل أن تظهر الشمس، خرج بدرو أورثى من الجانب الأمامى للعربة، وبعده جواكيم زازا وجوزيه أنايسو من الخلف، وأخيراً المرأتان، كما لو كانوا جميعاً قد جاءوا من عوالم مختلفة والتقوا لأول مرة هنا. فى البداية ودون أن يلتفتوا إلى بعض تقريباً إلا بنظرة جانبية، حتى يمكن القول إن رؤية الوجه كاملاً كان شيئاً غير محتمل، وكان هذا أكثر من طاقتهم على الخروج من أزمة هذه الأيام الأخيرة. بعد تناول قهوة الصباح بدأت تُسمع كلمات منفردة، نصيحة بعمل شىء، طلب، أمر صادر بشكل محدد، إلا إن أول مشكلة حساسة ستبدأ الآن، كيف سينتظم المسافرون الآن فى العربة؟ مع الأخذ فى الاعتبار تعقيد المجموعات المنظمة، وكما استطعنا أن نشرح ذلك من قبل، عن من يكون بدرو أورثى على مقعد القيادة فى المقدمة، فى هذا لا يشك أحد فى ذلك، لكن الرجلين والمرأتين بعد المشكلة التى وقعت لا يمكنهم أن يستمروا منفصلين، وفى إطار هذا الوضع

Twitter: @ketab_n

المعقد، فإنه يجب على جواكيم زازا وجوزيه أنايسو أن يسافرا مع بدرو أورثى فى المقدمة، ترى أى حديث يمكن أن يدور بينهم، والأسوأ هو إن ذهبت جوانا كاردا وماريا جوافايبرا فى الأمام مع بدرو أورثى، أى حوار يمكن أن يدور بين المرأتين والسائق؟ وخلال ذلك تحت الغطاء، أى صراع يمكن أن يقع، فالزوجان يسأل كل منهما الآخر، "ماذا يقولون الآن؟". إنها أوضاع مثيرة للضحك عندما نتخيل أنفسنا فى حالة هؤلاء التى يمرون بها. لحسن الحظ، لكل عقدة حل، إلا مشكلة الموت. كان بدرو أورثى جالساً فى مكانه، يقبض على المقود بيديه وفى انتظار ما يقرره الآخرون، عندها قال جوزيه أنايسو كما لو كان يتوجه بحديثه إلى أرواح غير مرئية هائمة فى الهواء، "لتنطلق العربة إلى الأمام، جوانا وأنا سنسير على أقدامنا لبعض الوقت"، "وقال جواكيم زازا، "ونحن أيضاً". هز بدرو أورثى المقود، وبدأ الحصان بأول جذبة للعربة، ثم الثانية الأكثر حدة، لكن دون أن يسيرا بسرعة حتى لو كانت لديهما رغبة فى ذلك؛ لأن العربة توجد الآن على مطلع قوى جداً، بين جبال تنمو على اليسار، فكر بدرو أورثى، "نحن على أعتاب البرانس"، إلا أن الجدية كانت أكبر فى هذه الحال كما لو لم يكن هذا المكان الذى جرت فيه الأحداث المأساوية للانفصال التى رويناها من قبل. وخلفه يسير الزوجان، غير متلاصقين؛ بالطبع لأن ما يجب أن يتحدثوا فيه هو حديث بين رجل وامرأة دون شهود.

الجبال ليست مكاناً طيباً للتجارة، وهذه الجبال أقل فى هذه الحال من أماكن أخرى؛ نظراً لقلة عدد السكان التى تعتبر سمة عامة لهذه المناطق الجغرافية الوعرة، إضافة إلى هذه الحالة، خاصة الرعب الذى اجتاح السكان الذين لم يعتادوا بعد على فكرة أن جبال البرانس القريبة من هنا ينقصها الجانب الآخر الذى كان يدعمها. تكاد القرى أن تكون خالية، بعضها مهجور تماماً، وصوت عجلات ذات الحصانين على الطرق الحجرية وبين الأبواب والنوافذ المغلقة يولد إحساساً بالكآبة، فكر بدرو أورثى، "كنتُ أفضلُ أن أكون فى جبال سييرا نيفادا"، ملأت تلك الكلمات السحرية المضيئة صدره بالحنين، أو الذكرى، باستخدام اللهجة القشتالية. لو كان يمكن الحصول على نتيجة إيجابية من كل هذا الحزن قد تكون أن المسافرين سينامون الليلة جيداً، بعد ليالٍ عديدة من القلق، ونحن لا نشير هنا إلى ما حدث مؤخراً والذى يقسِّم الأحكام التى تدفعهم الآن إلى محاولة رأب الصدع الذى أصاب علاقاتهم، النتيجة الإيجابية ستكون أنه بإمكانهم النوم فى تلك البيوت التى هجرها أصحابها، وحملوا معهم ما له قيمة فقط، لكن الأسِّرة، بشكل عام، تركوها. كم هو بعيد ذلك اليوم الذى رفضت فيه ماريا جوافايرا بعصبية النوم فى بيت غريب، نرجو ألا يكون هذا الهدوء بداية للتخلى عن القيم الأخلاقية، بل تكون نتيجة لاستيعاب دروس التجربة القاسية.

سيبقى بدرو أورثى وحده فى أحد تلك البيوت، التى يختارها، وبرفقته الكلب، لو خطر على باله الخروج فى نزهة ليلية، يمكنه أن يخرج ويعود كما يريد، ولن ينام الرجلان هذه المرة منفصلين عن المرأتين، وأخيراً سينام جواكيم زازا مع ماريا جوافايرا، وجوزيه أنايسو مع جوانا كاردا، ربما كانوا قد تحدثوا فى كل ما أرادوا الحديث فيه، وربما يواصلون الحديث فى الداخل، لكن لو ظلت الطبيعة الإنسانية كما هى دائماً، سيكون من الطبيعى نتيجة التعب والحزن والرقة والحب الآنى، أن يقترب الرجل والمرأة، ويتبادلان القبلة الأولى بتخوف، بعدها، مبارك ربنا الذى خلقنا على هذه الشاكلة، يستيقظ الجسد ويطلب الجسد الآخر، سيكون جنوناً، لا تزال هناك آثار الجراح، ولو كان بدرو أورثى يسير فى هذه الساعة بين تلك التلال سيرى بيتين من بيوت القرية مضيئين، تُرى هل سيشعر بالغيرة؟ تُرى هل تغرورق عيناه بالدموع؟ لكنه لن يعرف أنهم يبكون من السعادة ويطلقون عاطفة العشاق المتصالحين. ويكون الغد يوماً آخر حقيقياً، ولن تكون هناك أهمية لتقرير من يكون داخل العربة ومن يجلس على المقدمة، فكل التشكيلات ممكنة وليس هناك شك فى أى منها.

■■■

## - ٢١ -

الحصانان متعبان، لا يستطيعان إنهاء المطالع، والطريق معظمها يتجه نحو الصعود، ذهب جوزيه أنايسو وجواكيم زازا للحديث مع بدرو أورثى، بلطف وحرص كبيرين حتى لا يفهم أهدافهما خطأ، أرادا أن يسألاه إن كان يعتبر انه يكتفى بما شاهده من البرانس أم يريد مواصلة الرحلة حتى أعالى الجبال، أجابهما بدرو أورثى أن المرتفعات لم تكن هدفه، ولكن هدفه رؤية نهاية اليابسة، دون أن يتجاهل أن نهاية اليابسة تعنى دائماً رؤية البحر نفسه، "لهذا السبب لم نمر بمدينة سان سباستيان لأنه لم يكن مهماً رؤية الشواطئ المقتطعة، ولكن الوصول إلى حيث تقطع المياه الرمال من جانب إلى آخر"، قال جوزيه أنايسو، "لكن لرؤية البحر من هناك فى الأعالى، لا أعرف إن كان الحصانان يستطيعان تحمل ذلك"، "لسنا فى حاجة إلى الصعود حتى ألفى أو ثلاثة آلاف متر، حتى

لو كانت هناك طرق صالحة بين القمم، لكن فى الحقيقة أريد أن نواصل الصعود، حتى نراه"، فتحوا الخريطة وقال جواكيم زازا، "بالتقريب، من المفترض أن نكون هنا، إنه الأصبع العجوز نافاسكويس وحتى بورجى"، تحرك بعدها باتجاه الحدود، "لا يبدو أنه توجد مناطق عالية من هذه الجهة، فالطريق يسير محازياً نهر أيسكا، ثم يبتعد عنه ويصعد، وفى هذه المنطقة يمكن أن تتعقد الأمور، ففى الجانب الآخر هناك مرتفع يزيد عن ألف وسبعمائة متر"، "ربما يوج، كان هناك" قال جوزيه أنايسو، تذكر جواكيم زازا، "بالطبع، لقد كان، سأطلب من ماريا مقصاً لقطع الخريطة عند الحدود"، قال بدرو أورثى، "يمكننا أن نحاول عبر هذا الطريق، ولو كان صعباً على الحصانين يمكننا العودة".

أمضوا يومين حتى يصلوا إلى حيث أرادوا، سمعوا عواء الذئاب فى الليل فى الأحراش القريبة، وشعروا بالخوف. إنهم أناس ينتمون إلى السهول، ففهموا أخيراً الخطر الذى يقعون تحت رحمته، لو وصلت الوحوش إلى مخيمهم فأول ما تفعله هو قتل الحصانين، وبعدها تستدير نحو البشر، ولم يكن معهم أسلحة نارية للدفاع عن أنفسهم. قال بدرو أورثى، "نتعرض لهذه الأخطار بسببى، فلنعد"، لكن ماريا جوافايرا أجابته، "علينا أن نواصل، فلدينا الكلب للدفاع عنا"، ذكَّرها جواكيم زازا، "كلب واحد لا يستطيع أن يفعل شيئاً فى مواجهة قطيع من الذئاب"،

"هذا الكلب نعم يستطيع"، ومهما كانت الحالة غير عادية يبدو أنها تعرف بخصوص هذا الأمر أكثر من الراوي، وكان الحق فى جانب ماريا جوافايرا، لأن الذئاب اقتربت فى إحدى الليالى، ارتعد الحصانان وبدءا فى الصهيل، وشدا الحبال التى تربطهما بقوة، وكان الرجال والمرأتان يبحثون عن مكان لحمايتهم من الهجوم، فقط ماريا جوافايرا؛ التى واصلت القول، وإن كان بارتجاف، "لن يأتوا"، وكررت، "لن يأتوا" كانت النيران عالية اللهب، وظلوا طوال الليل على هذه الحال من السهر، ولم تقترب الذئاب أكثر من ذلك، وكان الكلب يبدو أكثر ضخامة فى دائرة النور، وبسبب تمايل الظلال كان كما لو تعددت رءوسه، ولسانه وأنيابه، كانت كل هذه الأشياء مجرد خداع بصرى، وكان الجسد ينتفخ بدرجة كبيرة، فيما واصلت الذئاب عواءها، لكن تضخم الكلب كان ناتجاً عن خوفه من الذئاب.

كان الطريق مقطوعاً، مقطوعاً بكل ما لهذه الكلمة من معنى. فقد انقطعت الجبال والسهول والوديان بشكل مفاجئ من اليمين واليسار، وبخط مستقيم وواضح، كما لو كانت مقطوعة بسكين أو قطع سماوى. كان المسافرون قد تركوا العربة من ورائهم، يحميها الكلب، وتقدموا بخوف وحذر. كان هناك مكتب جمارك على مسافة حوالى مائة متر من القطع. دخلوه. لا تزال هناك طابعتان، فى إحداها ورقة، قائمة جمركية عليها بعض الكلمات المكتوبة. الريح

الباردة تدخل من نافذة مفتوحة فتحرك الأوراق المنتشرة على الأرض. هناك ريش طيور. قالت جوانا كاردا، "هذه نهاية العالم"، فقال بدرو أورثى، "إذًا هيا بنا لنرى كيف انتهى؟"، خرجوا، ساروا بحذر، خوفاً من ظهور شقوق فى الأرض تشى بعدم استقرار التربة، كانت فكرة جوزيه أنايسو، لكن الطريق كان يبدو مستوياً ومستقيماً ومتواصلاً، لا تظهر عليه سوى بعض الخربشات الناتجة عن الاستخدام. على بعد حوالى عشرة أمتار من القطع، قال جواكيم زازا، "من الأفضل ألا نتقدم سيراً، حتى لا يصيبنا الدوار، أنا سأسير على أربع". وفعلوا جميعاً مثله، وواصلوا تقدمهم، معتمدين أولاً على أيديهم والركب، ثم بعد ذلك زحفاً، شعروا بأن قلوبهم تدق بعنف من الخوف والدوار، والأجساد تنضج بالعرق، ذلك العرق البارد الكثيف، وكانوا يشكون فى قدرتهم على النظر من على حافة الجحيم، لكن لا أحد منهم يريد أن يظهر ضعفه، وفجأة وجدوا أنفسهم ينظرون إلى البحر كما لو كانوا فى حلم، من ارتفاع يكاد يصل إلى ألف وثمانمائة متر، والحافة تبدو كما لو قُطعت ببلطة، رأسياً، وكان البحر يلمع، والأمواج الصغيرة تسير بالعرض، والزبد، خط من الزبد الأبيض، والأمواج المحيطية التى تضرب جوانب الجبل كما لو تريد أن تدفعه بعيداً. صرخ بدرو أورثى بحماس، وألم بهيج، "إنها نهاية العالم"، مكرراً كلمات جوانا كاردا، وكرروها

جميعاً، "يا إلهى، السعادة لا تزال موجودة" قال الصوت المجهول، وربما لم يكن أكثر من هذا، البحر والنور والدوار.

العالم ملىء بالمصادفات، وإذا لم يتفق شىء مع شىء آخر قريب منه، فليس هذا سبباً لإنكار التوافق بينهما، فقط يريد أن يبين لنا أن الشىء المتوافق معه لا يوجد أمام أعيننا. فى اللحظة ذاتها التى كان فيها المسافرون يميلون باتجاه البحر لرؤيته، توقفت شبه الجزيرة عن الإبحار. لم ينتبه أى من هؤلاء الذين كانوا هناك إلى ما حدث؛ لأنه لم يحدث اهتزاز لتوقف مفاجئ، ولا أية إشارة مفاجئة تدل على فقدان الاتزان، ولا أية علامة على التصلب. فقط بعدها بيومين، بعد الهبوط من المرتفعات المدهشة، وعند الوصول إلى أول مكان مأهول وصلهم النبأ السار. قال بدرو أورثى، "إذا كانوا يقولون إنها توقفت، سيكون ذلك حقيقة، ولكن الأرض لا تزال تهتز، وأنا أقسم على هذا، بشرفى وشرف هذا الكلب". كانت يد بدرو أورثى ترتاح على ظهر الكلب كونستانتى.

■■■

## -٢٢-

نشرت صحف العالم أجمع المانشيت بعرض صفحاتها الأولى، بعضها نشر على كامل الصفحة صورة فوتوغرافية لشبه الجزيرة، هذا إذا لم يعد أمامنا مجال لتسميتها جزيرة؟ تقف ساكنة هناك فى منتصف المحيط، وتحافظ على وضعها بشكل ميليمترى ثابت مرتبط بجهات الأرض الأربع الرئيسية، حيث لا تزال بورتو فى شمال لشبونة كما كانت دائماً، وغرناطة إلى الجنوب من مدريد منذ أن وُلدت مدريد، وباقى المدن لا تزال فى مكانها المعروف دائماً. إلا أن القوة التخييلية للصحف عثرت على مخرج خاص جداً لكل منها لكتابة المانشيت، خاصة أن أسرار الإبحار الجيولوجية، أو الأفضل القول، لغز بنية القشرة الأرضية، ظل خفياً، وعصياً على التفسير اليوم كما كان فى اليوم الأول. من حسن الحظ، أن ضغوط ما يسمونه الرأى العام قد خفت، وتخلت الجماهير عن

طرح الأسئلة، واكتفت بالإثارة الناجمة عن الاقتراحات والفرضيات المباشرة وغير المباشرة التى أثارتها العناوين البراقة للصحف: "وُلدت أتلانتا الجديدة"، "تحركت قطعة على رقعة الشطرنج العالمى"، "توجه جديد للوحدة بين أمريكا وأوروبا"، "ركن جديد بين أمريكا وأوروبا"، "مسرح معركة جديدة للمستقبل". لكن المانشيت الذى ترك انطباعاً كبيراً كان لصحيفة برتغالية: "نحن فى حاجة إلى اتفاقية جديدة"، لقد كان حَقاً تبسيطاً عبقرياً، نظر صاحب الفكرة إلى الخريطة وتأكد من ميل أكثر أو ميل أقل، فإن شبه الجزيرة توجد على خط التقسيم الذى قسَّم العالم فى تلك الأيام المجيدة، "هذا لى، وهذا لك، وذاك لى".

فى مقالٍ افتتاحى بلا توقيع، اقترحوا على دولتى شبه الجزيرة تبنى إستراتيجية موحدة ومتكاملة تجعل منهما حلقة توازن فى السياسة الدولية، بعودة البرتغال نحو الغرب، والولايات المتحدة، وتوجه إسبانيا نحو الشرق، وأوروبا. وتقدمت صحيفة إسبانية، حاولت انتهاز الفرصة حتى لا تتخلف عن الآخرين، بأطروحة إدارية تجعل من مدريد المركز السياسى الرئيسى لهذه الآلية؛ لأن العاصمة الإسبانية تقع تقريباً فى وسط شبه الجزيرة، رغم أن ذلك ليس صحيحاً، ويكفى النظر إلى الخريطة، إلا أن هناك أشخاصاً يستخدمون كل الوسائل للوصول إلى غاياتهم، ولم تقتصر على المحتجين على البرتغال، فقد ثارت بدورها المناطق الإسبانية التى تتمتع بالحكم

الذاتى ضد هذا الطرح، الذى اعتبروه مظهراً إضافياً للمركزية القشتالية، وفى الجانب البرتغالى جرى رصد بعث مفاجئ لدراسات الفلك والدراسات الباطنية، وهو ما كان متوقعاً ولا يمكن أن يوقفه سوى تغيير جذرى فى الموقف، إن استمرت تلك الظاهرة طويلاً، إلى درجة نفاد كل نسخ كتاب "تاريخ المستقبل" للقس أنطونيو فييرا، وكتاب "التنبؤات" لبندارا، إضافة إلى كتاب "رسالة" لفرناندو بيسوا، الغنى عن التعريف.

من وجهة نظر سياسية عملية، فإن المشكلة التى كانوا يناقشونها فى وزارات الخارجية الأوروبية والأمريكية دارت حول مناطق النفوذ، أى، أنه رغم المسافة بينهما وبين شبه الجزيرة، أو الجزيرة، فإنه يجب الحفاظ على العلاقات الطبيعية مع أوروبا، أى، دون الوصول إلى مرحلة القطيعة التامة، يجب أن يكون توجهها بشكل أولى لصالح وفى إطار مخططات ومصير الأمة الأمريكية. ورغم عدم وجود أمل فى التأثير على القضية بشكل حاسم، فإن الاتحاد السوفييتى ذكَّر وعاد إلى التذكير بأنه لا يمكن حل أى شىء دون مشاركته فى اتخاذ القرارات، واتخذ قراراً بتدعيم القوة البحرية التى كانت تراقب الحدث منذ بداية الرحلة الغريبة، وبالطبع، لمراقبة القوات الأخرى: الأمريكية والبريطانية والفرنسية.

أبلغت الولايات المتحدة خلال المباحثات البرتغال عبر ممثلها السفير تشارلز ديكنز الذى طلب مقابلة رئيس الجمهورية بشكل عاجل، أنه لم يعد فى الوقت

الحالى ما يبرر إستمرار وجود حكومة إنقاذ وطنى، خاصة بعد زوال الأسباب التى حتّمت تشكيل هذه الحكومة، "وهى أسباب، لو سمحتم لى سيدى الرئيس بالتعبير عن رأيى، محل جدل كبير"، وتم معرفة أسباب هذا الاستعجال من مصادر خفية، وذلك نقيضاً للسياسة السليمة؛ لأن السفير لم يدلِ بأية تصريحات عند خروجه من الاجتماع، مكتفياً بالقول إن محادثاته مع الرئيس كانت صريحة وبنَّاءة، لكن هذا كان كافياً لإثارة الأحزاب التى ستضطر إلى الخروج من الحكومة فى حالة إعادة تشكيلها، أو إجراء انتخابات عامة، وكانت ثورتهم ضد التدخل غير المقبول للسفير المتعجرف، وقيل، "إن حل المشاكل البرتغالية الداخلية أمر يخص البرتغاليين"، ثم أضافوا بسخرية، "بما أن السيد السفير ألف رواية "ديفيد كوبرفيلد"، فإنه لن يُسمح له بإصدار الأوامر فى بلاد الشعر والشعراء". عند هذه النقطة من الأحداث، ودون سابق إنذار، بدأت شبه الجزيرة فى الحركة من جديد.

كان بدرو أورثى على حق، عندما قال هناك على سفح البرانس، "لقد توقفت، نعم يا سيدى، لكنها لا تزال تهتز"، وحتى لا يكون وحده من يؤكد ذلك فقد مرر يده على ظهر الكلب كونستانتى، فاهتز الحيوان أيضاً، وتمكن المرأتان والرجلان من رؤية ذلك، وكرر بذلك التجربة التى قام بها جواكيم زازا وجوزيه أنايسو تحت شجرة الزيتون القرطوبولية، فى الأراضى

الجرداء بين أورثى وفنتا ميثينا، ولكن الآن، فإن الدهشة كانت عامة وعالمية، فلم تكن الحركة باتجاه الغرب ولا الشرق، ولا نحو الشمال ولا الجنوب. كانت شبه الجزيرة تدور حول نفسها، فى حركة شيطانية، أى بعكس حركة عقارب الساعة، وهو شىء عندما أُعلن عنه تسبب فى حدوث دوار بين السكان البرتغاليين والإسبان، رغم أن سرعة الدوران لم تكن كبيرة. أمام هذه الظاهرة العجيبة، التى تُشكك فى صحة جميع قوانين الفيزياء، وبشكل خاص القواعد الميكانيكية، التى كانت الأرض محكومة بها حتى الآن، وتم وقف جميع المباحثات السياسية، ومؤامرات المكاتب والكواليس، ومناورات الدبلوماسيين جادة كانت أم خبيثة. وبالتالى علينا أن نقول إنه ليس من السهل الحفاظ على التوازن والهدوء، عندما يكون معروفاً، مثلاً، أن طاولة مجلس الوزراء، والبيت المدينة، والوطن، وشبه الجزيرة بكاملها، كانت كما لو كانت آلة تدور ببطء فى عالم غارق فى حلم. وكان الأفراد الأكثر حساسية يقسمون إنهم يشعرون بالحركة الدائرية، رغم اعترافهم إنهم هم لا يشعرون بدوران الأرض فى الفضاء، ليؤكدوا ذلك، يمدون أذرعهم للإمساك بها، ولكن معظمهم لا يتمكنون من ذلك، ووصل الأمر إلى أنهم كانوا يسقطون، ويبقون نائمين على الأرض، فيرون كيف أن السماء تدور ببطء، وفى الليل يدور القمر والنجوم، وحتى الشمس تدور خلال النهار، وإن كان بعض الأطباء يرون أن كل هذا ليس سوى ردود أفعال هستيرية.

بالطبع كان هناك متشككون أكثر راديكالية؛ لأنه لا يمكن أن تدور شبه الجزيرة حول نفسها، إنه أمر مستحيل، أن تنزلق، يمكن، كلنا نعرف ما يعنى انزلاق التربة، وهو ما يحدث فى المناطق المرتفعة عندما تُمطر كثيراً، ويمكن أن يحدث هذا لشبه الجزيرة حتى لو لم تُمطر على الإطلاق، ولكن أن تدور فهذا يعنى أنها تدور حول مركزها، وإضافة إلى أنه يبدو مستحيلاً من الناحية الموضوعية، فإنه مستحيل أيضاً من الناحية الذاتية؛ لأن النتيجة هى أنها يمكن أن تنفصم إن آجلاً أم عاجلاً، وحينها سنبحر بلا وجهة معينة، ولن نجد شيئاً يمكن أن نمسك به، ويصبح مصيرنا معلقاً بالقدر. ولم ينتبه هؤلاء جميعاً إلى أن الدوران يمكن أن يتم ببساطة من خلال مسطح يدور على مسطح آخر، وأن هذا المسطح من الحجر الإردواز، انتبهوا يا سادة، إنه كما يقول اسمه، مكون من قطع صغيرة مركبة على بعضها، فلو خفت حدة الالتصاق بين المسطحين، يمكن لأحدهما أن يدور بإتقان على المسطح الآخر، مع الاحتفاظ، نظرياً على الأقل، بدرجة من الالتصاق بينهما قادرة على منع الانفصال النهائى بينهما. هذا هو ما يحدث، هذا ما يؤكده المدافعون عن تلك الفرضية. وحتى يمكن التأكد من صحتها جرى إرسال الغطاسين مرة أخرى إلى أعماق البحر، على أن يغطسوا إلى أقصى ما يمكنهم فى تلك المنطقة الجحيمية فى المحيط، وانتقلت أيضاً إلى هناك الغواصة الفرنسية أرشميدس، والسيانا،

وأخرى يابانية لها اسم صعب النطق، وكانت نتيجة كل هذه الجهود أن كرر الباحث الإيطالى جملته الشهيرة، فقد خرج من الماء، وفتح سقف الغواصة وقال أمام ميكروفونات تليفزيونات العالم كله: "لا يمكنها أن تتحرك، ومع ذلك فهى تتحرك!". لم يكن هناك أى محور مركزى منبعج كالحبل، وليست هناك مسطحات، لكن شبه الجزيرة تتحرك بعظمة فى منتصف المحيط الأطلنطى، وكلما دارت أصبحت أقل شبهاً بنفسها أمام أنظارنا، ويتساءل الناس: "هل حقيقة نحن عشنا هنا؟"، كانت الشواطئ البرتغالية متوجهة جميعاً نحو الجنوب الغربى، وما كان قديماً الطرف الشرقى من البرانس كان يشير باتجاه أيرلندا. أصبحت مشاهدة شبه الجزيرة من المشاهد الإجبارية خلال الرحلات الجوية العابرة للمحيط، ورغم أن الحقيقة قد قيلت، فإن الاستغلال لم يكن كبيراً؛ نظراً لانعدام وجود مكان ثابت يمكن الاتجاه إليه واتخاذه علامة. فى الحقيقة لا شىء يمكنه أن يحل محل الصورة المأخوذة والمرسلة عبر القمر الصناعى، كانت الصورة مُلتقطة من مسافة عالية جداً، وحينها نعم، كانت هناك فكرة واضحة عن الحدث الكبير.

استمرت هذه الحركة شهراً، وانطلاقاً من شبه الجزيرة كان الكون يتحول شيئاً فشيئاً. تُولد الشمس كل يوم من نقطة مختلفة فى الأفق، وكان يجب البحث عن القمر والنجوم فى السماء، فلم تعد حركتها

الذاتية حركة مركز النظام المتمحور حول درب اللبانة، الذى كان هو ذاته يتحرك حركة أخرى حول الفضاء إلى جنون من الأضواء المتغيرة، كما لو كان الكون يعيد تشكيل نفسه من أوله إلى آخره، كما لو كان النظام الأول القائم لم ينتج ما كان منتظراً منه. جاء اليوم الذى غابت فيه الشمس فى المكان الذى كانت تشرق فيه فى الأزمنة العادية، لا يفيد فى شىء أن نقول إنه ليس حقيقة أن الأمر متعلق بظاهر بسيط، وأن الشمس تواصل مسارها المعتاد دون أن تكون لديها القدرة على التحول إلى مسارٍ آخر، كان هذا هو ببساطة تفسير الناس، "معذرة، سيدى المحترم، كانت الشمس تدخل بيتى من الشباك الأمامى وتدخل الآن من الخلف، هيا ولنر إن كنت تستطيع أن تفسر لى هذا بطريقة أفهمها؟"، تفسير ما كان يفسره الخبير الذى يعرض الصور ويرسم رسوماً، ويثنى خريطة السماء، لكن هذا لا يقنع المتلقى، وينتهى الدرس برجاء للسيد الدكتور أن يتفضل بمحاولة جعل الشمس عند شروقها أن تعود لإضاءة واجهة البيت. فيقول الأستاذ قانطاً من القضية والعلم، "لا تنزعج، عندما تدور شبه الجزيرة دورة كاملة، سترى الشمس كما كنت تراها من قبل"، لكن التلميذ، متشككاً، أجاب، "حينئذ، سيدى الأستاذ، هل تعتقد حضرتك أن يحدث كل هذا لينتهى إلى ما كان عليه من قبل؟"، لكن الحقيقة لم تكن واضحة.

ربما كان الوقت شتاء، لكن الشتاء الذى بدا أنه قد حل، كان قد تأخر، وليس هناك تفسير آخر. لم يكن شتاءً، وخريفاً لم يكن، وربيعاً لا يمكن أن نفكر فى أنه كذلك، ولا حتى صيفاً يمكنه أن يكون. كان فصلاً معلقاً، بلا تاريخ، كما لو كان فى بدايات العالم ولم يتقرر بعد تنظيم الفصول فى أوقاتها. واصلت ذات الحصانين سيرها ببطء بمحاذاة السفوح السفلى للجبال، ويتوقف المسافرون الآن فى الأماكن، ويندهشون من مشهد الشمس بشكل خاص، فلم تعد تظهر على قمم البرانس لتظهر من البحر، ناشرة أشعتها الأولى باتجاه منتصف الجبل المرتفع وحتى أعاليه المغطاة بالجليد. لقد كان هنا، فى إحدى تلك القرى، عندما انتبهت ماريا جوافيرا وجوانا كاردا إلى أن كلاً منهما حامل، كلاهما. لم يكن فى ذلك ما يدهش، ويمكن القول أيضاً إن هاتين المرأتين فعلتا المستحيل ليحدث هذا طوال الأشهر والأسابيع الأخيرة، واستسلامهن لرجليهن بكل بسخاء صحى دون اتخاذ أية احتياطات، سواء من جانبهن أم من جانبهما. وحدوث الأمر فى وقت واحد لا يجب أن يُدهش أحداً، لقد كان مجرد صدفة من تلك التى تنظم العالم، ولكن هناك صدفة تطفو للعيان عن أخرى من وقت لآخر لتؤيد وجهة نظر المتشككين. لكن الوضع أصبح محرجاً، فالحمل ومصدره فى صعوبة الفصل بين الحالتين فى إثبات الأبوة، لولا زلة جوانا كاردا وماريا جوافايرا، اللتين ذهبتا إلى الغابة بحثاً

عن الرجل المنطوى، سواء كان دافعهما إلى ذلك الشفقة أو إحساس آخر أكثر تعقيداً، حيث لم يضطر، رغم تردده بين الشوق والرغبة، إلى التوسل إليه للدخول فيهما وأن يترك فيهما لعابه ما قبل الأخير، بل لو لم يكن ذلك الجنون وهذا الفصل الشهوانى، ما كان هناك أدنى شك فى أن ابن ماريا جوافايرا هو ابن جواكيم زازا، وابن جوانا كاردا هو ابن جوزيه أنايسو. ولكن يظهر بدرو أورثى هنا فى الطريق، رغم أنه من الأفضل القول إن الغاويتين ظهرتا فى طريق بدرو أورثى، واللااعتياد المخجل غطى على كل شىء. قالت ماريا جوافايرا، "لا أعرف من يكون الأب؟"، وقالت جوانا كاردا، "ولا أنا؟"، والتى واصلت بعد ذلك عرض أسبابها، أولها حتى لا تظل أكثر تخلفاً عن الأخرى، وثانيها لفهم الخطأ عن طريق الخطأ، بتطبيق القاعدة على ما هو استثناء.

لكن هذا الحديث، أو ربما أى حدث آخر أكثر حساسية، لا يخفى القضية الأساسية وهى الآن إخبار جوزيه انايسو وجواكيم زازا، ترى كيف سيكون رد فعلهما عندما تخبر كلاً منهما رفيقته؟ وبأى وجه يمكن أن تقول له؟، "أنا حامل". فى حالة التوافق، طبقاً للعادة، أو ما يقولون إنها العادة، سينظر كل منهما بفرح مجنون، وربما تحت وقع المفاجأة ستبدو على الوجه سعادة فجائية تجعل روحيهما تقفزان، إلا أن وجهيهما سرعان ما تتغير تعبيراتها، وتغيم عيونهما، معلنة عن المشهد الرهيب. عرضت جوانا

كاردا ألا تقول شيئاً، يمر الوقت وتعلو البطن، فيؤدى الأمر الواقع إلى تخفيف وقع الحدث، عن الشرف المثلوم، أو الغضب الذى يحدثه، لكن ماريا جوافايرا لم تكن مع هذا الرأى، وبدا لها أسوأ مما حدث من قبل، فيجب تقدير قيمة وكرم الجميع، وانتهتا إلى التصنع المغرى والجبن، فالجبن وهو الأسوأ من الترضية، اعترفت جوانا كاردا، "عندك حق، من الأفضل أخذ الثور من قرونه" قالت ذلك دون أن تنتبه إلى ما تقول، وهنا تكمن خطورة هذه الجملة عندما لا ننتبه كثيراً إلى الظروف المحيطة بها.

فى ذلك اليوم نفسه نادت المرأتان على رجليهما، وذهبوا معاً للتنزه فى الحقول، هناك حيث يخفف الفضاء من حدة الصراخ ويحوله إلى همهمات، لهذا السبب الكئيب لا تنطلق أصوات الرجال إلى السماء أبداً، وهناك قالت كل منهما لرجلها صراحة وكما قررتا، "أنا حامل ولا أعرف إن كان منك أم من بدرو أورثى؟"، كان رد جوزيه أنايسو وجواكيم زازا كما كان متوقعاً، انفجار الغضب والألم الحاد، وحركات الذراعين العنيفة. لم يكن أى منهما يشاهد الآخر إلا أن حركاتهما كانت متماثلة، وكذلك كلماتهما، "ألا يكفى ما حدث، وأنتِ الآن حامل دون أن تعرفى من؟"، "كيف تريدنى أن أعرف، لكن يوم ميلاد الطفل سنعرف بالتأكيد"، "لماذا؟"، "بسبب التشابه"، "نعم، لكن تخيلى لو لم يشبه أحداً غيرك؟"، "لو كان يشبهنى، ويشبهنى أنا فقط، ذلك لأنه سيكون طفلى أنا، وليس

طفل أحد آخر"، "هل تسخرين منى؟"، "أنا لا أسخر، هذا ما لا يمكن أن أفعله أبداً"، "والآن كيف سيكون حل الموقف؟"، "إذا كنت قد قبلت أن أضاجع بدرو أورثى، فتقبل أن تنتظر تسعة أشهر قبل اتخاذ أى قرار، لو كان الطفل يشبهك فهو ابنك، ولو كان يشبه بدرو أورثى فسيكون ابنه، فارفضه وارفضنى أيضاً، هذا إذا كانت هذه رغبتك، أما إذا كان يشبهنى أنا فقط، ولا تنتظر ذلك، دائماً ما تكون هناك إحدى القسمات التى تنتمى إلى الآخر"، "وماذا سنفعل مع بدرو أورثى، هل تفكرين فى أن تقولى له ذلك؟"، "لا، لن يلاحظ شيئاً خلال الأشهر الأولى، وربما أكثر من ذلك، خاصة بهذا الشكل الذى نرتدى به ملابسنا، هذه الفساتين العريضة، وهذه الجاكتات المدلاة"، "ربما كان من الأفضل ألا ننطق بكلمة"، "أعترف أن رؤية بدرو أورثى وهو ينظر إلىَّ شىء يضايقنى، إنه ينظر كما لو كان يبدى ابتهاجا"، كانت تلك الجملة الأخيرة لجوزيه أنايسو، الذى يعبر باللغة بشكل أفضل، أما جواكيم زازا فقد عبر عن نفسه كما يعبرون فى بلادهم، "يزعجنى أن أرى السيد بدرو أورثى كما لو كان ديكاً وحيداً فى الحظيرة". بهذه الطريقة، والتى بدت أخيراً مسالمة، قَبِل الرجلان العرض، يحدوهما الأمل فى أنهما قد لا يكونان فى حاجة إلى كل هذا عندما يتم التوصل إلى حل طبيعى للغز الذى لا شكل له.

أما بدرو أورثى، الذى لم يعرف أبداً معنى إنجاب الأبناء، ولم يخطر على باله أنه فى بطن المرأتين تتكون أجنة ربما تكون له، بالطبع فالإنسان لا يعرف حقيقة كل أفعاله مطلقاً، وهنا لدينا مثال جيد على ذلك، كانت ذكرى لحظات السعادة تذبل، ومعها نتائج ما حدث، ما هو تافه يظل تافهاً فى حد ذاته لكنه أكثر أهمية بالنسبة للآخرين، لو وصل إلى نهايته وتأكد، سيكون ظاهراً للعيان، رغم ذلك سيظل خافياً، فالله نفسه خلق البشر ولا يراهم. إن بدرو أورثى على أى حال ليس أعمى بشكل كامل، لكنه يشعر بأنه تسبب فى صدع فى علاقة الأزواج التى أصبحت تعانى من تباعد ما، ولا نقول بروداً، بل إنه تحفظ بلا عنف، لكن نتج عنها لحظات صمت طويلة، هذه الرحلة بدأت بشكل جميل جداً ولكنهم يبدون الآن كما لو كان الكلام قد نفد أو أنهم لا يجرؤون على قول الكلمات الوحيدة التى لها معنى، "لقد انتهى كل شىء، ما كان حياً قد مات، إذا كان الأمر كذلك"، وأيضاً ربما يكون قد أحيا بدايات الغيرة الأولى، وربما مع مرور الزمن. وربما فى محاولة لعدم لفت الأنظار، فقد عاد بدرو أورثى إلى عادته فى التنزه فى المناطق المحيطة بالمخيم، إلى درجة أنه أصبح من المدهش أن يستطيع هذا الرجل المشى كل هذا.

فى يوم ما من تلك الأيام، فى ذلك الوقت الذى تركوا من خلفهم تماوجات التكوينات الأولى للجبال التى تعلن من بعيد عن وجود جبال البرانس، غامر

بدرو أورثى بالتقدم فى طرق منعزلة، وكان على وشك الاستسلام لغواية عدم العودة إلى المخيم مرة أخرى، إنها أفكار تطرأ على ذهنه فى ساعات التعب، عثر على حافة الطريق على رجل، يستريح، ربما كان من نفس عمره أو أكبر قليلاً، كان يبدو منهكاً. إلى جانبه حمار، على ظهره بردعة وسلال، ويمضغ بين أسنانه حشائش صفراء جافة، وكما ذكرنا من قبل فإن الزمن لم يعد يكشف لنا أشياء جديدة، أو يجعلها تظهر خارج المكان والمناسبة، لقد تشتت الطبيعة، هذا ما يمكن أن يقوله عاشق للكنايات اللغوية. كان الرجل يلتهم قطعة خبز حاف، ربما كان فى وقت عوز، لكن شكله برىء، غير شرير، من ناحية أخرى لم يكن بدرو أورثى شخصاً فزعاً، كما بيَّن ذلك خلال نزهاته الطويلة فى هذه الأراضى القاحلة، حقيقة أن الكلب لم يكن يتركه وحده ولا لحظة واحدة، فقط تركه مرتين، لكن مع رفقة طيبة وبدافع احترازى.

حيا بدرو أورثى الرجل، "مساء الخير"، وأجابه الآخر، "مساء الخير"، سجل سمع كل منهما صوتاً مألوفاً، إنها نغمة جنوبية، أندلسية، هذا إذا أردنا أن نقولها فى كلمة واحدة. ولكن رجل الخبز الحاف وجد فى هذا سبباً كافياً لعدم الثقة أن يلتقيا فى مكان كهذا، رجل وكلب فى مكان يبدو مهجوراً، لكن دون أن يخفى ذلك، قرّب منه العصا المدعمة بالحديد التى كانت ملقاة على الأرض. فهم بدرو أورثى الحركة وقلق الآخر، ربما كان قلقاً من تحركات الكلب، الذى وقف

ساكناً محنياً رأسه إلى الأرض، "لا تخف من الكلب، إنه وديع، أعنى، هو ليس بوديع، لكنه لا يهاجم أحداً لم يفكر فى إيذائه"، "وكيف يعرف هذا الحيوان ما يفكر فيه الأشخاص؟"، "إنه سؤال ممتاز، نعم يا سيدى، كنت أتمنى أن أعرف الإجابة عنه، لكن لا أنا ولا رفاقى نعرف أى نوع من الكلاب هذا، ولا من أين جاء؟"، "كنت أعتقد أنك تمشى وحدك وأنك تعيش هنا؟"، "معى أصدقائى، لدينا عربة، ونظراً لما يحدث الآن فقد قررنا السفر، ومع ذلك لا نزال هنا"، "هل أنت أندلسى؟ تعرفت عليك من لهجتك"، "جئت من أورثى، إنها من مقاطعة غرناطة"، "وأنا من ثوفرى، فى ويلبا"، "أهلاً يا بلدياتى"، "أهلاً بك أنت، يا صديقى"، "هل تسمح لى أن أجلس هنا لبعض الوقت؟"، "خذ راحتك، لا أستطيع أن أقدم لك أكثر مما معى، خبز جاف"، "أشكرك، واعتبرنى قبلته، لقد أكلت تواً مع أصدقائى"، "من هم؟"، "إنهم صديقان مع زوجتيهما، هما وإحدى المرأتين برتغاليون، والمرأة الأخرى جيليقية"، "وكيف التقيتم؟"، "آه، إنها حكاية طويلة لا أستطيع أن أقصها عليك الآن".

لم يلح الآخر؛ لأنه انتبه إلى ألا يفعل، وقال، "ستفكر أنت كيف أننى من ويلبا وموجود هنا الآن؟"، "فى هذه الأيام من الصعب أن تعثر على أحد يوجد حيث كان يعيش دائماً"، "أنا من ثوفرى وهناك توجد عائلتى، هذا إذا كانوا لا يزالون هناك، ولكن عندما بدءوا يقولون إن إسبانيا قد انفصلت عن فرنسا،

قررت أن آتى لأراه بعينى"، "إسبانيا؟، لا إنها شبه الجزيرة بالكامل"، "نعم هو هذا"، "ولم تنفصل شبه الجزيرة عن فرنسا، بل انفصلت عن أوروبا"، "يبدو أن الأمر سيان"، "لكن هناك فارقاً"، "أنا لا أفهم فى تلك التفاصيل، لكنى أردت أن أراه بنفسى"، "وماذا شاهدت؟"، "لا شىء، وصلت إلى البرانس وشاهدت البحر فقط"، "ولا نحن شاهدنا شيئاً غير البحر"، "لم تكن فرنسا هناك، ولا أوروبا، والآن حسن، ففى رأيى أن شيئاً غير موجود الآن فإنه لم يكن له وجود أبداً من قبل، كل رحلتى لمشاهدة شىء لم يكن موجوداً هذه عمل بلا فائدة"، "حسناً، لا خطأ هناك"، "أى خطأ؟"، "قبل أن تنفصل شبه الجزيرة عن أوروبا، كانت أوروبا هناك، وكانت هناك حدود، بالطبع، وكان يمكن المرور من جانب إلى آخر، كان الإسبان يمرون والبرتغاليون، ويأتى الأجانب، فلا يوجد سائح فى بلاده أبداً"، "أحياناً، لكن لا يوجد هناك ما يستحق المشاهدة"، "كانوا سياحاً يأتون من أوروبا"، "لكنى عندما كنت أعيش فى ثوفرى لم أرهم، أين الفارق؟"، "أنت لم تذهب إلى القمر، ومع ذلك فالقمر موجود؟!"، "لكنى أراه، وإن كان يسير الآن بعيداً عن مساره، لكنى أراه"، "ما اسمك؟"، "يدعوننى روكى لورينثو، فى خدمتك"، "أنا اسمى بدرو أورثى"، "أنت تحمل لقب الأرض التى وُلدت فيها؟"، "لا أنا لم أولد فى أورثى، ولدتُ فى فينتا ميثينا، الموجودة بالقرب منها"، "أتذكر الآن أنه فى بداية رحلتى التقيت ببرتغاليين فى طريقهما إلى

أورثى"، "ربما كانا هما من يرافقانى الآن"، "أحب أن أعرف ذلك؟"، "هيا معى ولنتأكد"، "لو دعوتنى، أذهب، مر علىَّ وقت طويل وأنا أسافر وحيداً"، "قف ببطء حتى لا يعتقد الكلب أنك ستؤذيه، وأنا أعطيك العصا"، رفع روكى لورينثو مخلاته على كتفه، وجذب الحمار وذهبوا جميعاً، الكلب إلى جوار بدرو أورثى، ربما كان يجب أن يكون الأمر هكذا دائماً، حيث يوجد إنسان يكون برفقته حيوان ما، ببغاء على كتفه، أو أفعى ملتفة حول ساعده، جعران على ياقته، عقرب على هيئة كرة، ونقول حتى قملة فى رأسه لو لم يكن هذا الحيوان ينتمى إلى الفصيلة الكريهة، وأنه يمكن استغلال حتى الحشرات، مسكينة الحشرة، الذنب ليس ذنبها، ولكنها الإرادة الإلهية.

على وقع الخطى إلى اتجاه غير محدد دخلوا فى عمق قطالونيا. ازدهرت تجارتهم، لقد كانت بالفعل تلك فكرة رائعة العمل فى هذا الفرع من التجارة. قليل من الناس يمكن رؤيتهم على الطرق، مما يعنى أنه رغم أن شبه الجزيرة تواصل دورانها فإن الناس قد عادوا إلى عاداتهم الطبيعية، لو كان يمكننا أن نطلق هذا الاسم على العادات والتقاليد القديمة. لم تعد هناك قرى مهجورة، لكن لا يمكن المراهنة على أن كل البيوت عاد إليها جميع سكانها الأوائل، هناك رجال مع نساء أخريات ونساء مع رجال آخرين، والأبناء قد اختلطوا، فالحروب الكبيرة والهجرات الكبيرة تنتج مثل هذه الأوضاع. كان هذا الصباح عندما قال جوزيه أنايسو

بشكل مفاجئ إنه لا بد من تقرير مستقبل المجموعة، خاصة أنه لم يعد هناك خطر من الاصطدام والارتجاج. الأكثر تأكيداً أو على الأقل الأكثر توقعاً أن شبه الجزيرة ستبقى تدور إلى الأبد دون أن تخرج من مكانها، وهو ما لن يكون له نتائج غير مألوفة بالنسبة للحياة اليومية للناس، عدا أنه لن يكون معروفاً أبداً مكان الجهات الأربع الأصلية للأرض، وهو من ناحية أخرى ليست له أهمية كبيرة، فليس هناك أى قانون يمنع الحياة دون وجود جهة محددة. ولكن الآن وبعد أن شاهدوا البرانس، وكانت لحظة سعيدة جداً، وكذلك رؤية البحر من ذلك الارتفاع، كما قالت ماريا جوافايرا، "يبدو كما لو كنا نطير فى طائرة"، وصحح لها جوزيه أنايسو بصفته شخصاً خبيراً، "لا وجه للمقارنة، يكفى أنه إلى جوار نافذة الطائرة لا يشعر المرء بالدوار، وهنا نعم لو لم نتشبث بالأرض بقوة، لألقينا بأنفسنا إلى البحر برغبتنا". عاجلاً أم آجلاً، أنهى جوزيه أنايسو بهذه الكلمات إنذاره الصباحى، "علينا أن نقرر مصيرنا، مؤكد أنه لا أحد يرغب فى أن يقضى بقية حياته على الطريق". أبدى جواكيم زازا موافقته على المبدأ، المرأتان لم ترغبا فى إبداء رأييهما، اشتبهتا أن هناك سبباً خفياً وراء هذه العجلة الفجائية، فقط بدرو أورثى، بخجل، ذكَّرهم بأن الأرض لا تزال تهتز، وإذا لم تكن تلك علامة كافية على أن الرحلة لم تصل إلى نهايتها، فإن لديه رغبة أن يشرحوا له سبب انطلاقهم فى السفر من أساسه. فى

لحظة أخرى من الجدية، رغم أنه لا أحد يشك فى جدية السبب، الذى أثر فى أعماق أرواحهم، وإلا يكونون بلا روح، وعندما يقول بدرو أورثى الآن يمكن الاشتباه فى سبب خفى، كان هذا هو التفكير الذى يمكن قراءته فى عينى جوزيه أنايسو فيما واصل القول، "فيما بعد، بعد العشاء، كل منا يقول ما يعتقد فى هذه المسألة، وإن كان علينا أن نواصل كما كنا حتى الآن أم نعود إلى البيت"، سألت جوانا كاردا فقط، "إلى أى بيت؟".

كان بدرو أورثى قادماً من بعيد وبرفقته رجل آخر، كان يبدو من تلك المسافة شيخاً، لحسن الحظ، لأن مشكلة التعايش موجودة بأكثر مما يجب. يجر الرجل من ورائه حماراً محملاً بالمخالى والسلال، كما هى عادة كل حمير العالم القديم، ولكن هذا له لون فضى غريب، ولو أسموه بلاتيرو فإنهم يشرِّفون الاسم، تماماً مثل حصان الكيخوته روثينانتى، الذى كان من قبل اسمه يأتى من البلادة، وهو اسم مستحق. توقف بدرو أورثى على الخط الوهمى الذى يحد أرض المخيم، عليه أن يكمل رسمية تقديم الزائر، وهو ما يجب فعله دائماً من هذه الناحية وحتى خارج السور، إنها قواعد معروفة وليست فى حاجة إلى التعلم، نقوم بها من أعماقنا بمرجعية تاريخية، فى يوم من الأيام أردنا أن ندخل القلعة دون إذن ونتذكر ما حاق علينا من تأديب. يقول بدرو أورثى بفخامة، "لقد عثرت على بلدياتى ودعوته ليتناول معنا طبق حساء"، كان هناك

تظاهر مبالغ فيه فى كلمة بلدياتى، فاعتذر؛ ففى تلك الساعة فى أوروبا، فإن برتغالياً من مينيو وآخر من ألينتيخاس يحنان إلى الوطن نفسه، رغم أن خمسمائة كيلومتر تفصل أحدهما عن الآخر، والآن فإن ستة آلاف كيلومتر تفصلهما عن موطنهما.

لم يتعرف جواكيم زازا وجوزيه أنايسو على الرجل، لكنهما لا يستطيعان قول الشىء نفسه عن الحمار، ففيه شىء معروف ومألوف، مع الاعتذار، يمكن التعرف عليه لشىء فيه لا يدهش، فالحمار لا يتغير فى أشهر قليلة، بينما الرجل كان قذراً ومشعث الشعر، نعم ذقنه طالت وأيضاً زاد وزنه أم نحف، أم أنه كان مشعراً وتحول إلى أصلع، فإن زوجته نفسها عليها أن تعريه لترى إن كانت العلامة الخاصة به لا تزال فى المكان نفسه، وأحياناً ما يكون ذلك متأخراً، حينما يكون كل شىء قد انتهى ولا يمكن للندم أن يحصل على كل ثمار المغفرة. قال جوزيه أنايسو تطبيقاً لقواعد حسن الضيافة، "أهلاً بك، اجلس هنا معنا، وإذا أردت نزع برذعة الحمار، يمكنك أن تفعل ذلك بلا مشكلة، فهناك مكان كاف له وللحصانين". بلا برذعة ومخالٍ بدا الحمار أكثر شباباً، ويمكن رؤيته الآن جيداً وأنه مصنوع من نوعين من الفضة، قاتمة وأخرى فاتحة، وكلاهما من نوعية جيدة. ذهب الرجل لوضع الحمار فى مكانه، نظر الحصانان نظرة جانبية إلى القادم الحديث وشكَّا فى أنه يمكن أن يساعدها فى شىء؛ نظراً لصغر حجمه وصعوبة تعليقه من

عنقه. عاد الرجل إلى جوار النار، وقبل أن يقرِّب الحجر الذى سيستخدمه كمقعد، قدّم نفسه، "اسمى روكى لورينثو"، أما ما تبقى فإن التقنية الروائية تتطلب منا ألا نكرر ما هو معروف من قبل. كان جوزيه أنايسو على وشك أن يسأله إن كان للحمار اسم، أو مثل، إن كان اسمه بلاتيرو، لكن الكلمات الأخيرة التى نطق بها روكى لورينثو متكررة دائماً، "جئت لرؤية أوروبا"، جعلته يصمت، وذكرى فجائية رفعت أصبعها فى ذاكرته فهمهم، "أنا أعرف هذا الرجل"، لحسن الحظ أن الذكرى جاءت فى وقتها المناسب، سيكون جارحاً أن يحتاج الإنسان إلى حمار ليتعرَّف على الأشخاص. كانت هناك حركات مماثلة تجرى أيضاً فى رأس جواكيم زازا الذى قال، متشككاً، "أعتقد أننا التقينا من قبل؟"، أجابه روكى لورينثو، "وأنا أيضاً، تذكرانى بالبرتغاليين اللذين التقيت بهما فى بداية رحلتى، لكنهما كانا يسافران فى سيارة ولم تكن برفقتهما سيدات"، قالت ماريا جوافايرا، "العالم متغير يا سيد روكى لورينثو، وفى تغيراته ما نكسبه يمكن أن نخسره، وأيضاً يمكن أن يحدث أن نخسر السيارة ذات الحصانين ونعثر على عربة بحصانين، وامرأتين ورجل آخر أيضاً"، وقالت جوانا كاردا، "ولا يزال أمامنا الكثير لنراه"، لا بدرو أورثى ولا روكى لورينثو عرفا عما يتحدثون، كان يعرف ذلك جوزيه أنايسو وجواكيم زازا، ولم يعجبهما تلك الإشارة إلى الجسد البشرى، وبشكل خاص الأجساد الأنثوية.

والآن بعد التقديم والتعارف، انتهت الشكوك، فقد كان روكى لورينثو هو ذلك المسافر الذى التقوا به فى جبال سييرا مورينا وأراثينا، مع حماره بلاتيرو يتجهان نحو أوروبا، والتى فى النهاية لم يشاهدها، لكن تبقى له النية، المنقذة دائماً. سألته جوانا كاردا، "والآن إلى أين أنت ذاهب؟"، "الآن أعود إلى البيت، فالأمر لا يستحق أن يظل الإنسان مرتحلاً فى الأرض التى لم تترك شيئاً فى مكانه"، "الأرض؟"، "لا، البيت الذى يوجد حيث توجد الأرض". بدأت ماريا جوافايرا فى ملء أطباق الحساء، الذى زودته بقليل من الماء ليكفى الجميع، تعشوا فى صمت، عدا الكلب الذى كان يمصمص عظمة وحيوانات الجر والحمل التى كانت تُسمع أصوات جرشهما للفول الجاف، فيما لا يمكن للحيوانات الأخرى أن تشكو من مرور الوقت الردىء، خاصة مع الأخذ فى الاعتبار صعوبات الوقت الحاضر.

واحدة من تلك الصعوبات، ولكن بشكل خاص، حاول حلها مجلس العائلة المنعقد فى تلك الليلة، "ألا يمثل وجود شخص غريب حرجاً لأحد"، "بالعكس، فقد ذكرنا من قبل أن روكى لورينثو فى طريقه للعودة إلى البيت"، "ونحن، ماذا سنفعل نحن؟ هل نواصل حياتنا كغجر نشترى ونبيع ملابس قديمة، أم نعود إلى البيت، والعمل والحياة الاعتيادية، إن لم تتوقف شبه الجزيرة عن دورانها فإن الناس ستعتاد على ذلك، كما اعتادت البشرية على الحياة فى الكرة الأرضية التى لا تتوقف

أبداً عن الحركة، ولا حتى نملك القدرة على تخيل ثمن توازن كل واحد منا داخل كرة طنانة تدور حول بحيرة بداخلها تعيش السمكة-الشمس"، قال الصوت المجهول، "معذرة لمقاطعتك لكن تلك السمكة-الشمس لا وجود لها، توجد السمكة-القمر، لكن السمكة-الشمس لا"، "إذاً بص، أنا لن أناقشك، فإذا لم تكن موجودة فنحن فى حاجة إليها"، لخص جوزيه أنايسو كل هذا، "لسوء الحظ لا يمكن امتلاك كل شىء، لأن الرفاهية والحرية لا تلتقيان، هذه الصعلكة الحياتية لها وجوهها اللذيذة، لكن أربعة جدران قوية بسقف فوقها تحمى أفضل من خيمة رقيقة مرقعة"، قال جواكيم زازا، "لنبدأ بتوصيل بدرو أورثى إلى البيت"، ثم قطع جملته، ولم يعرف كيف يكملها، تدخلت حينها ماريا جوافايرا وقالت بوضوح ما كانوا فى حاجة إلى قوله، "حسن جداً، نترك بدرو أورثى فى صيدليته، وبعدها نواصل حتى البرتغال، ليبقى جوزيه أنايسو فى مدرسته، فى ذلك المكان الذى لا أعرف اسمه، ونواصل باتجاه ما كانوا يسمونه من قبل بالشمال؛ لأن جوانا كاردا عليها أن تختار ما بين إيريرا مع أبناء عمومتها أو العودة إلى أحضان زوجها فى كويمبرا، وعندما نتوصل إلى حل لتلك المسألة، نتوجه إلى بورتو ونترك جواكيم زازا على باب مكتبه، حينها سيكون رؤساؤه قد عادوا من بينيافييل، ثم أعود أنا إلى بيتى، حيث ينتظرنى رجل يريد أن يتزوجنى، سيقول أنه بقى لحراسة ممتلكاتى خلال غيابى"، "والآن سيدتى عليك

أن تتزوجينى"، "وأقوم أنا بإشعال النار فى تلك العربة كمن يشعل حلماً، وربما استطعت بعدها أن أدفع السفينة الحجرية إلى البحر وأتمكن من السفر فيها".

خطاب كهذا، متواصل، يقطع أنفاس من يتحدث ولا يترك مجالاً لمن يسمع كى يتنفس. ظلوا خلال عدة دقائق صامتين، وأخيرا ذكَّرهم جوزيه أنايسو، "نحن نسافر جميعاً فى طوافة حجرية"، أجابته ماريا جوافايرا، "إنها أكبر من أن تترك لنا مجالاً لنشعر بأننا بحارة، ولاحظ جواكيم زازا ضاحكاً، "كلام جميل، ولا حتى دوراننا فى قبة العالم حولنا إلى رواد فضاء". صمت آخر، جاء الآن دور بدرو أورثى فى الكلام، "علينا أن نقوم بعمل شىء بعد الآخر، يمكن لروكى لورينثو أن ينضم إلينا، نأخذه إلى عائلته التى يمكن أن تكون بانتظاره فى ثوفرى، وبعدها نقرر ما سنفعل بحياتنا نحن"، قال جواكيم زازا، "لكن ليس هناك مكان لنوم شخص آخر فى العربة"، اعترف روكى لورينثو، "لا تنزعج إن لم يكن لديك سبب آخر يحرمنى من مرافقتى لكم، فأنا معتاد على النوم فى الهواء الطلق، يكفى ألا تمطر، والآن بالعربة فإن النوم تحتها سيكون كما لو كنت أنام تحت سقف بيت، فقد بدأت أتعب من الوحدة، ماذا تريدون أن أقول لكم أكثر من هذا؟".

بدءوا الرحلة فى اليوم التالى، بيج وآل كانا يتنهدان على حظ الحمار، الذى يسير مربوطاً من خلف العربة بحبل رقيق بلا أحمال وعارياً كما جاء إلى الدنيا، ولمعانه الفضى الجميل، وصاحبه، على

كرسى مقدمة العربة، يتحدث مع بدرو أورثى عن هموم الدنيا، والأزواج يتحادثون تحت الغطاء، فيما يسير الكلب أمامهم جميعاً كطليعة. من لحظة إلى أخرى عاد التناسق إلى المجموعة كما لو كان معجزة. بالأمس بعد آخر تداول رسموا طريقاً، ليس محدداً بشكل قاطع، ولكن فقط حتى لا يسيروا بلا هدف محدد، أولاً الهبوط باتجاه تراجونا، والسير بمحاذاة الشاطئ حتى فالنسيا، والدخول نحو الداخل باتجاه ألباثيتى، ثم قرطبة، ثم الاتجاه جنوباً باتجاه أشبيلية، وأخيراً على بعد أقل من ثمانين كيلومتراً حيث توجد قرية ثوفرى، وهناك نقول، "ها قد جاء روكى لورينثو سالماً من مغامرته الكبرى، ذهب فقيراً وفقيراً عاد، لم يكتشف لا أوروبا ولا ألدورادو، والذنب ليس دائماً ذنب من يبحث، كم من المرات لم يكن هناك أى كنز نتيجة الشر أو الجهل، قالوا لنا إنه موجود هناك، وبعدها نبقى فى مكان آخر لنرى كيف يستقبلونه، الجد العزيز، الأب العزيز، الزوج العزيز، خسارة أنك عدت، لقد اعتقدت أنك مت فى العراء، وأكلتك الذئاب، كل هذا لا يُقال بصوت مسموع.

حينئذ فى ثوفرى، تعود العائلة إلى لم الشمل، ولنرى الآن إلى أين نذهب؟ ماذا سيقولون عنا عندما نصل، أين؟ ولماذا؟ ولمن؟ "الكذب يكمن فى الأسئلة التى تطرحها؛ لأنك كنت تعرف الإجابة مسبقاً. فى وقت قصير جداً، تحدث الصوت المجهول مرتين.

■■■

## -٢٣-

عندما دارت شبه الجزيرة حول نفسها نصف دورة كاملة من الشرق إلى الغرب، بدأت فى الانحدار فى تلك اللحظة بالضبط، وفى اتجاه محدد جداً بكل ما تعنى هذه الكلمة من معنى، أصبحت البرتغال وإسبانيا دولتين رأساً على عقب. فلنترك الإسبان لحالهم لأنهم دائماً ما رفضوا مساعدتنا لهم، وعليهم تحمل مسئولية أنفسهم بقدر ما يستطيعون مع التحول الفيزيقى الذى يعيشونه، ولنقل نحن هنا، بكل التواضع البسيط المعروف عن الشعوب البدائية، إن منطقة الغربى بالبلاد الموجودة فى جنوب الخريطة تحول ما بين يوم وليلة، فى تلك اللحظة الأسطورية، إلى المنطقة الأكثر شمالاً فى البرتغال. إنه لأمر مدهش، لكنه حقيقة كما كان يُعلمنا أحد قسس الكنيسة، ليس لأنه لا يزال على قيد الحياة، فقسس الكنيسة ماتوا جميعاً، بل لأنه يمكنهم أن يخرجوا الدرس فى أية

لحظة، ويضعوه فى خدمة مصالحهم الإلهية كما يستخدمونه فى خدمة مصالحهم البشرية. لو أراد الحواريون السحرة أن يوقفوا شبه الجزيرة على هذا الوضع إلى الأبد، فإن نتائج الواقع: الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية، التى لا نوليها اهتماماً كما تستحق، النتائج كما نقول ستكون جذرية، ويمكن تلخيصها فى كلمة واحدة: كونية. يكفى التذكير على سبيل المثال أن المدينة الشهيرة بورتو ستجد نفسها منعزلة دون أية مصادر منطقية وسكانية، وتفقد موقعها المحبب إليها كعاصمة للشمال وعلامته البارزة، فى عيون السكان العالميين نابع عن ضيق أفق وقصر النظر، فلنتخيل حينئذ ما يمكن أن ينتج عن العثور على ميلانو التى تقع فى جنوب ايطاليا فى كالابريا، وتزدهر تجارة سكانها وصناعتهم فى الشمال، وتحوّل كل شىء، وهو أمر لا يبدو مستحيلاً تماماً، لو أخذنا فى الاعتبار ما حدث فى شبه الجزيرة الأيبيرية.

لكنها كانت لحظة واحدة، كما قلنا من قبل. انحدرت شبه الجزيرة، لكن لم يتوقف الدوران. جدير بالملاحظة، قبل أن نستمر فى الرواية، أنه يجب علينا تفسير المعنى الذى يجب أن نعطيه، فى هذا المجال، لكلمة انحدار، بالطبع ليس معناها المباشر؛ لأن هذا يعنى أن شبه الجزيرة بدأت فى الغرق. ولكن لو أنها بعد كل هذا الإبحار، مع عدم انحسار خطورة حدوث كارثة، فإن تلك الكارثة لم تقع، ولا حتى وقع شىء

مشابه، لذلك يصبح من غير المناسب رواية رحلة الغرق كاملة. مع أنه ليس صعباً، وعلينا أن نقبل أن عوليس لم يصل إلى الشاطئ فى الوقت المناسب ليعثر على الجميلة ناوسائى، ولكن لنسمح على الأقل لذلك الشخص المُتعب أن يصل إلى جزيرة الفياسين، وإذا لم يكن من الممكن أن يكون كذلك، يمكنه الوصول إلى أية جزيرة أخرى، يكفى أن يُريح رأسه على ساعده، إذا لم يجد أحضاناً أنثوية تنتظره. فلنهدأ؛ لأن شبه الجزيرة، ونقسم على ذلك، لم تكن تغرق فى البحر الغاضب، لو حدث هذا فإنها قد تختفى دون أن تترك أثراً يدل عليها، ولو كانت أعلى قمة فى البرانس، فالجحيم هنا عميق جداً. شبه الجزيرة تنحدر، نعم، ليست هناك طريقة أخرى لقول ذلك، لكنها كانت تنحدر باتجاه الجنوب لأنه بهذه الطريقة يمكننا تقسيم الكرة الأرضية إلى عليا وسفلى، إلى فوق وتحت، إلى أبيض وأسود. نتحدث هنا بمعانٍ تصويرية، وإن كان يجب أن يتسبب ذلك فى إثارة دهشة الدول التى تقع إلى الجنوب من خط الاستواء، والتى تستخدم الخرائط بشكل عكسى، فقرروا بحق منح العالم صورته التى كانت ناقصة. لكن ستبقى الأشياء على ما هى عليه، وهو ما يعطيها هذه الفضيلة التى لا تُقاوم، حتى إنه يمكن لطفل فى مدرسة أن يفهم الدرس من أول مرة، دون تفسيرات أخرى، فقاموس المترادفات المهمل يؤكد لنا ذلك، لكن تحت، وتنحدر، ولحسن الحظ أن هذه الطوافة الحجرية لم تذهب باتجاه الأعماق، فتبقّ مائة

مليون رئة، مازجة مياه نهرى التاخو والوادى الكبير الحلوة مع مياه البحر العميقة المرة.

كان هناك دائماً ما يوجد من يؤكد أن الشعراء يمكن الاستغناء عن وجودهم، وأنا أسأل: ما هو مصيرنا لو لم يأت الشعراء ليساعدونا على فهم عدم وضوح ما يقولون أنه واضح؟ حتى هذه اللحظة، بعد أن كتبنا الكثير من الصفحات، فإن المادة الروائية انحصرت فى وصف رحلة عبر المحيط، وإن لم تكن كلها عادية، بل ويمكن فى هذه اللحظات المأساوية التى عادت فيها شبه الجزيرة إلى سلوك طريقها، باتجاه الجنوب الآن، وفى الوقت نفسه لا تزال تدور حول مركزها الوهمى، لا نعرف كيفية إعادة صياغة أو إثراء الأحداث المعلنة ما لم يكن بمساعدة وحى ذلك الشاعر البرتغالى، الذى قارن ثورة وانحدار شبه الجزيرة بطفل يدور أول دورة فى حياته، وهو لا يزال فى بطن أمه. إن التشبيه رائع، وإن كان علينا أن نرفض فيه إضفاء الصفات البشرية على الأشياء، وأن كل ما يمكن رؤيته يمكن الحكم عليه بعلاقته الحتمية بالإنسان، كما لو كان بالفعل لا علاقة للطبيعة سوى أنها تدفعنا إلى التفكير فى أنفسنا، ببساطة، فإن خوفنا اللانهائى، يدفعنا وحده إلى ملء العالم بصور تشبهنا أو تشبه ما نعتقد أننا، عدا إذا كان إصرارنا على العكس من ذلك تماماً، إنه خلق للشجاعة، أو ببساطة الحصول على من يرفض أن يكون حيث يكون الفراغ، وعدم إضفاء معنى على ما لا معنى له. مؤكد

أن الفراغ لا يمكنه أن يمتلئ بنا، وهذا الذى نسميه معنى لا يعدو أن يكون مجموعة من الصور السريعة التى تبدو متناسقة فى لحظة محددة، أو ما يحاول الذكاء أن يضفى عليه العقلانية والنظام والتناسق فى لحظة رعب قاتلة.

بشكل عام، فإن صوت الشعراء غير مفهوم، وهو شىء رغم القواعد التى تحكمه يخضع للاستثناءات، كما هو واضح فى هذا الجزء الغنائى، عندما جرى تجميل الكناية بكل الطرق وتكرارها على جميع الأفواه، دون أن يشارك فى ذلك معظم الشعراء، وهو أمر لا يجب أن يدهشنا، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أننا غير معصومين من مشاعر الحسد والغيرة الإنسانية. وواحدة من أكثر النتائج جمالاً تلك الناجمة عن الإلهام المقارن، هو البعث، رغم أنها تخضع لعمليات تحول دفعت بها الحداثة إلى مجال الحياة الأسرية، والروح الأمومية، والسائل الأمى الذى يبدو أمام الأفعال المعروفة يدفع بالعديد من الأسباب لتفكر جوانا كاردا وماريا جوافايرا فيما كانتا وراء حدوثه، بسبب طريقتهما الطبيعية الخالصة، نحن لا نتحدث هنا عن القسوة والعمل الناتج عن تفكير عميق. فالنساء، ناجحات عن إصرار. وأعضائهن الجنسية، مع الاعتذار عن هذه الإشارة الجسدية، هى الاستثناء، والتى يمكن تلخيصها أو التوسع فيها، فهن أساس ميكانيكية الكون، من تلك الماكينات التى يخرج منها هذا الشىء التافه الذى هو كل شىء، تلك الخطوة

المتوقفة بين ما هو تافه وما هو عظيم، بين ما هو محدد وما هو لا نهائى. فى هذه النقطة يجب رؤيته لأننا نفقد كل ما تحتويه المعانى، وهذا ما لا يجب أن يدهشنا، وحتى لو أننا تجاسرنا فإن التجربة علمتنا كم أن الكلمات غير قادرة على تقريبنا من حدود ما لا يوصف، نريد أن نقول الحب ولكن ليست لدينا اللغة الكافية، نريد أن نقول أحب فنقول لا أستطيع، نريد نطق الكلمة الأخيرة ولكننا ننتبه إلى أننا قد عدنا إلى البداية.

لكن فى الفعل المتبادل بين القضايا ونتائجها، هناك نتائج أخرى، هى فى وقت واحد حدث وعنصر، جاء ليخفف من حدة الحوارات ويضع كل واحد فى مكانه، وتوزيع الابتسامات والعناق. لقد كانت الحالة متغيرة من ساعة إلى أخرى، ونزع تطرف الأشكال التى تنغلق عليها دائماً، كل أو تقريباً كل النساء الخصبة تعلن عن حملها، رغم أنهن لم يجربن أية تغيرات مهمة فى الممارسات الخاصة بمنع الحمل لهن أو لهم، ونحن نشير هنا بالطبع إلى الرجال الذين يعاشروهن بشكل دورى أو عرضى. فى الموضع الذى تكون فيها الأشياء، فلا أحد أصبح يندهش من أى شىء. لقد مرت عدة أشهر منذ أن انفصلت شبه الجزيرة عن أوروبا، وسافرنا آلاف الكيلومترات عبر هذا البحر المفتوح بعنف، وكنا على وشك الاصطدام بجزر الآزور الخائفة، أو لم يكن عليها أن تصطدم، كما شاهدنا هذا فيما بعد، لكن هذا ما لا يعرفه

الرجال والناس، من جانب أو آخر، الذين أُجبروا على الهرب، لقد حدث هذه الأشياء إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة: انتظار بزوغ الشمس من اليسار ورؤيتها تظهر من اليمين، والقمر الذى لم يكن يكفيه مساره الذى يسير فيه منذ أن انفصل عن الأرض، وأيضاً الرياح التى تهب من جميع الاتجاهات، والسحب التى تجرى من جميع الآفاق وتدور على رءوسنا المنبهرة، نعم، منبهرة؛ لأن على رءوسنا ناراً حية، كما لو كان الإنسان لم يخرج من حيوانيته البطيئة، وأمكن وضعه مجدداً بكماله وعقله فى عالم حديث التكوين، نظيف وجميل لم يُمس. بحدوث كل هذا، بالقول إن هذا البرتغالى الشاعر الذى قال إن شبه الجزيرة طفل تكون خلال السفر، ويدور الآن فى البحر كى يُولد، كما لو كان فى داخل رحم مائى، أى سبب يدفعنا إلى الدهشة أكثر من أن تمتلئ أرحام النساء، ربما خصَّبها الحجر الكبير الذى يهبط باتجاه الجنوب، ولا نعرف إن كانت تلك المخلوقات الجديدة من بنات الرجال، أم إن كان أبوهم قاطع البحار العملاق الذى يدفع بالأمواج أمامه، داخلاً فيها، كمياه دافقة، وعصف الرياح.

علم المسافرون عن ظاهرة الحمل الجماعى من الإذاعة، وأيضاً عن طريق الصحف، ولم يبتعد التليفزيون عن تلك القضية، ما أن يروا امرأة فى الشارع حتى يضعوا الميكرفون فى وجهها ويمطرونها بالأسئلة، كيف حدث ومتى؟ وما الاسم الذى

ستختارينه للطفل؟ مسكينة هذه المرأة، والكاميرات تلتهمها، تحمّر خجلاً وتتلعثم، وإذا لم تذكر الدستور فذلك لأنها تعرف أنهم لن يأخذوا المسألة مأخذ الجد. لوحظ عودة التوتر بين راكبى العربة، فإذا كانت كل نساء شبه الجزيرة حوامل فهاتيك المرأتان هنا لا تفتحان أفواههما عن ما وقع لهما، ويمكن فهم الصمت، فإن أعلنتا حملهما فإنه لا مفر من ضم بدرو أورثى إلى قائمة الأبوة، والتناغم الذى تمكنوا من استعادته بصعوبة فى المرة الأولى لن يتمكنوا الحفاظ عليه بعد الصدمة الثانية. لهذا السبب فإن جوانا كاردا وماريا جوافايرا، فى إحدى الليالى عندما كانتا تقدمان طعام العشاء للرجال، قالتا بنغمة ضاحكة، "ها أنتم ترون، كل النساء فى إسبانيا والبرتغال حوامل، ونحن هنا لا أمل لنا". عليكم قبول هذه اللحظة من التصنع، عليكم أن تقبلوا أن يتصنع جوزيه أنايسو وجاكيم زازا ادعاءهما الرجولة التى شككت فيها المرأة فى قدرتهما على التخصيب، والأسوأ أن هناك إمكانية أن يصيب هذا التهكم الهدف؛ لأنه إذا ما كانت المرأتان حاملتين حقيقة، فهناك حقيقة أخرى، هى أنهما لا تعرفان من السبب. ونظراً لوجود العديد من أسباب التردد فلا يبدو أن المناخ قد هدأ، ومرور الوقت سيكشف إن كانت جوانا كاردا وماريا جوافايرا حوامل أم لا، وعندما نفيتا أنهما كذلك، فأى تفسير ستقدمان حينها، الحقيقة دائماً ما تكون فى انتظارنا، إلى أن يأتى يوم لن نستطيع فيه الهروب منها.

ظهرت وزيرات البلدين فى التليفزيون حوامل بشكل ظاهر، فلم يعد الأمر سبباً فى الشعور بالخجل عند الكلام عن الانفجار السكانى الذى سيتأكد فى شبه الجزيرة خلال تسعة أشهر، سيُولد ما بين اثنى عشر إلى خمسة عشر مليوناً من الأطفال فى الوقت نفسه تقريباً، يصرخون تحت الأضواء فى وقت واحد، وتتحول شبه الجزيرة إلى بيت أمومى، والأمهات السعيدات، والآباء المبتسمون، فى حالة التأكد من تلك الأبوة بشكل كاف. من وجهة النظر هذه من المحتمل استخراج تأثير سياسى، والضرب على وتر الديماجوجية، والمطالبة بالتقشف باسم مستقبل أبنائنا، والتأكيد على التناغم الوطنى، ومقارنة تلك الخصوبة بعقم بقية العالم الغربى، لكن ليس من الممكن تجنب أن كل واحد منا أن يركن إلى فكرة أنه ليحدث إنفجار سكانى لابد بالضرورة من وجود طبيعة غير عادية لحالة الخصوبة. كان رئيس الوزراء يتحدث عن الإجراءات الصحية التى سيجرى اتخاذها، من أول الخطة القومية للمساعدة على الولادة، إلى تحديد وتوزيع فرق الأطباء والقابلات عندما تحين اللحظة، وكان يبدو على وجهه تناقض المشاعر وصراع التعبير الرسمى مع الرغبة فى الضحك، وشعر المشاهدون فى كل لحظة أنه على وشك القول، "أيتها البرتغاليات والبرتغاليون سنجنى فائدة كبيرة من هذا الموقف، وآمل أن يكون استمتاعكم كذلك؛ لأن صنع الأطفال دون لذة الشهوة يعتبر من أسوأ العقوبات". يستمع

الرجال والنساء فيما يتبادلون النظرات والضحكات؛ لأن الجميع يعرفون أنهم فى تلك اللحظة بالتحديد، يتذكرون تلك الليلة، وذلك اليوم، وتلك الساعة، حين حركهما اندفاع مفاجئ فتقاربا من بعضيهما، وفعلا ما يجب عليهم فعله تحت سماء تدور ببطء، وشمس مجنونة وقمر مجنون ونجوم عاصفة. كان يمكن الاعتقاد لأول وهلة بأن كل هذا لم يكن سوى حلماً ووهماً. لكن عندما بدأت تظهر النساء هناك ببطون بارزة، اكتشفوا ساعتها أنهم لم يكونوا يحلمون.

توجه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى العالم أيضاً، وقال، إنه رغم تحول مسيرة شبه الجزيرة باتجاه مكان غير معلوم من الجنوب، فإن الولايات المتحدة لن تتخلى أبداً عن مسئوليتها فى أن يعم السلام والحرية، ولكن شعوب شبه الجزيرة لا يمكنها الاعتماد علينا لأنهم يدخلون الآن فى منطقة نفوذ متضاربة"، "لا يستطيعون الاعتماد علينا، أكرر، وعلى المساعدات التى كان من المتوقع أن يتلقوها من قبل عندما كان مستقبلهم يبدو مرتبطاً بمستقبل الأمة الأمريكية". تقريباً كانت تلك التصريحات التى أدلى بها إلى مستمعيه فى العالم. لكن، فى الأحاديث الخاصة التى تجرى فى سرية مكتبه البيضاوى، قال الرئيس لمستشاريه، وهو يقلب قطعة ثلج فى كأسه، "لو جنحوا فى أتلانتا بالقطب الجنوبى لانتهت همومنا، ماذا سنفعل والعالم من حولنا يتصعلك بلا اتجاه معين، ليست هناك إستراتيجية تحتمل ذلك، على

سبيل المثال، فالقواعد التى لا تزال لنا على شبه الجزيرة ما فائدتها لنا الآن؟ إنها تصلح فقط لإطلاق صواريخنا على طيور البطريق فى القطب الجنوبى".

أبدى أحد المستشارين ملاحظة مفادها أن المسار الجديد، لو أخذنا فى الاعتبار الفوائد الممكنة منه، ليس سيئاً إلى هذا الحد، "فهم ينحدرون إلى المنطقة الواقعة ما بين أفريقيا وأمريكا اللاتينية، سيدى الرئيس"، "نعم، هذا المسار يمكن أن تنتج عنه فوائد لنا، لكن أيضاً يمكنه أن يزيد من حالة الفوضى فى المنطقة". وربما بسبب هذه الذكرى المزعجة ضرب الرئيس بقبضته على المكتب ضربة أطارت الصورة الضاحكة للسيدة الأولى. فقفز أحد المستشارين القدامى، وجال بعينيه فيمن حوله وقال، "فلتحذر، سيدى الرئيس، لا يعلم إلا الله ما قد يحدث نتيجة ضربة مثل هذه".

■■■

## - ٢٤ -

والآن لم يعد جلد الثور المسلوخ سوى حصاة ضخمة، لها شكل واحدة من تلك الأدوات التى كان يستخدمها البدائيون، مطروقة بضربات هادئة صبورة متوالية، إلى أن يتم تحويلها إلى أداة من أدوات العمل، حدها الأعلى مليء ومتماسك ليستقبل قبضة اليد، والأسفل مدبب ليُستخدم فى الحك والتجريف، والقطع وتحديد الحدود، والرسم أيضاً، لم نستطع الهروب حتى اليوم من غواية الجرح أو القتل. أوقفت شبه الجزيرة حركة دورانها، تهبط الآن بحركة بطيئة جداً باتجاه الجنوب، ما بين أفريقيا وأمريكا الوسطى، كما قال مستشار الرئيس، وشكلها المستلهم من عيون من يعرف مكانها السابق القديم، تبدو توأماً لكلا القارتين اللتين توجدان إلى جانبها، هكذا، البرتغال وجليقيا فى الشمال، تحتلان كل العرض، من الغرب

إلى الشرق، وتأتى بعدها الكتلة الكبرى التى تميل إلى الضيق، وعلى اليسار لا يزال هنا قرن بارز، إنه مكون من فالنسيا والأندلس، وعلى اليمين يوجد الشاطئ الكانتبرى على الخط نفسه الذى يوجد فى حائط البرانس. القمة الحجرية، والدفة المقتطعة، يوجدان هناك فى رأس كريوس، حملوهما من المياه المتوسطية إلى هذه البحار الهائجة، بعيداً جداً عن الدائرة الميلادية، فقد كان هو من قبل من سكان ثيربيرى، تلك القرية الفرنسية التى تحدثوا عنها كثيراً فى بداية هذه الرواية.

تهبط شبه الجزيرة، ولكن ببطء، يتوقع الحكماء، وإن كانوا بحذر شديد، أن الحركة على وشك التوقف، معتقدين فى الظواهر الكونية التى تقول إن كل شىء لا يمكن أن يظل على حاله إطلاقاً، وإن كانت الأجزاء المكونة له عليها أن تثبت فى يوم ما، وحتى الحياة البشرية الثرية بإمكانيات المقارنة، كما نعرف جميعاً، تُعتبر الإثبات على صحة هذه المسلمة، وعند صدور هذا الإعلان العلمى ستُولد لعبة القرن، إنها فكرة ظهرت فى العالم كله فى وقت واحد، وتتلخص فى إقامة نظام رهان مزدوج عن الزمان والمكان اللذين ستتوقف فيهما الحركة، ولمزيد من الفهم نقترح الفرضية التالية: الساعة السابعة عشرة وثلاث وثلاثون دقيقة وتسع وأربعون ثانية، بالتوقيت المحلى للشخص المراهن، وبالطبع، عليه أن يذكر اليوم والشعر والسنة. وكذلك الإحداثيات مع الإشارة إلى

خط الطول بالدرجات والدقائق والثوانى، وجرى اعتبار رأس كرويس، التى سبق الإشارة إليه، مرجعاً. بلغ مجموع ما تم حصده من الرهانات عدة تريلونات من الدولارات، وإذا ما توصل شخص إلى هاتين النتيجتين: الزمان المحدد والمكان الصحيح، وهو أمر قليل الاحتمال طبقاً لحسابات الاحتمالات، فإن هذا الشخص الذى يتمتع بحس شبه إلهى سيجد نفسه على رأس أكبر ثروة يمكن جمعها على سطح الأرض، التى شهدت الكثير من الثروات. مفهوم أنه لم يحدث من قبل أن جرت لعبة أكثر رعباً من هذه؛ لأن كل دقيقة تمر، وكل ميل يمكن سيره، يقلل من عدد المراهنين القادرين على كسب الرهان، وإن كان يجب التحذير من أن هناك كثيراً من المبعدين يعودون إلى الرهان من جديد، وهكذا وصلت قيمة الجائزة إلى أرقام فلكية. بالطبع ليس كل الناس يمكنهم جمع المال للرهان من جديد، وبالطبع هناك أناس لا يجدون مخرجاً آخر من هذا سوى الانتحار بعد الإفلاس الذى حل عليهم نتيجة المراهنة. تهبط شبه الجزيرة باتجاه الجنوب تاركة من خلفها آثاراً من الموتى البريئة من دمائهم، بينما تنمو فى بطون نسائها تلك الملايين من المخلوقات التى خصبتها ببراءة.

كان بدرو أورثى قلقاً، ومهموماً. يتكلم قليلاً، ويقضى ساعات طويلة خارج المخيّم، ويعود منهكاً ولا يأكل شيئاً، ويسأله رفاقه إن كان مريضاً، فيجيب هو، "لا، لست مريضاً"، دون أن يقدم أية تفسيرات أخرى.

والكلمات القليلة التى كان ينطقها يحتفظ بها لروكى لورينثو، وهى دائماً ما تكون عبارة عن حوارات حول الأرض التى ينتمى إليها كلاهما، كما لو كانا لا يعرفان موضوعاً آخر. ويرافقه الكلب فى كل مكان، ويبدو كما لو كان توتر الرجل قد انتقل إلى الحيوان، الذى كان من قبل هادئاً جداً. كان جوزيه أنايسو قد قال لجوانا كاردا، "إذا كان هذا يعتقد أنه يمكنه أن يعيد الحكاية، فهو مخطئ، ها أنتِ ترينه يلعب دور الرجل الوحيد والمهجور، وبعدها تأتى المرأة الحنونة والمحسنة التى تريحه من غدده الممتلئة"، وتجيبه هى بابتسامة سعيدة، "أنت المخطئ؛ لأن مرض بدرو أورثى، هذا إذا كان مريضاً، فهو مرض آخر"، "أى مرض؟"، "لا أعرف، ولكن ما أستطيع أن أؤكده لك أنه لا يريد لفت أنظارنا، لأن المرأة تفهم هذا على الفور"، "إذن، من الأفضل الحديث معه، وإجباره على أن يقول لنا ما الذى يحدث له، ربما كان حقيقة مريضاً"، "ربما، ولكن حتى هذا ليس مؤكداً".

يسيرون بمنطقة سلسلة جبال الكارات، سيخيّمون اليوم بالقرب من قرية، طبقاً للبيانات التى على الخريطة، اسمها بيينسيرفيدا (الخدمة الطيبة)، وتبدو على الأقل اسماً طيباً. على المقعد الأمامى للعربة يقول بدرو أورثى لروكى لورينثو، "لم يبقَ الكثير لندخل إلى مقاطعة غرناطة، لو أردنا أن نتجه إلى هناك مباشرة"، "لا تزال قريتى بعيدة جداً"، "ستصل قريباً"، "سأصل، لكنى أود أن أعرف إن كانت رحلة قد

عادت بالفائدة أم لا؟"، "هذه الأشياء لا نعرفها إلا بعد مرور زمن عليها، اهمز ذلك الأبقع قليلاً لأنه غير منتظم الخطوة". جذب روكى لورينثو اللجام، ولمس بطرف السوط خلفيات الحصانين، تكاد تكون لمسة دغدغة، وبيج مُطيعاً، نظّم خطواته. كان الأزواج داخل العربة، يتحدثون بصوت خفيض، وتقول ماريا جوافايرا، "ربما كان يفضل أن يبقى فى البيت ولا يجرؤ على أن يخبرنا، يخاف أن نغضب منه"، أجاب جواكيم زازا، "ربما كان هذا صحيحاً، علينا أن نتحدث معه بكل صراحة، ونقول له إننا نتفهمه وإننا لن نغضب منه، فهو لم يقسم على البقاء معنا أو يوقع تعاقداً للبقاء معنا مدى الحياة، نحن أصدقاء كنا، وأصدقاء سنبقى، وربما نعود إلى زيارته فى يوم من الأيام"، همهمت جوانا كاردا، "أرجو ألا يحدث هذا"، "هل خطر لك شىء آخر؟"، "لا، إنها فقط مجرد خاطرة"، سألت ماريا جوافايرا، "أى خاطرة؟"، "بدرو أورثى سيموت"، "كلنا سنموت"، "لكنه سيكون أولنا".

تبتعد قرية بينسيرفيدا بعيداً عن الطريق الرئيسى. مارسوا تجارتهم هناك، اشتروا بعض الأغذية، وجددوا خزانات المياه، وبما أن الوقت كان لا يزال مبكراً، فقد عادوا إلى الطريق. لكنهم لم يبتعدوا كثيراً. بالقرب من هناك يوجد ضريح، إنه ضريح توروتشيل، مكان طيب لقضاء الليل، فتوقفوا هناك. هبط بدرو أورثى من على المقعد الأمامى، وعلى غير العادة قام بمساعدته كل من جوزيه أنايسو وجواكيم

زازا، اللذين قفزا من العربة بمجرد وقوفها، وقال، فيما كان يعتمد على اليدين اللتين امتدتا إليه، "ما هذا يا صديقىّ فأنا لست عاجزاً بعد"، ولم ينتبه إلى أن كلمة صديق ملأت أعين الاثنين بالدموع، هذان الرجلان اللذان يحملان فى صدريهما ألم الخيانة، ولكنهما يستقبلان بين أحضانهما الجسد المتعب الذى يُلقى بنفسه إليهما، رغم ذلك التصريح المتسم بالكبرياء، هناك لحظات ليس للكبرياء أن تكون سوى كلمات. يضع بدرو أورثى قدماً على الأرض، ويخطو بضع خطوات، وعلى وجهه علامات الدهشة، وكأن نوراً باهراً قد شل حركته، سألت ماريا جوافايرا التى اقتربت، "ماذا يحدث؟"، "لاشىء، لاشىء"، سألت جوانا كاردا، "هل تشعر بالإرهاق؟"، "لا، إنه شىء آخر"، ثم انحنى ووضع راحتا يديه على الأرض ونادى على الكلب كونستانتى، ووضع يده على رأسه، ثم مرر أصابعه على عموده الفقرى، وعلى الظهر والمؤخرة، لم يتحرك الكلب، كان يضغط على الأرض كما لو كان يريد أن يغرس فيها أقدامه، وتمدد بدرو أورثى على الأرض ورأسه الأشيب يستند على حزمة من الأعشاب التى تنبثق منها فروع مزهرة، كانت هناك زهور فى هذا الفصل المفترض أن يكون شتاء. ركعت جوانا كاردا وماريا جوافايرا إلى جواره، وأمسكتا بيديه، "ماذا حدث لك، هل يؤلمك شىء؟"، كان يتألم، كان ألمه كبيراً، كان هذا ما تعكسه قسمات وجهه، كان يفتح عينيه على اتساعها وينظر إلى السماء، إلى السحب

التى تمر، لرؤيتها لم يكن على جوانا كاردا وماريا جوافايرا النظر إلى أعلى، كانت تنعكس على عينى بدرو أورثى ببطء كما لو كانت أضواء شوارع بورتو تنزلق على عينى الكلب، لقد مر وقت طويل، أين نعيش، والآن معاً، مجتمعون، إضافة إلى روكى لورينثو الذى له تجربة فى الحياة والموت، كان الكلب يبدو مسحوراً بنظرة بدرو اورثى، ينظر إليه، ورأسه منخفض، وشعره منتفش كما لو كان يواجه قطعان ذئاب العالم كله، حينئذ قال بدرو أورثى بصوت واضح، كلمة كلمة، "الآن لا أشعر، إنها الأرض، الآن لا أشعر"، غامت عيناه، وسحابة رمادية، كالريش، كانت تمر فى السماء، ببطء، ببطء شديد، وقامت ماريا جوافايرا بأنامل رقيقة جداً بإغلاق جفنى بدرو أورثى، وقالت، "لقد مات"، حينها اقترب الكلب وصرخ، كما لو كان شخصاً يولول.

مات رجل، ثم يبكى الأصدقاء الأربعة، وحتى روكى لورينثو الذى عرفوه قبل قليل، كان يفرك عينيه بقبضتيه بغضب، وصرخ الكلب لمرة واحدة فقط، ويقف الآن إلى جوار الجسد المسجى، وسرعان ما يرقد ويضع رأسه الضخم على صدر بدرو أورثى، ولكن لا بد من التفكير واتخاذ قرار بما يمكن عمله مع الجثمان، يقول جوزيه أنايسو، "لنأخذه إلى بينسيرفيدا، ونبلغ السلطات هناك، لا نستطيع أن نفعل معه أكثر من ذلك"، وتذكر جواكيم زازا، "ألم تقل لى يوماً إن مرقد انطونيو ماتشادوا كان تحت شجرة

بلوط، فلنفعل الأمر نفسه مع بدرو اورثى"، لكن كانت جوانا كاردا من قالت الكلمة الأخيرة، "لن نذهب به إلى بينسيرفيدا ولن ندفنه تحت شجرة، لنأخذه إلى فينتا ميثينا، هيا ندفنه فى المكان الذى وُلد فيه".

يرقد بدرو أورثى ممدداً فى سريره المصنوع من القش، كانت المرأتان إلى جواره، تمسكان بيديه الباردتين، تلك الأيدى المشتاقة التى تعرفت بالكاد على جسديهما، فيما كان الرجال على المقعد الأمامى للعربة، يقود روكى لورينثو الحصانين، اعتقدوا أنهم سيستريحون، ولكنهم الآن يواصلون الطريق، ويتقدمون فى الليل، لم يحدث لهم هذا من قبل، ربما يتذكر الحصان آل ليلة أخرى مثل هذه، فقد حلم فى يوم من الأيام بأنه كان مربوطاً وينام لعلاج جراحه فى ندى الليل العليل، عندما جاء رجل وامرأة وكلب، وحرروه من الأربطة، لم يكن يعرف إن كان الحلم قد بدأ هناك أم انتهى. كان الكلب يسير تحت العربة وتحت بدرو أورثى، كما لو كان هو من يحمله، فقد كان يشعر بحمل ثقيل على عنقه. كانوا يحملون شمعة مشتعلة مثبتة فى القوس الحديدى الذى يدعم الغطاء، من الأمام. ما زال أمامهم مائة وخمسون كيلومتراً.

يشعر الحصانان بالموت من خلفهما، لم يعودا فى حاجة إلى ضربات السوط. صمت الليل ثقيل جداً حتى أنه لم يكن يسمع سوى صوت عجلات العربة على الأرض الخشنة للطرق القديمة، وصوت حوافر

الحصانين مخنوقاً كما لو كانت حدواتهما ملفوفة بخرق. لن يكون هناك قمر، ويسافرون تحت جنح الضباب، إنه انقطاع الضوء، إنه الإظلام، إنها أولى الليالى السابقة على كل قول قيل، "لو طلعت الشمس، لن يكون الكوكب جميلاً، فالله يعرف أن كوكب النهار عليه أن يُولد هناك خلال ساعتين". كانت ماريا جوافايرا وجوانا كاردا تبكيان منذ بداية الرحلة، هذا الرجل الذى يحملونه ميتاً منحهما جسده الرحيم، وأخذتاه وضمتاه بيديهما، وساعدتاه، وربما من بطنيهما هما ابناه ولهذا زادت حدة شهقاتهما، "يا إلهى، يا إلهى، كم تأتى أشياء هذا العالم مرتبطة ببعضها البعض، ونحن نعتقد أننا من يقطع ويربط عندما نريد، بإرادتنا وحدها، إنه الخطأ الأكبر الذى نرتكبه، كم من الدروس علمتنا عكس كل هذا، خط مرسوم على الأرض، وسرب من الزرازير، وحجر مقذوف إلى البحر، وجورب صوفى أزرق، كل هذه الأشياء يمكننا معرفتها مغمضو العيون، كما لو كنا نصرخ فى بشر جفاة وأصابهم الطرش".

عندما وصلوا إلى فينتا ميثينا كانت السماء قاتمة. على طول الطريق، ما يقرب من ثلاثين فرسخاً. وأورثى، القرية النائمة كانت تبدو شبحاً، البيوت كجدران مخادعة، الشبابيك والأبواب مغلقة، فيما القلعة ذات الأبراج السبعة تعلو الأسطح، وتبدو كخيال غير ثابت. وأضواء الشوارع تتذبذب كنجوم على وشك الانطفاء، وأشجار الساحة انخسرت إلى

جذوع وأفرع عارية، تبدو كما لو تبقت من غابة محترقة، مروا أمام الصيدلية، لم يكونوا فى حاجة هذه المرة إلى التوقف، فلا تزال علامات الطريق طازجة فى أذهانهم، "اتبعوا اليمين"، باتجاه ماريا، سيروا ثلاثة كيلومترات وبعد المرور بآخر البيوت، سترون جسراً صغيراً، إلى جوار شجرة زيتون، وخلال دقائق أكون هناك"، ها قد وصل. بعد المرور من المنحنى الأخير، شاهدوا المقابر، والجدران البيضاء، والصليب الضخم. كانت البوابة مغلقة، كان عليهم أن يفتحوها عنوة. ذهب جوزيه أنايسو للبحث عن عتلة، أدخلها بين المفصلات، لكن ماريا جوافايرا أمسكت ذراعه، "لن ندفنه هنا"، وأشارت باتجاه التلال البيضاء، باتجاه كهوف الروساليس، حيث عثروا على الجمجمة الأوروبية الأقدم فى التاريخ، لذلك الرجل الذى عاش قبل مليون سنة، وقالت، "سيبقى هناك، إنه المكان الذى اختاره هو". ساروا بالعربة إلى أقرب مكان ممكن، الحصانان بالكاد يستطيعان السير، كانا يجرجران أرجلهم فى التراب. لم يكن يعيش فى فينتا ميثينا أحد يمكنه حضور الجنازة، كل البيوت مهجورة، وكلها تقريبا مهدمة. تكاد أشكال الجبال لا تظهر فى الأفق، تلك التى شاهدها رجل أورثى لحظة موته، الآن الوقت ليل، "بدرو أورثى ميت، وبقيت فى عينيه سحابة قاتمة، ولا شىء آخر".

عندما لم تستطع العربة أن تتقدم أكثر من ذلك، سحب الرجال الثلاثة الجثمان، كانت ماريا جوافايرا

تحميه من جانب و جوانا كاردا تحمل فى يدها عصا الدردار من جانب آخر. صعدوا إلى أعلى تلة، مستوية فى أعلاهـا، كـانت الأرض الجـافـة تـتـفـتـت تحت أقدامهم، وتنحدر على الجوانب، تأرجح جثمان بدرو أورثى وكاد ينزلق من بين أيديهم ويسحب حامليه من خلفه، لكنهم استطاعوا رفعه حتى أعلى التلة، ووضعوه على الأرض، كانت أجسادهم غارقة فى العرق والتراب الأبيض. كان روكى لورينثو من بدأ فى حفر القبر، لقد طلب منهم أن يقوم هو بهذا العمل، كان التراب سهلاً، مستخدماً العتلة كفأس. بدأت السماء تنير من الشرق، وشكل الجبال غير المحدد بدأ فى الظهور مجللاً بالسواد. خرج روكى لورينثو من الحفرة، ونفض يديه، ركع ووضعهما تحت الجثمان، فيما كان جوزيه أنايسو يسند بدرو أورثى بذراعيه، ويرفعه جواكيم زازا من قدميه، وهبطوا به إلى الأرض ببطء، كان القبر عميقاً جداً، لو عاد الأنثروبولوجيون فى يوم من الأيام إلى هذا المكان فلن يكون من الصعب العثور عليه، وستقول حينها ماريا دولوريس، "توجد هنا جمجمة"، وسيلقى رئيس الحفارين نظرة ويقول، "ليست مهمة، لدينا الكثير من هذه النوعية". غطوا الجثمان، ومسدوا الأرض حتى أصبحت كالأرض المحيطة بها، لكن كان عليهم إبعاد الكلب الذى أراد حفر القبر بأظافره. ثم غرست جوانا كاردا فرع الدردار بالقرب من رأس بدرو أورثى. لم تكن صليباً كما يبدو، وليست علامة جنائزية، إنها فقط عصا فقدت قدرتها السحرية التى

كانت تسكنها، لكنها لا تزال صالحة لمثل هذا، كساعة شمسية فى صحراء محترقة، وربما تحولت إلى شجرة مولودة من جديد، لو أن عصا جافة يتم غرسها فى الأرض، فإنها قادرة على خلق المعجزات، وأن تمد جذورها، وتحرر عينى بدرو أورثى من السحابة القاتمة، غداً ستمر على هذه الحقول.

توقفت شبه الجزيرة عن الحركة، سيرتاح المسافرون فى ذلك اليوم، فى الليلة واليوم التاليين. وتبدأ الأمطار عندما يبدءون فى الرحيل. نادوا على الكلب طوال تلك الساعات إلا أنه لم يبتعد عن القبر، ولكنه لم يتبعهم، قال جوزيه أنايسو، "إنها الحكاية الأبدية، ترفض الكلاب الابتعاد عن أصحابها، وأحياناً تترك نفسها للموت". لقد كان مخطئاً. نظر الكلب أردينت إلى جوزيه أنايسو، ثم ابتعد ببطء شديد، ورأسه منخفض. لن يعودوا لرؤيته بعد ذلك أبداً. واستمرت الرحلة، سيبقى روكى لورينثو فى قرية ثوفرى، سيطرق باب بيته، "لقد عدت"، لقد كانت تلك حكايته، ربما كان هناك من يحكيها فى يوم من الأيام. الرجلان والمرأتان، أولئك، سيواصلون طريقهم، أى مستقبل، أى زمن، أى مصير. عصا الدردار اخضرت، ربما تزهر فى العام القادم.

## صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالڤينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريجيو».

١٢- القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ - المستبعدون - للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٣ - الأنثى كنوع- للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» - قصص - جائزة بن مالامود.

٢٤ - ثلاثة أيام عند أمي - للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» - رواية - جائزة الجونكور.

٢٥- اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

## يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ الذكريات الصغيرة .. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل ١٩٩٨.

٢ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جرترود.. بريچتيه كروناور.. جائزة چورج بوشنر الكبرى ٢٠٠٥.

٣ ـ عن الجمال.. زادى سميث.. جائزة الأورانج ٢٠٠٦.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

## جوزيه ساراماجو

## كاتب برتغالى.

ولد عام ١٩٢٢ فى مدينة أريتاجا البرتغالية.

عمل فى مهن مختلفة كصانع أقفال وميكانيكى وصحفى ومترجم قبل أن يتفرغ للأدب تماماً.

أصدر روايته الأولى "أرض الخطيئة" عام ١٩٤٧، وعلى الرغم من الاحتفاء النقدى بها إلا أنه توقف عن الكتابة أكثر من عشرين عاماً.

أصدر بعدها نحو عشرين كتاباً جعلته واحداً من أهم الكتاب فى العالم منها: "عام موت ريكاردوس"، "العمى"، "كل الأسماء"، "الآخر مثلى".

حصل على جائزة نادى القلم الدولى، وجائزة كاموس البرتغالية، قبل أن تتوج جوائزه بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٨.

## الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات، تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥، كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.

ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.

وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح،
• وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

فى لحظة ما.. تنطلق كلاب قرية في النباح دون توقف، ويقذف موظف برتغالى حجرًا فى مياه المحيط الأطلنطى دون قصد، وتتبع الزرازير معلمًا فى مدرسة برتغالية أينما توجه دون سبب، ويشعر صيدلى إسبانى باهتزاز الأرض تحت قدميه دون سائر البشر، وترسم سيدة برتغالية مطلقة خطًا على الأرض بفرع شجر دردار وهى ساهمة، وتفك أرملة جيليقية خيوط جورب صوفى لتتغلب على سأمها فيتكون منه تل من الخيوط التى لا تنتهى.

هذه الأحداث العادية المتوازية غير المنطقية تؤدى إلى تصدع جبال البرانس فتنفصل شبه الجزيرة الإيبرية: إسبانيا والبرتغال عن أوروبا مشكلة طوفًا حجريًا يبحر فى مياه المحيط الأطلنطى بانتظام ودون توقف.




الهيئة المصرية العامة للكتاب

السعر ١٢ جنيهًا

